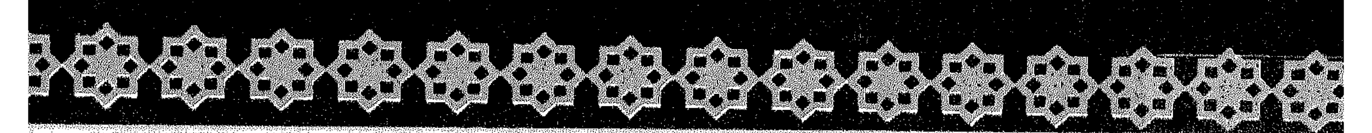
# الموسوعة الشاملة

## في

## تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار



الجزء السابع عشر

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع







# الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

## المصادر العربية
## مؤرخو القرن السابع (٤)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٠ ـ ١٤١٦هـ

الجزء السابع عشر

# المصادر العربية

## مؤرخو القرن السابع

# الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

## لابي شامة

## الجزء الأول

# توطئة

## بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمت الاشارة اكثر من مرة الى كتاب الروضتين وذيله لأبي شامة، شهاب الدين عبد الرحمن ابن اسماعيل المقدسي [ ٥٩٩ ـ ٦٦٥هـ / ١٢٠٢ ـ ١٢٦٧م] على انه أوفى مصدر عربي تحدث باسهاب عن أحداث الحروب الصليبية ، فهو قد نهل مادة جزئية الآساسيين من مصادر الذين تقدموه، واحسن النهل والاختيار واستوفى الروايات ، وأبدى رأيه في ترجيح بعضها على بعض أحيانا ، أما في الذيل فهو المصدر ، وهو شاهد عيان معاصر لكل ما سجله، وهنا تجلت أصالته وتفوقه على غيره من المؤرخين، وبذلك بات مصدر الجميع الدين جاءوا من بعده. .

لقد أكثر أبو شامة من الاشارة الى نفسه واسرته واحواله في الذيل كما ترجم لنفسه، لهذا لن أعرف بهذه التوطئة به وبحياته.

لاشك أن أبا شامة مؤرخ عملاق، كان صاحب أحاسيس مرهفة، ولكم يتمنى المرء لو دفعه فضوله التاريخي وحبه للمعرفة نحو التوغل الى صفوف الفرنجة لوصف أصولهم ودوافعهم ونظمهم وما جبلوا عليه من عادات وتقاليد.

لعله لم يفعل ذلك لأنه كان يؤرخ لدولتين مسلمتين وليس لأعدائهما لكن أو ليس من شروط التغلب على العدو معرفته بالعمق من جميع الجوانب ؟ ومع صحة هذه المسلمة يبدو أن المسلمين جميعا حتى رجال السلطة منهم اهتموا برصد حركات العدو الصليبي عسكريا وسياسيا ،

ولم يـأبهوا بما رسا وراء ذلـك، كـان همهم تحريـر الأرض مـن هذا العـدو وردعه ، وكـف عاديته والخلاص منـه ،فقد ظـل الفرنجة طـوال قرنين في نظر المسلمين كفارا وأعداء، ومعرفة هذا كافيـة، ولئن اهتم الفرنج بتاريخ المسلمين وأحـوالهم ، فانهم فعلـوا ذلك لكـونهم غزاة أرادوا العيـش على الأرض التي انتزعوهـا ، وسعوا الى تدبر وسائل الحياة في أوسـاط عدوانية من كل جـانب ، كما استهدفوا حيـازة المزيد من الأرض ، فعدوانيـة وليم الصـوري جعلته أول المستعـربين إن لم نقـل المستشرقين ، لكن العـرب لم يكـونـوا عـدوانيين ،يضـاف الى هذا ان المؤرخ العـربي ظـل على قـاعـدة الأوائل يؤرخ للملوك والـدول ، ويكتب لا لنشر المعرفة بين النـاس ، بل تلبية لطلب أحـد رجال السلطة، وظل رجال السلطة جنـدا أحاسيسهم الحضاريـة فقيرة ، وفهمهم للثقـافة العربيـة سطحي جدا، فـزين الـدين صاحـب إربل وسواها عنـدما جاءه حيص بيـص ليمدحه ، قال لـه لن أفهم عليـك شيئا مما ستقـوله ، لكن أعـرف أنك تحتـاج عوني ، فأمـر له بمبلغ مـن المال، وصلاح الـدين أمر ببيـع خزانـة الكتب العظيمـة التي وجـدهـا في قصور الفـاطميين بـالقـاهـرة ، لكنـه احتفظ بـا لمجـوهـرات والذخائر لنفسه ولآله.

الانتصارات في حطين وسواها جعلت من بعـض رجال الجند والمرتزقة والعبيـد أبطـالا ، لكن لا بـد مـن التمييـز بين البطل العسكـري وبطـل اشـادة الحضارة العـربية، والحفـاظ عليهـا، ولابد مـن التذكير أن رجـال الفكر سـايروا مشاعـر الحكام وماشـوا رغباتهم ، ودونـوا ماكان يـرضيهم ويفقهوه، فهم هنا كانوا على دين ملوكهم .

بفضل التفـوق الحضاري العـربي جاء النصر في حطين ، وحين بـدد خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين ثمار حطين السياسية والعسكرية ، ظل التفوق الحضاري يهيء الفرصة لمتابعة التحرير وطرد الغزاة وهذا ما كان ، وعليه يتـوجب على الباحث في تـاريخ الحروب الصليبية وتاريـخ الاسلام

بشكل عام ألا تصمه قعقعة الحديد ، عن سماع أصوات بناة الحضارة ، وألا يعمي غبار المعارك ناظرية عن رؤية عمق المؤثرات الحضارية وألا تدفعه عاطفة النصر العسكري الى عدم التوازن في تقرير حقائق الأمور

هذه والحق اشكالية كبرى تحتاج الى البحث المعمق ، ولعله يكفي هنا اثارتها فالسؤال يشكل نصف المعرفة، والشك هو الطريق نحو اليقين والايمان.

أنا على دراية أن رجال السلطة الأيوبية بنوا المدارس ، لكن جل هذه المدارس جاءت بمثابة ترب لهم، وكانت دينية ضيقة المجالات ، تعتمد على دراسة نصوص مكررة لهذا جاء نتاج رجالها إما اختصارات أو شروح، وكادت جوانب الابداع أن تختفي ، ذلك أن الحضارة العربية جاءت وليدة لحلقات العلماء، ومقارعة الحجة بالحجة في أجواء من الحرية والالتزام الخلقي، لكن المدرسة لم توفر هذه الشروط ، بل جعلت من العمل العلمي عملا دينيا ضيقا متوارثا ، وتوافق هذا مع تنامي عقلية التصوف الطقوسية ، فالتصوف الان لم يعد اعمال زهد وتفكر ، بل حلقات ذكر وسماع وطعام ، وعيش رغيد داخل الزاوية بدون عمل منتج.

انها المرة الأولى التي يطبع بها كتاب الروضتين مع ذيله بشكل علمي محقق ، وقد اعتمدت في عملي على مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس ، وهي فيما اعلمه أفضل مخطوطات هذا الكتاب ، وكان أبو شامة قد قسم الروضتين الى جزئين ، لكن لكبر حجم كل جزء أعدت النظر بالتقسيم فجعلته ثلاثة أجزاء ، يغطي الأول منها أخبار الأحداث حتى وفاة أسد الدين شيركوه وتسلم صلاح الدين لوزارة القاهرة ، ويروى الثاني أخبار نشاطات صلاح الدين حتى تمكنه من الانفراد بالسلطة في الشام ومصر

وبعض أجزاء الجزيرة ، ويتحدث الثالث عن بقية اللأحداث حتى بعيد وفاته.

ان بعض مصادر الروضتين قد توفر لنا ، وما توفر أقدمت على نشره داخل موسوعتنا ، لكن هناك مصادر كثيرة هامة عاد اليها أبو شامة تعد بحكم المفقود لا سيما ما كتبه ابن أبي طي الحلبي مع العديد من الوثائق الهامة.

من الله ارجو التوفيق والعون وله خالص الحمد والشكر والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم.

دمشق ٢٥ / ٢ / ١٤١٦هـ - ٢٣ / ٧ / ١٩٩٥ م

سهيل زكار

# الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

تأليف الشيخ الرحلة المحدث المفنن فريد عصره ووحيد دهره

شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي

الشافعي

تغمده الله برحمته وغفرانه

وما توفيقي إلا بالله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بلطفه تصلح الأعمال،وبكرمه وجوده تدرك الآمال،وعلى وفق مشيئته تتصرف الأفعال،وبارادته تتغير الأحوال،وإليه المصير والمرجع والمآل،سبحانه هو الباقي بلازوال،المنزه عن الحلول والانتقال،(عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال)[1]،ذو العرش والمعارج والطول والاكرام والجلال،نحمده على ماأسبغ من الانعام والافضال، ومن به من الاحسان والنوال، حمداً لاتوازيه الجبال،مل ء السموات والأرض وعلى كل حال،ونصلي على رسوله ونبيه،وخيرته من خلقه

وصفيه،وخليله ووليه،وحبيبه المفضال،سيدناأبي القاسم محمد بن عبد الله ذي الشرف الباذخ،والفضل الشامخ،والعلم الراسخ،والجمال والكمال،صلى الله عليه وعلى الملائكة المقربين،والأنبياء المرسلين،وعترتهم الطيبين،ما أفل كوكب وطلع هلال،وعلى آل محمد وصحبه خير صحب وأكرم آل،وعلى تابعيهم باحسان وجميع الأولياء والأبدال،وعفا عن المقصرين من أمته أولي الكسل والملال،وحشرنا في زمرته،متمسكين بشريعته،مقتدين بسنته،متعظين بما ضرب من الأمثال، مزدحمين تحت لوائه، في جملة أوليائه(يوم لابيع فيه ولا خلال).[٢]

أما بعد:فإنه بعد أن صرفت جل عمري،ومعظم فكري،في اقتباس الفوائد الشرعية،واقتناص الفرائد الادبية،عنّ لي أن أصرف إلى علم التاريخ بعضه،فأحوز بذلك سنة العلم وفرضه،اقتداء بسيرة من مضى،من كل عالم مرتضى،فقل إمام من الأئمة إلاّويحكي عنه من أخبار من سلف فوائد جمة،منهم إمامنا أبو عبد الله الشافعي رضي الله عنه ،قال مصعب الزبيري:مارأيت أحداً أعلم بأيام الناس من الشافعي،ويروي عنه أنه اقام على تعلم أيام الناس والأدب عشرين سنة،وقال:ماأردت بذلك الاستعانة على الفقه.

قلت:وذلك عظيم الفائدة،جليل العائدة،وفي كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أخبار الأمم السالفة،وأنباء القرون الخالفة،ما فيه عبر لذوي البصائر،واستعداد لـ(يوم تبلى السرائر)[٣]،قال الله عز وجل وهو أصدق القائلين:(وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) [٤] وقال:سبحانه وتعالى:(ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر، حكمة بالغة فما تغن النذر)[٥]،وحدث النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أم ذرع [٦]وغيره مما جرى في الجاهلية، والأيام الاسرائيلية، وحكى عجائب ما رآه ليلة أسري به وعرج، وقال: «حدثوا عن بني اسرائيل ولا

حرج»[٧]،وفي صحيح مسلم عن سماك بن حرب «قال:قلت لجابر بن سمرة أكنت تجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم؟قال:نعم كثيرا،كان لايقوم من مصلاه الذي صلى فيه الصبح والغداة حتى تطلع الشمس،فإذا طلعت قام وكانوا يتحدثون،فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم»[٨]،وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:«كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن بني اسرائيل حتى نصبح ما يقوم الا الى عظم صلاة»[٩]

قلت :ولم يزل الصحابة والتابعون فمن بعدهم يتفاوضون في حديث من مضى،ويتذاكرون ما سبقهم من الأخبار وانقضى،ويستنشدون الاشعار،ويتطلبون الآثار والاخبار،وذلك بيّن من أفعالهم،لمن اطلع على أحوالهم،وهم السادة القدوة،فلنا بهم أسوة،فاعتنيت بذلك وتصفحته،وبحثت عنه مدة وتطلبته،فوقفت والحمد لله على جملة كبيرة من أحوال المتقدمين والمتأخرين،من الأنبياء والمرسلين،والصحابة والتابعين،والخلفاء والسلاطين،والفقهاء والمحدثين،والأولياء والصالحين، والشعراء والنحويين،وأصناف الخلق الباقين،ورأيت أن المطلع على أخبار المتقدمين،كأنه قد عاصرهم أجمعين،وأنه عندما يفكر في أحوالهم ويذكرهم،كأنه كان مشاهدهم ومحاضرهم،فهو قائم له مقام طول الحياة،وان كان متعجل الوفاة٠

قال نعيم بن حماد:كان عبد الله بن المبارك يكثر الجلوس في بيته،فقيل له:ألا تستوحش؟فقال:كيف أستوحش وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه،وفي رواية قال:قيل لابن المبارك:ياأبا عبد الرحمن تكثر القعود في البيت وحدك؟فقال:أنا وحدي،أنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه،يعني النظر في الحديث٠وفي رواية أخرى:وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم بإحسان٠

قلت: وقد أنشدت لبعض الفضلاء:

كتـــاب اطـــالعـــه مـــؤنـــس أحـــب إلي مـــن الآنســـة

وأدرســـه فيرينـــي القـــرو ن حضـــوراً وأعظمهـــم دارســـه

وقد اختار الله سبحـانه لنا أن نكون آخر الأمم، وأطلعنـا على أنباء من تقدم لنتعظ بما جرى على القرون الخاليـه، وتعيها أذن واعيه، (فهل ترى لهم من باقيه)[١٠] ولنقتدي بمن تقـدمنا من الأنبياء، والائمة الصلحـاء، ونرجو بتوفيـق الله عز وجـل أن نجتمع بمن يـدخل الجنـة منهم، ونذاكـرهم بما نقل إلينا عنهم، وذلك على رغم أنـف من عدم الادب، ولم يكن له في هذا العلم أرب، بل أقام على غيه وأكب، والمرء مع من أحب •

هـذا وإن الجاهـل بعلم التـاريـخ راكـب ظهـر عميـاء، خابـط خبـط عشواء، ينسب إلى من تقـدم أخبار من تأخر، ويعكس ذلـك ولايتدبر، وإن رد عليـه وهمه لايتـأثر، وإن ذكـر فلجهلـه لايتـذكر، لايفـرق بين صحـابي وتـابعـي، وحنفـي ومـالكـي وشـافعـي، ولابين خليفـة وأمير، وسلطـان ووزيـر، ولايعرف مـن سيرة نبيه صلى اللّـه عليه وسلـم أكثر مـن أنه نبـي مرسـل، فكيف له بمعرفـة أصحابه وذلك الصـدر الأول، الذين بذكـرهم ترتاح النفوس، ويذهب البؤس •

ولقد رأيت مجلسا، جمع فيه ثلاثة عشر مدرساً، وفيهم قاضي قضاة ذلك الـزمان، وغيره مـن الأعيان، فجـرى بينهم وأنـا أسمع ذكـر من تحرم عليـه الصدقة، وهـم ذوو القربى المذكورون في القـرآن، فقال: جميعهم بنو هـاشم وبنـو عبـد المطلب، وعـدلـوا بـأجمعهـم في ذلك عما يجب، فتعجبـت مـن جهلهـم حيـث لم يفـرقـوا بين عبـد المطلـب والمطلـب، ولم يهتـدوا إلى أن المطلب هو عم عبـد المطلب، وأن عبد المطلب هو ابن هـاشم، فما أحقهم بلـوم كل لائم، إذ هـذا أصل مـن أصول الشريعـة قد أهملـوه، وباب مـن

أبواب العلم جهلوه،ولزم من قولهم إخراج بني المطلب من هذه الفضيلة،فابتغيت إلى اللّه تعالى الوسيلة،وأنفت لنفسي من ذلك المقام،فأخذتهابعلم أخبار الأنام،وتصحيح نسبتها،وايضاح محجتها،فإن كثيراً ممن يحفظ شيئاً من الوقائع يفوته معرفة نسبتها إلى أربابها،وإن نسبها خلط فيها وصرفها عن أصحابها،وهو باب واسع غزير الفوائد،صعب المصادر والموارد،زلت فيه قدم كثير من نقلة الأخبار،ورواة الآثار٠

ثم أردت أن أجمع من هذا العلم كتابا يكون حاوياً لما حصلته،وأتقن فيه ما خبرته،فعمدت إلى أكبر كتاب وضع في هذا الفن على طريقة المحدثين،وهو تاريخ مدينة دمشق،حماها اللّه عز وجل، الذي صنفه الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن العساكري رحمه اللّه،وهو ثمانمائة جزء في ثمانين مجلدا فاختصرته وهذبته[١١]وزدته فوائد من كتب أخر جليلة وأتقنته،ووقف عليه العلماء،وسمعه الشيوخ والفضلاء٠

ومرّبي فيه من الملوك المتأخرين،ترجمة الملك العادل نور الدين،فأطربني ما رأيت من آثاره،وسمعت من أخباره،مع تأخر زمانه،وتغير خلانه،ثم وقفت بعدذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سيد الملوك بعده الملك الناصر صلاح الدين فوجدتهما في المتأخرين،كالعمرين رضي اللّه عنهما في المتقدمين،فإن كل ثان من الفريقين حذا حذو من تقدمه في العدل والجهاد،واجتهد في اعزاز دين الله أي اجتهاد،وهما ملكا بلدتنا،وسلطانا خطتنا،خصنا الله تعالى بهما، فوجب علينا القيام بذكر فضلهما،فعزمت على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف،يتضمن التقريظ لهما والتعريف،فلعله يقف عليه من الملوك،من يسلك في ولايته ذلك السلوك،فلا يبعد أنهما حجة من الله على الملوك المتأخرين،وذكرى منه سبحانه(فإن الذكرى تنفع المؤمنين)[١٢]فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين،ومن حذا حذوهم من

الأئمة السابقين،ويقولون:نحن في الزمن الأخير،وما لأولئك من نظير،فكان لما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم بمن هو في عصرهم،من بعض ملوك دهرهم،فلن يعجز عن التشبيه بهما أحد،إن وفق الله الكريم وسدد،وأخذت ذلك من قول أبي صالح شعيب بن حرب المدائني رحمه الله،وكان أحد السادة الاكابر في الحفظ والدين،قال:إني لأحسب يجاء بسفيان الثوري يوم القيامة حجة من الله على هذا الخلق،يقال لهم إن لم تدركوا نبيكم فقد رأيتم سفيان ألا اقتديتم به،وهكذا أقول:هذان الملكان حجة على المتأخرين،من الملوك والسلاطين،فلله درّهما من ملكين تعاقبا على حسن السيرة،وجميل السريرة،وهما حنفي وشافعي،شفى الله بهما كل عيّ،وظهرت بهما من خالقهما العناية،فتقاربا حتى في العمر ومدّة الولاية،وهذه نكتة قلّ من تفطن لهاونبه عليها،ولطيفة هداني الله بتوفيقه إليها،وذلك أن نور الدين رحمه الله ولد سنة احدى عشرة وخمسمائة،وتوفي سنة تسع وستين،وولد صلاح الدين رحمه الله سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وتوفي سنة تسع وثمانين[١٣]،فكان نور الدين أسنّ من صلاح الدين بسنة واحدة وبعض أخرى،وكلاهما لم يستكمل ستين سنة،فانظر كيف اتفق أن بين وفاتيهما عشرين سنة وبين مولديهما إحدى وعشرين سنة وملك نور الدين دمشق سنة تسع وأربعين،وملكها صلاح الدين سنة سبعين،فبقيت دمشق في المملكة النورية عشرين سنة،وفي المملكة الصلاحية تسع عشرة سنة،تمحى فيها السيئة وتكتب الحسنة،وهذا من عجيب ما اتفق في العمر ومدة الولاية ببلدة معينة لملكين متعاقبين مع قرب الشبه بينهما في سيرتيهما،والفضل للمتقدم،فكانت زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله،والارشاد إلى عظم محله،فإنه أصل ذلك الخير كله،مهد الأمور بعدله وجهاده،وهيبته في جميع بلاده مع شدة الفتق،واتساع الخرق،وفتح من البلاد،ما استعين به على مداومة الجهاد،فهان على من بعده على الحقيقة،سلوك تلك الطريقة،لكن صلاح الدين أكثر

جهاداً،وأعم بلاداً،صبر وصابر،ورابط وثابر،وذخر الله له من الفتوح أنفسه،وهو فتح الأرض المقدسة،فرضي الله عنهما فما أحقهما بقول الشاعر:

كم ترك الأول للآخر
وألبس اللّه هاتيك العظام وإن
بلين الثرى عفواً وغفرانا
سقى ثرى أودعوه رحمة ملأت
مثوى قبورهم روحاً وريحانا

وقد سبقني إلى تدوين مآثرهما جماعة من العلماء،والأكابر الفضلاء،فذكر الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي في تاريخه ترجمة حسنة لنور الدين محمود بن زنكي رحمه اللّه،ولأجله تمم ذلك الكتاب وذكر اسمه في خطبته،وذكر الرئيس أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي في مذيل التاريخ الدمشقي قطعة صالحة من أوائل الدولة النورية إلى سنة خمس وخمسين وخمسمائة،وصنف الشيخ الفاضل عزالدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري،عرف بابن الأثير مجلدة في الأيام الأتابكية،كلها وما جرى فيها وفيه شيء من أخبار الدولة الصلاحية لتعلق إحدى الدولتين بالأخرى،لكونها متفرعة عنها،وصنف القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلي،عرف بابن شدّاد،قاضي حلب مجلدة في الأيام الصلاحية،وساق ماتيسر فيها من الفتوح،واستفتح كتابه بشرح مناقب صلاح الدين رحمه اللّه تعالى،وصنف الإمام العالم عماد الدين الكاتب،أبو حامد محمد بن محمد ابن حامد الأصفهاني كتابين كلاهما مسجوع متقن بالألفاظ الفصيحة والمعاني الصحيحة،أحدهما الفتح القدسي اقتصر فيه على فتوح صلاح الدين وسيرته،فاستفتحه بسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة،والثاني البرق الشامي ذكر فيه الوقائع والحوادث من الغزوات والفتوحات وغيرهما مما وقع من سنة وروده دمشق وهي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة إلى وفاة

صلاح الدين،وهي سنة تسع وثمانين،فاشتمل على قطعة كبيرة من أواخر أخبار الدولة النورية،إلا أن العماد في كتابه طويل النفس في السجع والوصف يمل الناظر فيه،ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه،فحذفت تلك الاسجاع إلا قليلا منها استحسنتها في مواضعها،ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع نحو ماستراه من أخبار فتح البيت المقدس شرفه اللّه تعالى،وانتزعت المقصود من الأخبار من بين تلك الرسائل الطوال والاسجاع المفضية إلى الملال،وأردت أن يفهم الكلام الخاص والعام، واخترت من تلك الاشعار الكثيرة قليلا مما يتعلق بالقصص وشرح الحال،وما فيه من نكتة غريبة وفائدة لطيفة،ووقفت على مجلدات من الرسائل الفاضلية، وعلى جملة من الأشعار العمادية،مماذكره في ديوانه دون دقة من كتب أخرى من دواوين وغيرها،فالتقطت منها أشياء مما يتعلق بالدولتين أو بإحديهما،وما حدث في مدتيهما من وفاة خليفة أو وزير،أو أمير كبير،أو ذي قدر خطير،وغير ذلك،فجاء مجموعاً لطيفاً،وكتاباً ظريفاً،يصلح لمطالعة الملوك والأكابر،من ذوي المآثر والمفاخر،وسميته كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ولّله در حبيب بن أوس حيث يقول:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلام[١٤]

# فصل

أما الدولة النورية فسلطانها الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود ابن عماد الدين أتابك،وهو أبو سعيد زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر التركي،ويلقب زنكي أيضا بلقب والده قسيم الدولة،ويقال لنور الدين ابن القسيم،وسنتكلم على أخبار اسلافه عند بسط أوصافه،وقدّمت من إجمال أحواله ما يستدل به على أفعاله،ذكر الحافظ أبو القاسم في تاريخه أنه ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة،وأن جدّه آق سنقر ولي حلب وغيرها

من بلاد الشام،ونشأ أبوه زنكي بالعراق ثم ولي ديار الموصل والبلاد الشامية، وظهرت كفايته في مقابلة العدو عند نزوله على شيزر،حتى رجع خائبا، وفتح الرها والمعرّة وكفر طاب وغيرهما من الحصون الشامية،واستنقذها من أيدي الكفار،فلما انقضى أجله قام ابنه نور الدين مقامه، وذلك سنة إحدى وأربعين وخمسمائة،ثم قصد نور الدين حلب فملكها،وخرج غازيا في أعمال تل باشر،فافتتح حصونا كثيرة من جملتها قلعة عزاز ومرعش وتل خالد،وكسر ابرنس أنطاكية وقتله وثلاثة آلاف أفرنجي معه، وأظهر بحلب السنة وغير البدعة التي كانت لهم في التأذين،وقمع بها الرافضة وبنى بها المدارس ،ووقف الأوقاف،وأظهر العدل،وحاصر دمشق مرتين،وفتحها في الثالثة،فضبط أمورها،وحصن سورها،وبنى بها المدارس والمساجد وأصلح طرقها،ووسع أسواقها،ومنع من أخذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكيالة وغيرها،وعاقب على شرب الخمر،واستنقذ من العدو ثغر بانياس،والمنيطرة وغيرها .

وكان في الحرب ثابت القدم وحسن الرمي،صليب الضرب يقدم أصحابه ويتعرض للشهادة وكان يسأل اللّه تعالى أن يحشره في بطون السباع وحواصل الطير ،ووقف رحمه الله وقوفا على المرضى ومعلمي الخط والقرآن،وساكني الحرمين،وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحجاج،وأمر باكمال سور المدينة واستخراج العين التي بأحد ،وبنى الربط والجسور والخانات ،وجدّد كثيرا من قنى السبيل ،وكذا صنع في غير دمشق من البلاد التي ملكها،ووقف كتبا كثيرة،وحصل في أسره جماعة من أمراء الفرنج،وكسر الروم والفرنج على حارم ،وكان عدّتهم ثلاثين ألفا،ثم فتح حارم،وأخذ أكثر قرى أنطاكية،ثم فتح الديار المصرية،وكان العدو قد أشرف على أخذها،ثم أظهر بها السنة وانقمعت البدعة،وكان حسن الخط،كثير المطالعة للكتب الدينية،متبعا للآثار النبوية،مواظبا على الصلوات في الجماعات عاكفاً على تلاوة القرآن،

حريصا على فعل الخير،عفيف البطن والفرج،مقتصداً في الانفاق،متحريا في المطاعم والملابس،لم يسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره،وأشهى ما إليه كلمة حق يسمعها،أو ارشاد إلى سنة يتبعها٠

وقال أبو الحسن بن الأثير :قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه إلى يومنا هذا،فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين،ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه،قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره،وجهاد يتجهز له،ومظلمة يزيلها،وعبادة يقوم بها،وإحسان يوليه،وإنعام يسديه،ونحن نذكر ما يعلم به محله في أمر دنياه وأخراه،فلو كان في أمة لافتخرت به،فكيف ببيت واحد٠

أما زهده وعبادته وعلمه،فإنه كان مع سعة ملكه،وكثرة ذخائر بلاده وأموالها لايأكل ولايلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة،ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين،أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك، فأخذ ما أفتوه بحله،ولم يتعده إلى غيره ألبتة،ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة،ومنع من شرب الخمر،وبيعها في جميع بلاده،ومن إدخالها إلى بلد ما،وكان يحد شاربها الحد الشرعي، كل الناس عنده فيه سواء٠

حدثني صديق لنا في دمشق،كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين زوجة نور الدين ووزيرها قال:كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس في المكان المختص به وتقوم في خدمته لاتقدم إليه إلا أن يأذن في أخذ ثيابه عنه، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذي يختص بها وينفرد هو تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال،أو في مطالعة كتاب أتاه،ويجيب عنهما، وكان يصلي فيطيل الصلاة،وله أوراد في النهار فإذا جاء الليل وصلى العشاء

ونام يستيقـظ نصف الليـل،ويقوم إلى الـوضوء والصـلاة إلى بكرة فيظهـر الركوب،ويشتغل بمهام الدولة٠

قال:وإنها قلت عليهـا النفقة،ولم يكفها ما كان قرّره لها فـأرسلتني إليه اطلـب منه زيـادة في وظيفتها،فلما قلـت لـه ذلك تنكـر واحمر وجهه،ثـم قال:من أين أعطيها أما يكفيها مـالها،واللّه لاأخوض نار جهنم في هواها إن كانت تظن أن الذي بيدي مـن الأموال لي،فبئس الظن،إنما هي أموال المسلمين مرصـدة لمصالحهم ومعـدة لفتق إن كـان من عدو الاسـلام وأنا خازنهم عليها،فلا أخونهم فيها٠

ثـم قـال:لي بمدينـة حمص ثـلاثـة دكـاكين ملكـا وقد وهبتهـا إيـاهـا فلتأخذها،قال:وكان يحصل منها قدر قليل٠

قـال ابـن الأثير:وكـان رحمه اللـه لايفعـل فعـلا إلا بنيـة حسنـة،كـان بالجزيرة رجل مـن الرجال الصالحين كثير العبادة والورع شـديد الانقطاع عن الناس،وكان نور الـدين يكاتبه ويراسله ويرجع إلى قـوله،ويعتقد فيه اعتقـادا حسناً فبلغـه أن نور الـديـن يدمـن اللعـب بالكـرة،فكتب إليـه يقول:ماكنـت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فـائدة دينية،فكتب إليه نور الديـن بخط يده يقول:والله ما يحملني على اللعـب بالكرة اللهو والبطر،وإنما نحـن في ثغر،العـدو قريـب منا،وبينما نحـن جلوس إذ يقـع صوت فنركـب في الطلب،ولايمكننا أيضا ملازمة الجهـاد ليلا ونهاراً شتاء وصيفا إذ لابد من الـراحة للجند،ومتى تركنا الخيـل على مرابطها صارت جماما لاقـدرة لها على ادمان السير في الطلـب،ولامعرفـة لها أيضا بسرعـة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب،فهـذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة٠

قـال ابـن الاثير:فانظـر إلى هـذا الملـك المعدوم النظير،الـذي يقـل في

أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله،فإن من يجيء إلى اللعب يفعله بنية صالحة،حتى يصير من أعظم العبادات،وأكبر القربات يقل في العالم مثله،وفيه دليل على أنه لايفعل شيئا إلا بنية صالحة،وهذه أفعال العلماء الصالحين العالمين•

و حكي لي عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة،فلم يحضرها عنده،فوصفت له،فلم يلتفت إليها،وبيناهم معه في حديثها وإذا قد جاءه رجل صوفي،فأمر بها له فقيل له:إنها لاتصلح لهذا الرجل،ولو أعطي غيرها كان أنفع له،فقال:أعطوها له فإني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة،فسلمت إليه فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أميري أو سبعمائة دينار•

قلت :قرأت في حاشية هذا المكان من كتاب ابن الاثير بخط ابن المعطى إياها قال:أعطاها لشيخ الصوفية عماد الدين أبي الفتح بن حموية بغير طلب ولا رغبة،فبعثها إلى همذان فبيعت بألف دينار•

قال ابن الاثير:وحكى لنا الامير بهاء الدين علي بن السكري،وكان خصيصا بخدمة نور الدين، قد صحبه من الصبا وأنس به،وله معه انبساط، قال:كنت معه يوما في الميدان بالرها والشمس في ظهورنا،فكلما سرنا تقدمنا الظل، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا،فأجرى فرسه،وهو يلتفت وراءه وقال لي:أتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت ورائي؟قلت:لا،قال:قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا،تهرب ممن يطلبها،وتطلب من يهرب منها•

قلت:رضي الله عن ملك يفكر في مثل هذا،وقد أنشدت بيتين في هذا المعنى:

مثل الرزق الذي تطلبه
مثل الظل الذي يمشي معك

أنـــــت لاتـــــدركـــــه متبعـــــا
فـــإذا وليـــت عنـــه تبعـــك

قـال ابن الاثير:وكـان ـ يعنـي نور الـدين رحمه اللـه ـ يصلي كثيراً مـن الليل، ويدعو ويستغفر،ويقرأ ولايزال كذلك إلى أن يركب

جمع الشجـــاعـــبـة والخشـــوع
مـــا أحســـن المحـــراب في المحـــراب

قـال: وكـان عـارفـا بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه[١٥]،ليس عنـده تعصب بـل الانصاف سجيتـه في كل شيء ،وسمـع الحديث وأسمعه طلبا للأجر،وعلى الحقيقـة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنـة العدل والانصـاف،وترك المحـرمات مـن المأكل والمشرب والملبـس، وغير ذلك فـإنهم كانـوا قبل ذلـك كالجاهليـة،همة أحدهـم بطنه وفـرجه لايعرف معـروفاً،ولاينكـر منكراً حتـى جاء الله بـدولته،فـوقف مـع أوامر الشرع ونواهيه،وألزم بـذلك اتباعه وذويه،فاقتـدى به غيره منهم واستحبوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه،ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

قال :فـإن قال قائل: كيـف يوصف بـالزهـد من له الممالـك الفسيحة وتجبـى إليـه الأمـوال الكثيرة،فليـذكـر نبـي اللـه سليمان بـن داود عليهما السـلام،مع ملكـه،وهو سيـد الزاهـدين في زمـانه،ونبينـا صلى الله عليـه وسلم قـد حكم على حضر مـوت واليمن والحجاز وجميـع جزيـرة العرب من حدود الشام إلى العراق،وهو على الحقيقة سيد الزاهدين.

قال:وإنما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لا خلو اليد عنها[١٦]

قال:وأما عدله فانه كان أحسن الملوك سيرة،وأعدلهم حكما،فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولامكسا ولاعشراً بل اطلقها رحمه الله

جميعها في بلاد الشام والجزيرة جميعها،والموصل وأعمالها،وديار مصر وغيرها مما حكم عليه،وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً،وهذا لم تتسع له نفس غيره،وكان يتحرى العدل،وينصف المظلوم من الظالم،كائنا من كان،والقوي والضعيف عنده في الحق سواء،وكان يسمع شكوى المظلوم،ويتولى كشف حاله بنفسه،ولايكل ذلك إلى حاجب ولا أمير،فلا جرم سار ذكره في شرق الأرض وغربها٠

قال:ومن عدله أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ويقول: نحن سخر لها نمضي أوامرها،فمن اتباعه أحكامها أنه كان يلعب بدمشق بالكرة،فرأى انساناً يحدث آخر ويومي بيده إليه،فأرسل إليه يسأله عن حاله،فقال: لي مع الملك العادل حكومة،وهذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحكم يحاكمني على الملك الفلاني ،فعاد إليه ولم يتجاسر أن يعرفه ما قال ذلك الرجل،وعاد يكتمه،فلم يقبل منه غير الحق،فذكر له قوله فألقى الجوكان من يده،وخرج من الميدان وسار إلى القاضي وهو حينئذ كمال الدين بن الشهرزوري، وأرسل إلى القاضي يقول له:إنني قد جئت محاكماً فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري،فلما حضر ساوى خصمه وحاكمه فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولمن حضر:هل ثبت له عندي حق؟قالوا :لا،فقال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه،وهو له دوني وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي،وإنما حضرت معه لئلا يظن أني ظلمته،فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له٠

قال ابن الاثير:وهذا غاية العدل والانصاف،بل غاية الاحسان،وهي درجة وراء العدل،فرحم اللّه هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة للحق الواقفة معه٠

قلت:وهـذا مستكثـر مـن ملـك متـأخـر،بعـد فسـاد الأزمنـة،وتفـرّق الكلمة،وإلاّ فقـد انقاد إلى المضي إلى مجلس الحكـم جماعة مـن المتقدمين مثـل عمـر،وعلي رضي اللّه عنهما،ثـم حكـي نحـو ذلك عـن أبي جعفـر المنصور،وقد نقلنا ذلك كله في التاريخ الكبير،وفيه عن عبد الله بن طاهر قريـب من هذا،لكنـه أحضر الحاكم عنـده ولم يمض إليه،وقـد بلغني أن نور الديـن رحمه الله تعالى استدعـي مرة أخرى بحلب إلى مجلـس الحكم بنفسـه أو نائبـه،فدخـل حاجبـه عليـه متعجباًوأعلمـه أن رسول الحاكـم بالباب،فـأنكر عليه تعجبه، وقـام رحمه الله مسرعا ووجد في أثنـاء طريقه مـا منعـه مـن العبـور مـن حفر جـب بعـض الحشـوس واستخـراج مـا فيه،فوكل من ثم وكيلاً وأشهد عليه شاهدين بالتوكيل،ورجع •

قال ابن الاثير:ومن عـدله أنه لم يكن يعاقب العقوبـة التي يعاقب بها الملـوك في هـذه الاعصـار على الظنـة والتهمـة،بـل يطلـب الشهـود على المتهـم،فـإن قـامـت البينـة الشرعية عـاقبـه العقـوبـة الشرعيـة مـن غير تعـدّ،فـدفـع اللـه بهذا الفعـل عن النـاس مـن الشر مـا يـوجـد في غير ولايته،مع شدة السياسة والمبالغة في العقـوبة،والأخذ بالظنة، وأمنت بلاده مع سعتها،وقل المفسدون ببركة العدل،واتباع الشرع المطهر•

قال:وحكـى لي من أثق بـه أنه دخل يومـا إلى خزانة المال،فـرأى فيها مالاً أنكره،فسأل عنـه،فقيل:إن القاضي كمال الدين أرسله،وهـو من جهة كذا،فقال:إن هـذا المال ليس لنا،ولا لبيت المال في هـذه الجهة شيء،وأمر برده وإعـادته إلى كمال الدين ليرده إلى صـاحبه،فأرسله متـولي الخزانة إلى كمال الدين،فـرده إلى الخزانة،وقال:إذا سأل الملـك العادل عنه،فقولـوا له عنـي:إنـه له،فـدخـل نـور الديـن الخزانـة مـرة أخـرى فرآه فـأنكـر على النواب،وقـال: ألم أقل لكـم يعـاد هذا المال إلى أصحابـه؟فذكروا لـه قول كمال الدين :فـرده إليه وقال للرسـول :قل لكمال الدين :أنـت تقدر على

حمل هذا المال،وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله،والمخاصمة عليه بين يدي اللّه تعالى،يعاد قولاً واحداً•

قال:ومن عدله أيضا بعد موته،وهو من أعجب ما يحكى،أن انسانا كان بدمشق غريباً استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله،فلما توفي تعدى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه فلم ينصف فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي،وقد شق ثوبه،وهو يقول: يانور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا أين عدلك،وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق مالا يحصى،وكلهم يبكي ويصيح،فوصل الخبر إلى صلاح الدين فقيل له:احفظ البلد والرعية وإلا خرج عن يدك،فأرسل إلى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه،وطيب قلبه ووهبه شيئا وأنصفه،فبكى أشد من الأول،فقال له صلاح الدين:لم تبكي؟قال:أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته،فقال صلاح الدين :هذا هو الحق،وكلما ترى فينا من العدل فمنه تعلمناه•

قلت:ومن عدله أنه بنى دار العدل،قال ابن الأثير:كان نور الدين رحمه الله أول من بنى داراً للكشف وسماها دار العدل،وكان سبب بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق وأقام بها أمراؤه،وفيهم أسد الدين شيركوه،وهو أكبر أمير معه،وقد عظم شأنه وعلا مكانه حتى صار كأنه شريك في الملك،واقتنوا الاملاك فأكثروا،وتعدّى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها،فكثرت الشكاوى إلى كمال الدين فأنصف بعضهم من بعض،ولم يقدم على الانصاف من أسد الدين شيركوه،فأنهى الحال إلى نور الدين فأمر حينئذ ببناء دار العدل ، فلما سمع أسد الدين بذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم: اعلموا إن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي،وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين،ووالله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه،فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه،وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي، فقالوا له:

إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب،فقال:خروج أملاكي من يدي أسهل علي من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم،أو يساوي بيني وبين أحاد العامة في الحكومة،فخرج أصحابه من عنده،وفعلوا ما أمرهم وأرضوا خصماءهم،وأشهدوا عليهم،فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات،وكان يجلس في الاسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء وبقي كذلك مدّة فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين،فقال نور الدين لكمال الدين:ما أرى أحدا يشكو من شيركوه،فعرّفه الحال،فسجد شكراً لله تعالى، وقال الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا.

قال ابن الاثير:فانظر إلى المعدلة ما أحسنها،وإلى هذه الهيبة ما أعظمها،وإلى هذه السياسة ما أسدها.هذا مع أنه كان لايريق دما ولايبالغ في عقوبة،وإنما كان يفعل هذا صدقه في عدله وحسن نيته.

قال: وأما شجاعته وحسن رأيه،فقد كانت النهاية إليه فيهما فإنه أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأيا،وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم،وبه كان يضرب المثل في ذلك.

سمعت جمعاً كثيراً من الناس،لاأحصيهم يقولون:إنهم لم يروا على ظهر فرس أحسن منه كأنما خلق عليه لايتحرك ولايتزلزل،وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها،لم ير جوكانه يعلو على رأسه،وكان ربما ضرب الكرة ويجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان،وكانت يده لاترى والجوكان فيها بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب،وكان إذا حضر الحرب أخذ قوسين وتركشين وباشر القتال بنفسه،وكان يقول طالما تعرّضت للشهادة فلم أدركها،سمعه يوما الامام قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك:فقال له:بالله لاتخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين فإنك

عبادهم،ولئن أصبت والعياذ بالله في معركة لايبقى من المسلمين أحد إلاّأخذه السيف،وأخذت البلاد،فقال:ياقطب الدين ومن محمود حتى يقال له هذا، قبلي من حفظ البلاد والاسلام ذلك الله الذي لا اله الا هو.

قال:وكان رحمه الله يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج،خذلهم الله تعالى،وأكثر ما ملكه من بلادهم به،ومن جيد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن،صاحب الدروب،فإنه مازال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراًوحضراً ،وكان يقاتل به الافرنج،وكان يقول:إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك،وقلاعه منيعة،وليس لنا إليها طريق،وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد إلاسلام،فإذا طلب انحجر فيها فلا يقدر عليه،فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئا من الاقطاع على سبيل التأليف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا،وساعدنا على الفرنج.

قال:وحيث توفي نور الدين رحمه الله،وسلك غيره غير هذا الطريق،ملك المتولي الأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد الاسلام وحصونهم،وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لايمكن رقعه.

قال:ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده،فإنه كان إذا توفي أحدهم وخلف ولداًأقر الاقطاع عليه،فإن كان الولد كبيراًاستبدّبنفسه،وإن كان صغيراًرتب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه فيتولى أمره إلى أن يكبر،فكان الأجناد يقولون:هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد،فنحن نقاتل عليها،وكان سببا عظيما من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب،وكان أيضا يثبت أسماء أجناد كل أمير في ديوانه،وسلاحهم خوفاً من حرص بعض الأمراء وشحه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد،ويقول نحن كل وقت في

النفير فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعدد،دخل الوهن على الإسلام.

قال:ولقد صدق رضي الله عنه فيما قال:وأصاب فيما فعل فلقد رأينا ما خافه عيانا.

قال:وأما فعله في بلاد الاسلام من المصالح مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم،من ذلك انه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فمنها:حلب وحماه، وحمص،ودمشق،وبارين، وشيزر ومنبج،وغيرها من القلاع والحصون وحصنها وأحكم بناءها،وأخرج عليها من الأموال مالا تسمح به النفوس،وبنى أيضا المدارس بحلب وحماه ودمشق وغيرها للشافعية والحنفية،وبنى الجوامع في جميع البلاد،فجامعه في الموصل اليه النهاية في الحسن والاتقان،ومن أحسن ما عمل فيه أنه فوّض أمر عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر الملاء رحمه الله،وهو رجل من الصالحين فقيل له:إن هذا لايصلح لمثل هذا العمل،فقال:إذا وليت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكتاب أعلم أنه يظلم في بعض الاوقات ولايفي الجامع بظلم رجل مسلم،وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لايظلم،فإذا ظلم كان الاثم عليه لا علي.قال:وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم،وبنى أيضا بمدينة حماه جامعا على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها،وجدّد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم إما بزلزلة أو غيرها،وبنى البيمارستانات في البلاد،ومن اعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق،فإنه عظيم كثير الخرج جدا،بلغني أنه لم يجعله وقفا على الفقراء حسب بل على كافة المسلمين من غني وفقير.

قلت:وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أره مشعراًبذلك،وإنما هذا كلام مشاع على ألسنة العامة لنفع ما قدره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء

للفقراء فيـه،والله المستعـان،وانما صرح بأن مـا يعز وجـوده من الأدويـة الكبار وغيرها،لايمنـع منه من احتاج إليه، من الأغنيـاء والفقراء ،فخص ذلك بـذلك،فـلا ينبغي أن يتعـدّى إلى غيره،لاسيما وقد صرح قبـل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمنقطعين،وقال بعد ذلـك:من جاء إليه مستوصفا لمرضه أعطي،والله أعلم.

وبلغني في أصل بنائه نادرة وهي أن نـور الدين رحمه الله وقع في أسره بعض أكـابر ملـوك الفرنج،خـذلهم الله تعـالى فقطع على نفسـه في فدائه مالاً عظيماً،فشاور نـور الدين أمراءه فكـل أشار بعدم اطلاقـه لما كان فيه من الضرر على المسلمين،ومال نـور الدين إلى الفداء بعد مـا استخار الله تعالى،فـأطلقه ليلاً لئـلا يعلم أصحابـه، وتسلم المال ،فلما بلغ الفـرنجي مأمنه مات،وبلغ نور الدين خبره،فـأعلم أصحابه،فتعجبوا من لطف الله تعـالى بـالمسلمين حيـث جمع لهم الحسنتين وهما الفـداء ومـوت ذلــك اللعين،فبنى نور الـدين رحمه الله بذلك المال هـذا البيمارستان،ومنع المال الأمراء ،لأنه لم يكن عن ارادتهم كان.

قال ابـن الاثير:وبنى أيضا الخانات في الطـرق،فأمن النـاس، وحفظت أموالهم وبـاتوا في الشتاء في كن مـن البرد والمطر،وبنى أيضـا الأبراج على الطـرق بين المسلمين والفرنـج،وجعـل فيها مـن يحفظهـا ومعهم الطيـور الهوادي،فـإذا رأوا مــن العـدو أحـدا أرسلــو ا الطيـور فـأخــذ النـاس حذرهم،واحتـاطوا لأنفسهم،فلم يبلغ العـدو منهم غرضا،وكـان هذا من ألطف الفكر،وأكثرها نفعا.

قال:وبنى الـربط والخانقاهات في جميـع البلاد للصوفية،ووقـف عليها الـوقوف الكثيرة،وأدرّ عليهـم الإدرارات الصـالحة،وكـان يحضر مشايخهـم عنده ويقربهم ويـدنيهم ويبسطهم ويتواضـع لهم،فإذا أقبل أحدهـم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه،ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته،ويقبل عليه

بحديثه،وكذلك كان أيضا يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام،ويجمعهم عند البحث والنظر،فقصدوه من البلاد الشاسعة من خراسان وغيرها وبالجملة كان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه،وكان أمراءه يحسدونهم على ذلك وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم،وإذا نقلوا عن إنسان عيبا يقول: ومن المعصوم،وإنما الكامل من تعد ذنوبه.

قال: وبلغني أن بعض أكابر الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي،وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ في اكرامه والاحسان إليه،فحسده ذلك الأمير فنال منه يوماً عند نور الدين،فقال له:ياهذا إن صح ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها،وهي العلم والدين،وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ماذكرت،وليست لكم حسنة تغفرها،ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك،وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم،أفلا أحمل سيئة هذا إن صحت مع وجود حسنته،على أنني والله لاأصدقك فيما تقول ،وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأؤدّبنك فكف عنه.

قال ابن الاثير:هذا والله هو الاحسان والفعل الذي ينبغي أن يكتب على العيون بماء الذهب.

وبنى بدمشق أيضا دار الحديث ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة فهو أول من بنى داراً للحديث فيما علمناه.وبنى أيضا في كثير من بلاده مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة،وبنى أيضا مساجد كثيرة،ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن .قال:وهذا فعل لم يسبق إليه،بلغني من عارف بأعمال الشام أن وقوف نور الدين في وقتنا هذا،وهو سنة ثمان وستمائة،كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ليس فيها غير ملك صحيح

شرعي ظاهراً وباطناً،فإنه وقف ما انتقل إليه ووزن ثمنه،أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه

قال:وأما هيبته ووقاره فإليه النهاية فيهما،ولقد كان كما قيل شديداً في غير عنف،رقيقاً في غير ضعف،واجتمع له ما لم يجتمع لغيره،فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده إلى غاية لامزيد عليها،وكان يلزمهم بوظائف الخدمة الصغير منهم والكبير،ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف،وأما من عداه كأسد الدين شيركوه،ومجد الدين بن الداية وغيرهما فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياما إلى أن يأمرهم بالقعود،وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه،ويجلسه إلى جانبه كأنه أقرب الناس إليه،وكان إذا أعطى أحدهم شيئاً يقول: إن هؤلاء لهم في بيت المال حق فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا،وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، مجلس حلم وحياء لاتؤبن فيه الحرم(١٧)، وهكذا كان مجلسه لايذكر فيه إلاّ العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشاورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو لايتعدى هذا، بلغني أن الحافظ ابن عساكر الدمشقي رضي الله عنه، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق، فرأى فيه من اللغط وسوء الادب من الجلوس فيه مالاحد عليه، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين فلم يتمكن من القول لكثرة الإختلاف من المتحدثين وقلة استماعهم، فقام وبقي مدّة لايحضر المجلس الصلاحي، وتكرر من صلاح الدين الطلب له، فحضر فعاتبه صلاح الدين يوسف على انقطاعه، فقال:نزهت نفسي عن مجلسك فإنني رأيته كبعض مجالس السوقة، لايستمع فيه إلى قائل ولايرد جواب متكلم، وقد كنا بالامس نحضر مجلس نور الدين ، فكنا كما قيل كأنما على رؤوسنا الطير، تعلونا الهيبة

والوقار،فإذا تكلم أنصتنا، وإذا تكلمنا استمع لنا،فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه أنه لايكون منهم ماجرت به عادتهم إذا حضر الحافظ.

قال ابن الاثير:فهكذا كانت أحواله جميعها رحمه الله مضبوطة محفوظة،وأما حفظ أصول الديانات فإنه كان مراعيا لها لايهملها،ولايمكن أحداً من الناس من اظهار ما يخالف الحق،ومتى أقدم مقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته،وكان يبالغ في ذلك ويقول:نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق والأذى الحاصل منهما قريب،أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل.

قال:وحكي أن إنسانا بدمشق يعرف بيوسف بن آدم،كان يظهر الزهد والنسك،وقد كثر اتباعه أظهر شيئا من التشبيه،فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حماراً وأمر بصفعه،فطيف به في البلد جميعها،ونودي عليه:هذا جزاء من أظهر في الدين البدع،ثم نفاه من دمشق،فقصد حرّان وأقام بها إلى أن مات.قال:ويسوق الله القصار الاعمار إلى البلاد الوخمة.

قلت:وذكر العماد الكاتب في أوّل كتابه البرق الشامي أنه قدم دمشق في شعبان سنة اثنتين وستين وخمسمائة في دولة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي،وأخذ في وصفه بكلامه المسجوع فقال:كان ملك بلاد الشام ومالكها،والذي بيده ممالكها،الملك العادل نور الدين،أعف الملوك وأتقاهم،وأثقبهم رأيا وانقاهم،وأعدلهم.وأعبدهم . وأزهدهم. وأجهدهم. وأظهرهم. وأطهرهم. وأقواهم .وأقدرهم.وأصلحهم عملا. وأنجعهم أملا. وأرجحهم رأيا. وأوضحهم رأيا(١٨). وأصدقهم قولا. وأقصدهم طولا. وكان عصره فاضلاً ونصره واصلاً. وحكمه عادلاً. وفضله شاملاً. وزمانه طيباً. وإحسانه صيبا. والقلوب بمهابته ومحبته ممتلئة. والنفوس بعاطفته وعارفته ممتلية وأوامره ممتثله. وجدّه منزه عن الهزل. ونوّابه في أمن العزل. ودولته مأمولة مأمونة. وروضته مصوبة مصونة. والرياسة كاملة. والسياسة شاملة. والزيادة زائدة. والسعادة مساعدة. والعيشة ناضرة.

والشيعة نـاصرة. والانصاف صاف. والاسعـاف عاف. وأزر الديـن قوي. وظمأ الاسلام روي، وزند النجـح وري. والشرع مشروع. والحكم مسموع. والعدل مولى. والظلـم معزول. والتوحيد منصـور. والشرك مخذول. وللتقى شروق. وما للفسوق سوق. وهو الذي أعـاد رونق الاسلام إلى بلاد الشام. وقد غلـب الكفر، وبلـغ الضر. فاستفتـح معاقلهـا. واستخلص عقـائلها وأشاع بها شعـار الشرع في جميع الحل والعقد. والابرام والنقـض. والبسط والقبض. والوضع والـرفع. وكانت للفرنج في أيـام غيره على بلاد الاسلام بالشـام قطائع. فقطعها وعفـى رسومهـا ومنعها. ونصره الله عليهـم مرارا حتى أسر ملـوكهم. وبدّد سلوكهـم. وصان الثغور منهم. وحماهـا عنهم. وأحيا معـالم الدين الـدوارس. وبنى لـلأئمة المدارس. وأنشأ الخانقـاهات للصوفية. وكثرها في كـل بلد وكثر وقوفها. وقرّر معروفها. وأدنـى للوافدين من جنـي جنانه قطوفهـا .وأجدّ الأسوار والخنادق. وأنمـى المرافق. وحمى الحقـائق. وأمر في الطـرقـات ببنـاء الربـط والخانـات. فضـافت ضيـوف الفضـائل. وفاضـت فيـوض الأفاضـل. وهـو الذي فتـح مصر وأعمالها. وأنشأ دولتها ورجالها(١٩).

· ثم ذكر العماد في أثناء حوادث سنة تسـع وستين وهي السنة التي توفي فيها نور الدين قال:

وفي هـذه السنـة أكثر نـور الـديـن مـن الأوقاف والصـدقـات،وعمارة المساجـد المهجورة،وتعفيـة آثار الآثام، واسقـاط كل مـا يدخـل في شبهة الحرام،فما أبقى سوى الجزية والخراج، وما يحصـل من قسمه الغلات على قويم المنهاج٠

قال: وأمـرني بكتب مناشير لجميـع أهل البـلاد،فكتب أكثر مـن ألف منشـور وحسبنـا ما تصـدق بـه على الفقـراء في تلك الأشهـر، فـزاد على ثلاثين ألـف دينار،وكانت عـادته في الصدقـةأنه يحضر جماعة من أمـاثل

البلد من كل محلة ويسألهم عمن يعرفون في جوارهم من أهل الحاجة، ثم يصرف إليهم صدقاتهم، وكان له برسم نفقة الخاص في كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطيس يصرفها في كسوته ونفقته وحوائجه المهمة، حتى أجرة خياطة وجامكية طباخه، ويستفضل منه ما يتصدق به في آخر الشهر، وأما ما كان يهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم فإنه كان لايتصرف في شيء منه لاقليل ولا كثير، بل إذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي ويحصل ثمنه، ويصرف في عمارة المساجد المهجورة ، وتقدم باحصاء مافي محال دمشق فأناف على مائة مسجد، فأمر بعمارة ذلك كله، وعين له وقوفاً. قال: ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته في كل بلد لطال الكتاب، ولم أبلغ إلى أمد، ومشاهدة أبنيته الدالة على خلوص نيته يغني عن خبرها بالعيان، ويكفي أسوار البلدان عن الربط والمدارس على اختلاف المذاهب، واختلاف المواهب وفي شرح طوله طول، وعمله لله مبرور مقبول.

وواظب على عقد مجالس الوعاظ، ونصب الكراسي لهم في القلعة للانذار والاتعاظ، وأكبرهم الفقيه قطب الدين النيسابوري، وهو مشغوف ببركة أنفاسه، واغتنام كلامه واقتباسه، ووفد من بغداد ابن الشيخ أبي النجيب الأكبر، فبسط له في كل أسبوع منبر وشاقه وعظه، وراقه معناه ولفظه، وكذلك وفد إليه من أصبهان الفقيه شرف الدين عبد المؤمن بن شورره (٢٠) وما أيمن تلك الايام وأبرك تلك الشتوه.

وقال: ولما اسقط نور الدين الجهات المحظورة، والشبه المحذورة، عزل الشحن، وصرف عن الرعية بصرفهم المحن، وقال للقاضي كمال الدين ابن الشهر زوري: انظر أنت ذلك واحمل أمور الناس فيها على الشريعة، قال: ولم يكن لمال المواريث الحشرية حاصل، ولا لديوانه طائل، فجعل نور الدين ثلث ما يحصل فيه لكمال الدين الحاكم، فوفره نوّابه وكثروه، وما كان نور الدين يحاسب القاضي على شيء من الوقوف، ويقول أنا قد

قلدتـه على ان يتصرف بالمعروف، وما فضـل من مصارفهـا وشروط واقفها يأمـره بصرفه في بناء الأسـوار، وحفظ الثغور. وكانـت دولته نافـذة الأوامر، منتظمة الأمور.

قلت : وحكى الشيـخ أبو البركات الحسن بـن محمد بن هبة اللـه أنه حضر مع عمـه الحافظ أبي القـاسم، رحمه الله، مجلـس نور الـدين لسماع شيء من الحديث. فمـرّ في أثناء الحديث أن النبي صلى اللـه عليه وسلم خرج متقلـداً سيفاً فـاستفاد نـور الدين أمـراً لم يكن يعـرفه، وقـال: كان رسول اللـه صلى الله عليـه وسلم يتقلـد السيف، يشير إلى التعجـب من عادة الجنـد، إذ هم على خلاف ذلـك لأنهم ير بطونـه بأوساطهـم، قال: فلما كان مـن الغد مـررنا تحت القلعـة والناس مجتمعـون ينتظرون ركـوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه معهم ، فخـرج نور الدين رحمه الله من القلعة وهو متقلـد للسيف، وجميـع عسكره كـذلك، فـرحمة الله على هـذا الملك الذي لم يفرط في الاقتـداء بالنبي صلى الله عليه وسلم بمثـل هذه الحالة، لما بلغته رجـع بنفسه، ورد جنـده عن عوائدهـم اتباعـا لما بلغه عـن نبيه صلى الله عليـه وسلم، فما الظن بغير ذلـك من السنن، ولقد بلغنـي أنه أمر باسقـاط ألقابه في الدعاء له على المنـابر، ورأى له وزيره موفـق الدين خالـد بن القيسراني الشاعر في منـامه أنه يغسـل ثيابه، وقص ذلـك عليه ففكر ساعـة ثم أمره بكتابـة اسقاط المكوس، وقال: هـذا تفسير منامك، وكـان في تهجـده يقـول: ارحـم العشار المكـاس، وبعـد أن أبطـل ذلـك استجعل من الناس في حـل، وقال: والله ماأخرجناهـا إلاّ في جهاد عدوّ الاسلام، يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم.

وعلى الجملـة كان نـور الديـن رحمه الله فـرداً في زمانـه من بين سـائر الملوك، ولـو لم يكن إلا استماعه للمـوعظة وانقيـاده لها وان اشتملت على ألفاظ، قد أغلظ له فيها.

قرأت في تاريخ إربل لشرف الدين بن المستوفي رحمه الله، قال: المنتجب الواعظ، هو أبو عثمان المنتجب بن أبي محمد بن البحتري الواسطي ورد إربل ووعظ بها، وكان له قبول عظيم، وسافر إلى نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر إلى الشام لسبب الغزاة، وأنفذ له نور الدين جملة من مال فلم يقبلها، ثم ردها عليه، أنشدني له يحيى بن محمد بن صدقة قصيدة عملها في نور الدين وحلف أنه سمعها من لفظه:

مثل وقوفك أيها المغرور
يوم القيامة والسماء تمور
إن قيل نور الدين رحت مسلما
فاحذر بأن تبقى وما لك نور
أنهيت عن شرب الخمور وأنت من
كأس المظالم طافح مخمور
عطلت كاسات المدام تعففا
وعليك كاسات الحرام تدور
ماذا تقول إذا نقلت إلى البلى
فردا وجاءك منكر ونكير
وتعلقت فيك الخصوم وأنت في
يوم الحساب مسحب مجرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت في
ضيق اللحود موسد مقبور
ووددت أنك ما وليت ولاية
يوماً ولا قال الانام أمير
وبقيت بعد العز رهن حفيرة
في عالم الموتى وأنت حقير
وحشرت عريانا حزينا باكيا
قلقا وما لك في الانام مجير

أرضيت أن تحيى وقلبك دارس
عافي الخراب وجسمك المعمور

أرضيت أن يحظى سواك بقربه
أبدا وأنت مبعد مهجور

مهد لنفسك حجة تنجو بها
يوم المعاد لعلك المعذور (٢١)

قلت: ولعل هذه الابيات من أقوى الأسباب المحركة للسلطان في إبطال المظالم، والخلاص من تلك المآثم رضي الله عن الواعظ والمتعظ بسببه،ووفق من رام الاقتداء به.

ونقلت من خط الصاحب العالم كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد ابن هبة الله بن أبي جرادة في كتاب تاريخ حلب الذي صنفه، وسمعت من لفظه أن نور الدين رحمه الله كان مع أبيه بحلب، فلما حاصر أبوه قلعة جعبر وقتل عليها قصد حلب وصعد قلعتها وملكها في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وأحسن إلى الرعية وثبت العدل ورفع الجور، وأبطل البدع واشتغل بالغزو وفتح قلاعا كثيرة من عمل حلب، كانت بيد الفرنج، وحدّث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له منهم : أبو عبد الله بن رفاعة بن عزيز السعدي المصري.

روى عنه جماعة من شيوخنا مثل أبي الفضل أحمد، وأبي البركات الحسن، وأبي المنصور عبد الرحمن بني أبي عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشافعي.

قال: ووقفت على رقعة بخط الوزير خالد بن محمد بن نصر بن صغير القيسراني كتبها إلى نور الدين وجوابها من نور الدين على رأس الورقة وبين السطور،فنقلت جميع ما فيها من خطيها، قال: وكان رحمه الله كتب رقعة يطلب من ابن القيسراني أن يكتب له صورة ما يدعى له به

على المنابر حتى لايقول الخطيب ما ليس فيه، ويصونه عن الكذب، وعن ما هو مخالف لحاله ونسخة الورقة بخط خالد:

أعلى الله قدر المولى في الدارين،وبلغه أماله في نفسه وذريته،وختم له بالخير في العاجلة والآجلة بمنه وجوده وفضله وحمده،وقف المملوك على الرقعة وتضاعف دعاؤه وابتهاله إلى الله تعالى بأن يرضى عنه، وعن والديه وأن يسهل له السلوك إلى رضاه، والقرب منه والفوز عنده، إنه على كل شيء قدير ،وقد رأى المملوك ما يعرضه على العلم الاشرف، زاده الله شرفاً، وهو أن يذكر الخطيب على المنبر إذا أراد الدعاء للمولى:«اللهم اصلح عبدك الفقير إلى رحمتك،الخاضع لهيبتك،المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر، ناصر أمير المؤمنين» فان هذا جميعه لايدخله كذب ولازيادة،والرأي أعلى وأسمى إن شاء الله تعالى. فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه ما هذا صورته:مقصودي أن لايكذب على المنبر أنا بخلاف كل ما يقال، أفرح بها لاأعمل قلة عقل عظيم. الذي كتب جيد أكتب به نسخ حتى نسيره إلى جميع البلاد،وكتب في آخر الرقعة ثم يبدأ بالدعاء: اللهم أره الحق، اللهم أسعده، اللهم أنصره، اللهم وفقه، من هذا الجنس

قال: وحدثني والدي قال: استدعانا نور الدين أنا وعمك أبو غانم، وشرف الدين بن أبي عصرون إلى الميدان الأول،وأشهدنا عليه بوقف حوانيت على سور حمص،فلما شهدنا عليه التفت إلينا وقال:بالّله انظروا أي شيء عملتموه من أبواب البر والخير دلونا عليه، وأشركونا في الثواب، فقال شرف الدين بن أبي عصرون: والله ما ترك المولى شيئا من أبواب البر إلاّ وقد فعله،ولم يترك لأحد من بعده فعل خير إلاّ وقد سبقه إليه.

وقال:قال لي والدي:دخل في أيام نور الدين إلى حلب تاجر موسر

فمات بها وخلف بها ولداً صغيراً ومالاً كثيراً، فكتب بعض من بحلب إلى نور الدين يذكر له أنه قد مات ها هنا رجل تاجر موسر وخلف عشرين ألف دينار أو فوقها، وله ولد عمره عشر سنين، وحسن له أن يرفع المال إلى الخزانة إلى أن يكبر الصغير يرضى منه بشيء ويمسك الباقي للخزانة، فكتب على رقعته: أما الميت فرحمه الله، وأما الولد فأنشأه الله، وأما المال فثمره الله، وأما الساعي فلعنه الله[٢٢].

قال: وبلغتني هذه الحكاية عن غير نور الدين أيضا، وحدثني الحاج عمر بن سنقر عتيق شاذبخت النوري قال: سمعت الطواشي شاذبخت الخادم يحكي لنا قال: كنت يوماً أنا وسنقرجا واقفين على رأس نور الدين، وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكراً عظيماً، وجعل ينكت بأصبعه في الأرض،فتعجبنا من فكره وقلنا: ترى في أي شيء يفكر في عائلته أو في وفاء دينه، فكأنه فطن بنا، فرفع رأسه وقال: ما تقولان؟ فقلنا:ما قلنا شيئا، فقال: بحياتي قولا لي، فقلنا: عجبنا من إفراط مولانا في الفكر، وقلنا يفكر في عائلته أو في نفسه، فقال: واللّه إنني أفكر في وال وليته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك فبالله عليكم، وإلا فخبزي عليكم حرام لاتريان قصة ترفع إليّ أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وأرفعاها إليّ.

وسمعت قاضي القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم قال: كان نور الدين ينفذ كل سنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر الملاء شيئا يفطر عليه، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك، فكان نور الدين يفطر عليه، وكان إذا قدم الموصل لايأكل إلاّ من طعام الشيخ عمر الملاء.

قال: وكان نور الدين لما صارت له الموصل قد أمر كمشتكين شحنة

الموصل أن لايعمل شيئا إلاّ بالشرع إذا أمره القاضي به، وأن لايعمل القاضي والنواب كلهم شيئا إلاّ بأمر الشيخ عمر الملاء.

قال: فكان لايعمل بالسياسة، وبطلت الشحنكية في أكابر الدولة، وقالوا لكمشتكين: قد كثر الذعار وأرباب الفساد، ولايجيء من هذا شيء إلا بالقتل والصلب، فلو كتبت إلى نور الدين وقلت له في ذلك، فقال لهم: أنا لاأكتب إليه في هذا المعنى ولا أجسر على ذلك فقولوا للشيخ عمر يكتب إليه، فحضروا عنده وذكروا له ذلك، فكتب إلى نور الدين وقال له: إن الذعار والمفسدين وقطاع الطرق قد كثروا، ويحتاج إلى نوع سياسة فمثل هذا لايجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال انسان في البرية من يجيء يشهد له؟ قال : فقلب نور الدين كتابه وكتب على ظهره:إن اللّه تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يصلحهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها ، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه، فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى. قال: فجمع الشيخ عمر الملاء أهل الموصل وأقرأهم الكتاب، وقال انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد.

وسمعت صقر بن يحيى بن صقر المعدّل يقول: سمعت مقلداً-يعني الدولعي يقول: لما مات الحافظ المرادي وكنا جماعة الفقهاء قسمين : العرب والأكراد، فمنا من مال إلى المذهب، وأردنا أن نستدعي الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وكان بالموصل، ومنا من مال إلى علم النظر والخلاف وأراد أن يستدعي قطب النيسابوري، وكان قد جاء وزار البيت المقدّس ثم عاد إلى بلاد العجم، فوقع بيننا كلام بسبب ذلك، ووقعت فتنة بين الفقهاء، فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم مجد الدين، يعني ابن الداية عن لسانه، وقال لهم: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من

هذه البلـدة، واظهار الدين، وهـذا الذي جرى بينكم لا يحسـن ولايليق، وقد قال المولى نور الدين: نحن نـرضي الطائفتين، ونستدعي شرف الدين ابـن أبي عصرون، وقطب الـدين النيسـابـوري فاستـدعاهما جميعـا، وولى مدرسة ابن أبي عصرون لشرف الدين، ومدرسة النفري(٢٣) لقطب الدين.

قال: وعلقـت أيضا من خط فقيـه كان معيدا بـالنظامية يقال لـه أبو الفتـح بنجة بـن أبي الحسـن بن بنجـة الاشتري، وكـان ممن ورد دمشـق، وجمع لنـور الديـن سيرة مختصرة قال: كـان نـور الديـن يقعد في الأسبـوع أربعة أيـام أو خمسة أيـام في دار العدل للنظـر في أمور الـرعية، وكشـف الظلامة لايطلب بذلك درهما ولا دينـاراأو زيادة ترجع إلى خزانته، وإنما يفعل ذلـك ابتغاء مرضـاة الله، وطلبا للثواب والـزلفى في الآخرة، ويـأمر بحضور العلماء والفقهاء ويـأمر بازالة الحاجب والبواب حتـى يصل إليه الضعيف والقـوي والفقير والغني، ويكلمهم بـأحسن الكـلام، ويستفهم منهم بأبلغ النظام، حتى لايطمـع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال، ويحضر في مجلسة العجوز الضعيفة التي لاتقدر على الوصـول إلى خصمها، ولا المكـالمة معه فيأمـر بمساواتـه لها، فتغلب خصمها طمعـاً في عدلـه، ويعجز الخصـم عن دفعهـا خوفـا من عـدله، فيظهر الحق عنـده فيجري الله تعـالى على لسانه مـا هو موافـق الشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكـل عليه من الأمور الغـامضة، فلا يجري في مجلسه الا محض الشريعة.

قال: وأما زمانه فهو مصروف إلى مصالـح الناس والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهـم، وأما فكره ففـي اظهار شعار الإسـلام، وتأسيس قـاعدة الديـن من بنـاء المدارس والربـط والمساجـد حتى أن بـلاد الشام كـانت خـاليـة مـن العلـم وأهلـه، وفي زمـانـه صـارت مقـرّا للعلماء والفقهـاء والصوفية، لصرف همته إلى بناء المدارس والربـط، وترتيب أمورهـم والناس آمنون على أمـوالهم وأنفسهم، ولـو لم يكن من هـذه الخصال إلاّ مـا علم

منه وشاع أنه إذا وعد وفى، وإذا أوعد عفا، وإذا تحدّث بشيء وقف عليه، ولايخالف قوله ولايرجع عن لفظه ومنطقه لكفى، ولايجري في مجلسه الفسق والفجور والشتم والغيبة والقدح في الناس والكلام في أعراضهم، كما يجري في مجالس سائر الملوك، ولايطمع في أخذ أموال الناس ولايرضى بأن يأخذ أحد من أموال الشريعة شيئا بغير حق.

قال:وبلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم أنه أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدّي الصلوات الخمس في أوقاتها،بتمائم شرائطها، وأركانها وركوعها وسجودها.

قال: وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القدس للزيارة، حكاية عن الكفار أنهم يقولون : ابن القسيم له مع الله سر ، فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعو، فالله سبحانه وتعالى يستجيب له دعاءه، ويعطيه سؤله، وما يردّ يده خائبة، فيظفر علينا ،قال: فهذا كلام الكفار في حقه.

قال: وحدثنا الشيخ داود المقدّسي خادم قبر شعيب على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، قال: حضرت في دار العدل في شهر ربيع الأوّل سنة ثمان وخمسين، فقام رجل وادّعى على الملك العادل أن أباه أخذ من ماله شيئاً بغير حق، قال: وأنا مطالب بذلك، فقال نور الدين: أنا ما أعلم ذلك فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها، وأنا أرد إليك ما يخصني فإني ماورثت جميع ماله، كان هناك وارث غيري، فمضى الرجل ليحضر البينة، فقلت في نفسي: هذا هو العدل.

قال: وحضر رجل زاهد فيه سمة الخير معروف بالصلاح والسداد، فسألت عنه، فقالوا: أخو الشيخ أبي البيان، وكان قد أودع عند أخيه أبي

البيان وديعة، وقد توفي فادعى المودع على هـذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة، وطالبـه بالـردّ عليه، فـانكر هـذا الرجـل علمه بـالوديعـة، فأوجـب عليه القاضي كمال الـدين حكم الشرع أن يحلف أنـه لاعلم له بهذه الـوديعة، فحلـف على ذلك فجعـل المودع يشنـع عليه ويقـول انـه حلـف كاذبـا، ويتكلم في عرضه، ويقول في حقـه من التنمس وغيره، فحضر عند الملك العادل شـاكياً منه وذاكـراً سيرته وطريقتـه، ومن الذي يقـدر أن يقول في حقي هذا، ويتعرّض بالتماسه من الملك العادل التقدّم باحضاره والانكار عليه فيما يقول في حقه، فلما فرغ من الكـلام، ورمى ما كان في جعبته من دعوى الحقيقة والطريقة، وكان حاصله التماس الانكار عليه، فقال الملك العادل: أليـس إن الله تعـالى يقول في كتـابه:( وإذا خـاطبهم الجاهلـون قالوا سـلاما [٢٤])فاذا كـان يجهل عليك ويقـول في حقك بالجهـل مالا يجوز، فيجب عليـك أن لاتعمل معه مثـل معاملتـه فتكون مثله، فكـأنك قابلت الاساءة بـالاساءة، ومن حقك أن تقابل الاسـاءة بالاحسان، فقلت في نفسي: الحق ما قال الملك العادل إما قـرأ هذا في كتب التفاسير فثبت في قلبه أو أجراه اللّه على لسانه وأنطقه به.

قال: وحضر جماعـة من التجار وشكوا أن القـراطيس كان ستـون منها بدينار فصار سبعة وستون بدينـار، وتزيد وتنقص فيخسرون، فسأل الملك العـادل عن كيفيـة الحال فـذكـروا أن عقد المعـاملـة على اسـم الدينـار، ولايرى الـدينار في الـوسط، وإنما يعـدون القراطيـس بالسعـر تارة ستين بدينـار، وتارة سبعة وستين بـدينار، وأشـار كل واحد مـن الحاضرين على نور الـدين أن يضرب الدينار بـاسمه، وتكون المعـاملة بالدنـانير الملكية، وتبطـل القراطيـس بالكليـة، فسكـت سـاعـة وقال: إذا ضربـت الدينـار وابطلت المعاملـة بالقراطيس فكأني خـربت بيوت الرعية، فـإن كل واحد من السوقـة عنده عشرة آلاف، وعشرون ألف قرطـاس أي شيء يعمل به، فيكون سبباً لخراب بيته.

قال: فأي شفقة تكون أعظم وأكثر من هذا على الرعية.

قال: وحضر صبي وبكى عند الملك العادل، وذكر أن أباه محبوس على أجرة حجرة من حجر الوقف، فسأل عن حاله فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي، وهو رجل زاهد قاعد في حجرة للوقف، وليس له قدرة على الأجرة وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة، فسأل الملك العادل: كم أجرة السنة؟ فقالوا: مائة وخمسون قرطاسا، وذكروا سيرته وطريقته وفقره، فرقّ له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها، وتقدم بذلك وباخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح، حتى كأن الانعام كان في حقه.

أخبرنا افتخار الدين عبد المطلب الهاشمي قال: كان عند القاضي تاج الدين عبد الغفور بن لقمان الكردري قاضي حلب غلام قد جعله لمجلس الحكم يدعى سويداً يحضر الخصوم إلى مجلس الحكم، فحضر بعض التجار وادّعى أن له على نور الدين دعوى، فقال الكردري لسويد المذكور: امض إلى نور الدين وادعه إلى مجلس الحكم، وعرّفه أنه حضر شخص يطلب حضوره، وكان نور الدين في الميدان فجاء سويد إلى باب الميدان فخرج اسماعيل الخزندار فوجده، فتقدّم سويد إليه وقال: سيرني تاج الدين، يعني القاضي، وذكر أنه حضر تاجروذكر أن له دعوى على المولى نور الدين، وقد أنفذني تاج الدين وقال لي: كذا وكذا، فضحك اسماعيل الخزندار، ودخل على نور الدين ضاحكاً وقال له مستهزئا: يقوم المولى، فقال: إلى أين؟ فقال: حضر سويد غلام تاج الدين الكردري، وقال إن تاج الدين أرسله يطلب المولى إلى مجلس الحكم، فأنكر نور الدين على اسماعيل استهزاءه، وقال: تستهزىء بطلبي إلى مجلس الحكم، وقال نور الدين: يحضر فرسي حتى نركب إليه، السمع والطاعة، قال الله تعالى: (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله

ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا)[٢٥] ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة، فاستدعى سويداً وقال له: امض إلى القاضي تاج الدين وسلم عليه وقل له: إني جئت إلى ها هنا امتثالا لأمر الشرع، واحتاج في الحضور إلى مجلسة إلى سلوك هذه الأزقة وفيها الاطيان وهذا وكيلي يسمع الدعوى، وإن توجهت عليّ يمين أحضر إن شاء اللّه تعالى، قال: فحضر الوكيل وسمع الدعوى، وتوجهت اليمين فقال الكردري: قد توجهت اليمين فليحضر، فلما بلغ نور الدين ذلك وعلم أنه لامندوحة عن حضور مجلسه لليمين، استدعى ذلك التاجر وأصلح الأمر فيما بينه ، وأرضاه.

وسمعت قاضي القضاة بهاء الدين يقول: حكى لي السلطان الملك الناصر صلاح الدين قال: أرسلني الملك العادل نور الدين إلى عمي أسد الدين شيركوه ، وكان لايفعل شيئا إلاّ بمشورته، فقال: امض وقل لأسد الدين: قد خطر في بالي أن أبطل هذه الضمانات بأسرها والمؤن والمكوس، وخذ رأيه في ذلك، قال:فجئت إليه وأنهيت ما قال لي، فقال: امض وقل له: ياMولانا إذا فعلت ذلك فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين تعطيهم، وتحتاج إليهم للغزاة، وخروج العساكر؟ قال السلطان صلاح الدين: فقلت لعمي : هذا أمر قد ألهمه اللّه إياه، فساعده عليه فصاح فيّ وقال: امض إليه، وقل له ما أقول لك.

قال: فعدت إلى نور الدين فأنهيت إليه ما قال عمي، فقال امض إليه وقل له إذا كنا نغزو من هذه الجهات نتركها ونقعد ولانخرج، قال: فعدت إلى عمي وقلت ما قال، فقال : قل له إن تركوك نقعد فجيد هو، فراجعته في أن لايثبطه عن ذلك، فصاح فيّ وقال: امض إليه وقل له ما أقول لك، فجئت إليه وقلت له ذلك، فترك ذلك مدة، ثم أمضى ما كان عزم عليه.

قال لي صقر بن يحيى: بلغني أن موفق الدين خالداً رأى في النوم كأن نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها، فقص منامه على نور الدين فتمعر وجه نور الدين، فخجل موفق الدين وبقي أياما على غاية من الخجل، فاستدعاه يوما نور الدين، وقال: قد آن لك أن تغسل ثيابي أقعد وأكتب باطلاق المؤن والمكوس والأعشار، واكتب للمسلمين إني قد رفعت عنكم ما رفعه الله تعالى عنكم، واثبت عليكم ما أثبته الله عليكم، قال: فكتب موفق الدين توقيعا.

سمعت خليفة بن سليمان بن خليفة الفقيه يقول: سمعت أبي يقول لما كسر نور الدين، يعني كسرة البقيعة، تكلم البرهان البلخي فقال: اتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور، كلا، وكلاماً مع هذا ، فلما سمعه نور الدين قام ونزع عنه ثيابه تلك وعاهد الله تعالى على التوبة، وشرع في إبطال المكوس إلى أن خرج في نوبة حارم وكسر الأفرنج.

سمعت صديقنا شمس الدين اسماعيل بن سود كين بن عبد الله النوري، وكان أبوه أحد مماليك نور الدين، فاعتقه، يقول: سمعت والدي يقول: كان نور الدين محمود رحمه الله يلبس في الليل مسحا ويقوم يصلي فيه قطعة من الليل، قال: وكان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع، ويقول: ارحم العشار المكاس.

قال لي قاضي القضاة بهاء الدين: سير نور الدين إلى بغداد كتابا يعلم الخليفة بما أطلق وبمقدار ما أطلق، ويسأله أن يتقدم إلى الوعاظ أن يستجعلوا من التجار ومن جميع المسلمين له في حل مما كان قد وصل إليه، يعني من أموالهم، فتقدم بذلك، وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك.

حدّثني رضي الديـن أبو سالم عبد المنعم بن منـذر أن نور الدين حين خرج لأخـذ شيزر ، خرج أبـو غانم بـن منذر صحبته، فـأمره نور الـدين بكتـابـة منشـور بـاطـلاق المظـالم بحلـب . ودمشـق. وحمص. وحـران. وسنجار. والـرحبة. وعزاز. وتـلّ باشر ، وعداد العـرب، فكتب عنه تـوقيعا نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تقـرّب به إلى الّله سبحانـه وتعالى صافحا، وأطلقـه مسامحا لمن علـم ضعفه من الـرعايا رعاهم الّله ،لضعفهم عن عمارة مـاأخربته أيدي الكفار أبادهم الّله عند إستيلائهم على البلاد، وظهور كلمتهم في العباد، رأفة بالمسلمين المثاغـرين، ولطفاً بالضعفاء المرابطين الذيـن خصهم الّله سبحـانـه بفضيلـة الجهـاد، واستمحنهم بمجـاورة أهـل العنـاد اختبـاراً لصبرهـم وإعطـامـا لأجـرهـم،فصبروا احتسـابـا، وأجـزل الّلـه لهم أجـرا وثـوابا،(إنما يـوفى الصابـرون أجـرهم بغير حسـاب)[٢٦]وأعاد عليهـم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفـاء الّله عليهم بها من الفتوح العمرية، وأقرّهـا في الدولـة الاسلاميـة، بعد مـا طرأ عليهـا من الظلمـة المتقدّمين، واسترجعه بسيفـه من الكفرة الملاعين، فطمـس عنهم بذلـك معالم الجور، وهدم أركان التعدّي، وأقـرّ الحق مقرة لقوله تعالى:(من جـاء بالحسنة فله عشر أمثالها)[٢٧](والّله يضاعـف لمن يشاء[٢٨]) ثم لما أعـانه الّله بعـونه وأيده بنصره وقمـع به عاديـة الكفر وأظهـر بهمته شعائر الاسـلام وأظفره بالفئة الطاغيـة، وأمكنه من ملوكها الباغيـة، فجعلهم بين قتيل غير مقاد، وهارب ممنـوع الرقـاد ، وآخرين مقـرنين في الاصفاد، هذا عطـاؤنا فـامنن أوأمسك بغير حساب، (وان لـه عندنا لزلفـى وحسن مآب[٢٩]) علم أن الدنيا فانية، فـاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى ملكـه الزائل بأن قدّمه أمامه وجعله ذخراً للمعاد، فـالتقوى مادّة دارة إذا انقطعت المواد، وجادّة واضحة حين يلتبـس الجواد (يوم لاتملك نفس لنفـس شيئا والامر يـومئذ

لله[٣٠])فصفح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس وأسقطها من دواوينه، وحرّمها على متطاول إليها ومتهافت عليها، تجنبا لإثمها،واكتساباً لثوابها، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه إتباعا لكتاب الّله، وسنة نبيه محمد صلى الّله عليه وسلم في كل سنة من العين مائة ألف وستة وخمسون ألف دينار، جهة ذلك : حلب خمسون ألف دينار، عزاز عن مكس جدّدته الفرنج خذلهم الّله على المسافرين عشرة آلاف دينار. تلّ باشر أحد وعشرين ألف دينار. المعرّة ثلاثة آلاف دينار، دمشق المحروسة لما استنجد به أهلها واستصرخ من فيها خوفا على أنفسهم وأموالهم من استيلاء العدّو، وضعفهم عن مقاومة ما كان يؤخذ منهم في كل سنة، وهو رسم يسمونه الفيئة عشرون ألف دينار، حمص ستة وعشرين ألف دينار. حرّان خمسة آلاف دينار. سنجار ألف . الرحبة عشرة آلاف دينار. عداد العرب عشرة آلاف دينار. وما وقفه وتصدّق به وأجراه في سبل الخيرات، ووجوه البرّ والصدقات تقدير ثمنه مائتا ألف دينار، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار، من ذلك ما وقفه على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأئمتها ومدرّسيها وفقهائها، وما وقفه على دور الصوفية والربط والجسور، والبيمارستانات والجوامع والمساجد والأسوار، وما وقفه على السبل في طريق الحجاز، وما وقفه على فكاك الأسرى وتعليم الأيتام ومقرّ الغرباء وفقراء المسلمين، وما وقفه على الأشراف العلويين والعباسيين، وما ملكه لجماعة من الأولياء والغزاة والمجاهدين، هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثغور حرسها الّله تعالى من أملاكهم التي تقدم ذكرها، فإنه يضاهي هذا المبلغ وزيادة عليه، جعل ذلك ذريعة عند الّله وتقرّباً إليه، مضافا إلى ما أنفقه في الغزاة والجهاد ، واستئصال شأفة أهل الكفر والعناد، من خزائنه المعمورة، وأمواله الموروثة المذخورةطلبا لما عند الّله (والّله عنده حسن الثواب)[٣١] فالواجب على كل إمام عدل وسلطان قادر أن يمدّه ويودّه، ويشدّ عضده، ويقوّي عزمه، وينفذ حكمه، وعلى كل مسلم أن يواصله بالدعاء آناء الليل وأطراف النهار.

كتبه خادم دولته، وغـذيّ نعمته عبد الرحمن بن عبد المنعـم بن رضوان ابن عبـد الواحد بـن محمد بن المنـذر الحلبي، غفر اللّـه له ورحمه ورضي عنه، إلى كل من يصل إليه مـن أئمة الدين، وفقهاء المسلمين، وأصحاب الزوايا المتعبـدين وكافة التجار والمسـافرين، أحسن اللّه تـوفيقهم، وسدّد إلى أغـراض الخير تـوفيقهم ، ليشعـروا بذلـك مـن حضرهـم من التجـار والمتردّدين إليهـم من السفار، ليعـرفوا قدر ما أنعـم اللّه به عليـهوعليهم ، ولينـذروا قومهـم إذا رجعوا إليهـم، ويمـدّوه بأدعيتهـم، ويبرئوا ذمّته ممـا سبق من أخذ مـؤنتهم، فإنه لم يصرف ذلك إلاّ في خدمـة وجه برّ، وتجهيز جيش، ومعونة مجاهد، وردع كافر ومعاند، فهم شركاؤه في الثواب.

قال لي رضي الدين أبو سالم بن المنـذر: فلما وقف نور الدين على قوله: ويبرىء ذمّتـه مما سبـق، استحسـن ذلك كثيراً، ووعـده بـاقطاع حسـن، واتفق موته بعد ذلك[٣٢].

قلـت: ونقلت مـن خـط الشيخ الأمين أبي القـاسـم عبـد الرحمن بـن الحسين بن الخضر بـن الحسين بن عبدان الأزدي الدمشقـي: وقف المولى نـور الديـن بستـان الميـدان سوى الغيضـة التـي مـن قبليه بعـد عمارتـه واصـلاح ما يحتـاج إليه على تطييـب المساجـد التي يـأتى ذكـرها وهـي: جامع دمشق المحروسة، جامع قلعـة دمشق، مدرسة الحنفية التي جدّدها نـور الديـن، مسجـد ابن عطيـة داخـل باب الجابيـة، مسجـد ابن لبيـد بالفسقار، مسجد سوق الرماحين، المسجـد المعلق بسوق الصاغة، مسجد دار البطيـخ المعلق، مسجـد العباسي بسـوق الأحـد، مسجد نـور الديـن بجوار بيعـة اليهود، جـامع الصالحيين بجبـل قاسيون، يبتـاع بذلـك عود وطيب، ويفـرّق على هذه الأماكـن: النصف للجـامع بدمشـق، والنصف الثاني ينقسم على أحد عشر جزءاً: جزآن للمـدرسة، وتسعة أجزاء للتسعة المساجد الباقية لكل مسجد جزءاً واحداً،تطيب هذه الأماكن في الأوقات

الشريفة، ومواسم الاجتماعات وليالي شهر رمضان والأعياد، وأيام الجمع وقت عقد الجمعة في الجوامع، وليالي الجمعة والخميس والاثنين.

ونقلت من خطه أيضا أن نور الدين رحمه اللّه حضر عنده بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى القرشي والفقهاء : الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، والخطيب عز الدين أبو البركات بن عبد، والإمام عز الدين أبو القاسم علي بن الماسح الشافعيون، وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهاب بن عيسى المالكي، وشرف الإسلام نجم الدين عبد الوهاب الحنبلي، ورضي الدين أبو غالب عبد المنعم بن محمد ابن أسد التميمي، رئيس دمشق، ونظام الدين أبو الكرام المحسن بن أبي المضاء متولي الوزارة بدمشق، والأعيان من شهود العدالة بدمشق، وهم : عبد الصمد بن تميم، وعبد الواحد بن هلال، والصائن أبو الحسن، وغيرهم فسألهم نور الدين عن المضاف إلى أوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التي ليست وقفاً عليه، وأن يظهر كّل واحد منهم ما يعلمه من ذلك ليعمل به،ويقع الاعتماد عليه، وقال لهم: ليس يجوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئا إلا ويذكره، ولاينكر شيئا مما يقوله غيره إلا وينكره، والساكت منكم مصدّق للناطق، ومصوّب لقوله،وليس العمل إلاّ على ما تتفقون عليه، وتشهدون به، وعلى هذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين، فكل من الحاضرين شكره على ما قصده، وأثنى عليه، ودعا له بالبقاء، ثم أمر نور الدين متولي أوقاف الجامع والمساجد والبيمارستان وقني السبيل، وما يجري مع ذلك أن يقرأ عليه بمحضر من المذكورين ضريبة الأوقاف موضعا موضعاً ليفرد ما يعلمون أنه للمصالح دون الوقف، فافتتح بالسوق المستجدّ تحت المأذنة الغربية بجوار البيمارستان، فقال الصائن وابن تميم وابن هلال: هذا السوق بكماله لمصالح المسلمين، وليس من

وقف الجامع لأنه أحدث في طريق المسلمين، وقد صرف في الجامع من أجوره أو في مما غرم على عمارته من وقفه، فصدّقهم الحاضرون على ما شهدوا به، ومبلغ ذلك خمس وعشرون عضادة، ثم عين للمصالح أيضا ما في زيادة الجامع القبلية، وزيادة باب البريد في الصف القبلي والشامي من العضائد والحوانيت والحجر التي طباقها وطباق الطريق بحضرتها، وجميع بيوت الخضراء من قبلة الجامع، والفرن المستجدّ بها، ودار الخيل والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل، وحانوت الخواصين في الصف الغربي، واثنا عشر حانوتا متلاصقات في الصف الشرقي تعرف بالمعتصميات، ونصف حانوت والفرجة المستجدّة بحضرة دار الوكالة إلى سوق علي،وعدتها ثلاثة عشر حانوتا ومصطبة، وثلاثة حوانيت في الصف الشامي من سوق علي ملصق الفرجة من شرقها، وحانوت بالفسقار في الصف القبلي يعرف بسكنى ثعلب الفقاعي، وحوانيت اللبادين والتي بحضرة الفوارة وتحت اللبادين، وقيسارية العقيقي بسوق الأحد وتعرف بدار الشجرة، وحانوتان في الصف الشرقي بحضرة فندق الزيت من غرب درب التمارين، وحانوت بقنطرة الشماعين في الصف الشامي بحضرة البياطرة، وقطعة بجوار المأمونية من غربها، والعضائد التي في الصف الشامي من سوق الأحد، وهي خمس عشرة عضادة وستة أسهم من طاحونة السقيفة، وذلك كله بعضه ميراث عن بني أمية كالخضراء ودار الخيل، وبعضه اشتري بمال الوقف والمصالح، وبعضه أخذ ممن باد أهله الموقوف عليهم، ولم يكن له مال، وبعضه أحدث في الطريق.

قال: فلما شهدوا بصحة جميع ما ذكر، وأن منافع ذلك وأجوره جارية في المصالح، قال نور الدين: إن أهم المصالح سدّ ثغور المسلمين، وبناء السور المحيط بدمشق، والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم، فصوّبوا ما أشار اليه وشكروه، ثم سألهم عن فواضل الاوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين،

فأفتى شرف الدين عبد الوهاب المالكي بجواز ذلك، ومنهم من روّى في مهلة النظر، وقال الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون الشافعي: لايجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره، ولا وقف معين لجهة إلى جهة غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بدّ من ذلك فليس طريقة إلا أن يقترضه من إليه الأمر في بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح، ويكون القضاء واجباً من بيت المال، فوافقه الائمة الحاضرون معه على ذلك، ثم سأل ابن أبي عصرون نور الدين: هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق، وعلى بناء الكلاسة من شام الجامع ، وعلى إنشاء السقف المقرنص تحت النسر بالجامع ، وعلى الرصاص المعمول على سطح الرواق الشامي من الجامع وسائر العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا، وهل كان إلاّ مبلغا للأمر العالي في عمل ذلك؟ فقال نور الدين: لم ينفق ذلك ولاشيء منه إلا باذني وأنا أمرت به وبفتح المشهدين من غربي الجامع المعمور اللذين كانا مخزنين، وكتب مبلغا عني ومؤديا أمري.

قلت:وقد رأيت المحضر الذي كتب فيه صورة ما جرى في ذلك المجلس وهو مشتمل على فوائد حسنة، وتأكيد لما نقل من سيرة هذا الملك في وقوفه مع أوامر الشرع، وفي ذلك المحضر خطوط الجماعة الحاضرين، وصورة ما كتبه المالكي المفتي:«حضرت المجلس المذكور، عمره اللّه وزينه بالعدل أبداً ما عاش صاحبه، وشهدت على ماتضمنه من المشورة المباركة، ومانسب إلى الجماعة من الشهادة بالمواضع المشهورة كما نسب إليهم وقد أخل بذكر دار الحجارة، وقد ذكروها في المصالح المشهورة، ومانسب إليّ من الفتوى، فقد كنت قيدته بالحاجة وفراغ بيت المال أو ضعفه عن القيام بما يحتاج إليه المسلمون ومهماتهم الدينية. كتبه عبد الوهاب بن عيسى بن محمد المالكي».

# فصل

وقد مدح نور الدين رحمه الله تعالى بأشعار كثيرة، وأوصافه فوق ما مدح به، وكان في أوّل دولته شاعرا زمانهما أبو عبد اللّه محمد بن نصر بن صغير، وأبو الحسن أحمد بن منير، ولهما فيه أشعار فائقة ستأتي جملة منها في مواضعها وقد رأيت أن أقدم منها شيئا هنا.

قرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني: كتبت إلى نور الدين سلام الله وحنانه، ورأفته وامتنانه، وروحه وريحانه، على من عصم بعزه العواصم، وخصم بحجته الدهر المخاصم، وألجم بهيبته العائب والواصم، الذي انتضى في سبيل اللّه سيوف الجهاد، وارتضى بعز سلطانه شعار العباد والزهاد، واهتدى إلى طاعة اللّه وليس غير اللّه من هاد، ومن أصبحت أطراف البلاد أوساطاً لمملكته، ومعاقل الكفار في عقال ملكته، ومركز الشكر مراكز أعلامه وألويته، ومن عادت به ثغور الشام ضاحكة عن ثغور النصر، وممالك الإسلام متوجة بتيجان الفخر، وصعاب الأمور منقادة إليه بأزمة القهر، ومن رأى الحكم دارسة ، فبنى مدارسها، والهمم يابسة فسقى منابتها ومغارسها، والمنابر شامسة فأمكن من صهواتها فوارسها، ومن عمر ربع السنن بعدما عفا، وأنقذ من الفتن من كان منها على شفا، ومن نشر أعلام الفضل، وأنشر بعد الوفاة أيام العدل، ومن أنار بوجهه الإيمان، وأخذ الناس به من الزمان توقيع الأمان:

ذو الجهاد من عدوّ ونفس ... فهو طول الحياة في هيجاء

فهو المالك الذي ألزم الناس ... سلوك المحجة البيضاء

قد فضحت الملوك بالعدل لما ... سرت في الناس سيرة الخلفاء

قاسما ما ملكت في الناس حتى ... لقسمت التقى على الاتقياء

شيـــــم الصـــــــالحين في جتر الترك
وكـــم مـــــن سكينـــــة في قبـــــاء
أنـــت حينـــا تقـــاس بـــالاســـد الـــورد
وحينــــا تعـــــد مـــــن الأوليـــــاء
صـــاغـــك اللـــه مـــن صميـــم المعـــالي
حيــــث لا نسبـــــة ســـــوى الالاء
وكـــــان القبـــــاء منـــــك لما ضـــمّ
مــــن الطهــــر مسجـــد بقبـــــاء
أنـــــت إلا تكـــــن نبيـــــا فما فـــــاتـــك
إلاّ خـــــــــــلائق الأنبيـــــــــاء
رأفــــة في شهـــــامـــــة وعفــــاف
في اقتــــــدار وسطـــــوة في حيـــــاء
وجمال ممنطــــــــــق بجـــــــلال
وكمال متـــــــــــوّج ببهــــــــــاء
وإذا مـــا الملـــوك خـــافـــت سهـــام الـــذ
ذم زرّت عليــــــــك درع الثنـــــــاء
اعجـــب النـــاس منـــك إنـــك في الحر
ب شهـــــاب الكتيبـــــة الشهبـــــاء
وكـــان السيـــوف مـــن عـــزمـــك الما
ضي أفـــادت مـــا عنـــدهـــا مـــن مضـــاء
ولعمـــري لـــو استطـــاع فـــداك ال
قـــوم بـــالامهـــات والآبـــاء[٣٣]

وله فيه شعر
للّـــه عـــزمـــك أي سيـــف وغـــى
طبعـــت مضـــاربـــه على القهـــر
مـــازفـــت الحرب العـــوان بـــه
الا انجلـــت عـــن معقـــل بكـــر

هل وجهه نور الدين غير سنى
صدع الدجى عن خجلة البدر

ملك مهابته طليعته
أبدا أمام جيوشه تسري

كم فل كيدهم بصاعقة
شغلت قلوبهم عن الكفر

تركت حصونهم سجونهم
فالقوم قبل الأسر في أسر

عصم العواصم فهي ضاحكة
تجلوا الظبى ثغرا على ثغر

فإذا سرايا خيله قفلت
نهضت سرايا الخوف والذعر

ورمى القلاع بمثل جندلها
حتى استكان الصخر بالصخر

يا سائلي عن نهج سيرته
هل غير مفرق هامه الفجر

عال حقيق من تأمله
أن يحيي العمرين بالذكر

وشهامة في اللّه خالصة
عقدت عليه تمائم الأجر

وندى يد ما ضرّ واردها
أن لا يبيت مجاور البحر

هذا المخيم في ذرى حلب
وثناؤه أبداً على ظهر

وله فيه وقد وصف داره:

دار تغار الشمس في أفق
من حسنها والشمس مغيار

يـــــزأر فيهـــا ضيغـــــم مـــــالـــــه
غير سيـــــــوف الهنـــــــد أظفـــــــار

تمسي وتضحـــــــي وهـــــــو جـــــار لها
واللّـــــه ذو العـــــرش لــــــه جـــــار

لسيفــــه البـــــاتـــــر مـــــن دهــــره الـــــ
ـــــجائر مـــــا يهوى ومـــــا يختـــــار

قـــــد مـــــلأ الأسفـــــار مـــــن ذكـــــره
نشر لـــــــــه في الأرض إسفـــــــــار

حمد يضـــــــوع الجوّ مـــــــن طيبـــــــه
كـــــأنها راويـــــــه عطـــــــار

إن خطـــــــرة في قلبــــــه خطـــــرت
أجـــــابها مـــــــاض وخطـــــــار

وإن دعـــــا داعيـــــه يـــــوم الـــــوغـــــى
سيـــــــوفـــــه لبتــــــه أقـــــدار

وإنها صـــــارمــــــه مـــــرســـــل
لـــــه مــــن التـــــأييـــــد أنصـــــار

يـــــا ملـــــك الـــــدنيـــــا ولكنهـــــا
دنيـــــا لها في الـــــديـــــن آثـــــار

ويـــــا جـــــــوّادا مـــــا لآلائه
غير قضـــــــــاء الحمـــــــــد مضمار

وله فيه أيضا:

تـــــدارك ملـــــة العـــــربي ذبـــــا
إلى أن عـــــــده منـــــــه معـــــدّ

وحـــــل ذرى العـــــواصـــــم وهـــــي نهبـــــى
فـــــأجلى الشرك حتـــــى ليـــــس ضـــــد

ثنـــــى يـــــده عـــــن الـــــدنيـــــا عفـــــافـــــا
ومـــــال بها عـــــن الأمـــــوال زهـــــد

رأى حط المكوس عن الرعايا
فأهدر قبل ما أنشاه بعد
ومد لها رواق العدل شرعا
وقد طوى الرواق ومن يمد
وبات وعند باب العرش منها
لدولته دعاء لا يردّ

وله فيه:

ملك أشبه الملايك فضلا
وشبيه بها الملك الأمر جنده .

عم إحسانه فأصبح يتلى
شكره في الورى ويدرس حمده
فسقى اللّه ذكره أينما حل
ولا فاته من النصر رفده

وله فيه:

ضحكت تباشير الصباح كأنها
قسمات نور الدين خير الناس
المشتري العقبى بأنفس قيمة
والبائع الدنيا بغير مكاس
وسرى دعاء الخلق يحرس نفسه
إن الدعاء يعد في الحرّاس
راض الخطوب الصم بعد جماحها
وألان من قلب الزمان القاسي
وأعاد نور الحق في مشكاته
وأقام وزن الحق بالقسطاس

واختار مجد الدين سائس ملكه
فحمى السياسية منه طود راسي
فهو الخبير بكل داء معضل
يأسو جراح زماننا ويواسي
وأذل سلطان النفاق بعزة
خضعت لها الأساد في الأخياس
وعرته أقران الخطوب فصدها
ألوى يمارسها أشد مراس
ولو أن فيض النيل فائض نيله
لم تفتقر مصر إلى مقياس
سكنت شعب الدهر بعد تخمط (٣٤)
وألنت من عطفيه بعد شماس
وفتحت باب الحظ بعد رتاجه
وأذنت للاطماع بعد اليأس
حتى منحت الخلق كل مسرّة
فالناس في عرس من الأعراس

وله فيه:
سام الشآم ويا لها من صفقة
لولاه ما عنت على يد سائم
ولشمرت عنها الثغور وأصبحت
فيها العواصم وهي غير عواصم
تلك التي جمحت على من راضها
ودعوت فانقادت بغير شكائم

وإذا سعادتك اجتبت في دولة
قام الزمان لها مقام الخادم
حصن بلادك هيبة لا رهبة
فالدرع من عدد الشجاع الحازم

هيهات يطمع في محلك طامع
طال البناء على يمين الهادم

كلفت همتك السموّ فحلقت
فكأنها هي دعوة في ظالم

وأظن أنّ الناس لما لم يروا
عدلا كعدلك ارجفوا بالقائم

وله فيه:

قلت بقول اللّه لا خائفا
مع حكم القرآن حكم القران

لا راقب النجم ولا سائلا
ما فعل السعدان والنيران

بل غرت للاسلام حتى لقد
دان له من بالطواغيت دان

رعت نواميس نواقيسها
بحلبة الآذان وقت الأذان

تمحو تصاوير الدمى عن يد
تبني المحاريب خلال المجان

هذا وكم أنشأت من منبر
فارسه فارس سحر البيان

من نال بالاخلاص ما نلته
كان من اللّه مكين المكان

يا شائها بالشام صوب الحيا
ودانيا من كل قاص ودان

هذي سجوف الملك مرفوعة
عن ملك أخباره كالعيان

أوضح سبل العدل مفتنة
فللبرايا بالدعاء افتتان

ألغى حقوقا كلها باطل
إلى مآل حط مال الضمان
عطفا ورفقا بالرعايا وان
أصبح تأديب ملوك الزمان
كم بين من نام على نشوة
وساهر في صهوة من حصان
في كل يوم يبتني سيفه
ببلدة بكر وأخرى عوان

وقرأت في ديوان أحمد بن منير الطرابلسي من قصائد يمدح بها نور الدين رحمه الله تعالى:

يا محيي العدل ويا منشره
من بين أطباق البلى وقد همد
وركن الاسلام الذي وطده
طال وأرسى العز فيه ووطد
وشارع المعروف إذ لا سفه
يجنح للقول ولا تسمح يد
محوت ما أثبته الجور مضى
عليه إخلاد الليالي مخلد
من كل مكاس يظل قاعدا
لما يسوء المسلمين بالرصد
كانت لأرجاس اليهود دولة
أزالها منك المصور ذو اللبد
الملك العادل لفظ طابق الـ
ـمعنى وفي الوصف معار مسترد
خير النعوت ما جرى الوصف على
صفحته جري النسيم في الومد

عـــدل جنيــت اليـــوم حلـــو ريعـــه
وســـوف يجنـــى لـــك أحلى منـــه غـــد

لازال لـــــلاســـــلام منـــك عـــدة
تقيـــم منـــه كـــل زيـــغ وأود

النـــاس أنـــت والملـــوك شرط
تعـــدّليثـــا ويعـــدّون نقـــد

مثلـــك لا يسخـــو بـــه زمـــانـــه
ومثـــل مـــا أوتيـــت لم يـــؤت أحـــد

وله فيه

أيـــا نـــور ديـــن خبـــا نـــوره
ومـــذ شـــاع عـــدلـــك فيـــه اتقـــد

رآك الصليـــب صليـــب القنـــاة
أمين العثـــار متين العمـــد

تهمّ فتسلبـــه مـــا اقتنـــى
وتـــدئى (٣٥) فتثكلـــه مـــا احتشـــد

زبنتهـــم أمـــس عـــن صرخـــد
ففضـــوا كـــأن نعـــامـــا شرد

ويـــوم العـــريمـــة أقبلتهـــم
عـــرامـــا يثعلـــب منـــه الأســـد

جنبـــت مليكهـــم في الصفـــاد
وعفـــوك عنـــه أعـــم الصفـــد

وقبـــل أزرتهم في الـــرهـــا
مـــوازق مـــزقـــن جـــرد الجرد

بقيـــت تـــرقـــع خـــرق الـــزمـــا
ن قيـــامـــا لابنـــائه إن قعـــد

تثقـــف مـــن زيغـــه مـــا التـــوى
وتصلـــح مـــن طبعـــه مـــا فســـد

وله فيه:

أيا ملك الدنيا الحلاحل والذي

له الأرض دار والبرية أعبد

وليست بدعوى لا يقوم دليلها

ولكنه الحق الذي ليس يجحد

أخو الغزوات كالعقود تناسقت

تحل بأجياد الجياد وتعقد

لسان بذكر اللّه يكسو نهاره

بهاء وجفن في الدجى ليس يرقد

وبذل وعدل أغرقا وتألقا

فلا الورد مثمود ولا الباب موصد

مرام سمائي وحزم مسدّد

ورأي شهابيّ وعزم مؤيد

وله فيه:

أبدا تنكب عن ضلال سادرا

بثقوب زندك أو تدل على هدى

سدت الكهول من الملوك مراهقا

وشأوت شيبهم البوازل أمردا

إن شيدوا صرحا أناف مناره

أو يسجدوا للكاس جدّد مسجدا

وإذا استهزتهم فلا يد معبد

هزته موعظة فعرّف معبدا

قسما بشام الشام منك مهندا

أرضاه مشهورا وراع مقلدا

وتمسك الاسلام منك بعروة

اللّه أبرم حبلها فاستحصدا

أشفى فكنت شفاءه من حادث
غاداه عارضه مردى بالردا

كنت الصباح لليله المادجي
والغوث كف لظاه حين توقدا

لله يوم أطلعتك به النوى
يجتاب من مهج الأصافر مجسدا

نشوان غنتك الظبى مفلولة
وأمال عطفك الوشيج مقصدا

في معرك ما قام بأسك دونه
إلا أقام المشركين وأقعد

ولكم مكرّ قمت فيه معلما
أرضى إلهك والمسيح وأحمدا

يوم العريمة والخطيم وحارم وشـ
ـعاب باسوطا وهاب وصرخدا

لا يعدم الاشراك جدّك أنه
ما سلّ فيهم حاكما إلا اعتدى

أهمدتهم من بعد ما ملأوا الملا
زجلا فهل كانت سيوفك مرقدا

طلعت نجوم الحق من آفاقها
وأعادها كرّ العصور كما بدا

وهوى الصليب وحربه وتبختر الا
سلام من بعد التأفف أغيدا

سبق المجلي للخطي فرفعه
نسق فتم وقد رفعت بالابتدا

وله فيه:

محمود المربى على اسلافه
إن زاد في حسب الحسيب نجار

تقفو طريق الصالحين مسابقا
لهم وتطلع خلفك الأبرار
نفس السيادة زهد مثلك في الذي
فيه تفانت يعرب ونزار
ومتى ادّعى ما تدعيه محكم
أوهى معاقد دينه دينار
للّه ما ظفرت به منك المنى
وتكنفت من ركنك الاستار
وسقى الغمام ثرى أبيك فانه
أزكى ثرى قطرت عليه قطار
شهدت نضارة عودك الغض الجنى
أن الذي استخلصت منه نضار
أما نهارك فهو ليل مجاهد
والليل من طول القيام نهار
فلذلك النصر العزيز أدلة
أنى اتجهت وللفتوح أمار

وله أيضا فيه رحمه الله تعالى:

رأينا الملوك وقد ساجلو
ك تمنوا منونا وغرّوا غرورا
أبى لك أن يدركوه أب
يزير فينسي الأسود الزئيرا
وجد إذا جدّ يوم الرها
ن أبقى لتاليه جدّاً عثورا
تصب عصاك على من عصاك
يوما عبوسا بها قمطريرا
لقد ألبس الشام هذا الإباء
لبوسا من الامن لينا وثيرا

تـــداركـــت أرمـــاقـــه والقلـــو
ب نـــوافـــر أن يستجـــنّ الصـــدورا
أقمـــت جثـــاثـــا (٣٧) وكـــانـــت جثـــا
وشـــدّت قصـــورا وكـــانـــت قبـــورا
وكـــم لـــك مـــن غضبـــة للهـــدى
تميـــت الهوى وتجب الـــذكـــورا
إذا قطـــب اليـــأس كـــانـــت ردى
وإن ضحـــك العفـــو عـــادت نشـــورا
كملـــت فـــوقيـــت عين الكمال
تبيـــد السنين وتفنـــي العصـــورا
وجـــاد لنـــا بـــك رب بـــرا
ك للكفـــر نـــارا وللـــديـــن نـــورا
إذا مـــا خـــدمـــت فمـــولى كـــريما
وأمـــا عبـــدت فعبـــداً شكـــورا
امـــام المحـــاريـــب بـــرّا حصـــورا
وتحت الحروب هـــزبـــرا هصـــورا
تبـــارك مـــن شـــاد هـــذي الخلال
في ظلـــه الملـــك طـــودا وقـــورا
وألـــف في معقـــد التـــاج منـــ
ـــك سطـــواً سعيراً وعفـــوا نميرا

وله فيه:

عقـــل الحق ألســـن المدعينـــا
أنـــت خير الملـــوك دنيـــا ودينـــا
وأســـد الانـــام قـــولا وأفعـــا
لاً ونفســـاً ونيـــة ويقينـــا
أنـــت أسنـــاهـــم أبـــا وإبـــاء
وأمـــر أحيـــا وأمـــرع حينـــا

بســـــط الـــــرزق في البسيطـــــة كفـــاك
فكلتـــــا يــــديـــك تلفــــى يمينـــا
فيـــــد تحســـــم النـــــوائب عنـــــا
ويــــد تقســـم الـــرغــــائب فينـــا
أيها البحـــــر لـــــو تســـاجلـــك الأبحـــر
عـــــامـــت في ســـاحليـــك سفينـــا
ولكـــــان المحيــــط منهـــــا محاطـــا
مثــــل نــــون الهجــــاء أو خيـــل نـــونـــا
مشرعـــــا مترعـــــا ومنـــــا مهنـــــا
وربـــــاعـــــا فيحـــــا وكفـــــا البـــونـــا
ومحيـــا طلقـــــا ومــــالا طليقـــــا
وابتهـــاجـــا قصـــداً وحبـــلا متينـــا
بين ذب يميـــــت عـــــاديـــــة الشر
ك وهـــــب يحيـــــى بـــــه المسلمـــونـــا
تتسنـــــى مــــن الفتـــوح ألـــوفـــا
أنـــــت أعلى مــــن أن تعـــــدّا المئينـــا
كلما اجتبــــت ثـــوب نصر عـــــزيــــز
مـــن مــــرام أقبلـــت فتجـــامبينـــا

صرف اللّـــــه عنـــك صرف الـــزمـــــان
أنـــــت علمـــــت صرفـــــه أن يهونـــــا
يـــابـــن مــــن طبـــق البسيطـــة آثـــا
راً وعــــلّ لمنـــابـــذيـــه الاجـــونـــا(٣٨)
وغـــدت حصنـــه على شرح هـــــذا الـــد
يـــن مــــن شكـــة الأعـــادي حصـــونـــا
كـــم تعـــالى صهيلهـــا في ربـــى الشـا
م فـــأعلى خلـــف الخليـــج الـــرنيينـــا
كـــان صنـــو الـــرشيـــد أبقـــاك للحكـــ
ـــمة والبـــأس بعـــده المأمـــونـــا

سمـــع اللــــه فيـــك دعــــوة سكـــن
أوطنـــوا مـــن حماك حصنـــا حصينـــا
غـــرّقتهـــم مـــدى الخطـــوب فـــأحييـــ
ـــــت رفـــاتـــا مـــن التراب دفينـــا
البســـواعـــدلـــك المديـــح فـــاختـــا
لـــوابنـــات في وشيـــه وبنينـــا
سهـــرت عينـــك الكلـــؤ ونـــامـــوا
تحت أكنـــاف رعيهـــا آمنينـــا

قلت:فهذا أنموذج من أشعار هذين الفحلين فيه مع أنهما ماتا في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة قبل أن يفتح نـور الدين دمشق، وبقي نـور الدين حيـاً بعدهما إحـدى وعشرين سنـة يترقى كـل عام في إزديـاد من جهـاد واجتهاد، ولو كـانا أدركا ذلك لأتيا في وصفه بعجـائب المدائح ، مع أنه قد تولى ذلـك غيرهما ممن لم يبلغ شأوهما. ولأبي المجـد المسلم بن الخضر ابن قسيم الحموي من قصيدة فيه:

تبـدو الشجـاعـة مـن طـلاقـة وجهـه
كـالـرمـح دل على القســاوة لينـــه
ووراء يقظتـــــه أنـــــاة مجرّب
للّـــه سطـــوة بـــأســـه وسكـــونـــه
هـــذا الـــذي في اللـــه صـــح جهـــاده
هـــذا الـــذي بـــاللّـــه صـــح يقينـــه
هـــذا الـــذي بخـــل الـــزمـــان بمثلـــه
وا لمشمخـــر إلى العلى عـــرنينـــه
ملـــك الـــورى ملـــك أغـــرّ متـــوّج
لاغـــدره يخشـــى ولا تلـــوينـــه
إن حـــلّ فـــالشرف التليـــد أنيســـه
أو ســـار فـــالظفـــر الطـــريـــف قـــرينـــه
فـــالـــدهـــر خـــاذل مـــن أراد عنـــاده
أبـــدا وجبـــار السماء معينـــه

ملـك إذا تليـت مـآثـر قـومـه
كسـد اللطيـم وهجـن النـوار

مـلأ الفـرنجـة جـور سيفـك فيهـم
فلهـم على سيـف المحيـط جـوار

يـومـا يـزيـرك جـوف عـرقـة معلما
جـوف لـه خلـف الـدروب أوار

وتجر في الأردن فضلـة ذيلـه
نقـع بـأكنـاف الأرنـط مثـار

إمـا تبيـح حـريـم أنطـاكيـة
أو يفجـأ الـداروم منـك دمـار

عفـى جهـادك رسـم كـل مخوفـة
وصفـت بصفـوة عـدلـك الأكـدار

ومحا المظـالم منـك نظـرة راحـم
للّـه في خطـراتـه أسرار

غضبـان لـلاسـلام مـال عمـوده
فلنـوره ممـا عـراه نـوار

وجـذمـت كـل يـد تسـور على يـد
فـاحلـت ذاك السـور وهـو سـوار

لم يبـق مـاكـس مسلـم شلقـا(٣٦) ولا
سـاع لمظلمـة ولا عشـار

همدوا كما همدت ثمـود وقـادهـم
بخسـارهـم ممـا أتـوه قـذار

العـار في الـدنيـا شقـوا بلبـاسـه
ولبـاسهـم يـوم الحسـاب النـار

كـم سيرة أحييتهـا عمـريـة
رفعـت لها في الخافقين منـار

ونـوافـل صيرتهنّ لـوازمـا
بـأقلهـا تستعبـد الأحـرار

والـــــديــــــن يشهــــــد أنــــــه لمعــــــزه
والشرك يعلــــــم أنــــــه لمهينــــــه
مـــــازال يقســـم أن يبـــدّد شملـــه
واللّــــه يكــــره أن تمين يمينــــه
فتــح الــرهـــا بـــالأمـــس فـــانفتحـــت لـــه
أبـــواب ملـــك لا يـــزال مصـــونـــه

ومدائح نور الدين رحمه الله كثيرة، وذكر الحافظ أبو القاسم أنه كان قليل الابتهاج بالشعر، ومات حادي عشر شوّال سنة تسع وستين وخمسمائة، ودفن بقلعة دمشق، ثم نقل إلى قبته بمدرسته بجوار الخواصين.

قلت :وقد جرّب استجابة الدعاء عند قبره، وهذا ذكر طرف من مناقبه جملة ، ونحن بعد ذلك نأتي بأخباره وأخبار سلفه مفصلة مرتبة وما جرى في زمانهم على سبيل الاختصار إن شاء اللّه تعالى

## فصل

أصل البيت الأتابكي هو قسيم الدولة آق سنقر جدّ نور الدين، فنذكره وما تم في أيامه، ثم نذكر ولده زنكي وما تم في أيامه، ثم نذكر ولده محمود بن زنكي، ثم نذكر ما بعده، وهي الدولةالصلاحية الايوبية، وما تم في أيامها فنقول:

كان آق سنقر تركيا من أصحاب السلطان ركن الدين ملكشاه بن ألب أرسلان ، وهو عم دقاق بن تتش بن ألب أرسلان الذي كان سلطان دمشق، وقبره بقبة الطواويس بها، بنته والمشهد والدته، وكان السلطان ملكشاه من جملة الملوك السلجوقية المتغلبين على البلاد بعد بني بويه بالعراق، فكان قسيم الدولة من أصحابه وأترابه وممن ربي معه في

صغـره، واستمرّ في صحبتـه إلى حين كبره،فلما أفضت السلطنـة بعد أبيـه إليه جعلـه من أعيـان أمرائه، وأخـص أوليائه، واعتمـد عليه في مهماتـه، وزاد قدره علوّاً إلى أن صار يتقيه مثل نظـام الملك الوزير، مع تحكمه على السلطان، وتمكنـه من المملكة، فأشـار نظام الملك على السلطـان أن يولي آق سنقـر مـدينـة حلـب وأعمالها، وأراد بـذلـك أن يبعـده عـن خـدمـة السلطان، ويتخذ عنده يداً بذلك.

قـال ابن الاثير: ومـن الدليـل على علوّ مـرتبتـه، تلقبه قسيـم الدولـة، وكانـت الألقاب حينئـذ مصونـة لاتعطى إلا لمستحقيهـا. وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة سير السلطان ملكشـاه الوزيـر فخر الـدولة بـن جهير، وكان زوج ابنـة نظام الملك إلى الموصـل، وسير معه جيشـاً عظيماً، وجعل المقدّم على الجيش قسيـم الدولة آق سنقر فسار نحـو الموصل، ولقيهم في الطريـق الأمير أرتق التركماني جـدّ ملوك الحصـن وماردين فإستصحبـوه معهم، فحصروا الموصل ، وحـاربوا من بها وتسلموها، وسـار صاحبها إلى السلطان فـردّها عليـه وكانت يـومئذ لأحد أمـراء بني عقيـل، وهو شرف الـدولة مسلـم بن قـريش بـن بدران العقيلي، وكـان ملكه مـن السندية بالعـراق على نهر عيسى إلى منبـج وما بينهما مـن البلاد الفـراتية: كهيـت والأنبار وغيرها، وملك الموصل وديار بكر والجزيـرة بأسرها، وملك مدينة حلـب، وكان عـادلاً حسن السيرة، عظيـم السيـاسة واتفـق ان وقع بينـه وبين صاحب أنطـاكية خلاف، وذلك أن أنطـاكية كان الروم قـد استولوا عليها سنـة ثمان وخمسين وثلاثمائة، ولم يزالـوا بها إلى هذه السنـة، ففتحها سليمان بـن قتلمش، وهـو جدّ الملـك غيـاث الديـن كيخسرو، صاحـب قونية وغيرهـا، وكان لشرف الدولة صـاحب حلب على صاحـب أنطاكية الـرومي جـزية يـأخذهـا كـل سنة، فـانقطعت عنه بسبب أخـذ سليمان البلاد، فأرسـل شرف الدولة يطلب منـه ما كان يأخـذه من الروم وتهدّده، فقـال: أنا في طـاعتك وهـذا الفتح بسعـادتك، والخطبـة والسكة لـك ، ولست بكافر حتـى أعطيك ما كنت تأخذه من الـروم ،فلج شرف الدولة

في طلب المال، فالتقيا فقتل شرف الدولة وانهزم عسكره، وسار سليمان إلى حلب فحصرها، وسار إليها من دمشق تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان أخو السلطان ملكشاه، فالتقى عسكر تتش وسليمان، فقتل سليمان وانهزم عسكره، وملك تتش مدينة حلب دون القلعة، فأرسل أهل القلعة إلى ملكشاه ليسلموها إليه، وهو يومئذ بالرها، وكان سبب مسيره إليها أن ابن عطير النميري قد باعها من الروم بعشرين ألف دينار، وسلمها اليهم فدخلوها وأخربوا المساجد وأجلوا المسلمين عنها، فسار ملكشاه إليها في هذه السنة، فحصرها وفتحها وأقطعها الأمير بزان، فلما أتاه رسل أهل القلعة بحلب بالتسليم، سار إليهم فلما بلغ مسيره إلى أخيه تاج الدولة رحل عن حلب إلى دمشق، ووصل السلطان إلى حلب وبالقلعة سالم بن مالك بن بدران العقيلي وهو ابن عم شرف الدولة ، فسلمها إلى السلطان بعد قتال وأعطاه السلطان عوضاً عنها قلعة جعبر، وكان قد ملكها في هذه السفرة، من صاحبها جعبر القشيري، وكان شيخاً كبيراً أعمى، فبقيت بيد سالم وأولاده إلى أن أخذها منهم الملك العادل نور الدين كما سيأتي، فلما ملك السلطان حلب أرسل إليه الأمير نصر بن علي بن المقلد بن منقذ الكناني صاحب شيزر، ودخل في طاعته وسلم إليه اللاذقية وفامية وكفر طاب.

ثم إن نظام الملك أشار على السلطان بتسليم قلعة حلب وأعمالها وحماه ومنبج واللاذقية وما معها إلى قسيم الدولة آق سنقر، فأقطعه الجميع، وبقيت بيده إلى أن قتل سنة سبع وثمانين وأربعمائة، كما سيأتي، وأقطع السلطان مدينة أنطاكية الأميرياغي سغان، ولما استقر قسيم الدولة في الشام ظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع بلاده، ثم إن السلطان استدعاه إلى العراق، فقدم إليه في تجمل عظيم لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه، فاستحسن ذلك منه، وعظم محله عنده، ثم أمره بالعود إلى حلب ، فعاد إليها، فلما مات السلطان ملكشاه سير قسيم الدولة جيشاً إلى تكريت، فملكها وفي سنة احدى وثمانين قصد قسيم

الـدولة شيـزر فنهبهـا، وعاد إلى حلـب، وفي سنـة ثلاث وثمانين اجتمـع قسيم الدولة وبـزان وحصروا مدينة حمص فملكوها، ومضى ابـن ملاعب إلى مصر، وفي سنـة أربع وثمانين ملـك قسيـم الدولـة حصـن فـامية مـن الشام، وملك الرحبة.

## فصل

وفي عاشر رمضان سنـة خمس وثمانين قتل الوزير نظام الـدين أبو علي الحسن بـن علي بن اسحـاق، قتله صبـي ديلمي بعـد الافطار وقـد تفرّق عن طعامه الفقهاء والأمراء والفقراء وغيرهم من أصناف الناس، وحمل في محفة لنقرس كان به إلى خيمة الحرم، فلقيه صبـي ديلمي مستغيثاً به فقرّبه منه ليسمـع شكواه فقتلـه، وقتل الصبـي أيضا فعـدمت الـدنيا واحـدها الذي لم تر مثله، وكان تلك الليلة قـد حكى له بعض الصالحين أنه رأى النبـي صلى الّله وسلـم في المنـام ، كـأنه أتـاه وأخـذه مـن محفته فتبعـه، فاستبشر نظـام الديـن بذلك وأظهـر السرور به، وقـال: هذا أبغـي وإياه أطلب ، وكـان قد بلـغ من الـدنيا مبلغـا عظيما لم ينله غيره، وكـان عالما فقيهـا دينـا خيراً متواضعـا عـادلا، يحب أهـل الـدين ويكـرمهـم ويجزل صلاتهم، وكان أقـرب الناس منه وأحبهم إليه العلماء، وكان ينـاظرهـم في المحافل ويبحث عن غوامض المسائل لأنه اشتغل بالفقه في حال حداثته مدّة، وأما صدقـاته ووقوفه فلا حد عليها، ومـدارسه في العالم مشهورة، لم تخل بلد مـن شيء منها حتـى جزيـرة ابن عمـر التي هـي في زاوية مـن الأرض لايؤبـه لها بنى فيهـا مدرسة كبيرة حسنـة، وهي التـي تعرف الآن بمـدرسـة رضي الديـن، وأعمالـه الحسنـة وصنـائعـه الجميلة مـذكـورة في التواريخ لم يسبقه مـن كان قبله ولا أدركه من كان بعـده، وكان من جملة عبـاداته أنـه لم يحدث إلا تـوضأ ولاتـوضـأ إلا صلى ، وكـان يقرأ القـرآن حفظاً ، ويحافـظ على أوقات الصلـوات محافظة لايتقدمـه فيها المتفـرّغون للعبـادة حتى أنـه كـان إذا غفـل المؤذن أمره بـالأذان، واذا سمـع الأذان

أمسك عن كل ما هو فيه، واشتغل باجابته، ثم بالصلاة، وكان قد وزر للسلطان عضد الدولة ألب أرسلان، والدملكشاه قبل أن يلي السلطنة في حياة عمه السلطان طغر لبك أوّل الملوك السلجوقية ببغداد، فلما توفى طغر لبك سعى نظام الملك في أخذ السلطنة لصاحبه ألب أرسلان، وقام المقام الذي تعجز عنه الجيوش الكثيرة، واستقرّت السلطنة له وبقي معه إلى أن توفي، ثم وزر بعده لولده السلطان ملكشاه إلى أن قتل، وكان قد تحكم عليه،إلى حد لايقدر السلطان على خلافه، لكثرة مماليكه ومحبة العساكر له والأمراء، وميل العامة والخاصة إليه، لحسن سيرته وعدله، وهذا كلام أبي الحسن بن الأثير.

وقرأت في كتاب المعارف المتاخرة، ويسمى عنوان السير لمحمد بن عبد الملك بن ابراهيم الهمذاني قال: وزر نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن اسحاق الطوسي للسلطان ألب أرسلان، ولولده السلطان ملكشاه أربعاً وثلاثين سنة، وقتل بالقرب من نهاوند وعمره ست وسبعون سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوما، اغتاله أحد الباطنية، وقد فرغ من فطوره، قال: وقيل إن السلطان ملكشاه ولف عليه من قتله لأنه سئم طول عمره، ومات بعده بشهر وخمسة أيام، وقد تقدّم نظام الملك في الدنيا التقدم العظيم، وأفضل على الخلق الافضال الكثير، وعم الناس بمعروفه، وبنى المدارس لأصحاب الشافعي ووقف عليهم الوقوف ،وزاد في الحلم والدين على من تقدّمه من الوزراء،ولم يبلغ أحد منهم منزلته في جميع أموره، وعبر جيحون فوقع على العامل بأنطاكية، بما يصرف على الملاحين، وملك من الغلمان الأتراك ألوفا، وكان جمهور العساكر وشجعانهم وفتاكهم من مماليكه.

قلت: وأنشد أبو سعد السمعاني في ذيل تاريخ بغداد فقال: أنشدني عمي الإمام أبو القاسم أحمد بن منصور السمعاني غير مرة من لفظه للأميرشبل الدولة يعني مقاتل بن عطية بن مقاتل بن عطية البكري:

كـــان الـــوزيـــر نظـــام الملـــك لـــؤلـــؤة
ثمينـــــة صـــــاغهـــا الـــرحمن مـــــن شرف
عـــــزت ولم تعـــــرف الأيـــــام قيمتهـــــا
فـــــردّهـــــا غيرة منـــــه إلى الصـــــدف

# فصل

عاش السلطان ملكشاه بعد نظام الملك خمسة وثلاثون يوماً ،ومات في منتصف شوال سنة خمس وثمانين وعمره ثمانية وثلاثون عاماً ونصف العام، وكانت مملكته قد اتسعت اتساعاً عظيماً، وخطب له من حدود الصين إلى الداروم من أرض الشام، وأطاعه اليمن والحجاز، وكان يأخذ الخراج من ملك القسطنطينية، وأطاعه صاحب طراز، واسبيجاب وكاشغر وبلا سغون وغيرها من الممالك البعيدة، وملك سمر قند، وجميع ماوراء النهر، ثم إن صاحب كاشغر عصى عليه فسار السلطان إليه، فلما قارب كاشغر هرب صاحبها منه فسار في طلبه، ولم يزل حتى ظفر به، وأحسن إليه واستصحبه معه إلى أصفهان، وعمل السلطان من الخيرات وأبواب البر الكثير، منها ما أصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة، وحفر من الآبار، وبنى مدرسة عند قبر الإمام أبي حنيفة رحمة الله عليه، وبنى الجامع الذي بظاهر بغداد عند دار السلطنة، وهو الذي بنى منارة القرون في طرف البر مما يلي الكوفة بمكان يعرف بالسبعي، وبنى مثلها بسمرقند أيضا، قيل إنه خرج سنة من الكوفة لتوديع الحجيج، فجاوز العذيب وبلغ السبعية بقرب الواقصة، وبنى هناك منارة ترك في أثنائها قرون الظبى وحوافر الحمر الوحشية التى اصطادها في طريقه، وبعد موته تنازع ابناه بركياروق ومحمد، ودامت الحروب بينهما نحو إثنتي عشرة سنة إلى أن توفى بركياروق، واستقرّت السلطنة لمحمد، وفي مدّة تلك الحروب ظهرت الفرنج بالساحل، وملكوا انطاكية أوّلا، ثم غيرها من البلاد.

وكان السلطان قد اقطع أخاه تاج الدولة تتش مدينة دمشق وأعمالها وماجاورها، كطبرية والبيت المقدس، فلما توفي ملكشاه طمع تاج الدولة في السلطنة، فسار إلى حلب وبها قسيم الدولة فصالحه وراسل بوزان صاحب حران، وياغي سغان صاحب أنطاكية فساروا معه نحو الرحبة ونصيبين فأخذهما، وراسل صاحب الموصل إبراهيم بن قريش بن بدران يأمره بالخطبة له وأن يعطيه طريقاً إلى بغداد فامتنع، فالتقيا فهزم صاحب الموصل وقتل، وأخذت بلاده، وسار إلى ميافارقين، فملكها وسائر ديار بكر، ثم سار إلى أذربيجان، فالتقى هو وابن أخيه بركياروق بن ملكشاه، فانتقل قسيم الدولة وبوزان إلى بركياروق،فرجع تاج الدولة إلى الشام،ورجعا إلى بلادهما بأمر بركياروق ليمنعا تاج الدولة عن البلاد إن قصدها، فجمع تاج الدولة العساكر، وسار عن دمشق نحو حلب فاجتمع قسيم الدولة وبوزان، وأمدّهما السلطان ركن الدين بركياروق بالأمير كربوقا، وهو الذي صار فيها بعد صاحب الموصل، فالتقوا بالقرب من تل السلطان بينه وبين حلب نحو من ستة فراسخ، فانهزم جيش قسيم الدولة وأخذ أسيراً فقتله تاج الدولة صبراً ودخل بُزان وكربوقا حلب فحصرهما تاج الدولة حتى فتحها، وأخذهما أسيرين، وأرسل إلى حران والرها وكانتا لبزان فامتنع من بها من التسليم، فقتل بزان وأنفذ رأسه وتسلم البلدين، وأما كربوقا فإنه سجنه بحمص، فلم يزل إلى أن أخرجه الملك رضوان بعد قتل أبيه تاج الدولة.

قال ابن الاثير: وكان قسيم الدولة أحسن الناس سياسة لرعيته وحفظاً لهم، وكانت بلاده بين عدل عام، ورخص شامل، وأمن واسع، وكان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أخذ عند أحدهم قفل أو أحد من الناس غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير، فكانت السيارة إذا بلغت قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا آمنين، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا ،فأمنت الطريق وتحدث الركبان بحسن سيرته.

وفي المحرم من سنة سبع وثمانين وأربعمائة توفي الخليفة المقتدى بأمر الله فجأة، وهو أبو القاسم عبد الله بن الأمير محمد بن القائم بأمر الله، وعمره تسع وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة أشهر ، وأمه تركية، وبويع من بعده ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد، ويلقب محمد بن القائم والد المقتدى بالله الذخيرة، مات في حياة أبيه، فلم يل الخلافة.

# ذكر أخبار زنكي

والد نور الدين رحمهما الله تعالى على سبيل الاختصار، في فصول إلى حين وفاته، ثم نذكر أخبار نور الدين على ترتيب السنين.

لما قتل قسيم الدولة آق سنقر لم يخلف من الأولاد غير واحد، وهو عماد الدين زنكي والد نور الدين، وكان حينئذ صبياً له من العمر نحو عشر سنين، فاجتمع عليه مماليك والده وأصحابه، وفيهم زين الدين علي، وهو صبي أيضا، ثم إن الأمير كربوقا خلص من السجن بعد قتل تاج الدولة سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وتوجه إلى حران وقد اجتمع معه عسكر صالح فملكها، ثم سار إلى نصيبين فملكها ثم إلى الموصل فملكها وأزال عنها علي بن شرف الدولة العقيلي، وسار نحو ماردين فملكها وعظم شأنه، وهو في طاعة ركن الدولة بركياروق، فلما ملك البلاد أحضر مماليك قسيم الدولة آق سنقر وأمرهم باحضار عماد الدين زنكي، وقال: هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته فأحضروه عنده، فأقطعهم الاقطاعات السنية، وجمعهم على عماد الدين زنكي واستعان بهم في حروبه، وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها، فلم يزالوا معه، فتوجه بهم إلى آمد وصاحبها من أمراء التركمان، فاستنجد بمعين الدين

سقمان بن أرتق جد صاحب الحصن، فكسرهم قوام الدولة كربوقا، وهو أوّل مصاف حضره زنكي بعد قتل والده، ولم يزل كربوقا إلى أن توفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة، وملك بعده موسى التركماني، فلم تطل مدته وقتل، وملك الموصل شمس الدولة جكرمش وهو أيضا من مماليك السلطان ملكشاه، فأخذ زنكي فقربه وأ-به، واتخذه ولداً لمعرفته بمكانة والده، فبقي معه إلى أن قتل سنة خمسمائة، فلا جرم أن زنكي رعى هذا لجكرمش لما ملك الموصل وغيرها من البلاد، فإنه أخذ ولده ناصر الدين كوري، فأكرمه وقدمه وأقطعه اقطاعا كثيراً، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده واتخذه صهراً.

ثم ملك الموصل بعد جكرمش جاولي سقاوه، فاتصل به عماد الدين زنكي، وقد كبر وظهرت عليه أمارات السعادة والشهامة، ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد، وكان جاولي قد عبر إلى الشام ليملكه من الملك فخر الدين رضوان، فأرسل السلطان إلى الموصل الأمير مودود، وأقطعه إياها سنة اثنتين وخمسمائة، فلما اتصل الخبر بجاولي فارقه زنكي وغيره من الأمراء، فلما استقر مودود بالموصل واتصل به زنكي أكرمه وشهد معه حروبه، فسار مودود إلى الغزاة بالشام ففتح في طريقه قلاعاً لهم من شبختان كانت للفرنج، وقتل من كان بها منهم، ثم سار إلى الرها فحصرها، ولم يفتحها، فرحل وعبر الفرات فحصر تل باشر خمسة وأربعين يوماً، ثم سار إلى معرة النعمان فحصرها، ثم حضر عنده أتابك طغتكين صاحب دمشق فسارا إلى طبرية وحاصروها وقاتلوها قتالاً شديداً ، وظهر من أتابك زنكي شجاعة لم يسمع بمثلها، منها أنه كان في نفر وقد خرج الفرنج من البلد، فحمل عليهم هو ومن معه، وهو يظن أنهم يتبعونه فتخلفوا عنه، وتقدّم وحده وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج ، فدخلوا البلد، ووصل رمحه إلى الباب فأثر فيه، وقاتلهم عليه وبقي ينتظر وصول من كان معه، فحيث لم ير أحداً حمى نفسه وعاد سالماً، فعجب الناس من إقدامه أوّلا، ومن سلامته آخرا، ثم التقى

الجمعـان فهـزم الفـرنـج لعنهـم اللـه ووصلـوا الى مضيـق دون طبريـة، فاجتمعـوا به وجـاءتهم نجدة فأذن الأمير مـودود للعسكر في الـرجوع إلى بـلادهم، والاجتماع إليـه في الـربيع، فلما تفـرقـوا دخـل دمشق وأقـام بها فخرج يوما يصلي الجمعة فلما صلاها وخـرج من صحن الجامع ويده بيد طغتكين وثب عليـه انسان فضربـه بسكين معه فجرحـه أربع جـراحات، وكان صائما فحمل إلى دار طغتكين واجتهد بـه ليفطر فلم يفعل، وقال : لا لقيت اللـه إلا صائما فـإنني ميت لا محالـة سواء أفطـرت أو صمت ، وتوفي في بقيـة يومـه رحمه الله، فقيـل إن الباطنيـة بالشـام خافـوه فقتلوه، وقيل بل خافـه طغتكين، فوضع عليه من يقتله، وكـان خيراً عادلاً حسن السيرة.

قال ابـن الاثير: حدثني والدي رحمه اللـه قال: كتب ملك الفـرنج إلى طغتكين:«إن أمة قتلت عميـدها يوم عيدها في بيت معبـودها لحقيق على اللـه أن يبيـدها ».فلما قتـل الأمير مـودود أقطـع السلطان بـلاد الموصـل وغيرها للامير جيوش بك، وسير معه ولـده الملك مسعود إلى الموصل، ثم أنه جهـز آق سنقر البرسقي في العساكـر وسيره إلى قتال الفرنـج ، وكتب إلى عساكر الموصل وغيرهـا يأمرهـم بالمسيرمعه، فسـاروا وفيهم عماد الدين زنكي، وكان يعرف في عساكر العجم بـزنكي الشامي، فسار البرسقي إلى الـرها في خمسـة عشر ألـف فـارس فحصرها، وقتـل مـن بها مـن الفرنـج والأرمن ، وضـاقت الميرة عـن العسكر، فـرحل إلى سميسـاط وهي أيضـا للفرنج فأخـرب بلدها وبلد سروج، وعاد إلى بلد شبختان فـأخرب ما فيه من الفـرنج، وأبلى زنكي في هـذه المواقف كلهـا بلاء حسنـا، ثم عـادت العساكر تتحدث بما فعله، وعاد البرسقـي إلى بغداد وأقام زنكي بالموصل مع الملـك مسعود والأمير جيوش بـك إلى سنة أربـع وعشرين وخمسمائة، وقد علا قدره وظهر اسمه.

## -٧٥٧٣-

# فصل

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، ولـد الملك العادل نور الـدين محمود ابن زنكـي رحمه الله، وفيها غـرقت سنجار مـن سيل المطر، وهلـك منها خلق كثير، ومن أعجـب ما يحكى أن السيل حمل مهداً فيـه طفل ، فتعلق المهد في شجرة، ونقص الماء فسلم ذلك الطفـل، وغرق غيره من الماهرين بالسباحة.

وفيها أيضا زلزلت إربل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة.

وفيها في الرابـع والعشرين من ذي الحجة توفي السلطان غيـاث الدين محمد بـن ملكشاه، وعمـره سبع وثلاثـون سنة وأربعـة أشهر وستـة أيام ، وأول ما خطـب له ببغـداد في ذي الحجة سنـة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وقطعت خطبته عـدة مرار، ولقى من المشاق والأخطار مـا لم يلقه أحد إلى أن توفي أخـوه بركياروق، فحينئذ استقـرت له السلطنة وصفت لـه ودانت البلاد، وأصحاب الاطـراف لطاعته، وكان اجتماع الناس عليـه بعد موت أخيه اثنتـي عشرة سنة وستـة أشهر، وكـان عادلاً حسـن السيرة شجاعـا، وأطلق المكـوس والضرائب في جميع البـلاد، ومن عـدله أنـه اشترى عدة مماليك من التجـار وأمر أن يوفى الثمن من عامل خورستـان، فأوصل إليه البعض، ومطل البـاقي، فحضر التاجر مجلس الحكم وأخـذ غلام الحاكم ووقف بطـريق السلطان، واستغـاث إليه، فأمر مـن يستعلم حالـه، فعاد الحاجب وأعلم السلطـان حاله، فعظم عليه وضـاق صدره وأمر في الحال أن يحضر عامل خوزستان، ويلزم بمال التاجـر، ثم إنه ندم على تأخره عن مجلس الحكـم، وكان يقـول كثيرا: لقد نـدمت على تـركي حضـور مجلس الحكـم ، ولو فعلته لاقتدى بي غيري ولم يمتنع أحد عن اداء الحق.

قال ابن الاثير: وهذه الفضيلـة ذخرها اللّه تعالى للبيت الأتـابكي ،فإن

الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي فعل ما ندم السلطان محمد على تركه، وقد تقدم ذلك

ولما علم الأمراء وغيرهم من خلق السلطان محبة العدل وأداء الحق وكراهية الظلم ومعاقبة من يفعله اقتدوا به، فأمن الناس وظهر العدل.

وولي بعد السلطان محمد ابنه محمود وعمره يومئذ أربع عشرة سنة، فقام بالسلطنة ، وجرى بينه وبين عمه سنجر حرب إنهزم فيها محمود، وعاد إلى عمه بغير عهد، فأكرمه وأقطعه من البلاد إلى حدّ خراسان إلى الداروم بأقصى الشام، ومن الممالك همذان وأصفهان، وبلد الجبال جميعه، وبلاد كرمان، وفارس، وخوزستان، والعراق وأذربيجان، وأرمينية، وديار بكر، وبلاد الموصل والجزيرة، وديار مضر، وديار ربيعه، والشام، وبلد الروم، الذي بيد قليج أرسلان، وما بين هذه الممالك من البلاد.

قال ابن الاثير : ورأيت منشوره بذلك

وفي سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة توفي الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام، وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً، ومضى في أيامه ثلاثة سلاطين، خطب لهم ببغداد من السلجوقية وهم: أخو ملكشاه تاج الدولة تتش ، وركن الدولة بركياروق بن ملكشاه، وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه، وكان المستظهر رحمه الله كريم الاخلاق لين الجانب، مشكور المساعي، يحب العلم والعلماء، وصنفت له من التصانيف الكثيرة في الفقه والأصول وغيرهما، وكان يسارع إلى أعمال البر والمثوبات، حسن الخط، جيد التوقيعات، ولما توفي صلى عليه ولده المسترشد بالله، ودفن في حجرة كان يألفها.

وفي أيامه توفي جماعة من العلماء، ففي شعبان سنة ثمان وثمانين وأربعمائة توفي قاضي القضاة أبو بكر محمد بن المظفر الشامي، وفي ذي القعدة منها توفي القاضي عبد السلام بن محمد القزويني المعتزلي مصنف «حدائق ذات بهجة في تفسير القرآن»يزيد على ثلاثمائة مجلد.

قال ابن الاثير:رأيت منه تفسير الفاتحة في مجلد كبير، وفي ذي الحجة توفي الإمام أبو نصر الحميدي مصنف الجمع بين الصحيحين، وفي شوال سنة إحدى وتسعين توفي الكامل نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي، وله نحو تسعين سنة، وفي سنة اثنتين وخمسين ومائة توفي أبو زكريا التبريزي اللغوي. وفي ذي الحجة منها توفي أبو الفوارس الحسين بن علي ابن الخازن صاحب الخط المشهور، وفي سنة خمس وخمسمائة، توفي الإمام أبو حامد الغزالي، وفي سنة سبع وخمسمائة توفي الإمام أبو بكر محمد بن الشاشي الفقيه، رحمهم الله أجمعين.

## فصل

لما ولي السلطان محمود السلطنة أقرّ أخاه مسعودا على الموصل، مع أتابكة جيوش بك فبقي مطيعا لأخيه إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة، فحسن له الخروج عن طاعته، وطلب السلطنة، فأظهر العصيان، وخطب للملك مسعود بالسلطنة، وكان زنكي يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه، ويحذرهم عاقبة العصيان، فلم ينفع، فالتقى الأخوان في عسكريهما فهزم عسكر مسعود وأسر جماعة من الأمراء والأعيان منهم الاستاذ أبو اسماعيل الحسين بن أسماعيل الطغرائي وزير مسعود فقتله السلطان محمود، وقال قد صح عندي فساد اعتقاده ودينه، وكان قد جاوز ستين سنة، وكان حسن الكتابة جيد الشعر.

قلت: وقيل إنه قتل سنة ثلاث عشرة أو أربع عشرة أو ثماني عشرة

وخمسمائة، وقيل إن الذي قتله هو السلطان طغرل بن محمد بن ملكشاه، ذكر ذلك كله أبو سعد السمعاني في تاريخه، وسماه الحسين بن علي بن عبد الصمد الديلمي، وأنشد له أشعاراً حسانا منها:

إذا ما لم تكن ملكا مطاعا
فكن عبدا لمالكه مطيعا
وإن لم تملك الدنيا جميعا
كما تهواه فاتركها جميعا
هما سيان من ملك ونسك
ينيلان الفتى الشرف الرفيعا
ومن يقنع من الدنيا بشيء
سوى هذين يحيى بها وضيعا

ثم استأمن من مسعود وأتابكه جيوش بك، فأمنهما السلطان، وأخذ الموصل منهم فأقطعها آق سنقر البرسقي مع أعمالها كالجزيرة وسنجار ونصيبين وغيرهما في صفر سنة خمس عشرة وسيره اليها، وأمره بحفظ عماد الدين زنكي وتقديمه والوقوف عند اشارته، ففعل البرسقي ذلك وزاد عليه لمكان زنكي من العقل والشجاعة، وتقدّم والده في الايام الركنية، وكانت سيرة ملكشاه عندهم كالشريعة المتبعة، فأعظم الناس عندهم أكثرهم اتباعا لسيرته.

وفي سنة ست عشرة وخمسمائة أقطع أتابك زنكي مدينة واسط وشحنكية البصرة، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه أحد، فازداد شأنه عظما وهاب الأمير دبيس بن صدقة الأسدي صاحب الحلة ناحيته،وجرت بينه وبين البرسقي حروب ومواقعات، وهمّ دبيس بقصد بغداد فسار البرسقي إليه، وتبعه الخليفة المسترشد باللّه بنفسه فانهزم عسكر دبيس وقتل منهم وأسر خلق كثير، وكان لعماد الدين زنكي أثر حسن في هذه الواقعة أيضا بين يدي الخليفة، وذلك في أوّل المحرّم سنة سبع عشرة.

وأما دبيس فإنه لما انهزم لحق بالملك طغرل بن السلطان محمد، وصار معه في خواص أصحابه، وكان عاصيا على أخيه السلطان محمود، وأمر السلطان محمد للبرسقي أن يرجع إلى الموصل فعاد واستدعى زنكي من البصرة ليسير معه إلى الموصل ، فقال زنكي لأصحابه : قد ضجرنا مما نحن فيه، كل يوم قد ملك البلاد أمير ونؤمر بالتصرف على اختياره وإرادته، ثم تارة بالعراق وتارة بالموصل، وتارة بالجزيرة، وتارة بالشام، فسار من البصرة إلى السلطان محمود، فأقام عنده، وكان يقف إلى جانب تخت السلطان عن يمينه لايتقدم عليه أحد، وهو مقام والده قسيم الدولة من قبله، وبقي لولده من بعده.

ثم اتى السلطان الخبر أن العرب اجتمعت ونهبت البصرة، فأمر زنكي بالمسير إليها وأقطعه إياها لما بلغه عنه من الحماية لها في العام الماضي، وقت اختلاف العساكر والحروب، ففعل ذلك فعظم عند السلطان وزاد محله، وكان قد جرى بين يرنقش الزكوي شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد باللّه نفرة، فتهدّده المسترشد، فسار عن بغداد إلى السلطان في رجب سنة تسع عشرة شاكيا من المسترشد، وحذر السلطان جانبه وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازما على منعه من العراق، فسار السلطان إلى بغداد، وجرى بينه وبين المسترشد حروب ووقائع، ثم اصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه، وأقام السلطان ببغداد إلى عاشر ربيع الآخر ونظر فيمن يصلح أن يلي شحنكية بغداد والعراق، يؤمن معه من الخليفة، ويضبط الأمور فولى ذلك زنكي مضافا إلى ما بيده من الإقطاع ، وسار السلطان عن بغداد.

وفي سنة عشرين وخمسمائة قتل آق سنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعد صلاة يوم الجمعة، ثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس ، فقتل بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه اللّه، وكان عادلا لين الاخلاق حسن العشرة، وكان يصلي كل ليلة صلاة كثيرة، لايستعين في وضوئه

بأحد، فقرّر السلطان ولده عز الدين مسعود على ما كان لأبيه من الأعمال، وهي الموصل وديار الجزيرة وحلب وحماه وجزيرة ابن عمر وغيرها، وكان شابا عاقلا فضبط البلاد، فلم تطل أيامه وتوفي سنة إحدى وعشرين، وولي الأمر بعده أخوه الصغير، وقام بتدبير دولتيهما الأمير جاولي، وهو مملوك تركي من مماليك أبيهما، فجرت الأمور على أحسن نظام.

# فصل

## في ولاية زنكي الموصل وغيرها من البلاد التي كانت بيد البرسقي

وذلك في شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين ، وسبب ذلك أن عز الدين البرسقي لما توفي وقام بالبلاد بعده أخوه الصغير، وتولى أمره جاولي أرسل إلى السلطان محمود يطلب أن يقرّ البلاد عليه، وكان المراسل بذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن الشهرزوري وصلاح الدين محمد الياغيساني، فحضرا بغداد ليخاطبا السلطان في ذلك ، وكانا يخافان جاولي ولايرضيان بطاعته، والتصرف بحكمه، وكان بين صلاح الدين وبين نصير الدين جقر مصاهرة، فأشار عليهما أن يطلبا البلاد لعماد الدين زنكي، ففعلا وقالا للوزير: قد علمت أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج على أكثرها وتمكنوا منها وقويت شوكتهم، وكان البرسقي يكف بعض عاديتهم، فمذ قتل إزداد طمعهم، وهذا ولده طفل صغير، ولابد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمي حوزتها، وقد أنهينا الحال إليكم لئلا يجري خلل أو وهن على الاسلام والمسلمين فنحصل نحن بالاثم من الله تعالى واللوم من السلطان، فأنهى الوزير إلى السلطان، فأعجبه وقال: من تريان يصلح لهذه البلاد؟ فذكروا جماعة فيهم عماد الدين زنكي وعظما محله أكثر من غيره، فأجاب السلطان إلى توليته لما علم من شهامته وكفايته، فولي البلاد جميعا وكتب منشوره بها.

وسار من بغداد إلى البوازيج ليملكها ويتقوّى بها ويجعلها ظهره إن منعه جاولي عن البلاد، فلما استولى عليها سار عنها إلى الموصل فخرج جاولي إلى لقائه، وعاد في خدمته إلى الموصل، فسيره إلى الرحبة وأعمالها، وأقام هو بالموصل يصلح أمورها،و يقرّر قواعدها، فولى نصير الدين

دزدارية قلعة الموصل، وفوّض إليه أمر الـولاية جميعها،وجعل الدزدارية في البلاد جميعها لـه، وجعل الصلاح محمد اليـاغيساني أمير حاجب الـدولة، وجعل بهاء الدين قاضي قضاة بـلاده جميعها، وما يفتحه من البلاد، ووفى لهم بها وعدهم، وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكرمهم عليه، وأكثرهم انبساطـا معه، وقربا منه، ورتب الأمـور على أحسن نظام وأحكم قاعدة.

وكـانت الفـرنج قـد اتسعت بـلادهـم، وكثرت أجنـادهم، وعظمـت هيبتهم، وزادت صـولتهم، وامتـدت إلى بلاد المسلمين أيـديهم، وضعف أهلهـا عـن كـف عـاديهم، وتتابعـت غـزواتهم، وسـامـوا المسلمين سـوء العـذاب، واستطار في البـلاد شرر شرّهـم، وامتدّت مملكتهـم مـن ناحيـة مـاردين وشبختـان إلى عـريـش مصر لم يتخلله مـن ولايـة المسلمين غير حلـب وحماه وحمص ودمشق، وكـانت سرايـاهـم من ديـار بكر إلى آمـد، ومـن ديار الجزيـرة إلى نصيبين ورأس عين، وأما أهـل الرقـة وحرّان فقـد كانـوا معهم في ذلّ وهـوان، وانقطعت الطـرق إلى دمشق إلاّ على الـرحبة والبر، ثم زاد الأمر، وعظـم الشر حتى جعلوا على أهل كل بلـد جاورهـم خراجـاً وأتاوة يأخـذونها منهم ليكفوا أذيتهم عنهـم، ثم لم يقنعوا بـذلك حتـى أرسلوا إلى مـدينة دمشـق واستعرضـوا الرقيـق ممن أخـذ من الـروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية، وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود إلى أوطـانهم، فمن اختـار المقـام تـركوه، ومـن آثـر العـود إلى أهله أخـذوه، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً.

وأمـا أهل حلـب فإن الفـرنج أخـذوا منها منـاصفة أعمالها، حتـى في الرحا التي على باب الجنان، وبينهـا وبين المدينة عشرون خطوة، وأما باقي بلاد الشام، فكان حال أهلها أشدّ من حال أهل هذين البلدين، فلما نظر الله سبحـانه وتعـالى إلى بلاد المسلمين، ولاهـا عماد الديـن زنكي، فغـزا الفرنـج في عقر ديارهم، وأخـذ للموحديـن منهم بثارهـم، واستنقـذ منهم

حصونـا ومعاقل، وسيأتـى تفصيل ذلك، ومـا فتحه من البلاد الاسـلامية هو وابنه من بعده، إن شاء اللّه تعالى.

## فصل

ثم شرع زنكـي رحمه الله في أخذ البـلاد، فافتتح جـزيرة ابن عمـر، ثم مدينة إربل في رمضان سنة اثنتين وعشريـن، ثم عاد إلى الموصل وسار في جمادى الاولى سنـة ثـلاث وعشريـن إلى سنجـار، فتسلمهـا وسير منهـا الشحن إلى الخابـور فملكه، ثـم قصد الـرحبة، فملكـت قسراً، ثم افتتـح نصيبين، وسار إلى حـران، وكانت الـرها وسروج وغيرهما من ديـار الجزيرة للفرنـج لعنهم الله، وأهـل حران معهم في ضيـق عظيم، فراسلـوا زنكي بالطاعة، واستحثـوا على الوصول إليهم ففعل، وهادن الفـرنج مدة يسيرة يعلـم أنه يفـرغ فيها مـن الاستيلاء على مـا بقي لـه من البـلاد الشاميـة، والجزرية، وكـان أهم الاشيـاء عنده عبـور الفرات، وملـك مدينـة حلب، وغيرها مـن البلاد الشاميـة، فلما عبر الفرات ملـك مدينة منبـج وحصن بزاعة، وحاصر حلـب، ثم فتحت له، فرتب أمـورها، وسار عنها إلى حماه فملكهـا، وقبـض على صـاحـب حمص وحـاصرهـا، وذلـك سنـة ثـلاث وعشرين.

وفي سنة أربـع وعشرين اتفق صـاحب آمد مـع صاحب حصـن كيفا وغيرهم مـن الملوك، وجمعـوا عساكـر نحو عشريـن ألفا، وقصـدوا زنكي فلقيهم فهزمهم، وملك سرجة ودارا، ثـم صمم على الجهاد، فنازل حصن الأثارب، وكـان أضر شيء على أهل حلـب، فجمع الفـرنج جمعـا عظيماً، فهـزمهم وقتلهـم مقتلـة عظيمة، بقيـت عظـام القتلى بتلك الأرض مـدّة طويلـة ، ثم رجع إلى الحصـن فملكه عنوة فـأخربه، ومحا أثـره، وأزال من تلك الأرض ضرره، ثم رحل إلى حصن حارم، فـأنفذ من لم يحضر المعركة من الفـرنج، ومن نجـا منها يسألـون الصلح، ويبـذلون له المنـاصفة على

ولاية حارم، فأجابهم إلى ذلك، لأن عسكره كان قد كثرت فيهم الجراحات والقتل، فأراد أن يستريحوا، فهادنهم، وعاد عنهم، وقد أيقن المسلمون بالشام بالأمن، وحلول النصر، وسيرت البشائر إلى البلاد بذلك.

وفيها استولى زنكي على مدينة حماه وما فيها، وكان فيها بهاء الدين سونج بن تاج الملوك بوري، فأخذ رجاله، ثم طلب في إطلاقهم خمسين ألف دينار، فاتفق حضور دبيس بن صدقة بن مزيد أمير العراق بدمشق منهزما، فطلبه زنكي وأطلق من كان عنده من سونج وأصحابه .ذكر ذلك الرئيس أبو يعلى.

وفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة توفي السلطان محمود بهمذان، وكان عمره نحو ثمان وعشرين سنة، وكانت ولايته ما يقارب أربع عشرة سنة، وكان حليما كريماً عاقلاً كثير الاحتمال، وطلب السلطنة بعده ولده داود ابن محمود، وأخواه مسعود وسلجوق شاه ابنا محمد، وعمهما سنجر بن ملكشاه، ومعه طغرل بن السلطان محمد، فجرت بينهم حروب، واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر بن ملكشاه، ومعه طغرل بن السلطان، وخطب لابن أخيه طغرل بالسلطنة في همذان، وأصفهان والري، وسائر بلاد الجبل.

وفي سنة سبع وعشرين سار الخليفة المسترشد بنفسه إلى الموصل في ثلاثين ألف فارس، فحصرها ثلاثة أشهر، ثم عاد إلى بغداد، ولم يبلغ غرضا.

وفي سنة تسع وعشرين استولى زنكي على سائر قلاع الحميدية وولاياتهم منها قلعة العقر، وقلعة شوش، وحاصر مدينة آمد، ثم مدينة دمشق، وفيها توفيت والدته بالموصل.

وفي المحرم سنة تسع وعشرين توفي السلطان طغرل بن محمد بن

ملكشاه، فخرج السلطان مسعود والتقى هو والخليفة المسترشد في عسكرين عظيمين عاشر رمضان، فهزم عسكر الخليفة، وقبض عليه وعلى خواصه، وأنفذ السلطان شحنة إلى بغداد، فقبض جميع أملاك الخليفة، وهجم جماعة من الباطنية على المسترشد، وهو في الخيمة فقتلوه، وكتب السلطان إلى شحنة بغداد يأمره بالبيعة لابنه أبي جعفر المنصور ابن المسترشد، فبايعه في السادس والعشرين من ذي القعدة، ولقب بالراشد، وكان عمر المسترشد ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام، وكانت خلافته سبع عشر سنة وسبعة أشهر، وكان شهما شجاعا مقداما فصيحاً، وتمكن في خلافته تمكنا عظيما لم يره أحد ممن تقدمه من الخلفاء من عهد المنتصر بالله إلى خلافته، إلاّ أن يكون المعتضد والمكتفي، لأن المماليك كانوا قديما يخلعون الخلفاء، ويحكمون عليهم، ولم يزالوا كذلك إلى ملك الديلم واستيلائهم على العراق، فزالت هيبة الخلافة بالمرّة إلى انقراض دولة الديلم، فلما ملك السلجوقية جدّدوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لاسيما في وزارة نظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها، إلاّ أن الحكم والشحن بالعراق كان إلى السلطان، وكذلك العهد أو ضمان البلاد، لم يكن للخلفاء إلاّ إقطاع يأخذون دخله، وأما المسترشد فانه استبدّ بالعراق بعد السلطان محمود،ولم يكن للسلطان محمود معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة، واجتمعت عليه العساكر، وقاد الجيوش وباشر بالحرب.

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة سار الراشد إلى الموصل بصحبة زنكي ملتجئاً إليه، وذلك أن جماعة حسنوا له الخروج من بغداد لمحاربة السلطان مسعود، فأجابهم إلى ذلك، وظهر منه تنقل في الأحوال، وتلوّن في الآراء، وقبض على جماعة من أعيان أصحابه، وخافه الباقون، وتقدّم السلطان مسعود، وحصر بغداد، واستظهر عليها، فخرج الراشد ملتجئاً إلى زنكي، فسار به إلى الموصل، ودخل مسعود بغداد، وأمر بخلع الراشد ومبايعة عمة أبى عبد الله محمد بن المستظهر بالّله، ففعل ذلك ولقب

المقتفي لأمر الله، وأما الراشد فإن السلطان سنجر أرسل إلى أتابك يأمره بإخراجه عن بلده، فسار إلى أذربيجان، ثم إلى همذان، فاجتمع إليه ملوك وعساكر كثيرة، وسار السلطان إليهم فتصافوا فانهزم الراشد، وقصد أصبهان فقتله الباطنية بها في السابع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، ودفن بأصبهان.

وفي سنة اثنتين وثلاثين أيضا تزوج زنكي بالخاتون صفوة الملك زمرد ابنة الأمير جاولي أم شمس الملوك اسماعيل وأخوته بني تاج الملوك بوري ابن طغتكين أتابك، وهي أخت الملك دُقاق، وإليها ينسب مسجد خاتون الذي هو مدرسة لأصحاب أبى حنيفة بأعلى الشرف القبلي بأرض دمشق، بأرض صنعاء، وتسلم قلعة حمص.

## فصل

# في جهاد زنكي للفرنج

كان في سنة اثنتين وثلاثين خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه خلق عظيم لايحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى، فقصد الشام فخافه الناس خوفا عظيماً، وكان زنكي مشغولاً بما تقدم ذكره، ولايمكنه مفارقة الموصل، فقصد ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها، وهي على مرحلة من حلب، وفتحها عنوة، وقتل المقاتلة وسبى الذرّية في شعبان، ثم سار عنها إلى شيزر، وهي حصن منيع على مرحلة من مدينة حلب، فحصرها منتصف شعبان ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقا، وأرسل صاحبها أبو العساكر سلطان بن منقذ إلى زنكي يستنجده، فنزل على حماه، فكان يركب كل يوم في عساكره، ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم، ويرسل السرايا يتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب، ثم يعود آخر النهار، وكان الروم والفرنج قد

نزلوا على شرقي شيزر، فأرسل إليهم زنكي يقول لهم: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال فأخرجوا عنها حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين من شركم، ولم يكن له بهم قوّة لكثرتهم، وإنما كان يفعل هذا ترهيبا لهم، فأشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله وهونوا أمره، فقال لهم الملك: أتظنون أن معه من العساكر ماترون، وله البلاد الكثيرة، وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا وتصحروا له فحينئذ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم، وكان أتابك زنكي مع هذا يراسل فرنج الشام، ويحذرهم ملك الروم، ويعلمهم إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم منهم، وكان يراسل ملك الروم يتهدّده ويوهمه أن الفرنج معه فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه، فرحل ملك الروم عنها في رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً، وترك المجانيق، وآلات الحصار بحالها، فسار زنكي خلفهم وظفر بطائفة منهم في ساقة العسكر، فغنم منهم وقتل وأسر وأخذ جميع ما خلفوه ورفعه إلى قلعة حلب، وكفى اللّه المؤمنين القتال، وكان المسلمون بالشام قد اشتدّ خوفهم، وعلموا أن الروم إن ملكوا حصن شيزر، لايبقى لمسلم معهم مقاما لاسيما مدينة حماه لقربها، ولما يسر اللّه تعالى هذا الفتح مدح الشعراء الشهيد أتابك فأكثروا، منهم أبو المجد المسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم الحموي له قصيدة قد ذكرتها في ترجمته في التاريخ أوّلها:

بعزمك أيها الملك العظيم
تذلّ لك الصعاب وتستقيم

ألم تر أن كلب الروم لما
تبين أنك الملك الرحيم

فجاء يطبق الفلوات خيلا
كأن الجحفل الليل البهيم

وقد نزل الزمان على رضاه
فكان لخطبه الخطب الجسيم

فحين رميتـــــه بـــــك في خميـــــس
تيقـــــن أن ذلـــــك لا يـــــدوم
وابصر في المفـــاضـــة منـــك جيشـــا
فـــاحـــزن لا يسير ولا يقيـــم
كـــأنـــك في العجـــاج شهـــاب نـــور
تـــوقـــد وهـــو شيطـــان رجيـــم
أراد بقـــاء مهجتـــه فـــولى
وليـــس ســـوى الحمام لـــه حميـــم
يـــؤمّـــل أن تجود بها عليـــه
وأنـــت بها وبـــالـــدنيـــا كـــريـــم
أيلتمـــس الفـــرنـــج لـــديـــك عفـــوا
وأنـــت بقطـــع دابـــرهـــا زعيـــم
وكـــم جـــرعتهـــا غصـــص المنـــايـــا
بيـــوم فيـــه يكتهـــل الفطيـــم
ولما ان طلبتهـــم تمنـــى الـــ
ـــمنية جـــوسلينهـــم اللئيـــم
أقـــام يطـــوّف الافـــاق حينـــا
وأنـــت على معـــاقلـــه مقيـــم
فســـار ومـــا يعـــادلـــه مليـــك
وعـــاد ومـــا يعـــادلـــه سقيـــم
إذا خطـــرت سيـــوفـــك في نفـــوس
فـــأول مـــا يفـــارقهـــا الجســـوم

وله من قصيدة مدح بها صلاح الديـن محمد بن أيوب العمادي التوتان صاحب حماة.

ومـــا جـــاء كلـــب الـــروم الايحتـــوي
حماة وهـــل يسطـــو على الأســـد الكلـــب
أراد بها أن يملـــك الشـــام عنـــوة
وقـــد غلبـــت عنـــه الضراغمـــة الغلـــب

وماذمّ فيها العيش حتى صدمنه
فمال جناح الجيش وانكسر القلب
فولى وأطراف الرماح كأنها
نجوم عليه بالمنية تنصب

ولابن منير قصيدة في مدح أتابك زنكي رحمه الله سيأتي بعضها عند ذكر فتحه مدينة الرها إن شاء اللّه تعالى، ومنها:

وما يوم كلب الروم إلا أخو الذي
أزحت به ما في الجناجن (٣٩) من نبل
اتاك بمثل الروم حشدا وإنه
ليفضل اضعافا كثيرا عن الرمل
فقاتلته باللّه ثم بعزمة
تصك قلوب العاشقين بما يسلي
توهم أن الشام مرعى ومادرى
بأنك أمضى منه في الشزر والسحل (٤٠)
فطار وخير المغنمين ذماؤه
إذا راد عنه مغنم المال والأهل

قال ابن الاثير: ومن عجائب ما يحكى في هذه الحادثة أن الخبر لما وصل بقصد الروم شيزر، قام الأمير مرشد بن علي أخو صاحبها، وهو ينسخ مصحفا، فرفعه بيده، وقال: اللهم بحق من أنزلته عليه إن قضيت بمجيء الروم فاقبضني إليك فتوفي بعد أيام ونزل الروم بعد وفاته.

ولما عاد الروم إلى بلادهم نزل أتابك إلى حصن عرقه، وهو من أعمال طرابلس فحصره وفتحه عنوة ونهب ما فيه، وأسر من به من الفرنج وأخربه، وعاد سالما غانما، وفيها ملك قلعة دارا من حسام الدين تمرتاش، وفيها توفي بهاء الدين علي بن القاسم الشهر زوري قاضي

الممالـك الأتابكيـة، وكان أعظـم الناس منـزلـة عنده، وفيهـا ولد صـلاح الدين يوسف بن أيوب بتكريت.

## فصل

## في فتح شهر زور وبعلبك وحصار دمشق

قال ابن الأثير:كانت شهر زور وأعمالها ومـا يجاورها من البلاد والجبال في يد قفجـق بن أرسـلان تاش التركماني، وكـان ملكها نـافذ الحكـم على قاصي التركمان ودانيهـم، يرون طاعته فـرضاً حتماً، فتحامى الملـوك قصد ولايته، ولم يتعـرّضوا لها لحصانتهـا، فعظم شـأنه وازداد جمعه، فلما كـانت سنة أربـع وثلاثين بلـغ الشهيد أتابـك عنه مـا اقتضى أن يقصـد بلاده، فهزم عسكـره وملك بلاد شهـر زور وغيرها، فـاضافها إلى بـلاده وأصلح أحـوال أهلهـا وخفف عنهـم مـا كـانـوا يلقـونه مـن التركمان، وعـاد إلى الموصل عـازماً على المسير إلى الشـام، فإنـه كان لايـرى المقام بـل لايزال ظاعنـا إما لـردّ عدوّ يقصـده، وإما لقصد بـلاد عدوّ وإمـا لغزو الفـرنج وسدّ الثغـور، وكانت ميـاثـر السروج آثر عنده من وثير المهـاد، والسهر في حراسـة المملكة أحب إليـه من عرض الـوساد، وأصوات السـلاح ألذ في سمعه من الغناء، لايجد لذلك كله عناء.

وفي هـذه السنة وهـي سنـة أربع وثـلاثين ولـد تقي الـديـن عمر بـن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي

وفيها سـار الشهيد في جنـوده بعد ملـك شهر زور إلى مـدينة دمشـق فحصرهـا، وصاحبهـا حينئذ جمال الـديـن محمد بـن بوري بـن طغتكين، وكـان محكومـا عليـه، والغالـب على أمـره معين الديـن أنـر مملوك جـدّه

طغتكين، وكان أتـابك قد أمـر كمال الديـن أبا الفضل بـن الشهر زوري بمكاتبـة جماعة من مقـدّمي أحداثهـا وزناطرتها واستمالتهـم واطماعهم في الرغائب والصلات، ففعل ذلك فأجـابه منهم خلق كثير إلى تسليم البلد وخرجـوا متفرقين إلى كمال الديـن ، وجدّد عليهم العهـود وتواعدوا يـوماً يزحف فيه الشهيد إلى البلد ليفتحوا لـه الباب ويسلموا البلد إليه، فأعلم كمال الدين الشهيد أتـابك بذلك فقال: لاأرى هذا رأيـا فإن البلد ضيق الطـرق والشوارع، ومتـى دخل العسكـر إليـه لايتمكنون مـن القتال فيـه لضيقه، وربما كثـر المقاتلون لنا فنعجـز عن مقاومتهم لأنهم يقـاتلون على الأرض والسطـوحـات، وإذا دخلنـا البلـد اضطـررنـا إلى التفـرّق لضيـق المسالك فيطمع فينا أهله، وعاد عن ذلك العزم بحزمه وحذره.

ومن العجب أن محمـد بن بوري صاحب دمشق تـوفي وأتابك يحصره، فضبـط أنـر الأمور وسـاس البلـد فلـم يتغير بـالناس حـال، وأرسـل إلى بعلبك فأحضر ولـده مجير الدين آبق بـن محمد بن بوري ورتبـه في الملك مكان أبيـه فمشى الحال بتمكين معين الـدين أنـر وحسن تـدبيره، وهذا مجير الدين آبق هو الذي منه أخذ نـور الدين محمود بن زنكي دمشق كما سيأتي، ولما دخل مجير الدين دمشق أقطع بعلبك معين الدين أنر، فأرسل إليها نـائبه وتسلمهـا، فلما علم الشهيـد ذلك سـار إلى بعلبك وحصرهـا عدّة شهور فملكها عنـوة، وترك بها نجم الدين أيوب والـد صلاح الدين دزداراً، وعـزم على العود عنهـا إلى دمشق فجـاءتـه رسل صـاحبها ببـذل الطاعة والخطبة، فأجابه إلى ذلك، وعـاد عن قصد دمشق، وقد خطب له فيها،وصار أصحابها في طاعته وتحت حكمه.

قال يحيـى بن أبي طي الحلبـي: واتفق أن الأمـراء لما نزلوا مـن بعلبك أفسدوا ذخائرها فقبض عليهم أتابـك زنكي وقتل بعضهم وصلبهم وكان ولّى قتلهم صـلاح الدين محمد بـن أيوب الياغيساني، فحكـى أنه أحضر إليه في جملـة الأمراء شيخ مليح الشيبـة ومعه ولد لـه أمرد كأنه فلقـة قمر،

فقال الشيخ لصلاح الـدين: سألتك بحياة المولى أتابـك ألا صلبتني قبل ولـدي لئلا أراه يعـالج سكـرات الموت، وكان نجـم الديـن أيوب واقفـاً فرحم الشيخ وبكى، وسأل صلاح الديـن في إطلاقه، فقال ما أفعل خوفاً من المولى أتابـك، فذهب نجم الديـن إلى أتابك وسألـه في الشيخ وولده وقص عليه ما قـاله، فأذن باطلاقه وإطلاق من بقـي من الجماعة، ووهبه نصف بعلبـك، وقيل إن نجـم الدين قـد ورد على أتابـك وهو قـد ملك بعلبك فسألـه في الأمراء فأطلقهم لـه وولاه بعلبك وكتب له ثلثهـا ملكاً، واستقر فيهـا هو وأهله، ولم يـزل بها إلى أيام نور الـدين محمود بـن زنكي فأخـرجه منها على ما سنـذكره، ثم إن أتـابك بعد ملكه بعلبـك سار إلى دمشـق فنـزل البقاع، فـوردت هـديـة صـاحـب دمشق، ويطلـب العـود ويعطيه خمسين ألف دينار، ويعطيه حمص، فأشـار نجم الدين على زنكي بقبول ذلـك وقال: هذا مـال كثير، وقد حصـل بلا تعب، وبلـد كبير بلا عنـاء، ودمشـق بلـد عظيـم وقـد ألـف أهلـه هـذا البيـت وتمرّنـوا على سياستهـم، وقد بلغتهم الأحـوال التي جرت ببعلبـك، فامتنع زنكـي عن قبول ما أشار به ففاته ذلك ولم يظفر بغرضه.

-٧٥٩١-

# فصل

ثم سار أتابك الشهيد في هذه السنة ، وهي سنة أربع وثلاثين إلى بلاد الفرنج، فأغار عليها واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه، فلقيهم بالقرب من حصن بارين، وهو للفرنج ، فصبرالفريقان صبراً لم يسمع بمثله إلا ما يحكى عن ليلة الهرير(٤١)، ونصر الله المسلمين، وهرب ملوك الفرنج وفرسانهم، فدخلوا حصن بارين،وفيهم ملك القدس لأنه كان قرب حصونهم، وأسلموا عدّتهم وعتادهم، وكثر فيهم الجراح، ثم سار الشهيد إلى حصن بارين فحصره حصراً شديداً فراسلوه في طلب الأمان ليسلموا ويسلموا الحصن فأبى إلاّ أخذهم قهراً، فبلغه أن من بالساحل من الفرنج قد ساروا إلى الروم والفرنج يستنجدونهم وينهون إليهم ما فيه ملوكهم من الحصر عليهم، فجمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل، ومن بالحصن لايعلمون بشيء من ذلك لقوّة الحصر عليهم، فأعادوا مراسلته في طلب الأمان، فأجابهم وتسلم الحصن وساروا فلقيتهم أمداد النصرانية، فسألوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن فلاموهم وقالوا: عجزتم عن حفظه يوماً أو يومين فحلفوا لهم: إنا لم نعلم بوصولكم، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا وإلى الآن، فلما عميت الأخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا فحقنا دماءنا بتسليم الحصن.

قال ابن الاثير: وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين، فإن أهله كانوا قد أخربوا ما بين حماه وحلب من البلاد ونهبوها، وتقطعت السبل، فأزال اللّه تعالى بالشهيد رحمه اللّه هذا الضرر العظيم.

وفي مدّة مقامه على حصن بارين سير جنده إلى المعرة وكفر طاب، وتلك الولاية جميعها فاستولى عليها وملكها وهي بلاد عظيمة.

قلت: وقد قال القيسراني يذكر هزيمة الفرنج، ويمدح زنكي قصيدة أولها:

حـــذار منـــا وأنـــى ينفـــع الحذر
وهـــي الصـــوارم لاتبقـــي ولاتـــذر

وأيـــن ينجـــو ملـــوك الشرك مـــن ملـــك
مـــن خيلـــه النصر لابـــل جنـــده القـــدر

سلـــوا سيـــوفـــا كـــأغماد السيـــوف بها
صـــالـــوا فما غمـــدوا نصـــلا ولا شهـــروا

حتـــى إذا مـــا عماد الـــديـــن أرهقهـــم
في مـــأزق مـــن سنـــاه يبرق البصر

ولـــوا تضيـــق لهم ذرعـــا مســـالكهـــم
والموت لاملجـــأ منـــه ولا وزر

وفي المســـافـــة مـــن دون النجـــاة لهم
طـــول وإن كـــان في أقطـــارهـــا قصر

وأصبـــح الـــديـــن لاعينـــا ولا أثـــرا
يخاف والكفـــر لاعين ولا أثـــر

فـــلا تخف بعـــدهـــا الافـــرنـــج قـــاطبـــة
فـــالقـــوم إن نفـــروا ألـــوى بهم نفـــر

إن قـــاتلـــوا قتلوا أو حـــاربـــوا حـــربـــوا
أو طـــاردوا طـــردوا أو حـــاصروا حصروا

وطـــالما استفحـــل الخطـــب البهيـــم بهم
حتـــى أتـــى ملـــك آراؤه غـــرر

والسيـــف مفترع أبكـــار أنفسهـــم
ومـــن هنـــالـــك قيـــل الصـــارم الـــذكـــر

لافـــارقـــت ظـــل محيـــي العـــدل لامعـــة
كـــالصبـــح تطـــوي مـــن الاعـــداء مـــا نشروا

ولا انثنـــى النصر عـــن أنصـــار دولتـــه
بحيـــث كـــان وإن كـــانـــوا بـــه نصروا

حتـــى تعـــود ثغـــور الشـــام ضـــاحكـــة
كـــأنـها حـــلّ في أكتـــافهـــم عمـــر

وقال ابن منير

فـــدتـــك الملـــوك وأيـــامهـــا
ودام لنقضـــك ابـــرامهـــا
وزلـــت لعيشـــك أقـــدامهـــا
وزال لبطشـــك إقـــدامهـــا
ولـــو لم تسلـــم إليـــك القلـــو
ب هـــواهـــا لما صـــح إســـلامهـــا
أيـــا محيـــي العـــدل لما نعـــا
ه أيـــامـــى البرايـــا وأيتـــامهـــا
ومستنقـــذ الـــديـــن مـــن أمّـــة
أزال المحـــاريـــب أصنـــامهـــا
دلفـــت لها تقتفيـــك الاســـو
د والبيـــض والسمـــر آجـــامهـــا
جـــزرت جـــزيـــرتها بـــالسيـــو
ف حتـــى تشـــاء مهـــا شـــامهـــا
وصـــارت عـــواري أكتـــافـــه
متـــى شئـــت أرخـــص مستـــامهـــا

قال ابن الاثير: ولما وصـل الروم والفرنج إلى الشام ورأوا الامـر قد فات أرادوا جبر مصيبتهـم بمنـازلـة بعـض بـلاد المسلمين، فنـازلـوا حلب وحصروها، فلـم ير الشهيد أن يخاطر بـالمسلمين ويلقاهم لأنهم كـانوا في جمع عظيـم، فانحـاز عنهم ونـزل قريبـا منهم يمنـع عنهم الميرة، ويحفـظ أطـراف البلاد مـن انتشار العـدوّ فيهـا والاغارة عليهـا، وأرسل القـاضي كمال الديـن بن الشهر زوري إلى السلطان مسعـود ينهي إليه الحال بـأمر البلاد وكثرة العدوّ، ويطلب منه النجـدة وإرسال العساكر، فقال له كمال

الـدين: أخـاف أن تخرج البلاد مـن أيدينـا ويجعل السلطـان هذا حجـة وينفـذ العساكـر، فإذا تـوسطوا البـلاد ملكـوها، فقـال الشهيد: إن هـذا العدوّ قد طمـع فيّ وإن أخذ حلب لم يبق بالشام اسـلام، وعلى كل حال فـالمسلمـون أولى بها مـن الكفار، قـال: فلما وصلـت إلى بغـداد وأدّيـت الرسـالة وعدني السلطـان بانفاذ العساكـر، ثم أهمل ذلك ولم يتحـرك فيه بشيء وكتب الشهيـد إليّ متصله يحثني على المبادرة بـانفاذ العساكـر، وأنا أخاطب فلا أزاد على الوعد.

قـال: فلما رأيـت عدم اهتمام السلطـان بهذا الامـر العظيـم، أحضرت فلانـا( وهو فقيـه كان ينوب عنـه في القضاء) فقلت: خـذ هذه الـدنانير وفـرقها في جماعـة مـن أوباش بغـداد والأعاجـم، وإذا كـان يوم الجمعـة وصعـد الخطيـب المنبر بجامـع القصر قـامـوا وأنـت معهم، واستغـاثـوا بصـوت واحـد:«وا اسـلامـاه» « وا دين محمـداه» ويخرجـون مـن الجامـع ويقصـدون دار السلطنة مستغيثين، ثـم وضعت انسـاناً آخـر يفعل مثـل ذلك في جـامع السلطان ، فلما كانـت الجمعة وصعد الخطيـب المنبر، قام ذلك الفقيـه وشق ثـوبه، وألقـى عمامته عـن رأسه وصـاح، وتبعه أولئـك النفـر بالصيـاح والبكاء فلـم يبق بـالجامـع إلا من قـام يبكي، وبطلـت الجمعـة وسار النـاس كلهـم إلى دار السلطان وقـد فعـل أولئـك الذيـن بالجامع مثلهم، فاجتمع أهل بغـداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثـون، وخرج الأمر عن الضبـط وخاف السلطان في داره، وقـال: ما الخبر؟فقيـل لـه: إن الناس قـد ثـاروا حيـث لم ترسـل العسـاكـر إلى الغـزاة ، فقال: أحضروا ابـن الشهـرزوري، قـال: فحضرت عنـده وأنا خـائف منـه لأنني قـد عزمـت على صـدقه وقـول الحق، فلما دخلت عليه قال: ياقاضي ما هذه الفتنة؟ فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفا من الفتنة والشر، ولاشك ان السلطـان ما يعلم كم بينه وبين العدو وإنما بينكم نحـو اسبوع، ولئن أخـذوا حلب، انحدروا إليـك في الفرات، وفي البرّ وليس بينكم بلـد يمنعهم عن بغداد، وعظمت الأمـر عليه حتى

جعلته كأنه ينظر اليهم، فقال: اردد هؤلاء العـامة عنا، وخذ من العساكر ماشئت وسر بهم والأمداد تلحقك، قال: فخـرجت إلى العامة ومن انضم إليهم فأخبرتهم وعـرّفتهم الحال، وأمرتهم بالعود، فعادوا وتفـرّقوا وانتخبت من عسكره عشرة آلاف فارس، وكتبت إلى الشهيـد أعرّفه الخبر وأنه لم يبق غير المسير وأجدّد استئذانـه في ذلك، فأمرني بتسييرهـم والحث على ذلك، فعبرت العساكر الجانب الغربي، فبينما نحن نتجهز للحركة واذا قد وصل نجاب من الشهيد يخبر بأنّ الروم والفرنـج قد رحلوا عن حلب خائبين لم ينـالوا منهـا غـرضا، ويـأمـرني بترك استصحاب العسـاكـر، فلما خوطـب السلطان في ذلك أصرّ على انفاذ العساكر إلى الجهـاد، وقصد بلاد الفرنج وأخذهـا، وكان قصده أن تطـأ عساكـره البلاد بهذه الحجة فيملكهـا،فلم أزل أتوصـل مع الوزيـر وأكابرالـدولة حتـى أعدت العساكـر إلى الجانب الشرقي، وسرت إلى الشهيد.

قال ابن الاثير: فـانظروا إلى هذا الرجل الـذي هو خير من عشرة آلاف فارس- يعنـي كمال الدين - رحم اللـه الشهيد، فلقد كان ذا همة عـالية ورغبة في الرجـال ذوي الرأي والعقل يرغبهـم ويخطبهم من البلاد ويـوفر لهم العطاء.

حكى لي والدي قـال: قيل للشهيد: إن هذا كمال الديـن يحصل له في كـل سنة منـك ما يـزيـد على عشرة آلاف دينار أميريـة وغيره يقنع منـك بخمسمائة دينار، فقـال لهم: بهذا العقل والـرأي تدبـرون دولتي، إن كمال الدين يقلّ لـه هذا القدر، وغيره يكثر له خمسمائة دينار، فـان شغلا واحد يقوم فيـه كمال الدين خير مـن مائة ألـف دينار، وكان كما قـال رحمه الله تعالى.

# فصل

قال: وفي سنة سبع وثلاثين سار الشهيد إلى بلد الهكارية، وكان بيد الأكراد، وقد أكثروا في البلاد الفساد، إلا أن نصير الدين جقر نائب السلطان الشهيد بالموصل كان قد ملك كثيراً من بلادهم، فلما بلغها الشهيد حصر قلعة الشعباني وهي من أعظم قلاعهم وأحصنها، فملكها وأخربها، وأمر ببناء قلعة العمادية عوضا عنها، وكانت هذه العمادية حصنا كبيراً عظيماً فأخربه الأكراد لعجزهم عن حفظه لكبره، فلما ملك أتابك الشهيد البلاد التي لهم قال: إذا عجز الأكراد عن هذا الحصن فأنا بحول اللّه لاأعجز عنه، فأمر ببنائه وكان رحمه الله ذا عزم ونفاذ أمر فبنى الحصن وسماه « القلعة العمادية» نسبة إلى لقبه عماد الدين.

وفي هذه السنة خطب لأتابك بآمد، وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن والانتماء إلى خدمته ، والخطبة له فأجابه إلى ذلك، وفيها ملك الشهيد مدينة عانة

وفيها حصر مدينة حمص مرة أخرى وفتحها في شوال، وقصد دمشق فشتى بها، وفي سنة ثمان وثلاثين عزم السلطان مسعود على قصد الموصل بعسكره، وكان قد وقع بينه وبين الشهيد وحشة فتردّدت الرسل بينهما حتى استقرّت الحال على مائة ألف دينار إمامية يحملها الشهيد إلى السلطان، وطلب أن يحضر الشهيد في خدمته فامتنع واعتذر باشتغاله بالفرنج، فعذره وشرط عليه فتح الرها، وكان من أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل أنه قيل له : إن ملك البلاد لايقدر على حفظها من الفرنج غير أتابك عماد الدين،فإنها قد وليها قبله مثل جاولي سقاوة، ومودود وجيوش بك والبرسقي وغيرهم من الأكابر، وكان السلاطين يمدّونهم بالعساكر الكثيرة، ولايقدرون على حفظها، ولايزال

الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلـد إلى أن وليها أتابك ، فلم يمدّه أحد من السـلاطين بفارس واحد ولابمال، ومع هـذا فقد فتح من بـلاد العدّو عدّة حصـون وولايات وهـزمهم غير مرة واستضعفهـم، وعز الاسـلام به، ومن الأسباب المانعـة له أيضا أن الشهيد كان لايـزال ولده الأكبر سيف الدين غازي في خـدمة السلطان مسعود بأمر والـده، وكان السلطان يحبه ويقرّبه ويعتمد عليـه ويثق به، فأرسل إليه الشهيد يـأمره بالهرب والمجيء إلى الموصل، وأرسل إلى نائبـه بالموصل يأمره أن يمنعه مـن دخول الموصل ومن المسير إليه أيضاً ففعـل ذلك، وقال له: ترسل إلى والـدك تستأذنه في الـذي تفعله، فـأرسـل إليه فعـاد الجواب: إننـي لاأريدك مهما السلطـان ساخط عليـك، فألزمه بالعـود إليه، فعاد ومعه رسـول إلى السلطان يقول له: إننـي لما بلغني أن ولدي فـارق الخدمة بغير أذن لم اجتمع بـه ورددته إلى بـابـك، فحـلّ هـذا عنـد السلطـان محلاً كبيراً، وأجـاب إلى مـا أراد الشهيد، ولما استقرّ المال حمل منـه نحو عشرين ألف دينـار، ثم إن الأمور تقلبـت، وعاد أصحـاب الأطـراف خرجـوا على السلطـان ، فاحتـاج إلى مداراة الشهيد، وأطلق له الباقي، إستمالة له.

وفي هذه السنـة سار الشهيد إلى ديـاربكر ففتـح عدّة بلاد منهـا طنزة وأسعـرد، وملك مـدينـة المعدن الـذي يعمل منـه النحـاس من أرمينيـة، ومدينة حيزان، وأخـذ من أعمال ماردين عدّة مواضـع ورتب أمور الجميع وملك مدينة حاني، وحاصر آمد، وأرسـل عسكراً إلى مدينة عانة، فملكها له، وقد تقدّم ذكرها في السنة قبلها.

# فصل

## في فتح الشهيد الرها

في جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وكانت لجوسلين وهو عاتي الفرنج وشيطانهم والمقدّم على رجالهم وفرسانهم، وكانت مدّة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً، وأعادها إلى حكم الإسلام، وهذه الرها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً، وهي إحدى الكراسي عندهم، فأشرفها البيت المقدّس، ثم أنطاكية، ثم رومية، ثم قسطنطينية والرها، وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرها شرّ عظيم، وملكوا من نواحي ماردين إلى الفرات على طريق شبختان عدّة حصون : كسروج والبيرة، وجملين، والموزر، وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر، وماردين ورأس عين والرقة، وأما حرّان فكانت معهم في الخزي كل يوم قد صبحوها بالغارة، فلما رأى الشهيد الحال هكذا أنف منهم وعلم أنه لاينال منها غرضا مادام جوسلين بها، فأخذ في إعمال الحيل والخداع لعل جوسلين يخرج منها إلى بعض البقاع، فتشاغل عنها بقصد ما جاورها من ديار بكر التي بيد الاسلام كحاني وجبل جور وآمد، فكان يقاتل من بها قتالا فيه ابقاء وهو « يسر حسوا في ارتغاء(٤٢)» فهو يخطبها، وعلى غيرها يحوم، ويطلبها وسواها يروم، ووكل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده، فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ظنّ أنه لافراغ له إليه، وأنه لايمكنه الإقدام عليه، ففارق الرها إلى بلاده الشامية، ليلاحظ أعماله، ويتعهد ذخائره وأمواله، فأقبل الشهيد مسرعاً بعساكره إلى الرها، ثم وصف ابن الأثير الجيش وأنشد:

بجيش جاش بالفرسان حتى
ظننت البر بحراً من سلاح

وألسنة من العذبات حمر
تخاطبنا بأفواه الرياح
وأروع جيشه ليل بهيم
وغرّته عمود للصباح
صفوح عند قدرته ولكن
قليل الصفح ما بين الصفاح
وكان ثباته للقلب قلبا
وهيبته جناحا للجناح

وألح الشهيد في حصارها فملكها عنوة فاستباحها ، ونكس صلبانها، وأباد قسوسها ورهبانها، وقتل شجعانها وفرسانها، وملأ الناس أيديهم من النهب والسبي، ثم إنه دخل البلد فراقه، فأنف لمثله من الخراب، فأمر بإعادة ما أخذ من أثاث ومال وسبي ورجال وجوار وأطفال، فردّوا عن آخرهم لم يفقد منهم إلاّ الشاذ والنادر، فعاد البلد عامراً بعد أن كان داثراً، ثم رتب البلد وأصلح من شأنه، وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرايا، كسروج وغيرها، وأخلى الديار الجزرية من معرة الفرنج وشرهم، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين، وكان فتحاً عظيما طار في الآفاق ذكره وطاب بها نشره وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء.

قال ابن الاثير: حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنهم رأوا يوم فتح الرها الشيخ أبا عبد اللّه بن علي بن مهران الفقيه الشافعي، وكان من العلماء العاملين والزاهدين في الدنيا المنقطعين عنها، وله الكرامات الظاهرة، ذكروا عنه أنه غاب عنهم في زاويته يومه ذلك، ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور عنده من الارتياح ما لم يروه أبدا، فلما قعد معهم قال: حدّثني بعض إخواني أن أتابك زنكي قد فتح مدينة الرها، وأنه شهد معه فتحها يومنا هذا، ثم قال: ما يضرّك يازنكي ما فعلت بعد اليوم، يردد هذا القول مراراً، فضبطوا ذلك اليوم، فكان يوم الفتح،ثم إن

نفراً من الأجناد حضروا عند هذا الشيخ وقالوا له: منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح، وهو ينكر حضوره، وهم يقسمون أنهم رأوه عيانا.

قال: وحكى لي بعض العلماء بالأخبار والأنساب، وهو أعلم من رأيت بها، قال: كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها، وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين، وكان الملك يحضره ويكرمه ويرجع إلى قوله ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين، فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرهاسير ملك الفرنج هذا جيشاً في البحر إلى إفريقية فنهبوا وغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي وقد نعس، وهو شبيه النائم، فأيقظه الملك وقال: يافقيه قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت، أين كان محمد عن نصرتهم؟ فقال له: كان قد حضر فتح الرها، فتضاحك من عنده من الفرنج، فقال لهم الملك: لاتضحكوا فوالله ما قال عن غير علم، واشتدّ هذا على الملك فلم يمض غير قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين، فأنساهم شدّة هذا الوهن رخاء ذلك الخبر لعلوّ منزلة الرها عند النصرانية.

قال وحكى لي أيضا غير واحد ممن أثق إليهم أن رجلا من الصالحين قال: رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت له: ما فعل الّله بك؟ فقال: غفر لي، قلت: بماذا؟ قال: بفتح الرها.

قلت: وهنأه القيسراني عند فتح الرها بقصيدة أوّلها

هو السيف لايغنيك إلاّ جلاده
وهل طوق الاملاك إلاّ نجاده

وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا
سناها وإن فات العيون اتقاده

سمت قبة الاسلام فخراً بطوله
ولم يك يسمو الدين لولا عماده

وزاد قسيم الدين ابن قسيمها
عن الله ما لا يستطاع زياده
ليهن بني الايمان أمن ترفعت
رواسية عزاً واطمأن مهاده
وفتح حديث في السماع حديثه
شهي إلى يوم المعاد معاده
أراح قلوباً طرن عن وكناتها
عليها قوافي كل صدر فؤاده
لقد كان في فتح الرهاء دلالة
على غير ما عند العلوج اعتقاده
يرجون ميلاد ابن مريم نصرة
ولم يغن عند القوم عنه ولاده
مدينة أفك منذ خمسين حجة
يفلّ حديد الهند عنها حداده
تفوت مدى الأبصار حتى لو أنها
ترقت إليه خان طرفا سواده
وجامحة عز الملوك قيادها
إلى أن ثناها من يعز قياده
فأوسعها حرّ القراع مؤيد
بصير بتمرين الألد لداده
كأنّ سنا لمع الأسنة حوله
سرار ولكن في يديه زناده
فأضرمها ناري حرب وخدعة
فما راع إلا سورها وانهداده
فصدّت صدود البكر عند افتضاضها
وهيهات كان السيف حتما نفاده
فيا ظفراً عم البلاد صلاحه
بمن كان قد عم البلاد فساده

فـــلا مطلـــق الا وشـــدّ وثـــاقـــه
ولا مـــوثـــق إلّا وحـــل صفـــاده

ولا منبر إلاّ تـــرنـــح عـــوده
ولا مصحـــف إلاّ أنـــار مـــداده

فـان يثكـل الابـرنـز(٤٢) فيهـا حيـاتـه
وإلاّ فقـــل للنجـــم كيـــف سهـــاده

وبـــاتـــت سرايـــا القمـــص تقمـــص دونها
كما يتنـــزاعـــن حـــريـــق حـــراده

إلى أيـــن يـــا أسر الضـــلالـــة بعـــدهـــا
لقـــد ذلّ غـــاويكـــم وعـــز رشـــاده

رويـــدكـــم لامـــانـــع مـــن مظفـــر
يعـــانـــد أسبـــاب القضـــاء عنـــاده

مصيـــب سهـــام الـــرأي لـــو أن عـــزمـــه
رمـــى ســـد ذي القـــرنين أصمـــى ســـداده

وقـــل للملـــوك الكفـــر تسلـــم بعـــدهـــا
ممـــالكهـــا إن البـــلاد بـــلاده

كـــذا عـــن طـــريـــق الصبـــح فلينتـــه الـــدجـــى
فيـــاطـــا لما غـــال الظـــلام امتـــداده

ومـــن كـــان امـــلاك السمـــوات جنـــده
فـــأيـــة أرض لم تـــرضهـــا جيـــاده

وللّـــه عـــزم مـــاء سيحـــان ورده
وروضـــة قسطنطينيـــة مستراده

وله من قصيدة هنأ بها القاضي كمال الدين بن الشهر زوري أوّلها:
هـــي الجنـــة المأوى فهـــل مـــن خـــاطـــب..

يقول فيها:
إن الصفـــائح يـــوم صـــافحـــت الـــرهـــا
عطفـــت عليهـــا كـــل أشـــوس نـــاكـــب

فتــــح الفتـــــوح مبشراً بتمامــــه
كــــالفجـــر في صـــدر النهـــار الآيـــب

للّـــه أيــــة وقفـــة بـــدريـــة
نصرت صحــائبهــا بــأيمــن صــاحـب

ظفــر كمال الــــديــن كنــت لقــاحــه
كــم نــــاهـــض بــــالحرب غير محارب

وأمـــدّكــم جيــــش الملائك نصرة
بكتــــائب محثـــوثــــة بكتــــائب

جنبــوا الــدبــور وقــد تمم ريــح الصبــا
جنــد النبـــوّة هـــل لها مـــن غــالــب

أتـــرى الـــرهــا الـــورهـــاء يـــوم تمنعــت
ظنــت وجـــوب الســـور ســـورة لاعـــب

لا أيـــن يـــا أسرى المهـــالـــك بعـــدهـــا
إن الـــدروب على الطـــريـــق الـــلاحـــب

أفغـــرّكـــم والثـــار رهـــن دمــائكـــم
مـــاكـــان مـــن اطـــراق لحظ الطـــالـــب

وإذا رأيـــت الليـــث يجمـــع نفســـه
دون الفـــريســـة فهـــو عين الـــواثـــب

وقال ابن منير:

صفـــات مجدك لفـــظ جـــلّ معنـــاه
فـــلا استردّ الـــذي اعطـــاكـــه اللّـــه

يـــا صـــارمـــا بيمين اللّـــه قـــائمـــه
وفي أعـــالي أعـــادي اللّـــه حـــدّاه

أصبحـــت دون ملـــوك الأرض منفـــردا
بـــلا شبيـــه إذا الأمـــلاك أشبـــاه

فـــداك مـــن حـــاولـــت مسعـــاك همتـــه
جهـــلا وقصر عـــن مسعـــاك مسعـــاه

قــل لــلاعـــادي ألا مــوتــوا بــه كمــد
فـــاللّـــه خيبكـــم واللّـــه أعطـــاه

ملـــك تنـــام عـــن الفحشـــاء همتـــه
تقـــى وتسهـــر للمعـــروف عينـــاه

مـــازال يمســـك والأيـــام تخدمـــه
فيها ابتـــلاه وتـــدني مـــا تـــوخـــاه

حتـــى تعـــالـت عـــن الشعـــرى مشـــاعـــره
قـــدرا وجـــاوزت الجوزاء نعـــلاه

وقـــد روى النـــاس أخبـــار الكـــرام مضـــوا
وأيـــن ممـــا رووه مـــا رأينـــاه

أيـــن الخلاف عـــن فتـــح أتيـــح لـــه
مظلـــل أفـــق الـــدنيـــا جنـــاحـــاه

على المنـــابـــر مـــن أنبـــائه أرج
مقطـــوبـــة بفتيـــت المســـك ريـــاه

فتـــح أعـــاد على الاســـلام بهجتـــه
فـــافتر مبسمـــه واهتـــز عطفـــاه

يهدي بمعتصـــم بـــاللـــه فتكتـــه
حـــديثهـــا نســـخ الماضي وأنســـاه

إن الـــرهـــا غير عمـــوريـــة وكـــذا
مـــن رامهـــا ليـــس مغـــزاه كمغـــزاه

أخـــت الكـــواكـــب عـــزا مـــا بغـــى أحـــد
مـــن الملـــوك لها وقها (٤٤) فـــواتـــاه

حتـــى دلفـــت لها بـــالعـــزم يشحـــذه
رأي يبيـــت فـــويـــق النجـــم مسراه

مشمـــرا وبنـــو الاســـلام في شغـــل
عـــن بـــدء غـــرس لهم أثمار عقبـــاه

يـــا محيـــي العـــدل إذ قـــامـــت نـــوادبـــه
وعـــامـــر الجود لما امّـــح مغنـــاه

يـا نعمة اللّه يستصفى المزيد بها
للشاكرين ويستقنى صفاياه
أبقاك للدين والدنيا تحوطهما
من لم يتوّجك هذا التاج إلاّ هو

ولابن منير من قصيدة تقدّم بعضها:
أيا ملكا ألقى على الشرك ككلا
أناخ على آماته كلكل الثكل
جمعت إلى فتح الرها سدّ بابه
بجمعك بين النهب والاسر والقتل
هو الفتح أنسى كل فتح حديثه
وتوج مسطور الرواية والنقل
فضضت به نقش الخواتم بعده
جزيت جزاء الصدق عن خاتم الرسل
تجرّدت للاسلام دون ملوكه
تبتك أسباب المذلة والخذل
أخو الحرب غذته القراع مفطما
يشوب باقدام الفتى حنكة الكهل

وله من قصيدة أخرى:

بعماد الدين أضحت عروة الدين معصوبا بها الفتح المبين
واستزادت بقسيم الدولة القسم من ادحاض كيد المارقين
ملك اسهر عينا لم يزل همها تشريد همّ الراقدين
لاخلت من كحل النصر فقد فقأت غيظا عيون الحاسدين

كل يوم مر من أيامه
فهو عيد عائد للمسلمين
لو جرى الانصاف في أوصافه
كان أولاها أمير المؤمنين
ما روى الراوون بل ما سطروا
مثل ما خطت له أيدي السنين
إذا ناخ الشرك في أكنافه
بمئي ألف تلاها بمئين
وقعة طاحت بكلب الروم من
قطعة البين إلى قطعة الوتين
إن حمت مصر فقد قام لها
واضح البرهان إن الصين صين
والرها لو لم تكن إلا الرها
لكفت حسماً لشك الممترين
هم قسطنطين أن يفرعها
ومضى لم يحو منها قسطنطين
ولكم من ملك حاولها
فتحلا الحين وسما في الجبين
هي أخت النجم إلا أنها
منه كالنجم لرأي المبصرين
زارها يزأر في أسد وغى
تبدل الأسد من الزأر الأنين
صوالجوا بالبيض بضرب نثر
ـر الهام في ساحاتها نثر الكرين (٤٥)
يا لها همة ثغر أضحكت
من بني القلف ثغور الشامتين
برنست رأس برنس ذلة
بعدما جاست حوايا جوسلين

سروج مـــــذ وعـــــت أسراجـــــه
فــــرقــــت جماعهـــــا عنهـــــا عضين

تلـــك أقفـــال رمـــاهـــا اللّـــه مـــن
عـــزمـــــه الماضي بخير الفـــاتحين

شـــام منـــه الشـــام بـــرقـــا ودقـــه
مـــؤمـــــن الخوف مخيـــف الآمنين

كـــم كنيـــس كنســـت قـــدرامهـــا
منـــه بعـــد الـــروح في ظـــل السفين

دنـــت الآجـــال مـــن آجـــالها
فـــأحلتهـــا القطـــا بعـــد القطين

ومنـــار يجتلى صلبـــانـــه
بين بيـــض تتبـــارى في البريـــن

قـــرعتـــه البيـــض حتـــى بـــدّلـــت
قـــرعـــة النـــاقـــوس تثـــويـــب الأذيـــن

بـــالقسيميـــات مقســـوم لها الـــ
ـــدهر في علـــك لجين أو لحين

ســـل بها حـــرّان كـــم حـــرّى سقـــت
بـــردا مـــن يـــوم ردت مـــارديـــن

شمطـــت أمـــس شميشـــاط بها
نظـــم جيـــش منهـــج للنـــاظـــريـــن

وغـــدا يلقـــي على القـــدس لها
كلكـــل يـــدرسهـــا درس الـــدريـــن

همة تمسي وتضحـــي عـــزمـــة
ليـــس حصـــن إن نحتـــه بحصين

قـــل لقـــوم غـــرّهـــم امهـــالـــه
ستـــذوقـــون شـــذاه بعـــد حين

إنـــه الموت الـــذي يـــدرك مـــن
فـــرّ منـــه فشجـــا اللغـــافلين

وهـــو يحيـــى ممسكـــا عـــروتـــه
إنها حبـــل لمن تـــاب متين
مـــن يطـــع ينـــج ومـــن يعـــص يكـــن
مـــن غـــداة عبرة لـــلآخـــريـــن
بـــك يـــا شمـــس المعـــالي ردّت الـــ
ـــروح في الميتين مـــن دنيـــا وديـــن
أقســـم الجدّ بـــأن تبقـــى لكـــي
تملـــك الأرض يمينـــا لا يمين
وتفيـــض العـــدل في أقطـــارهـــا
منسيـــا مـــؤلم عســـف الجائريـــن
لا تـــزل دارك كيـــف انتقلـــت
كعبـــة محفـــوفـــة بـــالطـــائفين
كـــل يـــوم يتحلى جيـــدهـــا
مـــن نظيـــم المدح بـــالـــدرّ الثمين
كلما أخلـــص فيهـــا دعـــوة
لـــك قـــالـــت ألســـن الخلـــق آمين

# فصل

لما فرغ الشهيد مـن أخذ الرها وإصلاح حالها والاستيـلاء على ماوراءها من البلاد والولايات، سار إلى قلعة البيرة، وهي حصن حصين مطل على الفـرات، وهو لجوسلين أيضـا فحصره وضـايقه فـأتـاه الخبر بقتـل نائبـه بالموصل والبلاد الشرقيـة نصير الدين جقر بن يعقوب، فرحـل عنها خوفا من أن يحدث بعده في البـلاد فتق يحتاج إلى المسير إليها، فلما رحـل عنها سير اليها حسـام الديـن تمرتاش بـن إيلغازي صـاحب مـاردين عسكـراً فسلمها الفرنج إليهم خوفا من الشهيد أن يعود إليهم فيأخذها.

وكان قتل النصير في ذي القعـدة سنة تسع وثلاثين ، وسببـه أن الملك ألـب أرسـلان المعـروف بـالخفاجـي ولـد السلطـان مسعـود، وأصحـاب

الأطراف يرون أن البـلاد التي بيده للملك ألـب أرسلان وأنه نائبـه فيها، وكان إذا أرسل رسـولاً أو أجاب عن رسالـة فإنما يقول: قال الملـك: كذا وكذا، وكـان ينتظر وفـاة الملك مسعـود، ليجمع العسـاكر بـاسمه ويخرج الأمـوال ويطلب السلطنـة فعاجلتـه المنية قبـل ذلك، وكـان هذا الملـك بالموصـل هذه السنـة، وبها نصير الدين، وهـو ينزل إليـه كل يـوم يخدمه ويقف عنـده ساعة، ثـم يعود ،فحسن المفسدون للملـك قتله وقالـوا له: إنك إن قتلـه ملكت الموصل وغيرها، ويعجـز أتابك أن يقيم بين يـديك ولايجتمع معـه فارسان عليـك، فوقـع هذا في نفسه، وظنـه صحيحاً، فلما دخل نصير الدين إليه على عادته وثب عليه جماعة في خدمة الملك فقتلوه وألقـوا رأسه إلى أصحـابـه ظنـا منهم أن أصحـابـه إذا رأوا رأسـه تفرّقـوا ويملـك الملـك البـلاد، وكـان الأمـر بخلاف مـا ظنـوا، فـإن أصحـابـه وأصحاب أتـابك الذين معـه لما رأوا رأسه قاتلـوا من بالدار مـع الملك، واجتمـع معهـم الخلق الكثير، وكـانـت دولـة الشهيـد مملـوءة بالـرجـال الأجلاد ذوي الرأي والتجـربة فلم يتغير عليه بهذا الفتـق شيء، وكان من جملة من حضر القاضي تـاج الدين يحيى بن عبد الله بـن القاسم الشهر زوري أخو كمال الـدين، فـدخل إلى السلطان وخـدعه حتـى أصعده إلى القلعة وهـو يحسن لـه الصعود إليهـا،وحينئذ يستقـرّ له ملـك البلد، فلما صعـد القلعة سجنـوه بها وقتل الغلمان الـذيـن قتلوا النصير، وأرسلـوا إلى أتابك يعرّفـونه الحال فسكن جأشه، واطمأن قلبه وأرسـل زين الدين علي ابن بكتكين واليـاً على قلعة الموصـل، وكان كثير الثقـة به والاعتماد عليـه فسلـك بالنـاس غيرالطريـق التي سلكهـا النصير وسهل الأمـر فاطمـأن النـاس، وأمنوا وازدادت البـلاد معـه عمارة، ولما رأى الشهيـد صلاح أمـر الموصـل سار إلى حلـب فجهز منهـا جيشا إلى قلعـة شيزر، وبينهـا وبين حماه نحو أربعة فراسخ فحصرها.

قلت : كذا وقـع في كتاب ابن الاثير، وقد وهـم من قوله ألـب أرسلان المعـروف بالخفـاجـي، فالخفـاجي غير ألـب أرسـلان على ماذكـره العماد

الكاتب في كتاب السلجوقية، فإنه قال: كان مع زنكي ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه أحدهما يسمى ألب أرسلان، وهو في معقل من معاقل سنجار، والآخر يسمى فرخشاه ويعرف بالملك الخفاجي وهو بالموصل، وكان هذا الملك مسلما إلى الأمير دبيس بن صدقة، فانتزعه منه زنكي في حرب جرت، فكانت زوجة زنكي خاتون السكمانية تربيه حتى بلغ، وكان النصير يقبض عنانه ويبسط فيه لسانه ويقول: إن عقل وإلاّ عقلته، وإن ثقل طبعه وإلاّ ثقلته، فدبر في قتله مع أصحابه فقطعوه في دهليز داره لما دخل للسلام على الملك، ثم أصعد القاضي تاج الدين الملك إلى القلعة فلم ير له أثر والتقط مماليكه.

ثم عطف زنكي على الملك الآخر ألب أرسلان فاستخرجه من معقله، وعنى بتفاصيل أمره وجمله وضرب له نوبتيه ونوبا، ورتب له في حالتي ركوبه وجلوسه رتباً، وأغرى بتولي إكرامه وتوخيه وغرضه خفاء ماجرى من هلاك أخيه، ثم ذكر قصة موت زنكي على قلعة جعبر كما سيأتي(٤٦)

وفي سنة أربعين وخمسمائة أرسل أتابك إلى زين الدين علي يأمره بارسال عسكر إلى حصن فنك يحصره ،فسير خلقاً كثيراً من الفرسان والرجالة فأقاموا عليه يحصرونه إلى أن أتاهم الخبر بقتل الشهيد أتابك، وهذا الحصن هو مجاور جزيرة ابن عمر، وهو للأكراد البشنوية، وله معهم مدة طويلة يقولون نحو ثلاثمائة سنة ،وهو من أمنع الحصون مطل على دجلة وله سرب إلى عين ماء لايمكن أن يحال بين أهله وبينها.

قلت : وفي هذه السنة أنشد ابن منير بالرقة عماد الدين زنكي يهينه بالعافية من مرض عرض له في يده ورجله قصيدة أوّلها:

يـــــابـــــدر لاأفـــــل ولا محاق
ولا يـــــرم مشرقـــــك الاشراق

بالدين والدنيا الذي يشكو وهل
يهتز فرع لم يقمه ساق

لن تورق القضب ويجري ماؤها
إلاّ إذا ما التاثت الأعراق

إنّ الرعايا ما سلمت في حمى
للخطب عن طروقه إطراق

غرست بالعدل لهم خمائلا
ترتع في حديقها الأحداق

يا هضبة الدين التي عاذ بها
فعاد لابغتا ولا ارهاق

لو لم تحطه راحلا وقافلا
أصبح لا شام ولا عراق

عماد دين منذ أقام زيغه
حيى ومات الشرك والنفاق

يا محيي العدل الذي في ظله
تسربلت زينتها الآفاق

يفديك من لان مهاد جبينه
لما نبا بجنبك الاقلاق

من يشأ سيفك أنبطت له الـ
ـعذب وماء عيشه زعاق

تجرّع السم ولو لم تحمه
بحده لعزه الدرياق

ملوك أطراف حمى أطرافها
عزمك هذا اللاحق السباق

لو لم ترق ماء كرى العين لما
ساغت بأفواههم الاريـاق

شققت من دونهم مرج الردا
وشق أكبادهم الشقاق

أقسم لو كلفتهم أن يسمعوا
حديث أيامك ما أطاقوا

لما اشتكيت دبّ في أهوائهم
توجس للسمع واستراق

تطاولوا لا عدمت أمالهم
قصراً ولا جانبها الاخفاق

توهموها غسقاً ثم انجلت
والصفو من مشربهم غساق

لئن ألمّ ألم بقدم
خد السها لنعلها طراق

أو كان مدّ يده إلى يد
يجري بها الآجال والأرزاق

فالنصل يعلى صدأ وتحته
حد الحسام وسنا رقراق

رمى الصليب بصليب الرأي عن
زوراء أوهى نزعها الاغراق

ونوم من خلف الخليج سهر
والعيش في فرنجة سياق

ماتوا فلا همس ولا اشارة
خوف هموس زاره ارهاق

لا سلبت منك الليالي ما كست
ولا عرت جدّتك الاخلاق

# فصل

## في وفاة زنكي رحمه الله

قال ابن الأثير: كانت قلعة جعبر قد سلمها السلطان ملكشاه إلى الأمير سالم بن مالك العقيلي لما ملك قسيم الدولة مدينة حلب، فلم تزل

بيده ويد أولاده إلى سنة احدى وأربعين، فسار الشهيد إليها فحصرها وحصر فنك لئلا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره، وإن قل، للحزم الذي كان عنده والاحتياط، وأقام عليه يحصره بنفسه إلى أن مضى من شهر ربيع خمس ليال، فبينما هو نائم دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه ولم يجهزوا عليه وهربوا من ليلتهم إلى القلعة، ولم يشعر أصحابه بقتله، فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله فبادر أصحابه إليه فأدركه أوائلهم وبه رمق، ثم ختم الله له بالشهادة أعماله:

لاقى الحمام ولم أكن مستيقنا
أنّ الحمام سيبتلى بحمام

فأضحى وقد خانه الأمل وأدركه الأجل، وتخلى عنه العبيد والخول، فأي نجم للاسلام أفل، وأيّ ناصر للايمان رحل، وأي بحر ندى نضب، وأي بدر مكارم غاب، وأي أسد افترس، ولم ينجه قلة(٤٧) حصن ولا صهوة فرس، فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته، وكم أدبها في حفظه وحراسته، فأتاه مبيد الأمم ومفنيها في الحدث والقدم، فأصاره بعد القهر للخلائق مقهورا، وبعد وثير المضاجع في التراب معفرا مقبورا، رهين جدث لاينفعه إلا ما قدم، فطويت صفحة عمله، فهو موثوق في صورة مستسلم، ثم دفن بصفين عند أصحاب عليّ أمير المؤمنين رضي اللّه عنه.(٤٨)

قلت: وذكر العماد الكاتب في كتاب السلجوقية قال: قصد زنكي حصار قلعة جعبر ، فنازلها وكان إذا نام ينام حوله عدّة من خدّامه الصباح، وهو يحبهم ويحبوهم ولكنهم مع الوفاء منه يجفوهم، وهم أبناء الفحول القروم من الترك والروم، وكان من دأبه أنه إذا نقم على كبير أرداه، وأقصاه، واستبقى ولده عنده وأخصاه. فنام ليلة موته وهو سكران فشرع الخدّام في اللعب فزجرهم وزبرهم وتوعدهم، فخافوا من سطوته،

فلما نام ركبه كبيرهم واسمه يرنقش فذبحه، وخرج ومعه خاتمه، فركب فرس النوبة موهما أنه يمضي في مهم، وهو لايرتاب به لانه خاص زنكي، فأتى الخادم أهل القلعة فأخبرهم.وذكر الحديث(٤٩)

قلت: ثم نقل إلى الرقة فدفن بها، وقبره الآن فيها.

قال ابن الاثير: وكان حسن الصورة، مليح العينين، قد وخطه الشيب، طويلا وليس الطويل البائن، وخلف من الاولاد سيف الدين غازيا وهو الذي ولي بعده، ونور الدين محموداً الملك العادل، وقطب الدين مودوداً، وهو أبو الملوك بالموصل، ونصرة الدين أمير أميران، وبنتا فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والأناث، ونور الدين من الذكور، ولم يبق الملك إلا في عقب قطب الدين، ولقد أنجب رحمه الله، فان أولاده الملوك لم يكن مثلهم،.

قلت: ومن عجيب ما حكي أنه لما اشتدّ حصاره قلعة جعبر جاء في الليل ابن حسان المنبجي، ووقف تحت القلعة ونادى صاحبها فأجابه فقال له: هذا المولى أتابك صاحب البلاد وقد نزل عليك بعساكر الدنيا، وأنت بلا وزير ولا معين، وأنا أرى أن أدخل في قضيتك وآخذ لك من المولى أتابك مكاناً عوض هذا المكان، وإن لم تفعل فأي شيء تنتظر؟ فقال له صاحب القلعة : أنتظر الذي انتظر أبوك، وكان بلك بن بهرام صاحب حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره في منبج أشدّ حصار، ونصب عليه عدّة مجانيق ، وقال يوما لحسان وقد أحرقه بحجارة المنجنيق أي شيء تنتظر أما تسلم الحصن ؟ فقال له حسان: انتظر سهما من سهام الله، فلما كان في الغد بينا بلك يرتب المنجنيق إذ أصابه سهم غرب وقع في لبته فخر ميتاً، ولم يكن من جسده شيء ظاهر إلا ذلك المكان لأنه كان قد لبس الدرع، ولم يزرّها على صدره، فلما سمع ابن حسان ذلك من مقالة صاحب قلعة جعبر رجع عنه، وفي تلك الليلة قتل أتابك،

فكان هذا من الاتفاقات العجيبة والعبر الغـريبة ، ذكر ذلك يحيى بن أبي طيّ في كتاب السيرة الصلاحية.

# فصل
# في بعض سيرة الشهيد أتابك زنكي

وكانـت من أحسـن سير الملوك، وكانـت رعيته في أمـن شامـل يعجز القوي عن التعدّي على الضعيف.

قال ابـن الاثير: حدثنـي والدي قـال: قدم الشهيـد إلينا بجـزيرة ابـن عمر في بعض السنين، وكـان زمن الشتاء فنزل بالقلعـة، ونزل العسكر في الخيام وكان في جملـة أمرائه الأمير عز الديـن أبو بكر الدبيسي، وهـو من أكابـر أمرائه ومـن ذوي الرأي عنـده، فدخـل الدبيسي البلـد ونزل بـدار إنسان يهودي وأخرجـه منها، فاستغاث اليهودي إلى الشهيـد، وهو راكب فسأل عن حالـه فأخبر به، وكان الشهيد واقفاً والـدبيسي إلى جانبه ليس فـوقه أحـد فلما سمـع أتابـك الخبر نظـر إلى الـدبيسي نظر مغضـب، ولم يكلمه كلمـة واحدة فتـأخر القهقـرى ودخل البلـد وأخرج خيـامه وأمـر بنصبهـا خارج البلـد، ولم تكن الأرض تحتمـل وضع الخيـام عليها لكثـرة الوحـل والطين، قال: فلقـد رأيت الفـرّاشين وهم ينقلـون الطين لينصبوا خيمتـه فلما رأوا كثرتـه جعلوا على الأرض تبنـا ليقيموهـا، ونصبوا الخيـام وخرج إليها من ساعته.

قال: وكان ينهى أصحابه عن اقتنـاء الأملاك ويقول مهما كانت البلاد لنـا فأي حـاجـة لكـم إلى الأملاك، فـان الاقطـاعـات تغني عنهـا، وإن خـرجت البـلاد عن أيـدينـا فإن الأمـلاك تـذهب معهـا، ومتى صـارت

الأمـلاك لأصحاب السلطـان ظلموا الـرعيـة وتعدّوا عليهـم وغصبوهـم أمـلاكهم، ثـم ذكر مـا تجدّد في أيامـه من عمارة البـلاد لاسيما بالموصـل، وذلك لحسـن سيرته، فكـان يقصده النـاس ويتخذون بـلاده دار إقامـة، وهو الـذي أمر ببنـاء دار المملكة بـالموصل، ولم يكـن بها للسلطان غير الدار المعروفة بـدار الملك مقابل الميدان، ثم رفع سورهـا، وعمق خندقها، وهو الذي فتح الباب العمادي وإليه ينسب.

قال: وكـانت الموصل أقل بـلاد الله فاكهـة، وكان الذي يبيع الفـواكه يكون عنـده مقراض يقص به العنـب لقلته إذا أراد أن يزنـه، فلما عمرت البلاد عملت البساتين بظاهر الموصل وفي ولايتها.

قال: ومـن أحسن آرائه أنه كـان شديد العنايـة بأخبار الاطـراف، وما يجري لأصحـابها حتى في خلـواتهم، لاسيما دركاه السلطـان، وكان يغـرم على ذلك المال الجزيل، فكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره مـن حرب وسلم وهزل وجـد وغير ذلك، فكان يصـل إليه كل يوم مـن عيونه عدّة قـاصدين، وكان مـع اشتغاله بالأمـور الكبار من أمـور الـدولـة لايهمـل الاطـلاع على الصغير، وكـان يقـول :إذا لم يعـرف الصغير ليمنع صار كبيرا.

وكـان لايمكن رسـول ملـك يعبر في بـلاده بغير أمره، وإذا استـأذنـه رسول في العبـور في بلاده أذن له وأرسـل إليه من يسيره، ولايتركـه يجتمع بأحـد من الـرعية ولاغيرهم، فكـان الرسول يـدخل بـلاده ويخرج منها ولم يعلم من أحوالها شيئا.

وكـان يتعهد أصحـابه ويمتحنهـم : سلـم يومـا خشكنانكـة(٥٠)إلى طشت دار لـه، وقال: احفظ هـذه فبقي نحـو سنة لايفارق الخشكنـانكة خـوفاً أن يطلبهـا منـه، فلما كان بعـد ذلـك قال لـه: أيـن الخشكنانكـة،

فأخرجها في منديل وقدّمها بين يديه، فاستحسن ذلك منه وقال: مثلك ينبغي أن يكون مستحفظا لحصن، وأمر له بدزداريه قلعة كواشي، فبقي فيها إلى أن قتل أتابك، وكان لايمكن أحداً من خدمه من مفارقة بلاده، ويقول: إن البلاد كبستان عليه سياج فمن هو خارج السياج يهاب الدخول، فإذا خرج منها من يدلّ على عورتها ويطمع العدوّ فيها زالت الهيبة، وتطرّق الخصوم إليها.

قال: ومن صائب رأيه وجيده أن سير طائفة من التركمان الايوانية مع الأمير اليارق إلى الشام ، وأسكنهم بولاية حلب، وأمرهم بجهاد الفرنج وملكهم كلما استنقذوه من البلاد التي للفرنج وجعله ملكا لهم، فكانوا يغادون الفرنج القتال ويراوحونهم، وأخذوا كثيرا من السواد، وسدّوا ذلك الثغر العظيم، ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ستمائة.

قال: ومن آرائه أنه لما اجتمع له الأموال الكثيرة أودع بعضها بالموصل، وبعضها بسنجار، وبعضها بحلب، وقال: إن جرى على بعض هذه الجهات خرق أو حيل بيني وبينه استعنت على سدّ الخرق بالمال في غيره .

قال: وأما شجاعته وإقدامه فإليه النهاية فيها، وبه كانت تضرب الأمثال، ويكفي في معرفة ذلك جملة أن ولايته أحدق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب: الخليفة المسترشد والسلطان مسعود وأصحاب أرمينية وأعمالها، بيت سكمان وركن الدولة داود صاحب حصن كيفا، وابن عمه صاحب ماردين، ثم الفرنج، ثم صاحب دمشق، وكان ينتصف منهم ، ويغزو كلا منهم في عقر داره، ويفتح بلادهم ماعدا السلطان مسعود فإنه كان لايباشر قصده، بل كان يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه، فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً

إليـه، وطلب منـه أن يجمعهم على طـاعته، فيصير كـالحاكم على الجميـع وكل يداريه ويخضع له ويطلب منه ما تستقر القواعد على يده.

قـال: وأمّـا غيرته فكـانـت شـديـدة، ولاسيما على نساء الأجنـاد فـإن التعرّض إليهن كـان من الذنوب التـي لايغفرها، وكان يقـول: إن جندي لايفـارقوني في أسفـاري، وقلمايقيمون عنـدأهلهـم، فإن نحـن لم نمنع مـن التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن.

قلت:وفي صحيح مسلـم من حديث أبي سعيد الخدري وذكـر حديث رجم النبـي صلى الله عليـه وسلم ماعـزا، قال: ثـم قام رسـول الله صلى الله عليـه وسلم خطيباً قال:« أو كلما انطلقنـا في سبيل الله خلـف رجل في عيالنـا له نبيـب كنبيب التيـس على أن لا اؤتى بـرجل فعـل ذلك إلا نكلت به»(٥١).

قال ابـن الاثير: وكان قد أقـام بقلعة الجزيـرة دزداراً اسمه نور الـدين حسن البربطـي، وكان من خوّاصـه وأقرب الناس إليه، وكـان غير مرضي السيرة، فبلغـه عنـه أنه يتعـرّض للحـرم، فـأمـر حـاجبه صـلاح الـديـن الياغيساني أن يسير مجدّا ويدخل الجزيرة فـإذا دخلها أخذ البربطي وقطع عينيه عقـوبة لنظـره بهما إلى الحريم ثـم يصلبه، فسـار الصلاح مجداً فلـم يشعر البربطـي إلاّ وقد وصل إلى البلـد فخرج إلى لقـائه، فأكرمـه ودخل معه البلد وقال: المولى أتـابك يسلم عليك ، ويريد أن يعلي قـدرك ويرفع منزلتـك ويسلم إليـك قلعة حلب ويـوليك جميع البـلاد الشاميـة لتكون هناك مثل نصير الـدين، فتجهز وتحدّر مالـك في الماء إلى الموصل، وتسير إلى خدمته، ففـرح ذلك المسكين، فلم يترك له قليـلاً ولاكثيراً إلا نقله إلى السفن ليحـدرها إلى الموصـل في دجلة، فحين فرغ مـن جميع ذلـك أخذه الصلاح وأمضى فيـه ما أمربه، وأخذ جميـع ما له فلم يتجـاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله.

قال: وإما صدقاته، فقد كان يتصدق كل جمعة بمائة دينار أميري ظاهراً ويتصدق فيما عداه من الأيام سراً مع من يثق به، وركب يوما فعثرت به دابته، فكاد يسقط عنها، فاستدعى أميراً كان معه فقال له كلاماً لم يفهمه ولم يتجاسر على أن يستفهمه منه، فعاد عنه إلى بيته، وودّع أهله عازماً على الهرب، فقالت له زوجته: ماذنبك؟ وما حملك على هذا الهرب؟ فذكر لها الحال فقالت له: إنّ نصير الدين له بك عناية فاذكر له قصتك وافعل ما يأمرك به، فقال: أخاف أن يمنعني من الهرب فأهلك، فلم تزل زوجته تراجعه وتقوّي عزمه فعرّف النصير حاله فضحك منه، وقال له: خذ هذه الصرة الدنانير واحملها إليه فهي التي أراد ، فقال: اللّه اللّه في دمي ونفسي، فقال: لابأس عليك فإنه ماأراد غير هذه الصرّة فحملها إليه، فحين رآه قال: أمعك شيء؟ قال: نعم فأمره أن يتصدّق به، فلما فرغ من الصدقة قصد النصير وشكره وقال: من أين علمت أنه أراد الصرة ؟ فقال له: إنه يتصدّق في هذا اليوم بمثل هذا القدر يرسل إليّ من يأخذه من الليل وفي يومنا هذا لم يأخذه، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض، وأرسلك إليّ فعلمت أنه ذكر الصدقة.

قال : وحكي لي من شدّة هيبته ما هو أشد من هذا، قال والدي: خرج يوما الشهيد من القلعة بالجزيرة من باب السر خلوه، وملاح له نائم فأيقظه بعض الجاندارية، وقال له: اقعد فحين رأى الشهيد سقط إلى الارض فحرّكوه فوجدوه ميتاً.

قال: وكان الشهيد قليل التلوّن والتنقل بطيء الملل والتغير شديد العزم لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك إلى أن قتل إلاّ بذنب يوجب التغير، والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولا هم الذين بقوا أخيرا من سلم منهم من الموت، فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له، وكان الانسان إذا قدم عسكره لم يكن غريبا إن كان جنديا اشتمل

عليه الاجناد وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان، وإن كان عالما قصد القضاة بني الشهرزوري فيحسنون إليه ويؤنسون غربته، فيعود كأنه أهل، وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العالية والآراء الصائبة، والأنفس الأبية، ويوسع عليهم في الأرزاق فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف.

قلت: وما أحسن ما وصفه به أحمد بن منير من قوله في قصيدة:

في ذرا ملك هو الدهـ
ـر عطاء واستلابا
من له كف تبذ الغيـ
ـث سحا وانسكابا
فاتح في وجه كل
أمة للنصر بابا
ترجف الدنيا إذا حر
ك للسير الركابا
وتخر المشمخرا
ت اختلالا واضطرابا
وترى الأعداء من
هيبته تأوي الشعابا
وإذا ما لفحتهم نا
ره صاروا كبابا
يا عماد الدين لازلـ
ـت على الدين سحابا
جاعلا من دونه
سيفك إن ريع حجابا
فالبس النعماء في الأمـ
ـن الذي طبت وطابا
وأصف عيشا إن أعـ
ـداءك قد صاروا ترابا

وقال العماد الكاتب: استولى زنكي على الشام من سنة اثنتين وعشرين إلى أن قتل في سنة إحدى وأربعين ،وهو الذي فتح الرها عنوة، واحتلّ بها من السعادة ذروة، فتسنى بفتح الرها للمسلمين جوس بلاد جوسلين وعاد جميعها إلى الاسلام في عهد ولد زنكي نور الدين، وصارت عقود الفرنج، من ذلك الحين تنفسخ وأمورها تنتسخ، ومعاقلها تفرع، وعقائلها تفترع.

وقال الرئيس أبو يعلى التميمي: كانت الأعمال بعد قتل زنكي قد اضطربت والمسالك، قد اختلت بعد الهيبة المشهورة والامنة المشكورة، وانطلقت أيدي التركمان والحرامية في فساد الأطراف، والعيث في سائر النواحي والأكناف، ونظمت في صفة هذه الحال أبيات من قصيدة:

كذاك عماد الدين زنكي تنافرت
سعادته عنه وخرت دعائمه

وكم بيت مال من نضار وجوهر
وأنواع ديباج حوتها مخاتمه

وأضحت بأعلى كل حصن مصونة
يحامي عليها جنده وخوادمه

ومن صافنات الخيل كل مطهم
يروع الأعادي حليه وبراجمه

فلو رامت الكتاب وصف شياتها
بأقلامها ما أدرك الوصف ناظمه

وكم معقل قد رامه بسيوفه
وشامخ حصن لم تفته غنائمه

وكانت ولاة الأرض فيها لأمره
وقد أمنتهم كتبه وخواتمه

وأمن من في كل قطر لهيبة
يراع بها أعرابه وأعاجمه

وظالم قوم حين يذكر عدله
فقد زال عنهم ظلمه وخصائمه
وأصبح سلطان البلاد بسيفه
وليس له فيها نظير يزاحمه
وزاد على الاملاك بأسا وسطوة
ولم يبق في الأملاك ملك يقاومه
فلما تناهى ملكه وجلاله
وراعت ولاة الارض منه لوائمه
أتاه قضاء لاتردّ سهامه
فلم تنجه أمواله ومغانمه
وأدركه للحين فيها حمامه
وحامت عليه بالمنون حوائمه
وأضحى على ظهر الفراش مجدّلا
صريعا تولى ذبحه فيه خادمه
وقد كان في الجيش اللهام مبيته
ومن حوله أبطاله وصوارمه
وسمر العوالي حوله بأكفهم
تذود الردى عنه وقد نام نائمه
ومن دون هذا عصبة قد ترتبت
بأسهمها يردى من الطير حائمه
وكم رام في الأيام راحة سرّه
وهمته تعلو وتقوى شكائمه
وكم مسلك للسفر آمن سبله
ومسرح حيّ لن تراع سوائمه
وكم ثغر اسلام حواه بسيفه
من الروم لما أدركته مراحمه
فمن ذا الذي يأتي بهيبة مثله
وينفذ في أقصى البلاد مراسمه

فلـــو رقيـــت في كـــل مصر بـــذكـــره
أراقمـــه ذلـــت هنـــاك أراقمـــه
فمـــن ذا الـــذي ينجـــو مـــن الـــدهـــر سـالما
إذا مـــا أتـــاه الأمـــر واللّـــه حـــاتمه
ومـــن رام صفـــواً في الحيـــاة فما يـــرى
لـــه صفـــو عيـــش والحمام يحاومـــه
فـــإيـــاك لا تغبـــط مليكـــاً بملكـــه
ودعـــه فـــإنّ الـــدهـــر لا شـــك قـاصمـــه
وقـــل للـــذي يبنـــي الحصـــون لحفظـــه
رويـــدك مـــا تبنـــي فـــدهـــرك هـــادمـــه
وفي مثـــل هـــذا عبرة ومـــواعـــظ
بها يتنـــاســـى المرء مـــا هـــو عـــازمـــه

قـال: وفي ثامـن عشر جمادى الآخرة مـن السنة وصـل الخادم يرنقـش القاتـل لعماد الدين زنكـي وانفصل مـن قلعة جعبر لخوف صاحبهـا من طلبه، فـوصل دمشق ميقنـا أنه قد أمـن بها، ومدلاً بما فعله وظنـاً منه أن الحال على ما توهمه فقبـض عليه، وأنفذ إلى حلب في صحبـة من حفظه وأوصله، فأقام بها أياما، ثم حمل إلى الموصل وذكر أنه قتل بها .

قلـت : وللحكيم أبي الحكـم المغـربي قصيـدة في مرثيـه الشهيـد عماد الدين زنكي رحمه الله منها:
عين لا تـــذخـــري المدامـــع وابكـــي
واستهلي دمـــا على فقـــد زنكـــي
لم يهب شخصـــه الـــردى بعـــد أن كـــا
نـــت لـــه هيبـــة على كـــل تـــركـــي
خير ملـــك ذي هيبـــة وبهاء
وعظيـــم بين الانـــام بـــزرك(٥٢)
يهب المال والجيـــاد لمن يمـــ
ـــمه مـــادحـــا بغير تلكـــي

- ٧٦٢٤ -

إن دارا تمدّنـــــابـــــالـــــرزايـــــا
هـــــي عنـــــدي أحـــــق دار بترك
فـــــاسكبـــــوا فـــــوق قبره مـــــاء ورد
وانضحـــــوه بـــــزعفـــــران ومســـــك
أيّ فتـــــك جـــــرى لـــــه في الاعـــــادي
بعـــــد مـــــا استفتـــــح الـــــرهـــــا أيّ فتـــــك
كـــــل خطـــــب أتـــــت بـــــه نـــــوب الـــــدهـــــ
ـــــر يسير في جنـــــب مصرع زنكـــــي
بعـــــد مـــــا كـــــاد أن تـــــديـــــن لـــــه الـــــرو
م ويحوي البـــــلاد مـــــن غير شـــــك

# فصل
# فيما جرى بعد قتل زنكي من تفرّق أصحابه وتملك ولديه غازي ومحمود

قال الرئيس أبو يعلى : توجه الملك ولد السلطان المقيم كان معه فيمن صحبه، وانضم إليه إلى ناحية الموصل ، ومعه سيف الدين غازي بن عماد الدين أتابك، وامتنع عليهم الوالي بالموصل على كوجك أياما إلى حين تقرّرت الحال بينهم، ثم فتح الباب ودخل ولده واستقام له الأمر ، وانتصب منصبه، وعاد الأمير سيف الدولة سوار وصلاح الدين.- يعني- محمد بن أيوب الياغيساني في تلك الحال إلى ناحية حلب ومعهما الأمير نور الدين محمود بن زنكي، وحصل بها وشرع في جمع العساكر، وإنفاق المال فيها، واستقام له الأمر وسكنت الدهماء.

وفصل عنه الأمير صلاح الدين ، وحصل بحماة ولايته على سبيل الاستيحاش والخوف على نفسه من أمر يدبر عليه.

وقال الحافظ أبو القاسم : لما راهق نور الدين لزم خدمة والده إلى أن انتهت مدّته على قلعة جعبر.و سير في صبيحة الأحد الملك ألب أرسلان ابن السلطان مسعود إلى الموصل مع جماعة من أكابر دولة أبيه، وقال لهم: إن وصل أخي سيف الدين غازي إلى الموصل فهي له وأنتم في خدمته، وإن تأخر فأنا أقرّر أمور الشام وأتوجه إليكم، ثم قصد حلب ودخل قلعتها يوم الاثنين سابع ربيع الآخر ورتب النواب في القلعة والمدينة.

قال ابن أبي طي الحلبي: لما اتصل قتل أتابك بأسد الدين شيركوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين، وقال له: إعلم أن الوزير جمال الدين قد أخذ عسكر الموصل، وعوّل على تقديم أخيك سيف الدين

وقصـده إلى الموصل وقـد انضوى اليـه جلّ العسكـر، وقد أنفـذ إليّ جمال الديـن وأرادني على اللحاق به فلـم أعرج عليه وقـد رأيت أن أصيرك إلى حلب وتجعلهـا كرسي ملكـك، وتجتمع في خـدمتك عسـاكر الشـام، وأنا أعلم أنّ الأمـر يصير جميعه إليـك لأن ملك الشـام يحصل بحلـب، ومن ملك حلب استظهـر على بلاد الشرق، فركب وأمـر أن ينادي في الليل في عساكر الشام بالاجتماع فاجتمعوا، وسـاروا في خدمة نور الدين إلى حلب ودخلوهـا سابع ربيع الأوّل، ولما دخلـوا حلب جاء أسد الـدين إلى تحت القلعة ونـادى واليها، وأصعد نـور الدين إليها وقـرّر أمره ومشىّ أحـواله، فكان نـور الديـن يرى له ذلـك، وأسد الـدين يمن بـأنه كـان السبب في توليته.

وقال ابـن الأثير: لما قتل أتابك الشهيـد ركب الملك ألب أرسـلان ابن السلطان مسعـود، وكان مع الشهيد واجتمعـت العساكر عليه وخـدموه، فأرسل جمال الدين الوزير إلى الصـلاح يقول له المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنـا ونسلك طريقا نبقـي به الملك في أولاد صاحبنـا،ونعمر بيته جزاء لإحسانـه إلينا، فإن الملك قد طمع في البـلاد، واجتمعت عليه العسـاكر، وحلـف كـل واحد منهما لصـاحبـه، فـركب الجمال إلى الملـك فخدمه وضمن لـه فتح البلاد وأطمعه فيها ومعه الصـلاح وقالا له: إن أتابـك كان نائباً عنـك في البلاد وباسمـك كنا نطيعه، فقبل قـولهما وظنه حقا، وقـرّ بهما طمعا أن يكـونا عونـاً له على تحصيـل غرضـه، وأرسلا إلى زين الديـن بالموصل يعرّفـانه قتل الشهيد، ويـأمرانه بالإرسـال إلى سيف الديـن غازي وهـو ولد عماد الديـن زنكي الأكبر وإحضـاره إلى الموصل، وكان بشهر زور وهي إقطاعه من أبيه، ففعـل زين الدين ذلك، وكان نور الدين محمـود بن الشهيد قد سـار لما قتل والده إلى حلب فملكهـا وذلك باشارة أسد الدين شيركوه عليه بذلك.

وقال الجمال للملك: إنّ مـن الرأي أن تسير الصلاح إلى مملوكـك نور

الدين بحلب يـدبر أمره، وكانت حماه إقطاع الصلاح فـأمره ، فسار وبقي الجمال وحـده مع الملـك فـأخـذه وقصد الـرقـة، فـاشتغل بشرب الخمـر والخلوة بـالنساء، وأراد أن يعطـي الأمراء شيئـا فمنعه خـوفا مـن أن تميل قلـوبهم إليـه، وقـاد لهم الاقطـاع الجزيـل والنعـم الـوافـرة، وشرع الجمال يستميل العسكر ويحلـف الأمراء لسيف الديـن بن أتابك الشهيـد واحداً بعد واحـد،وكل مـن حلف يأمـره بالمسير إلى الموصل هـاربا مـن الملك، وأقام بـالملك في الرقـة عدّة أيام، ثـم سار بـه نحو سنجار، وكـان سيف الـدين غـازي قد دخـل الموصـل واستقرّ بها، فقـوي حينئذ جنـان جمال الـديـن ، ووصل هـو والملـك إلى سنجـار،فـأرسـل إلى دزدارها وقـال لـه: لاتسلم البلد ولا تمكـن أحداً من دخولـه، ولكن أرسل إلى الملك وقـل له إنا تبع الموصـل فمتى دخلت الموصل سلمت إليك ففعـل الدزدار ذلك، فقال الجمال للملك: المصلحـة أننا نسير إلى الموصل فإن مملـوكك غازي إذا سمع بقربنا منه خرج إلى الخدمة، فحينئذ نقبض عليه ونتسلم البلاد، فساروا عـن سنجار وكثـر رحيل العسكر إلى الموصـل هاربين مـن الملك فبقي في قلـة من العسكر، فسـاروا إلى مدينـة بلد، وعبر الملك دجلـة من هناك، فلما عبرها دخـل الجمال الموصل، وأرسل الأمير عز الديـن أبا بكر الدبيسي إلى الملك في عسكـر وهو في نفر يسير فأخـذه وأدخله الموصل ، فكان آخر العهد به.

واستقر أمر سيف الـدين وأقر زين الدين على ما كـان عليه من ولاية الموصل ، وجعل الجمال وزيـره، وأرسلوا إلى السلطان مسعود فـاستحلفوه لسيف الـدين فحلـف له وأقـره على البلاد وأرسـل له الخلـع، وكان هـذا سيف الديـن قد لازم خدمة السلطان مسعود في أيـام أبيه سفرا وحضرا وكـان السلطان يحبـه كثيراً ويـأنس بـه ويبسطـه، فلما خوطـب في اليمين وتقرير البلاد له لم يتوقف.

قال ابـن الاثير:فانظـروا إلى جمال الديـن وحسن عهـده وكمال مروءتـه

ورعايته لحقوق مخدومه، وهذا المقام الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس ، ولقد قلل من قال : الناس ألف منهم كواحد، وهو معذور لأنه لم ير مثل جمال الدين.

قال: ولما استقر سيف الدين في الملك أطاعه جميع البلاد ماعدا ما كان بديار بكر كالمعدن وحيزان وأسعرد، وغير ذلك فان المجاورين لها تغلبوا عليها.

قال: ولما فرغ سيف الدين من إصلاح أمر السلطنة وتحليفه وتقرير أمر البلاد، عبر إلى الشام لينظر في تلك النواحي ويقرر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، وهو بحلب، وقد تأخر عن الحضور عند أخيه وخافه، فلم يزل يراسله ويستميله فكلما طلب نور الدين شيئا أجابه إليه استمالة لقلبه، واستقرت الحال بينهما على أن يجتمعا خارج المعسكر السيفي ومع كل واحد خمسمائة فارس فلما كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب في خمسمائة فارس، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس، فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه ، فحين رآه عرفه فترجل له وقبل الأرض بين يديه وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا، وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا، فقال له سيف الدين: لم امتنعت من المجيء إليّ أكنت تخافني على نفسك والله ما خطر ببالي ما تكره، فلمن أريد البلاد ، ومع من أعيش وبمن اعتضد إذا فعلت السوء مع أخي وأحب الناس إليّ، فاطمأن نور الدين وسكن روعه، وعاد إلى حلب فتجهز وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين، فأمره سيف الدين بالعود وترك عسكره عنده، وقال لاغرض لي في مقامك عندي وإنما غرضي أن يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنه، فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده

قلت: ومن قصيدة لابن منير في نور الدين:

أيـــا خير الملـــوك أبـــا وجـــدّا
وأنفعهـــم حيـــا الغليـــل صـــاد

علـــوا وغلـــوا وقـــال النـــاس فيهـــم
شـــوارد مـــن ثنـــاء أو أحـــاد

ومـــا اقتسمـــوا ولا عمـــدوا بنـــاهـــم
بمنصبـــك القسيمـــي العمادي

وهـــل حلـــب ســـوى نفـــس شعـــاع
تقسمهـــا التمادي والتعـــادي

نفـــى ابـــن عماد الـــديـــن عنهـــا الـــ
شكـــاة فـــأصبحـــت ذات العماد

تبختر في كســـاء عـــدل وبـــذل
مـــدبجـــة التهـــائم والنجـــاد

وفي محرابها داود منـــه
يهذب حكمـــة آيـــات صـــاد

تجاوزت النجـــوم فـــأيـــن تبغـــي
تـــرق فـــلا خلـــوت مـــن ازديـــاد

# فصل
# فيما جرى بعد وفاة زنكي من صاحب دمشق والأفرنج المخذولين

قال ابن طي:في سابع يوم من استقرار نور الدين بحلب اتصل خبر مقتل أتابك بصاحب أنطاكية البيمند، فخرج في يومه بعساكر أنطاكيةوقسم عسكره قسمين قسماً أنفذه إلى جهة حماه، وقسما أغار به على جهة حلب، وعاث في بلادها، وكان الناس آمنين، فقتل وسبى عالما عظيما وتمادى حتى وصل إلى صلدى ونهبها، ووصل الخبر إلى حلب فخرج أسد الدين شيركوه فيمن كان بحلب من العساكر، وجدّ في السير ففاته الفرنج، وأدرك جماعة من الرجالة يسوقون الأسرى فقتلهم واستنقذ كثيراً مما كانت الفرنج أخذته، وسار مجنبا عن طريق الفرنج إلى أن شن الغارة على بلد ارتاح، واستاق جميع ما كان للفرنج فيه ، وعاد إلى حلب مظفراً.

وقال ابن الاثير : لما قتل الشهيد سار مجير الدين صاحب دمشق في عسكر إلى بعلبك ،وحاصرهم وبها نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين، فسلمها إليه وأخذ منه مالاً وملكه قرايا من أعمال دمشق، وانتقل أيوب إلى دمشق وأقام بها.

وقال ابن أبي طي: اشتدّ صاحب دمشق في القتال، وصبر نجم الدين أيوب أحسن صبر ،فاتفق أن الماء لما شاء الله من حصن بعلبك غار حتى لم يبق منه شيء، فصار أهل القلعة يستمدّون من البلد، فلما ملك البلد منع من يريد الماء من القلعة، فاشتد الأمر فطلبوا الامان والمصالحة، فاستحلف صاحب دمشق نجم الدين وأقر له الثلث الذي كان أتابك قد جعله له فيها وأقره فيها، ولما بلغ ذلك نور الدين خاف أن يفسد عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق بحصول نجم الدين عنده،

ومال نور الـدين إلى مجد الدين أبى بكـر بن الدايه حتـى ولاه جميع أموره وجميع مملكته، فشق ذلك على أسد الدين.

قال الـرئيس أبـو يعلى: لما اتصل خبر موت زنكـي بمعين الديـن أنر شرع في التأهـب والاستعداد لقصـد بعلبك، وانتهاز الفـرصة فيهـا بآلات الحرب والمنجنيقات، فنزل عليها وضايقهـا ولم يمض إلا أيام قلائل حتى قل الماء فيهـا قلة دعتهم إلى النـزول على حكمه، وكان الـوالي بها ذا حزم وعقل ومعـرفة بـالأمور ، فـاشترط ما قـام له بـه من اقطـاع وغيره، وسلم البلاد والقلعـة إليه، ووفى له بها قـرر الأمر عليه، وتسلـم ما فيه مـن غلة وآلـة في أيام مـن جمادى الأولى مـن السنة، وراسـل معين الـدين الـوالي بحمـص وتقررت بينـه وبينه مهـادنة ومـوادعة تعـودان بصلاح الأحـوال وعمارة الأعمال، ووقعت مراسلـة فيما بينه وبين صلاح الديـن بحماه وتقرر بينهما مثل ذلـك، ثم انكفأ بعـد ذلك إلى البلد عقيـب فراغه مـن بعلبك وترتيب من رتبه لحفظها والاقامة فيها.

قـال: ووردت الأخبـار في أيـام مـن جمادى الآخـرة مـن السنـة بـأن جوسلين جمع الأفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها على غفلة بموافقة من النصـارى المقيمين فيها فـدخلها واستـولى عليها وقتـل من فيهـا من المسلمين، فنهض نور الدين صاحـب حلب في عسكره ومن انضاف إليه مـن التركمان وغيرهـم،في زهـاء عشرة الآف فـارس ووقفـت الـدواب في الطرقات من شدّة السير، ووافوا البلد وقـد حصل ابن جوسلين وأصحابه فيه فهجموا عليهم، ووقـع السيف فيهـم، وقتل من أرمن الـرها والنصارى من قتـل ، وانهزم إلى برج يقال له بـرج الماء فحصل فيه ابـن جولسين في تقدير عشرين فارسا من وجوه أصحابه، وأحدق بهم المسلمون وشرعوا في النقـب عليهم حتـى تعـرقب البرج فـانهزم ابـن جـولسين في الخفية مـن أصحابه وأخذ الباقون، ومحق بالسيف كـل من ظفر به من نصارى الرها، واستخلـص من كـان فيه أسيرا مـن المسلمين ونهب منها شيء كثير مـن

المال والاثـاث والسبـي، وانكفـأ المسلمـون بـالغنـائم إلى حلـب وسـائر الأطراف.

وقـال ابن الاثير: لما قتـل زنكـي كان جـوسلين الفـرنجـي الذي كـان صاحـب الرها في ولايته غـرب الفرات في تل بـاشر وما جاورها، فـراسل أهل الـرها، وكـان عامتهم مـن الأرمن ،وواعـدهم يومـاً يصل إليهـم فيه فأجـابوه إلى ذلك، فسار في عسكـره إليها وملكها، وامتنعت عليـه القلعة بمن فيهـا من المسلمين فقاتلهـم وجدّ في قتـالهم،فبلغ الخبر نور الـدين، وهـو يومئـذ بحلـب فسـار إليها بعسكـره، فهـرب جـوسلين ودخل نـور الديـن مدينة الـرها ونهبها وسبـى أهلها.وفي هذه الـدفعة نهبت وخـربت وخلت مـن أهلها، ولم يبـق منهم بها إلاّ القليـل، ووصل خبر الفـرنج إلى سيف الـدين غازي بـالموصل، فجهز العسـاكر إلى الـرها، فوصلـت وقد ملكها نور الدين، فبقيت بيده ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين.

قـال: ومن عجيـب ما جـرى أن نور الـديـن أرسل مـن غنائمهـا إلى الأمراء، وأرسـل إلى زين الـدين علي جملـة من الجواري فحملـن إلى داره، ودخل لينظر اليهـنّ ، فخرج وقد اغتسل، وهو يضحك فسئـل عن ذلك فقال: لما فتحنـا الرها مـع الشهيدكان في جملـة ما غنمـت جارية مـالت نفسي إليها، فعـزمت على أن أبيـت معها، فسمعـت منادي الشهيـد وهو يأمـر باعـادة السبي والغنـائم، وكان مهيبـاً مخوفا، فلـم أجسر على اتيانها وأطلقتها، فلما كـان الآن أرسل إليّ نـور الدين سهمـي من الغنيمـة، وفيه تلك الجارية فوطئتها خوفاً من العود.

قلت: للقيسراني قصيدة يمدح بها جمال الديـن وزير الموصل ذكر فيها فتح الرها أوّلها:

أمـــا آن أن يـــزهـــق البـــاطـــل
وأن ينجـــز العـــدّة الماطـــل

إلى كـــم يغـــب ملـــوك الضـــلال
سيـــف بـــاعنـــاقهـــا كـــافـــل

فـــلا تحفلـــن بصـــوت الـــذئا
ب وقـــد زأر الاســـد البـــاســـل

وهـــل يمنـــع الـــديـــن الافتـــى
يصـــول انتقـــامـــا فيستـــاصـــل

أبـــا جعفـــر أشرقـــت دولـــة
أضـــاء لها بـــدرك الكـــامـــل

فـــامـــا نصبـــت لـــرفـــع اسمهـــا
فـــانكما الفعـــل والفـــاعـــل

ليهنـــك مـــا افـــرج النصر عنـــ
ـــه ومـــا نـــالـــه الملك العـــادل

فقـــل للحقـــاق الطـــريـــق الطـــريـــ
ـــق فقـــد دلـــف المقـــرم البـــازل

وجـــاهـــد في اللـــه حـــق الجهـــا
د محتســـب بـــالعلى قـــافـــل

وهـــل يمنـــع الســـور مـــن طـــالـــع
يشـــايعـــه القـــدر النـــازل

فـــان يـــك فتـــح الـــرهـــا لجة
فســـاحلهـــا القـــدس والســـاحـــل

فهـــل علمـــت علـــم تلـــك الـــديـــا
ر أن المقيـــم بها راحـــل

أرى القمـــص يـــأمـــل فـــوت الـــرمـــا
ح ولا بـــد أن يضرب الشـــائل

يقـــوي معـــاقلـــه جـــاهـــدا
وهـــل عـــاقـــل بعـــدهـــا عـــاقـــل

وكيـــف بضبـــط بـــواقـــي الجهـــا
ت لمن فـــات حسبتـــه الحاصـــل

ولابن منير من قصيدة في نور الدين:

ملك ما أذل بالفتح أرضا
قط إلا أعزها اغلاقه

والوها في الرها أزجى إليها
عارضا شيب الدجى ابراقه

جارت جأرة إليه فحلّ
عطلا من اعناقها اعناقه

تلك بكر الفتوح فالشام منها
شامه والعراق بعد عراقه

أين كان الملوك عن وجهها الطلـ
ـق يرينا اضاءة اطلاقه

سنة سنها أبوه بكلب الرو
م لما أظله ارهاقه

خافقا قلبه إلى أمل عا
جله دون نيله إخفاقه

قسمت راية المواضي القسيميـ
ـات وابتز من لهاه عراقه

وكذا أنت يا ابنه ما عدا من
خلقه فيك خصلة خلاقه

وكفى البحر أنه ابن سحاب
ما ونى سحه ولا اصعاقه

لم يمت من سددت ثلمته يا
من على الدين كظه اشفاقه

كلما طن ذكرها منه في السمـ
ـع تكافى النافقاء نفاقه

وجهاد عن حوزة الدين لم يأ
ل له ركضه ولا انفاقه

وله فيه من قصيدة أخرى:

بنور الدين روض كل محل
من الدنيا وجدّد كل بال
أقام على ثنية كل خوف
سهادا بات يكلأ كل كال
وصوّب عدله في كل أوب
فعوّض عاطلا منه بحال
ينكس رأيه رأي المحامي
ويقتل خوفه قبل القتال
لقد أحصدت للاسلام عزا
يفوت سنامه يد كل قال
وأصبحت العواصم ملحفات
عصاما غير منتكث الحبال

## فصل

وقفت على توقيع كتب في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين عن خليفة مصر يومئذ وهو الملقب بالحافظ وعليه علامته ونصه:

الحمد للّه رب العالمين

إلى القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن الحسين البيساني، وهو والد القاضي الفاضل، وكان يومئذ متولي القضاء والحكم بمدينة عسقلان.

قد انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين أن قوما من أهل ثغر عسقلان حماه اللّه قد صاروا يؤدون توقيعات بقبول أقوالهم من غير تزكية من شهوده المعروفين بالتزكية لهم، مع كونهم غيرمستوجبين لشهادة، ولامستحقين لسماع القول، فأنكر أمير المؤمنين ذلك من فعلهم، وخرج عالي أمره بأن لايسمع قول شاهد، ولايتقدّم لخطابة ولا لصلاة بالناس ولا لتلاوة في

موضع شريف إلاّ من زكاه أعيان شهود الثغر المحروس، وهم فلان وفلان وعدّ ثمانية أنفس :عبد الساتر بن عبد الرحمن، عبد العزيز بن مفضل، علي بن قريش، أحمد بن حسن، أحمد بن علي، عبد الرحمن بن محسن، أسامة بن عبد الصمد، علي بن عبد الله.

قلت : وهذا أحسن ما يؤرخ عن إمام تلك الدولة المباينة للشريعة على ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقال الرئيس أبويعلى: وفي شوال من سنة إحدى وأربعين ترددت المراسلات بين نور الدين ومعين الدين أنر إلى أن استقرت الحال بينهما على أجمل صفة وأحسن قضية، وانعقدت الوصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين، وتأكدت الأمور على ما اقترح كل منهما، وكتب كتاب العقد في دمشق بمحضر من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شوال، وشرع في تحصيل الجهاز، وعند الفراغ منه توجهت الرسل عائدة إلى حلب في صحبتهم ابنة معين الدين ومن في جملتها من خواص الأصحاب في النصف من ذي القعدة.

قال: وتوجه معين الدين إلى ناحية صرخد وبصرى بالخيل والرجل وآلات الحرب، ونزل على صرخد وبها المعروف بألتونتاش غلام أمين الدولة كمشتكين الأتابكي الذي كان واليها أولا.

قلت: هو الذي تنسب إليه المدرسة الامينية قبلي الجامع بدمشق، قال: وكانت نفس التونتاش قد حدثته لجهله أنه يقاوم من يكون مستوليا على دمشق، وأن الأفرنج يعينونه على مراده، وكان قد خرج من حصن صرخد إلى ناحية الفرنج للاستنصار بهم، وتقرير أحوال الفساد معهم فحال معين الدين بينه وبين العود إلى أحد الحصنين، وراسل نور الدين في انجاده على الكفرة، فأجابه وكان مبرزاً بظاهر حلب في عسكره فثنى إليه

الأعنة وأجدّ المسير، فوصل إلى دمشق في التاسع والعشرين من ذي الحجة، فأقام أياما يسيرة .

## ودخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

فتوجه نور الدين نحو صرخد، ولم يشاهد أحسن من عسكره وهيئته وعدته ووفور عدته، واجتمع العسكران، وأرسل من بصرخد إليهما يلتمسون الأمان والمهلة أياما، وتسلم المكان، وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة إلى أن يصل عسكر الأفرنج لترحيلهم، وقضى الله تعالى وصول من أخبر بتجمع الفرنج واحتشادهم ونهوضهم في فارسهم وراجلهم مجدين السير إلى ناحية بصرى، وعليها فرقة وافرة من العسكر محاصرة لها، فنهض العسكر في الحال إلى ناحية بصرى فسبقوا الفرنج إليها فحالوا بينهم وبينها، ووقعت العين على العين فانهزم الكفار وولوا الأدبار، وتسلم معين الدين بصرى، وعاد إلى صرخد فتسلمها، وعاد العسكران إلى دمشق فوصلاها يوم الأحد السابع والعشرين من المحرم.

وفي هذا الوقت وصل ألتونتاش الذي خرج من صرخد إلى الفرنج بجهله وسخافة عقله إلى دمشق من بلاد الفرنج من غير أمان ولاتقرير واستئذان توهما منه أنه يكرم ويصطنع بعد الاساءة القبيحة والارتداد عن الاسلام، فاعتقل في الحال وطالبه أخوه خطلخ بما جناه عليه من سمل عينيه، وعقد لهما مجلس حضره الفقهاء والقضاة وأوجبوا عليه القصاص فسمل كما سمل أخاه وأطلق إلى دار له بدمشق فأقام بها.

قلت :وقد ذكر ابن منير وقعة بصرى هذه وغيرها من الوقعات التي يأتي ذكرها في قصيدة قد تقدم بعضها منها:

أي شأن أدركت يا نور الدين الله أعيى على الملوك لحاقه

نطق الحاسدون بالعجز عن ملـ
ـك محلى بالنيرات نطاقه
غض أبصارهم لحاق جواد
ليس إلا إلى المعالي سباقه
سل بصيرا كم أعتقت يوم بصرى
من أسارى الموت الزؤام عتاقه
كم عرام على العريمة شبت
ضاق منه على الصليب خناقه
ولكم هبوة بهاب واختيـ
ـها لها صكت الأسارى رباقه
بسط الذل فوق بسطة باسو
طا ولكن طواه عنه ارتفاقه

وفي هذه السنة ولد ببعلبك الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، وقيل في سنة فتح زنكي الرها.

قال أبويعلى : وفي ليلة الجمعة الثالث من ربيع الأوّل توفى الفقيه شيخ الاسلام أبو الفتح نصر اللّه بن محمد بن عبد القوي المصيصي بدمشق، كان بقية الائمة الفقهاء المفتين على مذهب الامام الشافعي، ولم يخلف بعده مثله.

وقال : وفي جمادى الآخرة تقرّرت ولاية حصن صرخد للأمير مجاهد الدين بزان بن مامين على مبلغ من المال والغلة، وشروط وأيمان دخل فيها وقام بها، واستبشر أهل تلك الناحية لما هو عليه من حب الخير والصلاح والتدين والعفاف.

قال: وفي الحادي والعشرين من شوّال وهو مستهل نيسان أظلم الجوّ ونزل غيث ساكن، ثم أظلمت الأرض في وقت العصر ظلاماً شديداً بحيث كان ذلك كالغدوة بين العشائين، وبقيت السماء في عين

الناظريـن إليها كصفرة الورس، وكذلـك الجبال وأشجار الغوطـة وكل ما ينظـر إليه مـن حيـوان وجماد ونبـات، ثم جـاء في أثـر ذلـك من الـرعـد القاصف والبرق الخاطف والهدّات المزعجة والرجفـات المفزعة ماارتاع لها الشيـب والشبان فكيـف الـولدان والنسـوان، وقلقـت لـذلك الخيـول في مرابطها، وبقـي الأمر على هذه الحال إلى وقت العشاء الآخـرة، ثم سكن بقدرة اللّـه تعالى، وأصبـح على الأرض والاشجار وسـائر النبات غبـار في رقة الهواء بين البياض والغبرة.

قال ابن الاثير: وفي سنة اثنتين وأربعين فتح نور الـدين أرتاح بالسيف وحصن بـارة وبصرفوث وكفر لاثـا، وكان الفـرنج قد طمعـوا وظنوا أنهم بعـد قتل الشهيـد يستردّون ما أخـذ منهم، فلما رأوا مـن نور الـدين هـذا الجدّ علموا أنّ ما أمّلوه بعيد.

## فصل

## في نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم اللّه عنها

قال الـرئيس أبـو يعلى: وفي هذه السنة تـواصلت الاخبـار من نـاحية القسطنطينية وبـلاد الفرنـج والروم وما والاهـا بظهور ملـوك الافرنـج من بـلادهـم منهـم: الألمان والفنـش وجماعة مـن كبـارهـم في العـدد الـذي لايحصر لقصد بـلاد الاسلام بعـد أن نادوا في سـائر بلادهـم ومعاقلهـم: النفير النفير إليها والإسراع نحوهـا، وخلوا بلادهم وأعمالهم خاليـة شاغرة من حماتها والحفظـة لها، ثم استصحبـوا من ذخائرهـم وأموالهم وعـددهم الشيء الكثير الـذي لايحصـى بحيـث يقال إن عـدّتهم ألـف ألـف مـن الرجـالة والفرسان، ويقـال أكثر من ذلك، وغلبـوا على أعمال قسطنطينية واحتـاج ملكهـا إلى الـدخـول في مـداراتهم ومسـالمتهـم والنـزول على أحكـامهـم، وحين شـاع خبرهـم وأشتهـر أمـرهـم شرعـت ولاة الأعمال

المصاقبة لهم والأطراف الاسلامية القريبة منهم في التأهب للمدافعة لهم والاحتشاد على المجاهدة فيهم، وقصدوا منافذهم ودروب معابرهم لكي يمنعوهم من العبور والنفوذ إلى بلاد الاسلام، وواصلوا شنّ الغارات على أطرافهم واستحرّ القتل فيهم والفتك بهم إلى أن هلك منهم العدد الكثير، وحلّ بهم من عدم القوت والعلوفات والمير وغلاء السعر إذا وجدوه ما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض، ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم وفناء أعدادهم إلى أواخر سنة إثنتين وأربعين بحيث سكنت النفوس بعض السكون.

## ودخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

وتواترت الأخبار بوصول مراكب الفرنج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية صور وعكا، واجتماعهم مع من بها من الفرنج، ويقال أنه بعد ما فني منهم بالقتل والمرض والجوع ، وصل تقدير ثلاثمائة ألف، وقصدوا البيت المقدس، وقضوا حجهم وعاد من عاد منهم إلى بلادهم في البحر وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم، وهلك من ملوكهم من هلك وبقي الألمان أكبر ملوكهم ومن هو دونه، واختلفت الآراء بينهم فيما كانوا يقصدون منازلته من البلاد الاسلامية إلى أن استقرت الحال على منازلتهم دمشق، وبلغ ذلك معين الدين فاستعد لحربهم فجاؤوا في تقدير خمسين ألفا ،ودنوا من البلاد ثم قصدوا المنزلة المعروفة بنزول العساكر فيها فصادفوا الماء مقطوعا ،فقصدوا ناحية المزة فخيموا عليها لقربهم من الماء ، وزحفوا إلى البلاد بخيلهم ورجلهم ووقف المسلمون بازائهم في يوم السبت سادس ربيع الأوّل، ونشبت الحرب بين الفريقين واجتمع عليهم من الأعمال الأجناد والأتراك والفتاك وأحداث البلد والمطوّعة والغزاة الجمّ الغفير، واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الأعداد وغلبوا على الماء وانتشروا في البساتين وخيموا

فيها، وقربوا من البلد وحصلوا منه بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديماً وحديثاً منه ،واستشهد في هذا اليوم الفقيه الإمام يوسف الفندلاوي المالكي رحمه الله قريب الربوة على الماء لوقوفه في وجوههم وترك الرجوع عنهم اتبع أوامر اللّه تعالى في كتابه الكريم، وقال: بعنا واشترى، وكذلك عبد الرحمن الحلحولي الزاهد رحمه الله جرى أمره هذا المجرى.

## فصل

قلت: وذكر الأمير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار أن ملك الالمان الفرنجي لما وصل الشام اجتمع إليه كل من بالشام من الأفرنج، وقصد دمشق فخرج عسكرها وأهلها لقتالهم، وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي المالكي والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي رحمهما اللّه، وكانا من خيار المسلمين، فلما قاربوهم قال الفقيه عبد الرحمن: أما هؤلاء الروم؟ قال : بلى قال: فإلى متى نحن وقوف؟ قال: سر على اسم اللّه فتقدّما فقاتلا حتى قتلا في مكان واحد رحمهما اللّه تعالى.

ثم قال أبو يعلى: وشرعوا في قطع الأشجار والتحصن بها وهدّوا الفطائر، وباتوا تلك الليلة على هذه الحال قد لحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه والروع بما عاينوه ما ضعفت به القلوب وحرجت معه الصدور وباكروا الظهورإليهم في غد ذلك اليوم وهو الأحد، وزحفوا إليهم ووقع الطراد بينهم واستظهر المسلمون عليهم، وأكثروا القتل والجراح فيهم، وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاء حسناً، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد في غيره، بحيث لايني في جهادهم ولايثني عن ذيادهم، ولم تزل رحى الحرب دائرة بينهم وخيل الكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم حتى تتهيأ الفرصة لهم إلى أن مالت الشمس إلى الغروب وأقبل الليل وطلبت النفوس الراحة، وعاد كل منهم

إلى مكانه وبات الجند بإزائهم، وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط، وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم.

وكانت المكاتبات قد نفذت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد، وجعلت خيل التركمان تتواصل ورجالة الأطراف تتابع، وباكرهم المسلمون وقد قويت شوكتهم ونفوسهم، وزال عنهم روعهم وثبتوا بازائهم وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرخ بحيث تقع في مخيمهم في راجل أو فارس أو فرس أو جمل، ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجالة كثيرة من الرماة فزادت بهم العدّة وتضاعفت العدّة، وانفصل كل فريق إلى مستقره في هذا اليوم وباكروهم من غد يوم الثلاثاء،وأحاطوا بهم في مخيمهم، ، وقد تحصنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقا بالنشاب وحذفا بالاحجار، وقد احجموا عن البروز وخافوا وفشلوا ولم يظهر منهم أحد، وظنّ أنهم يعملون مكيدة أو يدبرون حيلة ولم يظهر منهم إلا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المطاردة والمناوشة خوفاً من المهاجمة، إلى أن يجدوا لحملتهم مجالا وليس يدنو منهم أحد إلاّ صرع برشقة أو طعنة، وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الأحداث والضياع وجعلوا يقصدونهم في المسالك ،وقد أمنوا فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عليها ، وحصل من رؤوسهم العدد الكثير، وتواترت إليهم أخبار العساكر الاسلامية بالمسارعة إلى جهادهم واستئصال شأفتهم فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار، وأعملوا الآراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصا من الشبكة التي حصلوا فيها غير الرحيل، فرحلوا سحر يوم الأربعاء التالي مفلولين.

وحين عرف المسلمون ذلك برزوا إليهم في بكرة هذا اليوم وسارعوا في آثارهم بالسهام بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير، ووجدوا في آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وخيولهم مالا عدد له ولاحصر يلحقه بحيث لها أراييح من جيفهم تكاد

تصرع الطيور في الجوّ وكـانوا قد أحـرقوا الربـوة والقبة الممدوديـة في تلك الليلة، واستبشر الناس بهذه النعمة التي أسبغها اللّه عليهم ، وأكثروا من الشكر له تعـالى على ما أولاهم من إجـابة دعائهم الـذي واصلوه في أيام هذه الشدّة فللّه الحمد على ذلك والشكر.

واتفق عقيب هذه الـرحمة اجتماع معين الدين مع نور الديـن عند قربة من دمشق للانجاد لها.

وقال ابن الاثير: خرج ملك الالمان من بـلاد الافرنج في جيوش عظيمة لاتحصى كثرة من الفـرنج إلى بلاد الشام ، فاتفق هو ومـن بساحل الشام من الفـرنج فاجتمعـوا وقصدوا مدينـة دمشق ونـازلوها ، ولايشـك ملك الالمان إلا أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعسكره.

قال: وهذا النوع من الفرنج هـو أكثرهم عددا وأوسعهم بلاداً وملكهم أكثر عددا وعددا، وإن كان غير ملكهـم أشرف منه عندهم وأعظم محلا، فلما حاصروا دمشق، وبها صاحبها مجير الدين ابـق بن محمد بن بوري بن طغتكين، وليـس لـه مـن الأمر شيء، وإنما كـان الأمـر إلى مملـوك جـدّه طغتكين، وهو معين الديـن أنر، فهو كان الحاكم والمدبـر للبلد والعسكر، وكـان عـاقلا دينـا خيراً أحسـن السيرة، فجمـع العسكر وحفـظ البلـد، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأوّل، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهـم، وكان فيمن خـرج الشيخ الفقيه حجـة الدين أبـو الحجاج يوسف بن دونـاس المغربي الفندلاوي شيخ المالكية بدمشـق، وكان شيخا كبيرا زاهدا عـابدا خرج راجـلاً، فرأى معين الـدين فقصده وسلـم عليه، وقال له: ياشيخ أنت معذور، ونحـن نكفيك، وليس بك قوة على القتال، قال: قد بعـت واشترى فلا نقيله ولا نستقيله، يعني قـول اللّه تعالى:( إن اللّه اشترى مـن المؤمنين أنفسهم وأموالهم بـأن لهم الجنة)(٥٣)الآية وتقدّم فقاتل حتى قتل رحمه اللّه عند النيرب شهيداً.

وقوي أمر الفرنج وتقدموا فنزلوا بالميدان الأخضر، وضعف أهل البلد عن ردّهم عنه، وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين يستغيث به ويستنجده ويسأله القدوم عليه ويعلمه شدّة الأمر، فجمع سيف الدين عساكره وسار مجداً إلى مدينة حمص،وأرسل إلى معين الدين يقول له: قد حضرت ومعي كل من يطيق حمل السلاح من بلادي، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابي وأصحابي وكانت الهزيمة والعياذ بالله علينا لايسلم منا أحد لبعد بلادنا عنا، وحينئذ تملك الفرنج دمشق وغيرها، فإن أردتم أن ألقاهم وأقاتلهم فتسلم البلد إلى من أثق إليه، وأنا أحلف لك إن كانت النصرة لنا على الفرنج أنني لاآخذ دمشق ولا أقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدوّ عنها، وأعود إلى بلادي ،فماطله معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج، فأرسل سيف الدين إلى الفرنج الغرباء يتهدّدهم ويعلمهم أنه علي قصدهم إن لم يرحلوا ، وأرسل معين الدين إليهم أيضا يقول لهم: قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر مالا طاقة لكم به، فإن أنتم رحلتم عنا والاسلمت البلد إليه وحينئذ لاتطمعون في السلامة منه، وأرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من أولئك الفرنج الخارجين إلى بلادهم ويقول لهم: أنتم بين أمرين مذمومين إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء في دمشق لايبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد، وإن سلمت أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون أنكم لاتقدرون على منعه من البيت المقدس، وبذل لهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحلوا ملك الالمان عن دمشق، فأجابوه إلى ذلك وعلموا صدقه واجتمعوا بملك الالمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع أمداده وأنه ربما ملك دمشق، فلا يبقى لهم معه مقام بالساحل، فأجابهم إلى الرحيل عن دمشق فرحل ورحل فرنج الساحل وتسلموا حصن بانياس من معين الدين وبقي معهم حتى فتحه نور الدين محمود رحمه الله، كما سنذكره.

# فصل

قلت: وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر رحمه الله في تاريخه أن الفقيه الفندلاوي رؤي في المنام فقيل له: أين أنت؟ قال: في جنات عدن (على سرر متقابلين)(٥٤) وقبره الآن يزار بمقابر باب الصغير من ناحية حائط المصلى، وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله، وأما عبد الرحمن الحلحولي فقبره في بستان الشعباني في جهة شرقه، وهو المسجد المحاذي لمسجد شعبان المعروف الآن بمسجد طالوت، وكان مقامه في حياته في ذلك المكان رحمه الله، وقرأت قصيدة في شعر أبي الحكم الاندلسي شرح فيها هذه القصة منها:

بشطي نهر داريا ... أمور ما يواتينا
وأقوام رأوا سفك الـ ... ـدماء في جلق دينا
أتانا مائتا ألف ... عديداً أو يزيدونا
فبعضهم من أندلس ... وبعض من فلسطينا
ومن عكا ومن صور ... ومن صيدا وتبنينا
إذا أبصرتهم أبصر ... ت أقواماً مجانينا
و جازوا المرج والتعديـ ... ـل أيضاً والميادينا
تخالهم وقد ركبوا ... فطائرها جرادينا (٥٥)
وبين خيامهم ضموا الـ ... ـخنازير والقرابينا

ورايـــــات وصلبـــــانـــــا
على مسجـــــد خـــــاتـــونـــا

وقلنـــــا إذ رأينـــــاهـــــم
لعـــــل اللّـــــه يكفينـــــا

سما لهم معين قـــــــــــد
أعـــــان الخلـــــق والـــــدينـــــا

وفتيـــــــــــان تخالهم
لـــــدى الهيجـــــاء شيـــــاطينـــــا

فـــــولـــــوا يطلبـــــون المر
ج مـــــن شرقـــــي جسرينـــــا

ولكـــــن غـــــادروا اليـــــأ
س تحت التراب مـــــدفـــــونـــــا

وشيخـــــا فنـــــدلاويـــــا
فقيهـــــا يعضـــــد الـــــدينـــــا

وفتيـــــانـــــا تفـــــانـــــوا مـــــن
دمشـــــق نحـــــو سبعينـــــا

ومنهـــــم مـــــائتـــــا علـــــج
وخيـــــل نحـــــو تسعينـــــا

وبـــــاقيهـــــم إلى الآ
ن مـــــن القتـــــل يفـــــرّونـــــا

وللعرقلة حسان في مدح مجير الدين صاحب دمشق حينئذ قصيدة ذكر فيها هؤلاء الفرنج أولها:

عـــــرّج على نجـــــد لعلـــــك منجـــــدي
بنسيمهـــــا وبـــــذكـــــر سعـــــدى مسعـــــدي

يقول فيها:

مـــــن قـــــاتـــــل الافـــــرنـــــج دينـــــا غيره
والخيـــــل مثـــــل السيـــــل عنـــــد المشهـــــد

ردّ الامان بكل ندب باسل
ومن الجياد بكل نهد أجرد
ومن السيوف بكل عضب أبيض
زمن العجاج بكل نقع أسود
حتى لوى الاسلام تحت لوائه
وغدا بحمده من شريعة أحمد

قرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني قصيدة في مدح تاج الملوك بوري جدّ مجير الدين، أنشده إياها عند كسرة الفرنج على دمشق في أواخر سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، وهي واقعة تشبه الواقعة في زمن مجير الدين أوّل القصيدة:

الحق مبتهج والسيف مبتسم
ومال اعداء مجير الدين مقتسم
قدت الجياد وحصنت البلاد وأمّـ
ـنت العباد فأنت الحل والحرام
وجئت بالخيل من أقصى مرابطها
معاقد الحزم في أوساطها الحزم
حتى إذا ما أحاط المشركون بنا
كالليل يلتهم الدنيا له ظلم
وأقبلوا إلا من الاقبال في عدد
يؤود حاسبه والاعياء والسأم
أجريت بحرا من الماذي معتكرا
أمواجه بأواسي اليأس تلتطم
وسست جندك والرحمن يكلؤه
سياسة ما يعفي أثرها ندم
وقفت في الجيش والاعلام خافقة
بالنصر كل قناة فوقها علم
يحوطك الله صونا عن عيونهم
والله يعصم من بالله معتصم

حتـــى إذا بــــدت الآراء ضـــاحكـــة
وأقبلـــت أوجـــه الاقبـــال تبتســـم

اتبعـــت جـــنّ سرايـــاهـــم مضمـــرة
فيهـــا نجـــوم إذا جـــدّ الـــوغـــى رجموا

والنصر دان وخيـــل اللـــه مقبلـــة
تـــرجـــو الشهـــادة في الهيجـــاء تغتنـــم

صـــاب الغمام عليهـــم والسهـــام معـــا
فما دروا أيما الهطـــالـــة الـــديـــم

سروا لينتهبـــوا الاعمار فـــانتهبـــوا
قتـــلا ويغتنمـــوا الامـــوال فـــاغتنمـــوا

وأقبلـــت خيلنـــا تـــردى بخيلهـــم
مجنـــوبـــة وعلى أرمـــاحنـــا القمـــم

وأدبـــر الملـــك الطـــاغـــي يـــزعـــزعـــه
حـــرّ الاسنـــة وهـــو البـــارد الشيـــم

وافـــوا دمشـــق فظنـــوا انها جـــدة
ففـــارقـــوهـــا وفي أيـــديهم العـــدم

وأيقنـــوا مـــع ضيـــاء الصبـــح أنهم
إن لم يـــزولـــوا سراعـــا زالـــت الخيـــم

فغـــادروا أكثـــر القـــربـــا ن وانجلفـــوا
وخلفـــوا أكبر الصبيـــان وانهزمـــوا

مستسلمين لأيـــدي المسلمين وقـــد
أغـــرى الفنـــا بتمادي خطفهـــم نهم

لا يملـــك الجســـم دمعـــا عـــن مقـــاتلـــه
كـــأنـــه حين يغشـــاه الـــردى صنـــم

وحـــاولـــوا المسجـــد الأدنـــى فما عبرت
عـــن مسجـــد القـــدم الأقصـــى لهم قـــدم

# فصل

قال ابن الأثير: لما رحل الفرنج عن دمشق سار معين الدين أنر إلى بعلبك، وأرسل إلى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين يسأله أن يحضر عنده، فاجتمعا فوصل إليهما كتاب القمص صاحب طرابلس يشير عليهما بقصد حصن العريمة وأخذه ممن فيه من الفرنج، وكان سبب ذلك أن الفنش صاحب صقلية خرج مع ملك الالمان إلى الشام وتغلب على العريمة وأخذها من القمص، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضا، وجدّ هذا الذي ملك العريمة هو الذي غزا إفريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب، فلما استولى هذا على العريمة كاتب القمص نور الدين ومعين الدين في قصده، فسارا إليه مجدّين فصبحاه، وكتبا إلى سيف الدين يستنجدانه، ويطلبان منه المدد فأمدّهما فحصروا الحصن وبه ابن الفنش، ونقبوا السور فأذعن الفرنج واستسلموا وألقوابأيديهم فملك المسلمون الحصن، وأخذوا كل من به من رجل وصبي وامرأة، وفيهم ابن الفنش وأخربوا الحصن ، وعادوا إلى سيف الدين، وافتتح نور الدين أيضا باسوطا وهاب.

وقال الرئيس أبو يعلى: قتل أكثر من كان فيه، يعني في حصن العريمة، وأسروا وأخذوا ولد الملك وأمه ونهب ما فيه من العدد والخيول والأثاث وعاد عسكر سيف الدين إلى مخيمه بحمص ونور الدين عاد إلى حلب ومعه ولد الملك وأمه ومن أسر معهما، وانكفأ معين الدين إلى دمشق.

قال: ووردت الأخبار في رجب من ناحية حلب بأن نور الدين صاحبها كان قد توجه في عسكره إلى ناحية الاعمال الأفرنجية وقصد أفامية وظفر بعدّة من الحصون والمعاقل الأفرنجية وبعدّة وافرة من الأفرنج، وأن صاحب أنطاكية جمع الفرنج وقصده على حين غفلة منه

فنال من عسكره وأثقاله وكراعه ما أوجبته الاقدار النازلة، وانهزم بنفسه وعسكره وعاد إلى حلب سالما في عسكره لم يفقد منه إلاّ النفر اليسير بعد قتل جماعة وافرة من الافرنج، وأقام بحلب أياما بحيث جدّد ما ذهب له من اليزك، وما يحتاج إليه من آلات العسكر، وعاد إلى منزله وقيل لم يعد.

وذكر ابن أبى طي أن أسد الدين لما كان في نفسه على نور الدين من تقديم ابن الداية عليه لم ينصح يومئذ وهي وقعة يغرا، ومرّ به نو الدين فقال له: ما هذا الوقوف والغفلة في مثل هذا الوقت والمسلمون قد انكسروا ؟فقال: ياخوند ايش ننفع نحن إنما ينفع مجد الدين أبو بكر فهو صاحب الأمر، فاستدرك نور الدين ذلك وطيب قلب أسد الدين بعد ذلك، وألزم مجد الدين أن يعرف لأسد الدين حقه، وأصلح بينهما.

قال: وقتل في هذه الكسرة شاهنشاه بن أيوب أخو الملك الناصر، وقيل في كسرة البقيعة.

قلت: وهو والد عز الدين فرخشاه وتقي الدين عمر والست عذرا المنسوب إليها العذراوية داخل باب النصر بدمشق، وقبره الآن بالتربة النجمية جوار المدرسة الحسامية بمقبرة العوينة ظاهر دمشق رحمهم اللّه.

قلت: ولابن منير من قصيدة تقدّمت اعتذارا عما جرى في هذه الغزاة قال:

لم يشنه من ماء يغرا إن فرّ إلا
شابات ذاد عنها انذلاقه
كان فيها الليث العرين حمى الأ
شبال منه غضبان كالنار ماقه

وشبيه النبي يوم حنين
إذ تلافا أدواءهم درياقه

- ٧٦٥١ -

وهـــــي الحرب فحلهــــا بحســـن الكـــــ
ـــــرة إن عـــض بــــأسهــــا الانيـــا قــــه

# فصل

وقال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وأربعين أيضا سار نور الدين إلى بصرى وقد اجتمع بها الفرنج في قضهم وقضيضهم وقد عزموا على قصد بلاد الاسلام، فالتقى بهم هنالك واقتتلوا اشدّ قتال، ثم أنزل اللّه نصرة على المسلمين، وانهزم الفرنج وكانوا بين قتيل وأسير.

وفي هذه الوقعة يقول القيسراني من قصيدة أولها:

ونيرات الملك وهاجة
وطالع الدولة مسعود
وصارم الاسلام لا ينثني
إلاّ وشلو الكفر مقدود
مناقب لم تك موجودة
إلاّ ونور الدين موجود
مظفر في درعه ضيغم
عليه تاج الملك معقود
نال المعالي مالكا حاكما
فهو سليمان وداود
ترتشف الأفواه أسيافه
إن رضاب العز مورود
وكم له من وقعة يومها
عند ملوك الشرك مشهود
والقوم إما مرهق صرعة
أو موثق بالقدّ مشدود
حتى إذا عادوا إلى مثلها
قالت لهم هيبته عودوا
طالب بثار ضمنته الظبى
فكل ما يضمن مردود

والكرّ والفرّ سجال الوغى
فطارد طورا ومطرود

وإنما الافرنج من بغيها
عادوا وقد عاد لها هود

قد حصحص الحق فما جاحد
في قلبه بأسك مجحود

فكل مصر بك مستفتح
وكل ثغر بك مسدود

وقال أيضا قصيدة في نور الدين: وأنشده إياها بظاهر حلب، وقد كسر الفرنج على يغرا،وهزمهم إلى حصن حارم، وقد كانت الفرنج هزمت المسلمين أوّلا بهذا الموضع أوّلها:

تفي بضمانها البيض الحداد
وتقضي دينها السمر الصعاد

وتدرك ثارها من كل باغ
فوارس من عزائمها الجلاد

ويغشى حومة الهيجا همام
يشدّ بضبعه السبع الشداد

أظنوا أن نار الحرب تخبو
ونور الدين في يده الزناد

وجند كالصقور على صقور
إذا انقضوا على الابطال صادوا

إذا اخفوا مكيدتهم أخافوا
وإن أبدوا عداوتهم أبادوا

ونصرة دولة حاميت عنها
وهل يخشى وأنت لها عماد

وإن تتلى القوافي ما تلته
بإنب مايوّنبها اسناد

جـــرت بـــــالنصر أقــــلام العـــــوالي
وليــــس ســــوى النجيـــــع لها مــــداد
وطـــــالـــــت أروس الأعــــلاج خصبـــــا
فنـــادى السيـــــف قـــد وقـــع الحصــــاد
أحطــــــت بهم فكـــــان القتـــــل صبرا
ولا طعـــــــن هنـــــــاك ولا طــــــراد
ولــــلا بـــرنـــــس فـــــوق الـــرمــــح رأس
تـــــوســــد والسنـــــان لـــــه وســـــاد
تــــرجـــــل للســـــلام ففـــــرســـــوه
وليـــــس ســــوى القنــــاة لـــــه جــــواد
غضيــــــــض المقلتين ولا نعـــــــاس
وغــــايـــــرهــــا وليــــس بـــــه سهــــاد
فسر واستـــوعـــب الـــدنيـــا فتـــوحـــا
فـــــلا هضـــــب هنـــــاك ولا وهـــــاد
(٥٦)
وزر بينــــي الـــوغــى مثــوى حبيــــب
فما عــــن بـــــاب مسلمــــــه ذيــــاد
ولا في بـــــــاب فـــــــارس غير ثكلى
بفــــــــارسهــــــــا يضيء بها الحداد
لأنطـــــاكيـــــة يحمـــــي ذراهـــــا
وقـــد دانـــــت لسطـــوتـــك البـــلاد
واذعنـــــت المالـــــك واستجـــابـــت
ملبيـــــة لــــدعـــوتـــك العبـــــاد

قلت: ووقعة إنبّ هذه كانت عظيمة، وقد أكثر كذلك الشعراء لها وسيأتي ذكرها قريبا إن شاء الله تعالى.

- ٧٦٥٥ -

# فصل

قال أبو يعلى التميمي: وفي رجب من هـذه السنة ورد الخبر من ناحية حلب بأن صاحبها نور الدين ابن أتابك أمر بابطال حي على خير العمل في أواخر تأذين الغداة، والتظاهر بسب الصحابة، وانكر ذلك إنكارا شديداً، وساعده على ذلك جماعة من أهل السنة بحلب، وعظم هذا الأمر على الاسماعيلية وأهل التشيع وضاقت له صدورهم وهاجوا وماجوا ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة، والهيبة المحذورة.

قلت:وأنشده ابن منير في رمضان:

فداك من صام ومن أفطرا
ومن سعى سعيك أو قصرا
وما الورى أهلا فتفدى بهم
وهل يوازي عرض جوهرا
عدل تساوى تحت أكنافه
مطافل العين واسد الشرى
يا نور دين اللّه كم حادث
دجى وأسفرت له فانسرى
وكم حمى للشرك لا يهتدي الـ
ـوهم له غادرته مجزرا
يا ملك العصر الذي صدره
افسح من أقطارها مصدرا
وابن الذي طاول أفلاكها
فلم يجد من فوقه مظهرا
مناقب تكسر كسرى كما
تقصر عن إدراكها قيصرا

مـــا عـــام في أوصـــافهـــا شـــاعـــر
إلاّ رأى أوصـــــــافهـــــــا أشعـــــــرا
للّـــــه أصـــــل أنـــــت فـــرع لـــــه
مـــا أطيـــب المجنـــى ومـــا أطهـــرا
مـــا حلـــب البيضـــاء مـــذ صنتهـــا
إلاّ حـــــرام مثـــــل أمّ القـــــرى
شيـــدت في معمـــور أرجـــائهـــا
لكـــل بـــاغـــي عمـــره مشعـــرا
فـــأصبـــح الشـــادي إذا ثـــوّب الـــ
ـــــداعي لـــــه هلـــــل أو كبرا
لا عـــدم الاســـلام مـــن كفـــه
كهـــــف لمن أرهـــــق أو أحصرا
كـــأنها ســـاحتـــه جنـــة
أجـــرت بها راحتـــه كـــوثـــرا
تصرّم الشهـــر الـــذي كنـــت في
أوقـــاتـــه مـــن قـــدره أشهـــرا
جهـــادليـــل في نهار غـــزا
إذ كنـــت فيـــه الأصبر الأشكـــرا
أصـــدق مـــا يـــرشفـــه ســـامـــع
مـــا هـــز مـــن أوصـــافـــك المنبرا
أبقـــاك للـــدنيـــا وللـــديـــن مـــن
خـــــــــــــــلاك في ليلهما نيرا
حتـــى تـــرى عيســـى مـــن القـــدس قـــد
نجـــا إلى سيفـــك مستنصرا

قال أبـو يعلى: وفي رجب أذن لمن يتعـاطى الوعـظ بالتكلـم في الجامع المعمور بدمشق على جري العادة والرسـم، فبدأ من إختلافهم في أحوالهم وأغـراضهم والخوض في قضـايـا لا حاجـة لها مـن المذاهـب ما أوجـب

صرفهم عن هذه الحال، وإبطـال الوعظ لما يتوجه معه مـن الفساد،وطمع سفهاء الأوغاد وذلك في آخر شعبان منها.

قال: وكثـر فساد الفـرنج المقيمين بصـور وعكا والثغـور الساحليـة في الأعمال الـدمشقية بعـد رحيلهـم عن دمشـق، فـأغـار معين الديـن على أعمالهم وخيم في نـاحية من حـوران بالعسكر، وكـاتب العرب واستـدعى جماعة وافرة مـن التركمان، وأطلق أيديهم في نهبهم والفتـك بهم، فلم يزل على النكاية فيهم، والمضايقة لهم إلى أن ألجأهم إلى طلب المصالحة.

# ودخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة

فجدّدت المهادنة في المحرّم مدّة سنتين، وأنفذ نور الدين إلى معين الدين يعلمه أن صاحب أنطاكية قد جمع أفرنج بلاده، وظهر يطلب بهم الإفساد في الأعمال الحلبية، وأنه قد برز في عسكره إلى ظاهر حلب للقائه والحاجة ماسة إلى معاضدته، فندب معين الدين مجاهد الدين بُزان بن مامين في فريق وافر من العسكر الدمشقي للمصير إلى جهته، وبذل المجهود في طاعته ومناصحته، وبقي معين الدين في باقي العسكر بناحية حوران.

قال: وفي صفر من السنة وردت البشائر من جهة نور الدين بما أولاه الّله تعالى، وله الحمد على حشد الفرنج المخذول، ولم يفلت منهم إلاّ من أخبر ببوارهم، وتعجيل دمارهم، وذلك أن نور الدين اجتمع له من العساكر ستة آلاف فارس مقاتلة سوى الاتباع والسواد، فنهض بهم إلى الفرنج في الموضع المعروف بإنّب وهم في نحو أربعمائة فارس وألف راجل، فقتلوهم وغنموهم ووجد اللعين البرنس مقدّمهم صريعاً بين حماته وأبطاله، فعرف وقطع رأسه، وحمل إلى نور الدين ، وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية، وشدّة البأس وقوة الحيل، وعظم الخلقة، مع اشتهار الهيبة وكثرة السطوة والتناهي في الشر، وذلك يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر.

ثم نزل نور الدين في العسكر على باب انطاكية، وقد خلت من حماتها والذابين عنها، ولم يبق فيها غير أهلها مع كثرة عددهم وحصانة بلدهم، وتردّدت المراسلات بينه وبينهم في طلب التسليم إليه وإيمانهم وصيانة أموالهم، فوقع الاحتجاج منهم بأن هذا الأمر لايمكنهم الدخول فيه إلاّ بعد انقطاع أمالهم من الناصر لهم والمعين على من يقصدهم، وحملوا ما أمكنهم من التحف والمال، ثم استمهلوا فأمهلوا، ثم رتب نور الدين

بعـض العسكر لـلاقامـة عليهـا، والمنع لمن يصـل إليها، ونهض في بقيـة العسكر إلى نـاحية أفاميـة، وقد كان رتب الأمير صـلاح الدين في فـريق وافـر من العسكـر لمنـازلتها ومضـايقتهـا، فالتمسـوا الأمـان فأومنـوا على أنفسهم وسلمـوا البلد في ثـامن عشر ربيع الأوّل، وانكفـأ نور الـدين في عسكره إلى نـاحية أنطـاكية وقد إنتهـى الخبر بنهوض الفرنـج من نـاحية الساحل إلى صوب أنطـاكية لإنجاد من بها ، فاقتضت الحال مهـادنة من في أنطاكية ومـوادعتهم، وتقرير أن يكـون ماقرب من الأعمال الحلبيـة له، وما قرب مـن أنطاكية لهم، ورحل عنهـم إلى جهة غيرهم بحيث كـان قد ملـك في هذه النـوبة ممـا حول انطـاكية مـن الحصون والقـلاع والمقالـع، وغيرهـا مـن المغانـم الجمـة، وفصـل عنـه الامير مجاهـد الديـن بـزان في العسكـر الدمشقـي وقـد كـان له في هـذه الـوقعـة ولمن في جملته البـلاء المشهـور والذكـر المشكور، لما هـو مـوصوف بـه مـن الشهامـة والبسالـة وإصابة الرأي والمعرفة بمواقف الحروب.

وقال ابن أبي طـي: حمل أسد الدين على حامل صليـب الفرنج فقتله وقتل البرنـس صاحب أنطـاكية وجماعة مـن وجوه عسكره، ولم يقتـل من المسلمين من يقـوم به، وعـاد المسلمون بـالغنائم والأسـارى، وكان لأسـد الديـن في هذه الحرب اليد البيضـاء، ومدحه بها بعـض الشعراء الحلبيين بقصيدة يقول فيها:

إذا كـــان آل فـــرنـــج أدركـــوا فلجـــا
في يـــوم يغـــراونـــا الـــوامنيـــة الظفـــر

ففـــي الخطيـــم خطمـــت الكفـــر منصلتـــا
أبـــا المظفـــر بـــالصمصـــامـــة الـــذكـــر

نـــالـــوا بيغـــر انهابـــا وانتبهـــت لنـــا
على الخطيـــــم نفـــــــوس المعشر الأشر

واستقـــودوا الخيـــل عـــريـــا واستقـــدت لنـــا
قـــوامـــص الكفـــر في ذل وفي صغـــر

قال: وحصل لأسد الدين من هذه الكسرة سلاح كثير، وعدّة أسارى وخيول كثيرة، فأنفذ لأخيه نجم الدين منها شيئا.

وفي هذه السنة عظم أمر أسد الدين

وقال ابن الأثير: سار نور الدين إلى حصن حارم، وهو للفرنج فحصره وخرّب ربضه ونهب سواده ثم رحل عنه إلى حصن إنب فحصره، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وساروا إليه ليرحلوه عن إنب فلم يرحل بل لقيهم وتصاف الفريقان واقتتلوا وصبروا، وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه ما تعجب منه الناس، وإنجلت الحرب عن هزيمة الفرنج، وقتل المسلمون منهم خلقا كثيرا، وفيمن قتل البرنس صاحب أنطاكية، وكان عاتيا من عتاة الفرنج وذوي التقدّم فيهم والملك، ولما قتل البرنس خلف ابناصغير وهو بيمند فبقي مع أمّه بأنطاكية ، فتزوجت أمه ببرنس آخر وأقام معها بأنطاكية يدبر الجيش ويقودهم ويقاتل بهم إلى أن يكبر بيمند، ثم إن نور الدين غزا بلد الفرنج غزوة أخرى وهزمهم وقتل فيهم وأسر، وكان في الأسرى البرنس الثاني زوج أمّ بيمند، فلما أسره تملك بيمند أيضا أنطاكية بلد أبيه وتمكن منه، وبقي بها إلى أن أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح ، وقتل البرنس، فممن قال فيه القيسراني الشاعر من قصيدة أنشده إياها بجسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية أوّلها:

هذي العزائم لا ما تدعي القضب
وذي المكارم لا ما قالت الكتب

وهذه الهمم اللاتي متى خطبت
تعثرت خلفها الاشعار والخطب

صـــافحـــت يـــابـــن عـماد الـــديـــن ذروتها
بـــراحـــة للمســـــاعـــي دونها تعـــب
مـــازال جـــدّك يبنـــي كـــل شـــاهقـــة
حتـــى إبتنـــى قبـــة أوتـــادهـــا الشهـــب
للّـــه عـــزمـــك مـــا أمضـــى وهمك مـــا
أفضـــى اتســـاعـــا بما ضـــاقـــت بـــه الحقـــب
يـــا ســـاهـــد الطـــرف والأجفـــان هـــاجعـــة
وثـــابـــت القلـــب والأحشـــاء تضطـــرب
أغـــرت سيـــوفـــك بـــالافـــرنـــج راجفـــة
فـــــؤاد روميـــــــة الكبرى لها يجب
ضربـــت كبشهـــم منهـــا بقـــاصمـــة
أودى بها الصلـــب وانحطـــت بها الصلـــب
قـــل للطغـــاة وإن صمـــت مســـامعـــا
قـــولا لصـــم القنـــا في ذكـــره أرب
مـــا يـــوم إنـــب والأيـــام دائلـــة
مـــن يـــوم يغـــرا بعيـــد لا ولا كثـــب
أغـــرّكـــم خـــدعـــة الآمـــال ظنكـــم
كـــم أسلـــم الجهـــل ظنـــا غـــرّه الكـــذب
غضبـــت للـــديـــن حتـــى لم يفتـــك رضـــى
وكـــان ديـــن الهدى مـــرضـــاتـــه الغضـــب
طهـــرت أرض الأعـــادي مـــن دمـــائهـــم
طهـــارة كـــل سيـــف عنـــدهـــا جنـــب
حتـــى استطـــار شرار الـــزنـــد قـــادحـــة
فـــالحرب تضرم والآجـــال تحتطـــب
والخيـــل مـــن تحت قتـــلاهـــا تفـــرلها
قـــوائم خـــانهنّ الـــركـــض والخبـــب
والنقـــع فـــوق صقـــال البيـــض منعقـــد
كما استقـــل دخـــان تحتـــه لهب

السيف هام على هام بمعركة
لا البيض ذو ذمّة فيها ولا اليلب
والنبل كالوبل هطال وليس له
سوى القسي وأيد فوقها سحب
وللظبى ظفر حلو مذاقته
كأنما الضرب فيما بينهم ضرب
وللأسنة عما في صدورهم
مصادر أقلوب تلك أم قلب
خانوا فخانت رماح الطعن أيديهم
فاستسلموا وهي لا نبع ولا غرب
كذاك من لم يوق اللّه مهجته
لاقى العدى والقنا في كفه قصب
كانت سيوفهم أوحى حتوفهم
يارب حائنه منجاتها العطب
حتى الطوارق كانت من طوارقهم
ثارت عليهم بها من تحتها النوب
أجسادهم في ثياب من دمائهم
مسلوبة وكأنّ القوم ما سلبوا
أبناء ملحمة لو أنها ذكرت
فيما مضى نسيت أيامها العرب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا
من الملوك فنور الدين محتسب
ذو غرّة ما سمت والليل معتكر
إلا تمزق عن شمس الضحى الحجب
أفعاله كاسمه في كل حادثة
ووجهه نائب عن وصفه اللقب
في كل يوم لفكري من وقائعه
شغل فكل مديحي فيه مقتضب

مـــن بـــاتـــت الاســـد أسرى في ســلاسلـــه
هـــل يـــأسر الغلـــب إلاّ مـــن لـــه الغلـــب
فملكـــوا سلـــب الابـــرنـــس قـــاتلـــه
وهـــل لـــه غير أنطـــاكيـــة سلـــب
مـــن للشقـــي بها لاقـــت فـــوارســـه
وإن يســـائرهـــا مـــن تحتـــه قتـــب
عجبـــت للصعـــدة السمـــراء مثمـــرة
بـــرأســـه إن أثمار القنـــا عجـــب
سما عليهـــا سمـــوّ الماء أرهقـــه
أنبـــوبـــة في صعـــود أصلهـــا صبـــب
مـــا فـــارقـــت عـــذبـــات التـــاج مفـــرقـــه
إلاّ وهـــي منـــه لاتـــاج ولا عـــذب
إذا القنـــاة ابتغـــت في رأســـه نفقـــا
بـــدا الثعلبهـــا مـــن نحـــره سرب
كنـــا نعـــدّ حمى أطـــرافنـــا ظفـــرا
فملكتـــك الظبـــى مـــا ليـــس نحتســـب
عمـــت فتـــوحـــك بـــالعـــدوى معـــاقلهـــا
كـــان تسليـــم هـــذا عنـــد ذا جـــرب
لم يبـــق منهـــم ســـوى بيـــض بـــلا رمـــق
كما التـــوى بعـــد رأس الحيـــة الـــذنـــب
فـــانهض إلى المسجـــد الأقصـــى بـــذي لجب
يـــوليـــك أقصـــى المنى فـــالقـــدس مـــرتقـــب
وائذن لموجـــك في تطهير ســـاحلـــه
فـــانما أنـــت بحـــر لجه لجب
يـــا مـــن أعـــاد ثغـــور الشـــام ضـــاحكـــة
مـــن الظبـــى عـــن ثغـــور زانها الشنـــب
مـــازلـــت تلحـــق عـــاصيهـــا بطـــائعهـــا
حتـــى أقمـــت وأنطـــاكيـــة حلـــب

حللت من عقلها أيدي معاقلها
فاستجفلت وإلى مشاقك الهرب
وأيقنت أنها تتلو مراكزها
وكيف يثبت بيت ماله طنب
أجريت من ثغر الاعناق أنفسها
جري الجفون امتراها بارح حصب
ومارکزت القنا إلاّ ومنك على
جسر الحديد هزبر غيله اشب
فاسعد بها نلته من كل صالحة
يأوي إلى جنة المأوى لها حسب
إن لا تكن أحد الابدال في فلك الـ
ـتقوى فلا نتمارى أنك القطب
فلو تناسب أملاك السماء بها
لكان بينكما من عفة نسب
هذا وهل كان في الاسلام مكرمة
إلا شهدت وعباد الهوى غيب

وله فيه من قصيدة أخرى:

ألا للّه درّك أي درّ
صريح جاء بالكرم الصريح
وعسكرك الذي استولى مشيحا
على ما بين فاميه وشيح
ووقعتك التي بنت العوالي
صوادر عن قتيل أو جريح
بإنب يوم أبرزت المذاكي
من النقع الغزالة في مسوح
غداة كأنما العاصي احمرارا
من الدم عبرة الجفن القريح

وقد وافاك بالابرنس حتف
أتيح له من القدر المتيح

قتلت أشحهم بالنفس إذلا
يجود بنفسه غير الشحيح

ملأت بهم ضرائحهم فأمسوا
وليس سوى القشاعم من ضريح

وعدت إلى ذرا حلب حميدا
سمو البدر من بعد الجنوح

فإن جليت بغرتك الليالي
فكم لسناك من زمن مليح

رويدك تسكن الهيجا فواقا
بحيث تريح من تعب المريح

فأنت وإن أرحت الخيل وقتا
فهمك غيرهم المستريح

قال أحمد بن منير يمدحه ،ويذكر ظفره بالبرنس وأصحابه ، وحمل رأسه إلى حلب ، وأنشده أيضا إياها بجسر الحديد:

أقوى الضلال وأقفرت عرصاته
وعلا الهدى وتبلجت قسماته

وانتاش دين محمد محموده
من بعد ما غُلّت دما عبراته

ردّت على الاسلام عصر شبابه
وثباته من دونه وثباته

أرسى قواعده ومدّ عماده
صعدا وشيد سوره سوراته

وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا
اصلاته وصلاته وصلاته

لما تواكل خربه وتخاذلت
أنصاره وتقاصرت خطواته

رفعت لنور الدين نار عزيمة
رجعت لها عن طبعها ظلماته

ملك مجالس لهوه شذاته
ومشوقه بين الصفوف شذاته

تغري بحثحثة اليراع بنانه
إن لذ حثحثة الكؤوس لذاته

ويروقه ثغر العدى قان دما
لا الثغر يعبق في لماه لثاته

فصبوحه خمر الطلى وغبوقه
نطف النفوس تدرّها نشواته

فتح تعممت السماء بفخره
وهفت على أغصانها عذباته

سبغت على الاسلام بيض حجوله
واختال في أوضاحها جبهاته

وانهل فوق الابطحين غمامه
وسرت إلى سكينها نفحاته

للّه بلجة ليلة محصت به
واليوم ذبح وشيه ساعاته

حط القوامص فيه بعد قماصها
ضرب يصلصل في الطلى صعقاته

نبذوا السلاح لضيغم عاداته
فرس الفوارس والقنا غاياته

لمجرب عمريه غضباته
للّه معتصميه غزواته

تحيا الضيق صفاده اسراؤه
وتفيض ماء شؤونها نغماته

بين الجبال خواضعا أعناقها
كالذود نابت عن براه حداته

نشرت على حلب عقود بنودهم
حلل الربيع تناسقت زهراته
روض جناه لها مكر جياده
واستوأرت حمالة حملاته
متساندين على الرحال كما انثنى
شرب أمالت هامه قهواته
لم تنبت الأجام قبل رماحه
شجراً فروع أصوله ثمراته
فليحمد الاسلام ما جدحت له
شربات غرس هذه مخباته
وسقى صدا ذاك الحيا صوب الحيا
خير الثرى ما كنت أنت نباته
نصب السرير ومال عنه ومهدت
لمقر منصبك السرى سراته
ما ضرّ هذا البدر وهو محلق
إن الكواكب في الذرى ضراته
في كل يوم تستطيل قناته
فوق السماء وتعتلي درجاته
وترى كشمس في الضحى آثاره
مجدا وألسنة الزمان رواته
أين الأولى ملأوا الطروس زخارفا
عن نزف بحر هذه قطراته
عذقوا بأعناق العواطل ماله
من جوهر فأتتهم فذاته
لو فصلوا اسمطا ببعض فتوحه
سخرت بها افتعلوا لهم فعلاته
تمسي قنانيه بنات قيونه
فوق القوانس والقنا قيناته

صلتـبـان مـن دون الملـوك تغـرهـا
حـركـاتـه وتنيمهـا يقظـاتـه

فغـدت بهم عـن خطـوه هماتهم
وسمـت بـه عـن قطـوهـم هماتـه

سكنـوا مسجفـة الحجـال وأسكنـت
زحـل الـرجـال مـع السهـا عـزمـاتـه

لـو لاح للطـائي غـرة فتحـه
بـاءت بحمـل تـأوه بـاآتـه

أوهـب للطبري طيـب نسيمـه
لاحتـش مـن تـاريخه حشـواتـه

صـدم الصليـب على صـلابـة عـوده
فتفـرقـت أيـدى سبـا خشبـاتـه

وسقـى البرنـس وقـد تبرنـس ذلـة
بـالـروح مقـر مـا خبـت عـذراتـه

فـانقـاد في خطـم المنيـة أنفـه
يـوم الخطيـم واقصرت نـزواتـه

ومضـى يـؤنـب تحت إنـب همة
أمسـت زوافـر غيهـا زفـراتـه

أسـد تبـوأ كـا الغـرنـف فجـآتـه
فتبـوأت طـرف السنـان شـواتـه

دون النجـوم مغمضـا ولطـالما
اغضـت وقـد كـرت لها لحظـاتـه

فجلـوتـه تبكـي الاصـادق تحتـه
بـدم إذا ضحكـت لـه شماتـه

تمشي القنـاة بـرأسـه وهـو الـذي
نظمـت مـدار النيريـن قناتـه

لـو عـانـق العيـوق يـوم رفعتـه
لاراك شـاهـد خفضـه اخبـاتـه

ما انقاد قبلك أنفه لخزامه
كلا ولا همست لها هدراته

طيان خلف السرح طال زئيره
نطقت سطاك له فطال صماته

لما بدا مسود رأيك فوقه
مبيض نصرك نكست راياته

ورأى سيوفك كالصوالج طاوحت
مثل الكرين فقلصت كراته

ولى وقد شربت ظباك كماته
تحت العجاج وأسلمته حماته

ترك الكنائس والكناس لناهب
بالبيض نهب ما حواه عفاته

لغلاب أروع لا يميت عداته
داء المطال ولا تعيش عداته

للوحش ملقى بالعرا يقتاته
ما كان قبل بصيده يقتاته

اليوم ملكك القراع قلاعه
متسنما ما استشرفت شرفاته

وغدا تحل لك الحلائل اسهم
متوزعات بينهن بناته

اوطأت أطراف السنابك هامه
فتقاذفت بعنيفها قذفاته

لازال هذا الملك يشمخ شأنه
أبدا ويلفت في الحضيض وشاته

ما أخطأتك يد الزمان فدونه
من شاء فلتسرع إليه هناته

أنت الذي تحلى الحياة حياته
وتهب أرواح القصيد هباته

# فصل

قال ابـن الاثير: وفيها سار نـور الدين إلى حصن فـامية، وهو للفـرنج أيضـا، وبينه وبين مـدينة حماه مـائة مرحلـة، وهو حصـن منيع على تـل مرتفع عـال من أحصن القلاع وأمنعهـا، وكان من به مـن الفرنج يغيرون على أعمال حماه وشيزر وينهبـوها، فـأهل تلـك الاعمال معهم تحت الـذل والصغار، فسـار نو الـدين إليه وحصره وضيـق عليه ومنـع من بـه القرار ليلاً ونهاراً، وتـابع عليهم القتـال ومنعهم الاستراحـة، فاجتمعت الفـرنج من سائر بلادهـم وساروا نحو ه ليزحزحوه عنها فلـم يصلوا إليه إلا وقد ملـك الحصن ومـلأه ذخائر مـن طعام ومـال وسلاح ورجـال، وجميع مـا يحتاج إليه، فلما بلغه قرب الفرنج سـار نحوهـم فحين رأوا جدّه في لقائهم رجعـوا واجتمعوا ببـلادهم، وكـان قصـاراهم أن صـالحوه على ما أخـذه ومدحه الشعراء وأكثر وا.منهم أبو الحسن أحمد بن منير حيث قال:

اسنـــى الممالـــك مـــا اطلـــت منـــارهـــا
وجعلـــت مـــرهفـــة الشفـــار دثـــارهـــا

وأحـــق مـــن ملـــك البـــلاد وأهلهـــا
رؤوف تكنـــف عـــدلـــه أقطـــارهـــا

مـــن عـــام ســـام الخافقين وحـــامهـــا
مننـــا وزادهـــوى فخـــص نـــزارهـــا

مضريـــة طبعـــت مضـــاربـــه وإن
عـــدّتـــه ذروة فـــارس اســـوارهـــا

آل الـــرعيـــة وهـــي تجهـــل آلها
وتعـــاف نطفتهـــا وتكـــره دارهـــا

فـــأقـــرّ ضجعتهـــا وأنبـــت نيهـــا
وأســـاغ جـــرعتهـــا واثبـــت زارهـــا

ملـــك أبـــوه سما لها فسما بها
وأجـــارهـــا فعلـــت سهيـــلا جـــارهـــا

نهج السبيـــل لــــه فـــأوضـــع خلفـــه
وشـــدالـــه يمــن العلى فـــانـــارهـــا
أنشرت يـــــاممحمـــــود ملـــــة أحمد
مــن بعـــدمـــا شمــل البلى اصحــارهـــا
إن جـــانـــأت عـــدل السنـــان قـــوامهـــا
أو نـــانـــأت كـــان الحسـام جبـــارهـــا
عقلـت مع العصـم العـواصـم مـذ غـدت
هـــذي العـــزائم أسرهـــا وإســـارهـــا
وتكلفـــت لـــك ضمـــر انضيتهـــا
في صمـــــونها أن تستردّ ضمارهـــــا
كـــلأت هـــواملهـــا وردّ مطـــارهـــا
مـــا أريشتـــه وثقفـــت آطـــارهـــا
كـــم حـــاولـــت مـــن كفتيهـــا غـــرّة
غلـــب الأســـود فقلمـــت أظفـــارهـــا
أنـــى وحـــامـــي سرحهـــا مـــن لـــو سمـت
للفلـــك بسطتـــه أحـــال مـــدارهـــا
في كـــل يـــوم مـــن فتـــوحـــك ســـورة
للـــديـــن يحمـــل سفـــره أسفـــارهـــا
ومطيلـــة قصر المنـــابـــر إن غـــدا الـــــ
ـــخطباء تنثـــر فـــوقهـــا تقصـــارهـــا
همم تحجلـــــت الملـــــوك وراءهـــا
بـــدم العثـــار ومـــا اقتفـــت آثـــارهـــا
وعـــزائم تستـــوئر الآســـاد عـــن
نهش الفـــرائس إن أحـــس أوارهـــا
أبـــدا تقصر طـــول مشرفـــة الـــذرى
بـــالمشرفيـــة أو تطيـــل قصـــارهـــا
فغـــزت أفـــاميـــة فما فهمتـــه
كـــوبـــا رأ جنـــاهـــا الاران بـــوارهـــا

- ٧٦٧٢ -

أرهفت رائك فوق رائك تحتها
فحططت من شغفاتها أعفارها

أدركت ثارك في البغاة وكنت يا
مختار أمّة أحمد مختارها

عارية الزمن المغير سماها
منك المغيرة فاستردّ معارها

زأر الهزبر فقيدت عاناتها
عصر الضلال وأسلمت أعيارها

ضاءت نجومك فوقها ولربما
باتت تنافثها النجوم سرارها

أمست مع الشعرى العبور وأصبحت
شعراء تستقلي الفحول شوارها

ولكم فرعت بمقربات مثلها
تلعا وقلدت الكماة عذارها

حتى إذا اشتملتك أشرق سورها
عزا وحلاها سناك سوارها

خرّ الصليب وقد علت نغماتها
واستوبلت صلواته تكرارها

لما وعاها سمع انطاكية
سرت الوقار وكشفت أستارها

فاليوم أضحت تستذمّ مجيرها
من جوره وغدت تذمّ جوارها

علمت بأن ستذوق جرعة أختها
إن زرّ أطواق القباء وزارها

ماض إذا قرع الركاب لبلدة
ألقت له قبل القراع ازارها

وإذا مجانقه ركعن لصعبة الـ
ـملقاة أسجد كالجدير جدارها

ملأ البلاد مواهباً ومهابة
حتى استرقت آية أحرارها

يذكي العيون إذا أقام لعينها
أبداً ويفضي بالظبى أبكارها

أوما إلى رمم الندى فأعاشها
وهما لسابقة المنى فأزارها

نبويّ تشبيه الفتوح كأنما
أنصاره رجعت له أنصارها

أحيا الصرح سلامها سلمانها
وأمات تحت عمارها عمارها

إن سار سار وقد تقدّم جيشه
رجف يقصع في اللهى ذعارها

أو حلّ حلّ حبا القروم بهيبة
سلب البدور وبدارها أبدارها

وإذا الملوك تنافسوا درج العلى
أربى بنفس أفرعته خيارها

ونهى إذا هيضت تدلّ لجبرها
وسطى تذل إذا عنت جبارها

تهدى لمحمود السجايا كاسمه
لولز فاعلة بها لأبارها

الفاعل الفعلات ينظم في الدجى
بين النجوم حسودها اسمارها

ساع سعى والسابقات وراءه
عنقاً فعصفر منتهاه عثارها

كالمضرجي إذا يصرصر رائباً
خرس البغاث وهاجرت أوكارها

عرفت لنور الدين نور وقائع
يغشى إذا اكتحلت به أبصارها

مشهورة سطعـــت وقـــد حـــاولتهـــا الـــ
ـــأقدار عجـــزا أن تشـــق غبـــارهـــا
للّـــه وجهـــك والـــوجـــوه كـــأنما
حطـــت بها أوقـــار هبـــت قـــارهـــا
والبيـــض تخنـــس في الصـــدور صـــدورهـــا
هبرا وتكتحـــل الشفـــور شفـــارهـــا
والخيـــل تـــدلـــج تحت أرشيـــة القنـــا
جـــذب المواتـــح غـــاورت أبـــارهـــا
فبقيـــت تستجلي الفتـــوح عـــرائســـا
متمليـــا صـــدر العلى وصـــدارهـــا
في دولـــة للنصر فـــوق لـــوائهـــا
زبـــر تنمـــق في الطلى أسطـــارهـــا
فـــالـــديـــن مـــرمـــاة رفعـــت بها الصـــوى
وحـــديقـــة ضمنـــت يـــداك ابـــارهـــا

وله فيه من قصيدة أخرى:

خنـــس الثعـــالـــب حين زمجر مصحـــر
مـــلأ البـــــلاد هماهما وزئيرا
تـــركـــوا مشـــاجـــرة الـــرمـــاح لحاذق
جعلـــت مخافتـــه القصـــور قبـــورا
لـــربيـــب حـــرب لم تـــزل فعـــلاتـــه
كـــالـــراء يلـــزم لفظهـــا التكـــريـــرا
أســـد إذا مـــا عـــاد مـــن ظفـــر بمفـــ
ـــترس أحـــدّ لمثلـــه اظفـــورا
يتنـــاذر الاعـــداء منـــه سطـــوة
مـــلأ الـــزمـــان تغيظـــا وزفيرا
عـــرفـــوا النـــور الـــديـــن وقـــع وقـــائع
وفى بها الاســـلام أمـــس نـــذورا

أبـــدا يظـــافـــرك القضـــاء على الـــذي
تبغـــــي فترجـــع ظـــافـــرا منصـــورا
قـــوّضـــت فـــانتقـــع الظهـــائر ظلمـــة
وقفلـــت فـــاشتعـــل الـديـــاجـــر نـــورا
وعلى العـــواصـــم مـــن دفـــاعـــك عـــاصـــم
ينشـــــي الـــــرشيـــــد وينشر المنصـــورا

# فصل

## في وفاة معين الدين أنر بدمشق وما كان من الرئيس ابن الصوفي في هذه السنة

قـال أبـو يعلى التميمي: فصـل معين الـديـن من عسـكره بحـوران ووصـل إلى دمشق في أواخـر ربيع الآخـر لأمـر أوجب ذلـك ودعا إليـه وأمعن في الأكل ، فلحقـه عقيب ذلك انطلاق تمادى بـه، وحمله اجتهاده فيما يدبره على العـود إلى عسكره بناحية حوران وهو على هـذه الصفة من الانطلاق، وقد زاد به وضعفـت قوته وتولد معه مـرض في الكبد، فأوجب الحال عـوده إلى دمشق، في محفـة لمداواتـه فوصـل، وقضـى نحبه في ليلـة الثالـث والعشرين من ربيـع الآخر، ودفن في إيـوان الدار الأتابكيـة التي كان يسكنها، ثم نقل بعد ذلك إلى المدرسة التي عمرها.

قلـت: قبره في قبـة بمقـابـر العـوينـة شمالي دار البطيـخ الآن واسمـه مكتوب على بابها فلعله نقـل من ثم إليها، وفيه يقول الأمير مـؤيد الدولة أسامـة بن منقذ وكتب بها إليـه من مصر لما لقي الفـرنج في أرض بصرى وصرخد مع نور الدين، وقد تقدم ذلك كتب إليه قصيدة يقول فيها:

كـــــــل يـــــــوم فتـــــــح مبين ونصر
واعتـــــلاء على الاعـــــادي وقهـــــر

صدق النعت فيك أنت معين الـ
ـدين إن النعوت فال وزجر
أنت سيف الاسلام حقا فلا كـل
غراريك أيها السيف دهر
لم تزل تضمر الجهاد مسرا
ثم أعلنت حين أمكن جهر
كل ذخر الملوك يفنى وذخرا
ك هما الباقيان أجر وشكر (٥٧)

قال: وفي يوم الجمعة تاسع رجب قرىء المنشور المنشأ عن مجير الدين بعد الصلاة على المنبر بابطال الفيئة المستخرجة من الرعية وإزالة حكمها وتعفية رسمها وإبطال دار الضرب، فكثر دعاء الناس له وشكرهم، قال: واستوحش الرئيس مؤيد الدولة من مجير الدين استيحاشا أوجب جمع من أمكنه من سفهاء الأحداث والغوغاء وحملة السلاح من الجهلة العوام وترتيبهم حول داره ودار أخيه زين الدولة حيدرة للاحتماء بهم من مكروه يتم عليهما، وذلك في ثالث عشر رجب، ووقعت المراسلات من مجير الدين بما يسكنهما ويطيب أنفسهما، فما وثقا بذلك وجدا في الجمع والاحتشاد من العوام وبعض الاجناد ، وأثارا الفتنة فقصدوا باب السجن وكسروا غلاقه واطلقوا من فيه، واستنفروا جماعة من أهل الشاغور وغيرهم وقصدوا الباب الشرقي وفعلوا مثل ذلك، وحصلوا في جمع كثير، وامتلأت بهم الأزقة والدروب، فحين عرف مجير الدين وأصحابه هذه الصورة اجتمعوا في القلعة بالسلاح الشاكي، وأخرج ما في خزانته من السلاح والعدد وفرقت على العسكر، وعزموا على الزحف على جميع الأوباش والايقاع بهم والنكاية فيهم، فسأل جماعة من المقدمين التمهل في هذا الأمر وترك العجلة بحيث تحقن الدماء ويسلم البلد من النهب والحريق، وألحوا عليه إلى أن أجاب سؤالهم، ووقعت المراسلة والتلطف في إصلاح ذات البين، فاشترط الرئيس وأخوه شروطا أجيبا إلى بعضها،

وأعرض عن بعض بحيث يكون ملازما لداره، ويكون ولده وولد أخيه في الخدمة في الديوان، ولايركب إلى القلعة إلا مستدعى إليها، وتقررت الحال على ذلك وسكنت الدهماء، ثم حدث بعد هذا التغيير عود الحال إلى ما كانت عليه من العناد وإثارة الفساد وجمع الجمع الكثير من الاجناد والمقدّمين والرعاع والفلاحين، واتفقوا على الزحف إلى القلعة، وحصر من بها وطلب من عين عليه من الأعداء الأعيان في أواخر رجب، ونشبت الحرب بين الفريقين وجرح وقتل بينهم نفر يسير، وعاد كل فريق منهم إلى مكانه ووافق ذلك هروب السلار زين الدين اسماعيل الشحنة وأخيه إلى ناحية بعلبك، ولم تزل الفتنة ثائرةوالمحاربة متصلة إلى أن اقتضت الصورة إبعاد من التمس ابعاده من خواص مجير الدين، وسكنت الفتنة وأطلقت أيدى النهابة في دار السلار زين الدين وأخيه وأصحابهما ،وعمهما النهب والاخراب، ودعت الضرورة إلى تطييب نفس الرئيس وأخيه والخلع عليهما وإعادة الرئيس إلى الوزارة والرياسة بحيث لايكون له في ذلك معترض ولا مشارك.

قلت: وفي هذه الفتنة يقول العرقله.

ذر الاتــــــراك والعــــــربـــــا
وكـــــن في حــــزب مــــن غلبـــــا

بجلــــــق أصبحـــــت فتـــــن
تجر الـــــويـــــل والحربـــــا

لئـــــن تمت فـــــوا أسفـــــا
ولم تحزن فـــــوا عجبـــــا

وقال في الرئيس لما زحف إلى القلعة:

زد علــــوا في المجــــد يــــابــــن علي
هكــــذا مــــن أراد أن يتعــــالى

وغــــدت جلــــق تنــــاديــــك عجبــــا
هكــــذا هكــــذا والا فــــلا لا

لـــن تبـــالي مـــن بعـــدهـــا بعـــدو
إنها ذاك كـــــان قطعـــــا فــــــزالا
قـــد حـــوى الـــديـــن يـــا مــؤيـــده منـــ
ـــك هـــزبـــراً وديمـــة وهـــلالا
جئتهـــا في الظـــلام خيـــلا ورجـــلا
وحميـــت النفـــوس والامـــوالا
قـــد بلغـــت المراد مـــن كـــل ضـــد
وكفـــى اللّـــه المؤمنين القتـــالا

قـال أبـو يعلى التميمـي: وفيهـا ورد الخبر مـن نـاحيـة مصر بـوفـاة المستخلف بها الملقب بالحافظ واسمه عبد المجيد بن الآمر بن المستنصر في خـامس جمادى الآخـرة ، وولي الأمـر بعد ولـده الأصغـر أبو منصـور اسماعيل ، ولقب بالظافر، وولى الـوزارة أمير الجيوش أبو الفتح بن مصال المغربي.

## فصل

## في وفاة سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل

وهو أخو نور الدين الأكبر.

قال ابـن الاثير:كان أتـابك الشهيـد، يعني زنكـي، ملك دارا وبقيـت بيده إلى أن قتل، فأخذها صاحب ماردين، ثم سار إليها سيف الدين بن الشهيد في سنـة أربع وأربعين فحـاصرها وملكهـا واستولى على كثير مـن بلد مـاردين بسببهـا، ثم حصر ماردين عازما على أن يـدخل ديـار بكر، ويستعيد مـا أخذ مـن البلاد بعـد قتل والـده، فتفرق العسكـر في بلدهـا ينهبون ويخربون، فقال صاحب ماردين: كنـا نشكو من أتابك وأين أيامه فلقد كـانت أعيـاداً قد حصرنـا غير مرة فلـم يتعدّ هـو وعسكره حـاصل

السلطان، ولا أخذوا كفا من التبن بغير ثمن:

رب دهـــــر بكيـــــت منـــــه فلما
صرت في غيره بكيـــــت عليـــــه

ثم إنـه راسل سيف الديـن وصالحه على ما أراد وزوجه ابنتـه الخاتون، ورحـل سيف الـدين عـن ماردين وعاد إلى الموصـل، وجهزت الخاتـون وسيرت إليه فوصلت إلى الموصل وهو مـريض فتوفي ولم يدخل بها، وذلك في أواخر جمادى الآخرة، وكـان عمره نحو أربعين سنة، وكـان من أحسن الناس صورة، ودفـن بالمدرسة التي أنشـأها بباطن الموصـل، وخلف ولدا ذكر أخذه نـور الدين محمود عمـه فرباه فأحسـن تربيته وزوّجه ابنـة عمه قطب الدين مـودود، فلم تطل أيامه وأدركه أجله في عنفـوان شبابه فتوفي وانقرض عقـب سيف الـدين، وكـان كريما شجـاعاً ذا عـزم وحزم، وهـو أوّل من حمل على رأسه سنجـق من أصحاب الأطراف فإنـه لم يكن فيهم مـن يفعله لأجـل السلاطين السلجـوقيـة، وهو أوّل مـن أمر عسكـره أن لايركـب أحدهـم إلا والسيف في وسطه، فلما أمـر هو بـذلك إقتـدى به غيره من أصحـاب الأطراف، وبنـى بالموصـل المدرسة الأتـابكية العتيقـة وهي مـن أحسن المدارس وأوسعها، وجعلهـا وقفا على الفقهاء الشـافعية والحنفيـة نصفين، وبنى ربـاط الصـوفيـة بالموصـل أيضـا، وهـو الربـاط المجاور لبـاب المشرعة ووقف عليهما الـوقوف الكثيرة، وكان كـريما قصده شهاب الـدين حيص بيـص وامتدحه بقصيدتـه المشهورة وهي مـن جيد شعره فـأجازه عنها ألـف دينار أميري سوى الاقامـة والتعهد مدّة مقـامه وسوى الخلع والثياب.

قلت أوّل تلك القصيدة:

إلى م يـــــراك المجـــــد في زي شـــــاعـــــر

يقول في آخرها:

أتـــابـــك إن سميـــت في المهـــد غـــازيـــا
فســـــابقـــــة معــــــدودة في البشــــــائر
وفيـــت بها والـــدين قـــد مـــال روقـــه
وصـــدّقتهـــا والكفـــر بـــادي الشعـــائر

وعـزى أبو الحسين أحمد بـن منير نـور الديـن بـأخيـه بقصيدة تقـدّم بعضها أوّلها:

هـــــو الجدّ بـــــز التمام البـــــدورا

يقول فيها:

ســـوى كـــل مـــا جنـــت الحادثـــا
ت مـــاكنـــت ظـــلا علينـــا قـــريـــرا
أســـــأ ن وأحســـــن كـــــنّ الهلال
ومـــــلأ ننـــــا منـــــك بـــــدرا منيرا
إذا ثبـــــج البحـــــر أخطـــــأته
فـــلا غـــر وأن ينتشفـــن الغـــديـــرا
وأصغـــر بفقـــدانـــا الـــذاهبـــ
ـــين مـــا عشـــت نـــاتيـــك ملكـــا كبيرا
ومـــا أغمـــد الـــدهـــر ذاك الحســـا
م مـــاســـلّ حـــداك عضبـــا بتـــورا
قسيـــم عـــلاك ونعـــم القســـ
ـــيم أخ شـــاف نـــزرا وأعطـــى كثيرا
وكـــان نظيرك غـــار الـــزمـــا
ن مـــن أن يـــرى لـــك فيـــه نظيرا
فـــدتـــك نفـــوس بـــك استـــوطنـــت
مـــن الأمـــن نـــورا وقـــد كـــنّ بـــورا
وغيرك يمهـــــد بســـــط العـــزا
ء ويـــولي المسلمين سمعـــا وقـــورا

وما نقص الدهر اعدادكم
إذا شف قطرا وأبقى بحورا

ولو أنصف المجد موتاكم
لخط لهم في السماء القبورا

حياتك أحيت رميم الرجا
وأمطت من الجود ظهرا ظهيرا

بقيت معزا من الهالكـ
ـين توقى الردى توفي الاجورا

وللقيسراني قصيدة منها

ما أطرق الجو حتى أشرق الافق
إن أغمد السيف فالصمصام يأتلق

دون الاسى منك نور الدين في حلب
مملك ينجلي عن وجهه الغسق

هو الشقيق الشفيق الغيب حين ثوى
أراق ماء الكرى من جفنك الارق

تلقى الاسى من لباس الصبر في جنن
حصينة تحتها الاحشاء تحترق

ومدّة الاجل المحتوم إن خفيت
فإن أيامنا من دونها طرق

وإنما نحن في مضمار حلبتها
خيل إلى غاية الاعمار تستبق

شأو إذا ابتدر الاقوام غايته
كان المؤخر فيها من له السبق

إن كان صنوك هذا قد ثوى وذوى
ففي مغارسك الاثمار والورق

أو أصبحت بعده الاهواء نافرة
أيدي سبا فعلى عليك نتفق

مـــاغـــاب مـــن غـــاب عـــن آفـــاق مطلعـــه
الا ليفترّ عـــــــن أنـــــــوارك الافـــــــق
مـــــادام شمســــك فينـــــا غير آفلـــــة
فـــالـــديـــن منتظـــم والملـــك متســـق

## فصل

قال ابـن الاثير: لما توفي سيـف الدين غـازي كان أخـوه قطب الـدين مـودود بالموصـل، فاتفقـت كلمة جمال الـدين وزيـن الديـن على توليتـه وتمليكه طلبـا للسلامـة منه، فـإنه كـان لين الجانب حسـن الأخلاق كثير الحلم كريـم الطباع، فأحضروه من داره وحلفوه لهم وحلفوا لـه ونزل بدار المملكة،وحلـف له الأمـراء والأجناد واستقـر في الملك، وأطـاعه جميـع ما كـان لأخيه سيـف الـدين ، لأن المرجـع كـان في جميع المملكـة إلى جمال الديـن وزين الديـن، ولما ملك واستقرّ في الملـك تزوّج امرأة أخيـه الذي مات ولم يدخل بها، الخاتون ابنة حسام الـدين تمرتاش صاحب ماردين، فولدت لقطب الـدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعـده على ما سنذكره، ولم يملكها من أولاد قطب الدين أحد غير أولادها.

قال: وكـانت هـذه الخاتون يحل لها ان تضـع خمارها عنـد خمسة عشر ملكا من آبائها وأجدادهـا وأخوتها، وبني أخوتها وأزواجها وأولادها وأولاد أولادها، ثـم ذكرهـم ابن الاثير في كتـابه وسماهـم، وذكر أنها أشبهـت في ذلك فـاطمة بنت عبـد الملك بن مروان زوج عمـر بن عبد العـزيز رضي اللّـه عنه، وكـان لها أن تضـع خمارها عنـد ثلاثـة عشر خليفـة وهم مـن معاوية إلى آخـر خلفاء بني أمية سوى آخـرهم وهو مروان بن محمـد فإنه ابن عم لها ليس بمحـرم والباقون محارم لها، وما تم له ذلـك إلاّ بعد ذكره أن أمها عاتكـة بنت يزيد بن معاويـة، فمعاوية جدّ أمها، ويزيـد جدّها لأمها، ومعاوية ابن يزيد خالها، ومـروان جدّها لأبيها، وعبد الملك أبوها، والوليـد وسليمان وهشام ويـزيد أخـوتها، وعمر بـن عبد العـزيز زوجهـا،

والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد، أولاد أخوتها، وهؤلاء كلهم خلفاء، وعدتهم ثلاثة عشر.

قلت: وهذا كله مبني على أصل فيه خلل، وهو أن فاطمة بنت عبد الملك ليست أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية، بل أمها امرأة مخزومية، على ما بيناه في ترجمتها في تاريخ دمشق، ولكن الصواب في ذلك أن يقال كان لفاطمة أن تضع خمارها عند عشرة من الخلفاء، وهم: مروان ابن الحكم ونسله سوى، مروان بن محمد، وأما عاتكة فالجميع محرم لها سوى عمر بن العزيز ومروان بن محمد،بقي اثنا عشر خليفة كلهم محارم لها : معاوية جدّها، ويزيد أبوها، ومعاوية بن يزيد أخوها، ومروان حموها، وعبد الملك زوجها، والوليد وسليمان وهشام أولاد زوجها، ويزيد ابن عبد الملك ابنها، والوليد بن يزيد ابن ابنها، ويزيد بن الوليد وابراهيم بن الوليد ابنا ابن زوجها، ولو أضيف إلى ذلك الملوك من محارم عاتكة أو فاطمة كالأخوة والأعمام والأخوال وبني الاخوة لتضاعف العدد، كخالد بن يزيد بن معاوية أخي عاتكة، وعبد العزيز بن مروان عم فاطمة، ومسلمة وعبد الله ابني عبد الملك، وغيرهم، وذلك ظاهر لمن عرف أنساب بني أمية، وماذكر ابن الاثير من أمر حسام الدين، فست الشام بنت أيوب أكثر منها محارم من الملوك يجتمع لها من ذلك أكثر من ثلاثين ملكا من أخوتها الأربعة: المعظم، وصلاح الدين، والعادل،وسيف الاسلام، ومن أولادهم وأولاد أولادهم وأولاد أخيها الأكبر شاهنشاه بن أيوب تقي الدين وذرّيته أصحاب حماه، وفرخشاه وابنه الأمجد صاحب بعلبك.

## فصل

قال ابن الاثير: ولما ملك قطب الدين الموصل والبلاد الجزرية، كان

أخوه نور الدين بحلب، وهو أكبر من قطب الدين، فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه إليهم منهم المقدّم والد شمس الدين بن المقدّم، وهو حينئذ دز دار سنجار، فسار نور الدين جريدة في سبعين فارسا مُن أكابر دولته منهم أسد الدين شيركوه، ومجد الدين أبو بكر بن الداية وغيرهما، فوصلوا إلى ماكسين في ستة أنفس في يوم شديد المطر، وعليهم اللبابيد، فلم يعرفهم الذين بالباب، وأرسلو إلى الشحنة وأخبروه بوصول نفر من الأجناد كأنهم تركمان، فلم يستتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين فحين رآه الشحنة قبل يده وخرج عن الدار فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه، وسار مجداً إلى سنجار فوصلها وليس معه إلاّ نفر يسير، فنزل بظاهر البلد وألقى نفسه على محفورة صغيرة من شدّة تعبه، وأرسل إلى المقدّم بالقلعة يعرفه وصوله، وكان المقدّم قد استدعي من الموصل لأن خبره مع نور الدين بلغ من بها فأرسلوا إليه، فوقف عدّة أيام فلم يصل نور الدين، فسار إلى الموصل، وترك ابنه شمس الدين بسنجار، وقال له: أنا أتاخر في الطريق فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني، فلما فارق سنجار وصل نور الدين، فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصدا إلى أبيه بالخبر وأنهى الحال إلى نور الدين فخاف فوات الأمر، ووصل القاصد الذي سيره ابن المقدم إلى أبيه فأدركه بتل يعفر، فعاد إلى سنجار وسلمها إلى نور الدين، وكاتب فخر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن يستنجده، وبذل له قلعة الهيثم فسار إليه بجنده، فلما سمع قطب الدين الخبر جمع عساكره وسار عن الموصل، نحو سنجار ومعه الجمال والزين ونزلوا بتل يعفر، وأرسلوا إلى نور الدين ينكرون عليه إقدامه وأخذه ما ليس له، وتهددوه بقصده وإخراجه من البلاد قهراً إن لم يرجع اختيارا، فأعاد الجواب: إنني أنا الاكبروأنا أحق أن أدبر أمر أخي منكم، وما جئت إلاّ لما تتابعت كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولايتكم عليهم - يعني الجمال والزين- فخفت أن يحملهم الغيظ والأنفة على أن يخرجوا البلاد من أيدينا، فأما تهدّدكم إياي بالقتال فأنا ما أقاتلكم إلاّ

بجندكم وكـان قد هرب إليه جماعة مـن أجنادهم، فخافـوا أن يلقوه لئلا يخامـر عليهم بـاقي العسكـر، ودخـل الأمراء في الصلـح وأشار بـه جمال الدين الـوزير، وقال: نحن نظهر للسلطـان والخليفة أننا تبع نـور الدين، ونـور الـديـن يظهر للفـرنـج أنـه يحكمنـا ويهدّدهـم بنا، فـإن كـاشفنـاه وحـاربناه، فـإن ظفر بنـا طمع فينـا السلطان، وإن ظفـرنا بـه طمع فينـا الفرنـج، ولنا بالشام حمص، وقـد وصار له عنـدنا سنجار، فهذه أنفـع لنا من تلـك، وتلك أنفـع له مـن هذه والـرأي أن نسلم إليـه حمص ونأخـذ سنجار وهـو في ثغر بازاء الفـرنج ويتعين مساعـدته، فاتفـق الجماعة على هذا الرأي وسار جمال الدين إلى نور الـدين وأبرم معه الأمر وتسلم حمص وسلم سنجار إلى أخيه، وعاد نور الديـن وأخذ ما كان بسنجار من المال، ولما تسلم قطـب الديـن سنجار أقطعهـا لزيـن الديـن لأن حمص كانـت لأخيـه ينال ، وهـو مقيـم بها، واتفقـت كلمتهم واتحدت آراؤهـم، وكـل واحد منهما لايصدر إلاّ عن أمر أخيه، وطلب نور الدين أن يكون الجمال عنده، فقال له الجمال:أنـت عندك من الكفاية ما يستغنـي به عن وزير ومشير وليـس عندك مـن الأعداء مثـل ما عنـد أخيك لأنّ عـدّوّك كافـر فـالنـاس يدفعـونـه ديـانة، وأعـداء أخيـك مسلمـون فيحتاج مـن يقـوم بدفعهم، وإذا كنت عند أخيك فالنفـع إليك عائد وأريد من بلادك مثل مالي مـن بلاد أخيك معونـة على كثرة خرجي، فـأجابه إلى ذلك فقـال له جمال الدين: أنت عليك خرج كثير لأجل الكفـار فيجب مساعدتك وأنا اقنع منـك بعشرة آلاف دينار كـل سنة، فـأمر لـه بها، فكان نـائب جمال الدين يقبضها كل سنة ويشتري بها أسرى من الفرنج ويطلقهم.

قلت :وقـرأت في ديوان القيسراني وقال في نور الـدين عند قدومـه وقد استـولى على سنجـار وأعمال الـرحبـة والفـرات، وذلـك في منتصـف ذي القعدة سنة أربعين وخمسمائة:

هـــذا الـــذي ولـــدت لـــه الافكـــار
وتمخضـــت فـــألا بـــه الاشعـــار
وجـــرت لـــه خيـــل النهـــى في حلبـــة
وردت وصفـــو ضميرهـــا المضمار
واتـــت بـــه نـــذر القـــوافي بـــرهـــة
إن القـــوافي وحيهـــا انـــذار
حكمـــت لسيفـــك بـــا لمما لـــك عنـــوة
حكمـــا لعمـــري مـــا عليـــه غبـــار
يـــا أيها الملـــك المطيـــل نجـــاده
بـــرّيـــديـــن بهديـــه الابـــرار
يـــا بـــن السيـــوف وهـــل فخـــرت بنسبـــة
إلاّ سما بـــك للجـــدود فخـــار
فـــارقـــت دار الملـــك غير مفـــارق
لـــك مـــن عـــلاك بكـــل أرض دار
في عسكـــر تخفـــي كـــواكـــب ليلـــه
نقعـــا فيطلعهـــا القنـــا الخطـــار
جـــرّار أذيـــال العجـــاج وراءه
وأمـــامـــه بـــل جحفـــل جـــرّار
تـــدنـــي لـــك الغـــايـــات أكبر همة
نـــوريـــة همم الملـــوك كبـــار
حتـــى مـــلأت الخافقين مهـــابـــة
دانـــت لعظـــم نظـــامهـــا الاقطـــار
وملكـــت سنجـــارا ومـــا مـــن بلـــدة
إلاّ تمنـــت أنها سنجـــار
وبسطـــت بـــالأمـــوال كفـــا طـــا لما
طـــالـــت بها الآمـــال وهـــي قصـــار
وجـــرت بـــأمـــداد الجيـــاد شعـــابها
جـــري السيـــول ومـــا ســـواك قـــرار

وثنى الفرات إلى يديك عنانه
والبحر ما اتصلت به الانهار
وملكت رحبة مالك فتبرجت
منها العينك كاعب معطار
جاءتك في حلل الربيع وحليها
قبل الربيع شقائق وبهار
نثرت عليك هوى القلوب محبة
وتود لو أنّ النجوم نثار
فأقمت كالشمس إن نأت
عن أفقها فلها به أقمار
من كان نور الدين ثم أجنّة
ليل السرى حفت به الانوار
تدعو البلاد إليك ألسنة الظبى
فيجيبك الانجاد والاغوار
حتى عمدت الدين يابن عماده
بقنا أسنتها عليه منار
وقفلت من أسفار جدّك قادما
كالصبح نمّ بثغره الاسفار
يغشى البصائر نور وجهك بعدما اعـ
ـتركت على قسماتـه الأبصار
حتى عمرت بكل قلب صدره
حيث الصدور من القلوب قفار
إن تمس في حلب رياحك غضة
فلها بأنطاكية إعصار
وغدت جيادك بالشآم مقيمة
ولها بأطراف الدروب مغار
همم سبقت بها إلى مهج العدى
صرف الردى ومسيره إحضار

وأرى صبــاح القمــص كــان خــديعــة
فطغـــى وجـــاور رليـــس ثـــم وجـــار
ســـأل الصنيعـــة غير محقـــوق بها
والخير يهدم مـــا بنـــى الختـــار
حتـــى إذا مــا غبــت أقــدم عــائثــا
اقــدام مــن لم يــدن منــه قــرار
أمضـــى الســـلاح على عـــدوّك بغيـــه
بــالغــدر يطعــن في الــوغــى الغــدّار
فــاحســم عنـــاد ذوي العنــاد بجحفــل
كــالليـــل فيـــه مـــن الصفيـــح بهار
جنـــد على جـــرد أمـــام صـــدورهـــا
صـــدر عليـــه مـــن اليقين صـــدار
قـــد بـــايـــع الاخـــلاص بيعـــة نصره
ولكـــل هـــادي أمّـــة أنصـــار
ملـــك لـــه مـــن عـــدلـــه ووفـــائه
جيـــش بـــه تستفتـــح الامصـــار
وإذا الملـــوك تثـــاقلـــت عـــن غـــايـــة
وأرادهـــا خفـــت بـــه الاقـــدار
وإذا انتضتـــه إلى الثغـــور عـــزيمـــة
قـــامـــت مقـــام جنـــوده الاخبـــار

ولابن منير من قصيدة فيه:

تـــرنـــح معطـــف الـــزوراء لما
دعـــاك لـــزور سنجـــار لمام
وزلـــزلـــت الصعيـــد وراء مصر
غـــداة علتـــك في قطنـــا الخيـــام
رجـــاء هـــزتيـــك وتلـــك خـــوف
ولـــو قـــد شئـــت ضمها قـــرام

بعيشــك يــامبيــد الخيــل ركضــا
حمام هـــــنّ تحتـــــك أم حمام

وقال ابن منير أيضا يهنئه بتسلم قلعة حمص من ينال، وأنشده في القلعة قصيدة أوّلها:

ارحهـــا فهـــي أزلام المعـــالي
لهنّ إلى الـــوغـــى تـــوق المغـــالي

أمـــا ومقيلهـــن بكـــل نقـــع
يقـــوّض بـــالهدى عمـــر الضـــلال

وأي سيـــوفـــك الحمـــر الحواشي
منـــزلـــة متـــى دعيـــت نـــزال

مـــواض إن سللـــن جـــزمـــا
نفـــاه مـــن الطلى لفـــظ اعتـــلال

لقـــد غلـــب الصليـــب بحـــر حـــرب
يشيـــب أوارهـــا الـمم الليـــالي

وشمـــت لنصر هـــذا الـــديـــن بـــأساً
يحرّم منـــه كـــل حمى حـــلال

وقـــايـــع أتـــرعـــت في كـــل فـــج
وقـــايـــع جـــوّهـــا دامـــي العـــزال

ومنها:

تســـائل حمص عـــن منسي ديـــن
تقـــاضـــاه لـــك الحجـــج الخوالي

فـــواتـــت وهـــي أخـــت النجـــم بعـــدا
ووعـــداً صيـــغ مـــن مطـــل مطـــال

تشـــامـــخ أنفهـــا عـــزاً وشـــدّت
على أن لا تنـــال يـــدا ينـــال

فمازالــت رقــاك تجدّ نقضــا ... لما تثنيــه مــن مــرر الحبــال

إلى أن أطلــق الحسنــاء كــرهــا ... وآل إلى مــلاوحــة المآلي

يصــد الــوجــه عــن شما القــت ... يــد الاشــم ذي بــاع طــوال

شغلــت بها يمينــك والمواضي ... تكفــل أن مصرا للشمال

إذا فتــح القتــال عليــك أرضــا ... أبــاحــك أختهــا لا عــن قتــال

# فصل

قال الرئيس أبو يعلى: اتصل الخبر بنور الدين بافساد الفرنج في الأعمال الحورانية بالنهب والسبي، فعزم على التأهب لقصدهم وكتب إلى من بدمشق يعلمهم بما عزم عليه من الجهاد، ويستدعي المعونة على ذلك بألف فارس تصل إليه مع مقدّم يعول عليه، وقد كانوا عاهدوا الفرنج على أن يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين، فاحتج عليه وغولط، فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج يبوس، وبعض العساكر بيعفور، فلما قرب من دمشق وعرف من بها خبره ولم يعلموا أين قصده، وقد كانوا راسلوا الافرنج بخبره وقرّروا معهم الانجاد عليه، وكانوا قد نهضوا إلى ناحية عسقلان لعمارة غزة، ووصلت أوائلهم إلى بانياس وعرف نور الدين خبرهم، فلم يحفل بهم وقال: لاأنحرف عن جهادهم، وهو مع ذلك كاف أيدي أصحابه عن العيث والافساد في الضياع ،وأمر باحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم، والدعاء له مع ذلك متواصل من أهل دمشق وأعمالها، وسائر البلاد وأطرافها، وكان الغيث قد انحبس عن حوران والمرج والغوطة، ونزح أكثر أهل حوران عنها للمحل واشتداد الأمر، فلما وصل نور الدين إلى بعلبك اتفق نزول

المطر يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجـة، وأقام إلى مثله فروى الآكام والوهاد، وجرت الأوديـة وزادت الأنهاروامتلأت برك حوران ودارت أرحيتهـا، وعاد ما صـوح من الزرع والنبـات طرياً ، وحشـد الناس بالـدعاء لنور الـدين وقالـوا: هذا ببركته وحسن معـدلته وسيرته، ثم رحـل من منزله بـالأعوج ونزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العسـاكر في السادس والعشرين من ذي الحجة، وأرسل إلى مجيرالـدين والرئيس وقال: إنني مـا قصدت بنزول هذا المنـزل طلبا لمحاربتكم ولا منـازلتكم وإنما دعاني إلى هذا الأمـر كثرة شكاية المسلمين مـن أهل حوران والعربان بأن الفـلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الافرنج، وعدم الناصر لهم ولايسعني مع ما أعطـاني اللّــه ، ولـه الحمـد، مـن الاقتـدار على نصرة المسلمين وجهـاد المشركين وكثرة المال والرجـال أن أقعد عنهم ولا انتصر لهم، مع معـرفتي بعجـزكـم عــن حفـظ أعمالكـم والـذب والتقصير الـذي دعـاكـم إلى الاستصراخ بـالأفـرنـج على محاربتـي، وبــذلكـم لهم أمــوال الضعفـاء والمساكين مـن الرعية ظلما لهم وتعـديا عليهـم، وهذا لا يرضي اللّـه تعالى ولا أحد من المسلمين، ولا بـدّ من المعونة مـن ألف فارس مزاحـي العلة تجرّد مع من يوثق بشجاعته من المقدّمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة.

قال: فكان الجواب عـن هذه الرسالة : ليس بيننـا وبينك إلاّ السيف، وسيوافينا مـن الافرنج ما يعيننـا على دفعك إن قصدتنا ونـزلت إلينا، فلما عاد الـرسول بهذا الجواب ووقـف عليه، أكثر التعجـب منه والانكـار له، وعزم على الزحـف إلى البلد ومحاربته في غد ذلـك اليوم، فأرسل اللّـه من الامطار وتداركها ودوامها ما منعه من ذلك.

# ودخلت سنة خمس وأربعين

ففي مستهل المحرّم تقرّر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق والسبب في ذلك أن نور الدين اشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها بعد ما اتصل به من أخبار دعته إلى ذلك، واتفق أنه بذل لهم الطاعة، واقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان، وكذا السكة، ووقعت الايمان على ذلك، وخلع نور الدين على مجير الدين خلعة كاملة بالطوق، وأعاده مكرما محترما، وخطب له على منبر دمشق يوم الجمعة رابع عشر محرم، ثم استدعى الرئيس الى المخيم، وخلع عليه خلعة كاملة أيضاً وأعاده الى البلد، وخرج اليه جماعة من الأجناد والخواص الى المخيم واختلطوا به، ووصل من استماحه من الطلاب والقراء والضعفاء بحيث ما خاب قاصده، ولا أكدى سائله، ورحل عن مخيمه عائداً الى حلب بعد احكام ما قرر، وتكميل ما دبر

قلت:وفي ذلك يقول القيسراني:

لك اللّه إن حاربت فالنصر والفتح
وإن شئت صلحا عدّ من حزمك الصلح
وهل أنت إلاّ السيف في كل حالة
فطورا له حد وطورا له صفح
سقيت الردينيات حتى رددتها
ترنح من سكر فخلّ القنا تصحو
وما كان كف العزم إلاّ اشارة
إلى الحزم لو لم يغضب السيف والرمح
وقد علم الاعداء مذ بت جانحا
إلى السلم ما تنوي بذاك وما تنحو

إذا ما دمشق ملكتك عنانها
تيقن من في إيليا أنه الذبح
متى التف نقع الجحفلين على الهدى
فلا مهمة يحوي الضلال ولا سفح
إذا سار نور الدين في الجيش عازما
فقولا لليل الافك قد طلع الصبح
تركت قلوب الشرك تشكو جراحها
فلا زالت الشكوى ولا اندمل الجرح
صبرت فكان الصبر غير مغبة
فسيق إليك الملك يسعى به النجح
كأنّ القنا تجلو له وجه أمره
ولو أمهلت بلقيس ما غرّها الصرح
بدولتك الغرّاء أصبح ضدّها
بهيا ولولا الحسن ما عرف القبح
وكم من قريح القلب لو بات واردا
موارد هذا العدل ما مسه قرح
سخا بك هذا الدهر جودا على الورى
على أنه ما زال في طبعه شح
وقد كان يمحو رسم كل فضيلة
ونحن نراه اليوم يثبت ما يمحو
بك ابتهج الالباب وانتهج الحجى
وأثمرت الآداب واطرد المدح
ولا ذت بك التقوى، وعاذت بك العلى
ودانت لك الدنيا وعز بك السرح
فلا قلب الا قد تملكته هوى
ولا صدر إلاّ قد جلاه لك النصح
وما الجود في الاملاك إلاّ تجارة
فمن فاته حمد الورى فاته الربح

ولم اختصر مـــــا قلـــــت إلاّ لأننـــــي
اعبر عما لا يقـــــوم بـــــه الشرح

# فصل

# في فتح عزاز

قال أبو يعلى: وورد الخبر في الخامس من المحرم من ناحية حلب بأن عسكرها من التركمان ظفر بابن جوسلين صاحب أعزاز وأصحابه، وحصلوا في قبضة الاسر في قلعة حلب، فسر هذا الفتح كافة الناس، وتوجه نور الدين في عسكره إلى أعزاز، ونزل عليها وضايقها، وواظب قتالها إلى أن سهل اللّه تعالى ملكها بالأمان ، وهي على غاية من المنعة والحصانة والرفعة، فلما تسلمها رتب فيها من ثقاته من وثق به، ورحل عنها ظافراً مسروراً عائدا إلى حلب في أيام من شهر ربيع الأوّل.

قلت:وذكر ابن منير فتح عزاز وغيرها وأمر دمشق في قصيدة أوّلها:

فـــدتـــك القلـــوب بـــألبـــابها
وســـاح الملـــوك بـــأربـــابها

كتـــائب تـــرمـــي جنـــود الصليـــ
ـــب منهـــا بتقطيـــع أصـــلابها

إذا مـــا انثنـــت مـــن قـــراع الكما
ة كســـت وفـــدهـــا وشي أســـلابها

تبرنـــس منهـــا البرنـــس الثيـــا
ب وحلتـــه مـــن وقـــع احـــلابها

عشيـــة غصـــت على إنـــب
نفـــوس النصـــارى بغصـــابها

وقـــام لأحمد محمـــودهـــا
بجـــذع مـــوازن أحـــزابها

تجلى لها حيـــــــدري المصـــــــاع
أغلـــــب مــــــود بغـــــلابها
مـــــورث أركـــــاسهـــا مـــن أب
أكـــــول الفـــــــوارس شرابها
همام إذا أعصــــــوصبــــت نبـــــوة
دهـــــاهـــا بها شـــم أعصـــابها
مضـــى وجنـــى لـــك حلـــو الشهـــا
دمــــا تمطـــــق مـــــن صـــابها
وأوصـــــى بها لـــك مـــن بعـــدمـــا
تجرّع ممقــــــــر أو صــــــــابها
واقســــم جـــــــدّك أن لا يليـــــ
ــــق بغيرك ملبـــــس أثـــــوابها
صبحـــــت دمشـــــق بمشـــــق الجيـــــاد
زبــــور الـــــوغـــى بين أحـــدابها
واصلـــــت رأيـــــك قبـــــل الحســـــا
م مخمـــــــد جمرة أجـــــــلابها
فـــــأعطتـــك مـــــا لم تنلـــه يـــــد
وفـــــازت رقـــــاك بـــــأصحــــابها
وأنـــــت تصرف فضـــــل الــــزمـــــا
م مـــــن حمص تـــــأخير ركــــابها
تخوّنها الجور فـــــاستــــدركـــــت
بعـــــدلـــــك أغبـــــار ظبظـــابها
وفـــــاجـــــأت قـــــورس بـــــالشـــائلات
تمج القنـــــاســـــم اذنـــــابها
فمارمـــــت حتـــــى رمـــــت بيضهـــا
إليـــــك أزمـــــــة ضرابها
وعـــــزت عـــــزاز فـــــاذللتهـــا
بمجـــــرى مضيـــــق لاسهـــابها

بـــــاشمــــخ مـــــن أنفهـــــا منكبـــــا
وأكثـــــر مـــــن عـــــدّ طـــــورابها
دلفـــــت لعيطـــــا أم النجـــــو
م في الأمـــــر ايطـــــاء أتـــــرابها
وعـــــذرا مـــــذ عمـــــرت مـــــا اهتـــــدت
ظنـــــون الليـــــالي لاحـــــزابها
تفـــــرعتهـــــا بفـــــروع الـــــوشـــــ
ـــــيج مثمـــــرة هـــــام أوشـــــابها
وعـــــوج إذا انبضـــــت اغمضـــــت
ذكـــــاء لارســـــال نشـــــابها
ومحدود بـــــات تطير الخطـــــوب
مـــــلافـــــظ ألســـــن خطـــــابها
تصـــــوّب عقبـــــان ريـــــب المنـــــون
متـــــى بنتهـــــا بـــــاعقـــــابها
ومـــــا ركعـــــت حـــــول شـــــم الهضـــــا
ب الاسجـــــدن لانصـــــابها
فـــــلاذت بمعتصـــــم بـــــالكتـــــا
ب وهـــــوب المهالـــــك ســـــلابها
بمعتصمـــــي الـــــذرى والهدى
هموس السرى غير هيـــــابها
محلى المحـــــل بـــــوصـــــف الفتـــــو
ح ووصـــــف التهـــــاني وأربـــــابها
وتعجـــــز مـــــداحـــــه أن يحيـــــ
ـــــط بـــــآدابـــــه فلـــــك آدابهـــــا
بـــــدائع لـــــوردد هـــــر رمـــــ
ـــــين بنـــــات حبيـــــب بـــــاحبـــــابها
وأيـــــن ابـــــن أوس وآيـــــاتـــــه
مـــــن الـــــلاء أودت بحســـــابها

مـــن الـــلاء عـــادعتيـــق لها
وردّ عليهـــا ابـــن خطـــابها
فـــأيـــامـــه مـــن حبـــور تكـــا
د يطير بها فـــرط إعجـــابها
لـــك الفضـــل إن راسلتـــك الجيـــا
د وقـــامـــت أدلـــة أنجـــابها
إذا أغتسقـــت هـــمم الجائريـــن
أتيـــت السيـــادة مـــن بـــابها
أبـــوك أبـــوهـــا وأنـــت ابنهـــا
العـــريـــق ودميـــه محرابها
أقـــول لمـــؤجـــره بـــالغـــرو
ر تمطـــت هـــواهـــا فـــأهـــوى بها
حـــذار فعنـــد ابتســـام الغيـــو
ث تخشـــى صـــواعـــق الهابها
ولا تخدعـــوا بـــافترار الليـــو
ث فـــالنـــار في بـــرد أنيـــابها

وبقي أطول من هذا:

# فصل

# في صفة أسر جوسلين

قال ابـن الأثير: سار نـور الديـن إلى بلاد جـوسلين وهي القـلاع التي شمالي حلب، منهـا: تل بـاشر، وعين تاب، وعـزاز، وغيرها مـن الحصون، فجمع جـوسلين الفرنج فـارسهم وراجلهم ولقوا نـور الدين وكـان بينهم حرب شديـدة انجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنـج، وأخذ جوسلين سلاح دار كـان لنور الديـن أسيراً، وأخذ ما معـه من السلاح فـأنفذه إلى

السلطان مسعود بن قليج أرسلان السلجوقي صاحب قونية واقصرا وغيرهما من تلك الأعمال، وكان نور الدين قد تزوج ابنته وأرسل مع السلاح إليه يقول: قد انفذت لك بسلاح صهرك وسيأتيك بعد هذا غيره، فعظمت الحادثة على نور الدين وأعمل الحيلة على جوسلين، وعلم إن هو جمع العساكر الاسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع ، فأحضر نور الدين جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب من الاقطاع والأموال إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلا وإما أسراً، فاتفق أن جوسلين خرج في عسكره وأغار على طائفة من التركمان فنهب وسبى فاستحسن من السبي امرأة منهم خلا معها تحت شجرة فعاجله التركمان، فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيراً فصانعهم على مال بذله لهم، فرغبوا فيه وأجابوه إلى ذلك وأخفوا أمره عن نور الدين، فأرسل جوسلين في إحضار المال فأتى بعض التركمان إلى نائب نور الدين بحلب فأعلمه الحال، فسير معه عسكرا أخذوا جوسلين من التركمان قهراً وكان نور الدين حينئذ بحمص، وكان أسره من أعظم الفتوحات على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتيا من شياطين الفرنج، شديد العداوة للمسلمين وكان هو يتقدّم على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه وشدّة عداوته للملة الاسلامية وقسوة قلبه على أهلها، وأصيبت النصرانية كافة بأسره، وعظمت المصيبة عليهم بفقده وخلت بلادهم من حاميها، وثغورهم من حافظها، وسهل أمرهم على المسلمين بعده، وكان كثير الغدر والمكر لايقف على يمين ولا يفي بعهد، طالما صالحه نور الدين وهادنه ،فإذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر، فلقيه غدره وحاق به مكره ( ولايحيق المكر السيء إلاّ بأهله)(٥٨)فلما أسر تيسر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم، فمنها عين تاب و،عزاز وقورس ،والراوندان ،وحصن البارة، وتل خالد،وكفر لاثا وكفر سود ،وحصن سرفوت بجبل بني عليم ،ودلوك ،ومرعش ،ونهر الجوز، وبرج الرصاص.

قال: وكان نور الدين رحمه الله إذا فتح حصناً لايرحل عنه حتى يملأه رجالا وذخائر تكفيه عشر سنين خوفاً من نصرة تتجدّد للفرنج على المسلمين فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة إلى شيء.

وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا منهم القيسراني، قال يمدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق واستقرار أمرها، ويذكر قتل البرنس وأسر جوسلين وأخذ بلاده:

دعا ما ادعى من غره النهي والأمر
فما الملك إلا ما حباك به القهر
ومن ثنت الدنيا إليه عنانها
تصرف فيما شاء عن أذنه الدهر
ومن راهن الاقدار في صهوة العلى
فلن تدرك الشعرى مداه ولا الشعر
إذا الجدّ أمسى دون غايته المنى
فماذا عسى أن يبلغ النظم والنثر
ولم لا يلي أسنى الممالك مالك
زعيم بجيش من طلائعه النصر
ليهن دمشقا أن كرسي ملكها
حبي منك صدرا ضاق عن همه الصدر
وأنك نور الدين مذ زرت أرضها
سمت بك حتى انحط عن نسرها النسر
خطبت فلم يحجبك عنها وليها
وخطب العلى بـ السيف مادونه ستر
جلاها لك الاقبال حورية السنا
عليها من الفردوس أردية خضر
خلوب أكنت من هواك محبة
نمت فانتمت جهرا وسر الهوى جهر
فسقت اليها الأمن والعدل نحلة
فـامست ولا اسر تخاف ولا إصر

فـــان صـــافحـــت يمنـــاك مـــن بعـــد هجـــرهـــا
فـــاحلى التـــلاقـــي مـــا تقـــدّمـــه هجـــر
وهـــل هـــي الا كـــالحصـــان تمنعـــت
دلالا وان عـــز الحيـــا وغـــلا المهـــر
ولكـــن إذا مـــا قستهـــا بصـــداقهـــا
فليـــس لـــه قـــدر وليـــس لها قـــدر
هـــي الثغـــر أمســـى بـــالكـــراديـــس عـــابثـــا
وأصبـــح عـــن بـــاب الفـــراديـــس يفتر
على انها لـــو لم تجبـــك إنـــابـــة
لارهقهـــا مـــن بـــأســـك الخوف والـــذعـــر
فـــامـــا وقفـــت الخيـــل نـــاقعـــة الصـــدى
على بـــردا مـــن فـــوقهـــا الـــورق النضر
فمـــن بعـــد مـــا أوردتها حـــومـــة الـــوغـــى
وأصـــدرتها والبيـــض مـــن علـــق حمر
وجللتهـــا نقعـــا أضـــاع شيـــاتها
فـــلا شهبهـــا شهـــب ولا شقـــرهـــا شقـــر
على النهـــر لما كـــاثـــر القصـــب القنـــا
مكـــاثـــرة في كـــل نحـــر لها نحـــر
وقـــد شرقـــت أجـــرافـــه بـــدم العـــدى
إلى ان جـــرى العـــاصي وضحضـــاحـــه غمـــر
صـــدعتهـــم صـــدع الـــزجـــاجـــة لا يـــد
لجابـــرهـــا مـــا كـــل كسر لـــه جبر
فـــلا ينتحـــل مـــن بعـــدهـــا الفخـــر دائل
فمـــن بـــارز الابـــرنـــز كـــان لـــه الفخـــر
ومـــن بـــز انطـــاكيـــة مـــن مليكهـــا
أطـــاعتـــه ألحاظ المؤللـــة الخزر
أخـــو الليـــث لـــولا غـــدرة نـــزعـــت بـــه
إلى الـــذئب إن الـــذئب شيمتـــه الغـــدر

أتـى رأسـه ركضـا وغـودر شلـوه
وليس سـوى عـافي النسـور لـه قبر
وقـد كـان في استبقـائه لـك منـة
هـي الفتـك لـو لم تغضـب البيـض والسمـر

كما أهـدت الاقـدار للقمـص اسره
وأسعـد قـرن مـن حـواه لـك الاسر
طغـى وبغـى عـدوا على غلـوائه
فـأوبقـه الكفـران عـدواه والكفـر
والقـت بـأيـديها إليـك حصـونـه
ولـو لم تجب طـوعـا الجاء بها القسر
وأمسـت عـزاز كـاسمهـا بـك عـزة
تشـقّ على النسريـن لـو أنها الـوكـر
فسر وامـلأ الـدنيـا ضيـاء وبهجـة
فبـالافـق الـداجـى إلى ذا السنـا فقـر
كـأنـي بهذا العـزم لافـل حـده
وأقصـاه بـالأقصـى وقـد قضي الامـر
وقـد أصبـح البيـت المقـدس طـاهـرا
وليـس سـوى جـاري الـدمـاء لـه طهـر
وقـد أدت البيـض الحداد فـروضهـا
فـلا عهـدة في عنـق سيـف ولا نـذر
وصلـت بمعـراج النبـي صـوارم
مسـاجـدهـا شفـع وسـاجـد هـا وتـر
وإن يتيمـم سـاحـل البحـر مـالكـا
فـلا عجـب أن يملـك السـاحـل البحـر
سللـت سيـوفـا أثكلـت كـل بلـدة
بصـاحبهـا حتـى تخوّفـك البـدر
إذا سـار نـور الـديـن في عـزمـاتـه
فقـولا لليـل الافـك قـد طلـع الفجـر

ولـــو لم يسر في عسكـــر مـــن جنـــوده
لكـــان لـــه مـــن نفســـه عسكـــر مجر

مليـــك سمـت شـم المنـابـر بـاسمـه
كما زهيـت تيهـا بـه الأنجـم الـزهـر

فيـــا كعبـــة مـــا زال في عـــرصـــاتها
مـــواسـم حـــج لا يـــروّعهـــا النفـــر

خلعـــت على الايـــام مـــن حلـــل العلى
مـــلابـس مـــن أعـــلامهـــا الحمـــد والشكـــر

وتـــوّجـــت ثغـــر الشـــأم منـــك جـــلالـــة
تمنـــت لها بغـــدادلـــو أنها الثغـــر

فـــلا تفتخـــر مصر علينـــا بنيلهـــا
فيمنـــاك نيـــل كـــل مصر بها مصر

رددت الجهـــاد الصعـــب سهـــلا سبيلـــه
ويـــاطـــالما أمســـى ومسلكـــه وعـــر

وأطمعـــت في الافـــرنـــج مـــن كـــان بـــأسـه
يخوّف أن يعتـــاده منهـــم فكـــر

وأقحمـــت جـــرد الخيـــل أعلى حصـــونها
ولـــولاك لم يهجـــم على كـــافـــر كفـــر

ومـــن يـــدعـــي في قتلـــك الشرك شركـــة
إذا لم يكـــن عنـــد القـــوافي لـــه ذكـــر

هـــي القـــانتـــات الحافظـــات فـــروجهـــا
فشـــاهـــدهـــا عـــدل ورائقهـــا سحـــر

ولـــو لم يكـــن في فضلهـــا وكمالها
ســـوى أنها مـــن بعـــد عمـــر الفتـــى عمـــر

وله من قصيدة يصف فيها وقائعه أوّلها:

أمـــا وخيـــال زار ممـــن أحبـــه
لقـــد هـــاج مـــن ذكـــراه مـــا لا أغبـــه

إذا مــا صبــا قلــب المحــب إلى الصبــا
ذكــرت نسيما بـــا لثغــــور مهبــــه

فيـــا نفحـــات الشـــأم رفقـــا بمهجـــة
يحامـــى عليهـــا مـــدنـــف القلـــب صبـــه

فـــلا تســـألـــن الصـــب أيـــن فـــؤاده
فـــإن فـــؤاد المرء مـــع مـــن يحبـــه

وفي شعـــب الاكـــوار مـــن هـــو عـــالم
غـــداة استطـــار البرق مـــن طـــار لبـــه

يشيـــم ثغـــور المزن تهمـــى كـــانها
سنـــا بشر نـــور الـــديـــن تنهـــل سحبـــه

إذا مـــا سما في مبهـــم الخطـــب وجهـــه
تمزق عـــن بـــدر الـــدجنـــة حجبـــه

تـــولـــد بين الغيـــث والليـــث والتقـــى
منـــافســـة أي الثـــلاثـــة تـــربـــه

يعـــدّ مضـــاء في الظبـــى لا وضربـــه
بها قلـــل الاعـــداء مـــا السيـــف ضربـــه

مكين الحجـــى أرضـــى الـــزمـــان بنفســـه
إلى الآن حتـــى لان وانقـــاد صعبـــه

حمى قبـــة الاســـلام بـــالخيـــل فـــاغتـــدت
وأوتـــادهـــا جـــرد الطعـــان وقبـــه

فكـــم هبـــوة أوقعـــن بـــالكفـــر تحتهـــا
فما انقشعـــت الا وللـــذل جنبـــه

كيـــوم الـــرهـــا الـــورهـــاء والهام يـــانـــع
مليّ بـــرعـــي الهنـــد وأنـــى خصبـــه

وشهبـــاء هـــاجتهـــا وغـــى صرخـــديـــة
ثنـــاهـــا وليـــل الحرب ينقـــض شهبـــه

وعـــارم يـــومـــا بـــالعـــريمـــة فـــاغتـــدت
كـــوادي ثمـــود إذ رغـــا فيـــه سقبـــه

وعاصي على العاصي بأرعن خاطب
دم الأفك حتى أنكح النصل خطبه
بانّ بما أكسب المال وانثنى
بصاحب أنطاكية وهو كسبه
غداة هوى شطرين للسيف رأسه
وللرّمح حتى توّج الرأس قلبه
على حين للخطّيّ فيه عوامل
يعاقبه خفض الحسام ونصبه
وقائع محمودية النصر لم تزل
غريبا بها عن موطن السيف غربه
يقوم مقام الجيش فيها وعيده
وتفعل افعال الكتائب كتبه
وحين انتضته عزمة من قرابه
مضى وهو نصل والممالك قربه
إلى أن دعته ربها كل بلدة
فليس من الأمصار ما لا يربه
ولما ترى بالقمص عجب هوى به
على أم رأس البغي والغدر عجبه
فأصبح في الحجلين ينكر خطوه
بعيد على الرجلين في السعي قربه
تعاقبه البشرى بأخذ حصونه
فيا عانيا ضرب البشائر ضربه
تناجي عزاز باسمه تلّ باشر
فيلعنه لعن الصريح وسبه
فان يكن المقهور من ثل عرشه
فهذا عمود الكفر قد طاح طنبه
فقل للملوك الخافقين نصيحة
كذا عن طريق الليث يزأر غلبه

وخلوا عن الافاق فالشرق شرقه
بحكم الردينيات والغرب غربه
ولا يعصم بالدرب طاغ على القنا
فإن القنا في ثغرة النحر دربه
رحيب فضاء الحلم عن ذات قدره
إذا ضاق من صدر الملك رحبه
عفوّ عن الجاني يكاد الذي جنى
بكرّبه شوقا إلى العفو ذنبه
أمتخذ الاخلاص للّه جنة
ومن يعتصم باللّه فاللّه حسبه
أبوك استردّ الشأم بالسيف عنوة
وللروم بأس طالما غال خطبه
إذا ذب عن أضغاث دنياه مالك
فانت الذي عن حوزة الدين ذبه
رأيت اتباع الحق خير مغبة
فأفرجت عن رأي يسرك غبه
وأوضحت ما بين الفريقين سنة
بها عرف المربوب من هو ربه
وبينت نور الدين ما كان يبتغي
دليلا بأن اللّه من أنت حزبه

وقال ابن منير يمدح نور الدين بظاهر حمص:
هيهات يعصم من أردت حذار
أنى ومن أوهاقك الاقدار

ومنها:
طلعت عليك بجوسلين ذريعة
لاسحل انشاها ولا امرار

وسعـــادة مـــازلـــت تمرى خلفهـــا
فيشـــف وهـــو النـــاتـــق المدرار
فـــارتـــك مـــا يجنـــي الـــوفيّ وفـــاؤه
وأرتـــه كيـــف تحين الغـــدّار
عـــود أمـــرّ على ابـــارك طلعـــه
فـــاحيـــل ذاك البر وهـــو بـــوار
مـــازلـــت تنعـــم وهو يكفر عـــاتيـــا
واللـــه يهدم مـــا بنـــى الكفـــار
حتـــى أتـــاح لقـــومـــه مـــا جـــرّه
لثمـــود مـــن عقـــر الفصيـــل قـــذار
اسرى فـــأصبـــح في بـــراثـــن اسره
لازال يـــدمـــي ظفـــره الاظفـــار
يهب التـــلاد مـــن البـــلاد ومـــا حـــوت
إن السماحـــة للبحـــار بحـــار
يقظـــان يخشـــى اللّـــه في خلـــواتـــه
لا مترف لاه ولا جبـــــــــار
نصـــب المراقـــب للعـــواقـــب نـــاظـــرا
فيهـــا لـــذلـــك تـــربـــأ الابـــرار
لا كـــالـــذيـــن تعجلـــوا حســـواتها
وتغلســـوهـــا بعـــد وهـــي خســـار
درجـــوا وأدرج في ملـــف رفـــاتهم
ســـوءى تســـاء لـــذكـــرهـــا الآثـــار
والمرء مـــن يطـــوي فينشر طيـــه
مـــا أودعتـــه صـــدورهـــا الاخيـــار
قـــل لـــلأولى نـــامـــوا على نـــامـــاتـــه
مـــا كـــل هبـــة بـــارح اعصـــار
لاتـــأمنـــوا في اللّـــه بطشـــة ثـــائر
للّـــه مـــلء سريـــره اسرار

صـــاف إذا كـــدر المعـــادن عـــادل
إن حـــاف حكـــام الملـــوك وجـــاروا
أعلى أبـــوه لـــه النجـــاد وشيـــد في
صهـــواتها ممـــا ابتنـــاه منـــار
محمـــودا المحمـــود آثـــارا إذا
نظمـــت على جيـــد الـــدجـــى الاسمار
ذانـــت لـــه الايـــام صـــاغـــرة كما
دانـــت لـــه ظلـــه الامصـــار

له من أخرى أوّلها:

مـــا الملـــك الا مـــا حـــواك نجـــاده

يقول فيها:

وتـــديـــن حســـده لمحكـــم آيـــة
والفضـــل مـــا شهـــدت بـــه حســـاده
شمـــس إذا مـــا الحرب زر جيـــوبها
حـــل المعـــاقـــد كـــرّه وطـــراده
ألـــوى ألـــدّ حمى الشريعـــة جهـــده
وأذل نـــاصيـــة الضـــلال جهـــاده
صعـــق البرنـــس وقـــد تـــلالأ بـــرقـــه
واطـــار ســـاكـــن جـــأشـــه ارعـــاده
ولى وقـــد سلـــت فسلـــت ضغنـــه
زبـــر تلقـــى فـــودهـــن فـــؤاده
مستلئما مستسلما لا عـــــــدّه
ردّ المنـــى عنـــه ولا استعـــداده
وبجوسلين احتشهـــن فـــاصبحـــت
نهبـــى لهن بـــلاده وتـــلاده
جـــاءت بـــه بعـــد الشماس عـــوابـــس
قـــود يلين لعنفهـــنّ قيـــاده

بـــــه تصيـــــد لـــــك السعـــــود وقلما
ينجـــــو بخير مـــــن أردت مصـــــاده
دانـــــى لـــــه قينـــــاه أدهـــــم كلما
غنـــــاه طـــــار شما تـــــه عـــــوّاده
سلبـــــت عـــــزاز عـــــزاءه وبقـــــورس
محجـــــوبـــــة فـــــرشـــــت لـــــه اقتـــــاده
وبتـــــل خـــــالـــــديـــــوم تـــــل جبينهـــــا
خلـــــط الثـــــرى بجبينـــــه اخـــــلاده
وغـــــدا يبـــــاشر تـــــل بـــــاشر قلبـــــه
بـــــاحـــــرّ مـــــاحمل القلـــــوب عـــــداده
منـــــت أمـــــانيـــــه بشـــــائرك التـــــي
عـــــادت لهن مـــــآتما أعيـــــاده
وحبـــــوت ملكـــــك مـــــن نظيـــــم ثغـــــوره
حليـــــا تتـــــايـــــه تحتـــــه أجيـــــاده
لايخدعنـــــك فـــــانما اصـــــلاح مـــــن
يخشـــــى انتشـــــاط خنـــــاقـــــه افســـــاده
أنـــــزلـــــه حيـــــث قضـــــت لـــــه غـــــدراتـــــه
واحلـــــه طغيـــــانـــــه وعنـــــاده
في حيـــــث لا يـــــأوي لـــــه سبحـــــانـــــه
حنقـــــا ويكشـــــط جلـــــده جـــــلاده
وثـــــن هـــــدمـــــت بنـــــي الضـــــلال بهدمـــــه
وعـــــدت عبـــــادك عنـــــوة عبـــــاده
فتكـــــت بـــــه آيـــــات مـــــن لمحمـــــد
ولـــــدينـــــه ابـــــداؤه وعـــــواده
او انشـــــط البلـــــد الحرام تـــــواءمـــــت
تثنـــــي عليـــــه تـــــلاعـــــه ووهـــــاده
ولـــــو ان منبره أطـــــاق تكلما
نطقـــــت ببـــــاهـــــر فضلـــــه اعـــــواده

نـــام الخليفة واستطـــال لـــذبـــه
عـــن ســـدتيـــه واستطير رقـــاده
رجعـــت لـــك العـــز القـــديـــم سيـــوفـــه
مـــازان رونـــق مـــائهـــا اغـماده
مـــن بعـــد مـــا نعـــق الصليـــب لحزبـــه
ورأيـــت زرع الملـــك حـــان حصـــاده
انـــى تميـــل الحادثـــات رواقـــه
بهبـــوبها وابـــن العماد عماده

# فصل

قال ابـن الاثير : لما سار نـور الديـن إلى قلاع جـوسلين ملك بعضـا، وأبقى بعضاً ، فـاجتمعت الفرنج فـالتقوا مع نور الـدين بدلوك فهـزمهم واستولى على دلوك وغيرها، ففيها يقول أحمد بن منير قصيدة منها:

هـــي الخيـــل خير عتـــاد الكـــريـــم
يحضر للهـــم احضـــارهـــا
ضغمـــت فـــأدررت أفـــواههـــا
وسرت فقلمـــت أظفـــارهـــا
الام ولم تبـــق ممـــا غـــزو
ت قلـــوبـــا تكـــابـــد إذ عـــارهـــا
أمـــا في مفصـــل آي القـــرا
ع أن تضـــع الحرب أوزارهـــا
عســـى إن يُحم لهذا الحما
م أن يتـــوكـــر أوكـــارهـــا
ومـــا يـــوم مـــن غلتـــه واحـــد
فتـــودعـــه اللســـن أشعـــارهـــا
وأيـــن المقـــاول ممـــا فعلـــت
ولـــو شفـــع الفطـــراء كثـــارهـــا

فكـــــم اجلبـــــت خلفـــــك الجافخــــــت (٥٩) فصلصل فخرك فخارها

أعــــــدت بعصرك هـــــــذا الانيـــــق فتـــوح النبـــي واعصـــارهـــا

وكـــان مهـــاجـــرهـــا تـــابعيـــك وانصـــار رأيـــك انصـــارهـــا

فجـــــــدّدت اســــــلام سلمانها وعمــــــر جـــــدك عمارهـــــا

ومـــايـــوم إنـــــب الا كتيـــك بـــل طـــال بـــالبـــوع اشبـــارهـــا

وأيـــامـــك الغـــر مـــن بعـــده يعيـــد إلى الطـــي اغـــرارهـــا

ولما هبيــــــت ببصرى سمكـــــت بـــاهبـــاء خيلـــك أبصـــارهـــا

ويـــــوم على الجون جـــــون السراة عـــز فسعطهـــاعـــارهـــا

صــدمــت عـــريمتهـــا صـــدمـــة أذابـــت مـــع الماء أحجـــارهـــا

وفي تـــــل بـــــاشر بـــــاشرتهم بـــزحـــف تســـور أســـوارهـــا

وإن دالكتهـــــم دلـــــوك فقـــد شـــدّدت فصـــدقـــت أخبـــارهـــا

وشـــب التـــدامـــر حتـــى طلعـــت عليهـــا فـــولتـــك أدبـــارهـــا

مشـــاهـــد مشهـــورة نمنمـــت على صفحـــة الـــدهـــر اسطـــارهـــا

يلـــذ الاغـــاني تـــرجيعهـــا ويستسفـــر السفـــر أسفـــارهـــا

- ٧٧١١ -

بنيــــت لـــوفـــدا المنــــى كعبــــة
تجير المعلـــــق استـــــارهـــــا
وملكـــــــت الاراضي مغبرة
تكـــاد تحدّث أخبــــارهـــا
فمازلــــت تـــدجـــن حتـــى محو
ت دجـــاهـــا وشعشعـــث أنـــوارهـــا
وصلـــت فــــأعــــززت مسكينهـــا
وصلـــت فـــأذللـــت أبـــارهـــا
وصغـــت حلى مـــن عـــلاً أحكمـــت
على عنـــق الـــدهـــر أزرارهـــا

قـال أبو يعلى : في رجب وردت الاخبار من ناحية نور الدين بظفـره بعسكر الأفـرنج النازلين بازائه قـريبا من تـل باشر، وعظيم النكايـة فيهم والفتك بهم، وامتلأت الأيدي من غنائمهم وسبيهم، واستولى على حصن خالد الذي كان مضايقه ومنازله.

قال : وفي أيـام من محرم وصـل جماعة مـن حجاج العـراق وخراسـان : المأخوذين في طريق الحج عند عودهـم بجماعة من كفار العربان، وحكوا مصيبة مـا نزل مثلها بـأحد في السنين الخاليـة، ويكون أبشع منهـا، وذكر أنه كـان في هذا الحاج مـن وجوه خـراسان وأعيـانها وفقهائهـا وعلمائها وقضاتها وخواتين أمراء العساكـر السلطانية والحرم العدد الكثير، والاموال الجمـةوالأمتعة الـوافـرة فـأخذ جميـع ذلـك وقتـل الأكثر، وسلـم الاقـل، وهتكـت النساء وسلبـن وهلـك من هلـك بـالجوع والعطـش، فضاقـت الصدور لهذه النازلـة فكسي العاري منهم وأطلق لهم ما استعـانوا به على عودهـم إلى أوطانهم مـن أصحاب المروءة بـدمشق(ذلـك تقدير العزيـز العليم)(٦٠).

# فصل

قـال: وكان مجاهـد الديـن بزان قـد تـوجه إلى حصنـه صرخد ليتفقـد أحـواله، فعـرضـت نفرة بين مجير الـديـن والرئيـس بسعـايات أصحـاب الاغراض والفساد، واقتضت الحال استدعـاء مجاهد الدين لاصلاح الحال فوصل وتم ذلـك بوساطته على شرط ابعاد الحاجب يـوسف صاحب مجير الديـن عن البلد مـع أصحابه، و تـوجهوا ولم يتعرض لشيء مـن أموالهم وقصد بعلبك فأكرمه واليها.

قـال: ووردت الأخبـار من مصر بـالخلـف المستمـر بين وزيرهـا ابـن مصال وبين الأمير المظفـر ابن السلار، ووقـوع الحرب وسفك الـدماء إلى أن أسفـرت الحال عن قتـل ابـن مصال الـوزيـر وانتصـاب ابن السـلار موضعه في الوزارة.

قال: وفيهـا في سابع عشر رجب تـوفي القاضي بهاء الدين عبـد الملك ابن الفقيه عبد الـوهاب الحنبلي، وكان إماما فاضلا منـاظرا مستقلا مفتيا على مذهـب الامامين أحمد وأبي حنيفـة بحكم مـا كان عليـه عند إقـامته بخراسان لطلب العلم والتقدّم، وكـان يعرف اللسان الفارسي مع العربي، وهو حسـن الحديث في الجدّ والهزل، وكان لـه يوم مشهود ودفـن في جوار أبيه وجدّه في مقابر الشهداء.

قال: وتوفي عقيـب وفاته القاضي النقيـب فخر الدولة أبـو الحسين بن أبى الجنّ ، وتفجع الناس لخيريته وشرف بيته.

-٧٧١٣-

## ودخلت سنة ست وأربعين

ففيها حاصر نور الدين دمشق لمعاضدة أهلها الفرنج واستنصارهم بهم، ومدحه ابن منير بقصيدة يحرضه فيها عليهم، وكتبها إليه من حماه وهو محاصر دمشق، وقد تخلف عن الخدمة لمرض عرض له منها:

اخليفة اللّه الذي ضمنت له
تصديق واصفه سراة المنبر
لا المستطيل بمصر ظل قصوره
والمستطال إليه شقة صرصر
يا نور دين اللّه وابن عماده
والكوثر بن الكوثر بن الكوثر
صفر بحد السيف دار أشائب
عقلوا جيادك عن بنات الاصفر
هم شيدوا صرح النفاق وأوقدوا
نارا تحش بهم غدا في المحشر
اذكوا بجلق حرها واستعرت
لفحاتها بين الصفا والمشعر
شردتهم من خلفهم مستنجدا
ما ظاهر الكفار من لم يكفر
لا تعف بل سق الهدى نفس الذي ادّ
رع الضلال على أغر مشهر
قلده ما اهدى علي لمرحب
فلقد تهتكهم في الخداع الخيبري
ما الغش ممن أمه نصرانة
لم تختتن كالغش من متنصر
اذكت لنا هذي العزائم لا خبت
ما غار من سنن الملوك الغبر

اثقـــــاب اراء المعـــــز وخفـــــق را
يـــات العـــزيـــز ويقظـــة المستنصر
شمـــر فقـــد مـــدّت إليـــك رقـــابها
لا يـــدرك الغـــايـــات غير مشمـــر
أولســـت مـــن مـــلأ البسيطـــة عـــدلـــه
واجتـــب بـــا لمعـــروف أنـــف المنكـــر
حـــدب الاب البر الكبير ورأفـــة الـــ
ـــأم الحفيـــة بـــاليتيـــم الاصغـــر
يـــا هضبـــة الاســـلام مـــن يعصـــم بها
يـــؤمـــن ومـــن يتـــول عنهـــا يكفـــر
كـــانـــوا على صلـــب الصليـــب سرادقـــا
انبـــت بنيتـــه بكـــل مـــذكـــر
آثـــارهـــم نجـــس اذال المسجـــد الـــ
ـــأقصى فصـــن مـــادنســـوه وطهـــر
جـــار الخليـــل ومـــن بغـــزة هـــاشـــم
بلهـــامـــك المتـــدمشـــق المتمصر
بعـــرمـــرم صلمـــت وعـــاوعـــه عـــرى
اسماع جيحـــون وسيـــف البربـــر
يفتر عـــن ملـــك الملـــوك منحـــل الـــ
ـــأنـــواء بـــل سعـــد السعـــود الأكبر
عـــن طـــاعـــن الفـــرســـان غير مكـــذب
ومتمـــم الاحســـان غير مكـــدر
بـــدر الجحـــافـــل والمحـــافـــل فـــارس الآ
ســـاد في غـــاب الـــوشيـــج الاسمـــر
ملـــك تســـاوى النـــاس في أوصـــافـــه
عـــذر المقـــلّ وبـــان عجـــز المكثـــر
يـــا أيها الملـــك المنـــادي جـــوده
في ســـائر الآفـــاق هـــل مـــن معسر

إن القصائد أصبحت أبكارها
في ظل ملكك غاليات الأمهر
إن كنت أحييت ابن حمدان لها
فأنا الذي غبرت في وجه السري
ولأنت أكرم من أناس نوّهوا
باسم ابن أوس واستخصوا البحتري
ذلت لدولتك الرقاب ولا تزل
ان تغز تغنم أو تقاتل تظفر

وكتب إليه من حماه أيضا وهو محاصر دمشق قصيدة ينال فيها من صاحبها يقول:

أبوك أب لو كان للناس كلهم
أبا ورضوا وطء النجوم لفندوا
وما مات حتى سد ثلمة ملكه
بك اللّه ترمي مارماه فتصرد
صدمت ابن ذي اللغدين فانحل عقده
وكالسلك قد أمسى يحل ويعقد
يقلب خلف السجف عينا سخينة
ويبكي بأخرى ذات شتر ويسهد
ولا غرو قد أبقى أبوه وجده
له كل يوم ثوب عجز يجدّد
فيا راكبا أما عرضت فبلغن
بيوتا على جيرون بالذل تعمد
وقل لمبيد الدين وهو مجيره
بزعم له وجه الحقيقة أربد
حملت الصليب باغيا ونبذته
وثغرك مطووس يباب وأدرد
وحاربت حزب اللّه واللّه ناصر
لناصره ودين أحمد أحمد

تنصرت حينا والبلاء موكل
ولا بد من يوم به تتهوّد

وأقسم ما ذاق اليهود بايليا
وموضعها من بختنصر أسود

كبعض الذي جرّعته فسرطته(٦١)
وأيد فيه من عماك المؤيد

ولايته عزل اليك موجه
وتصحيفه قتل عليك مؤبد

رماك بباقلا دمشق فلم تكن
سوى بقلة حمقاء بالحمق تحصد

وجالدت جلادا وأنت مؤنث
تذكرت والجلاد أدهى وأجلد

تطاولت لأنفس تسمى ولا أب
وراءك زحفا إنها أنت مقعد

امسعاة نور الدين تبغي ودونها الـ
ـأسنة تبر والعوامل تعضد

بمحمود المحمود سيفا وساعدا
حملت لقد ناجتك صما مؤيد

وهل يستوي سارت أسد طاويا
ونشوان يعلو معصما ويؤيد

تنصرت أما بل تمجست والدا
وعما فعرق الكفر فيك مردّد

تخذت بني الصوفي أسرا وأسرة
لكي يصلحوا ما في يديك فأفسدوا

لعمري لنعم العبد أنت تجيعه الـ
ـموالى وتوليه هوانا فيحمد

إليكم بني العلات عن متشاوس
له الشأم مرفا والعراق مرفد

- ٧٧١٧ -

مـــا مصر إلاّ بعـــض امصـــاره التـــي
إلى أمـــره تسعـــى قياماً وتحفـــد

انيبـــوا إليـــه فهـــو أرحـــم قـــادر
لـــه الصفح ديـــن واقبلـــوا النُّصـح تـرشـدوا

ولا تـــرشفـــوا انفـــس المؤيـــد إنـــه
عـــن الخير يـــروي أو إلى المين يسنـــد

وفـــرّوا إلى مـــولاكـــم والـــذي لـــه
عليكـــم أيـــاد وسمهـــا ليـــس يجحـــد

ولا تكفـــروه إنما أنتـــم لـــه
ومنـــه ويـــوم عنـــد حـــوران يشهـــد

غـــداة على الجولان جـــول وللظبـــى
رعـــود فـــريـــص الموت منهـــن يـــرعـــد

ولما اكفهـــرّ اليـــوم واربـــدّ وجهـــه
وعـــوّز مـــرهـــون وفـــر مـــزبـــد

وأيقـــن مـــن بين الســـديـــر وجـــاسم
بـــان الحرار الســـود بـــالجرد تجرد

ردتهم على بصرى وصرخـــدّ خيلـــه
وقـــد أبصرت بصرى رداهـــا وصرخـــد

وطـــاروا تهز المرهفـــات طـــلاهـــم
كما انصـــاع مـــن اســـد نعـــام مشرد

وليلـــة ألقـــى الشريـــك بـــالمرج بـــركـــه
ومـــازج نيران الـــوغـــى تتـــوقـــد

رمـــى وأخـــوه مغـــرب الشمـــس دونكـــم
بمشرقهـــا غضبـــان يعـــدو ويسئـــد

فمـــذ وردت مـــاء الارنـــط مغـــذة
أثـــارت بثـــور اغلـــة ليـــس تبرد

أيـــا سيـــف شـــامتـــه يـــدا الملك صـــارمـــا
فيمهمـــد إذ يسري ويسري فيهمـــد

دمشـــق دمشـــق إنّما القــــدس سرحـــة
ومــــركـــزهـــا صرح عليهـــا ممـــرد
حموهــا الكـــي يحمـــوا وقـــد بلـــغ المدى
بهم أجـــل حتـــم وعمـــر مجدّد
متـــى انـــا راء طـــائر الفتـــح صـــادحـــا
يـــرفـــرف في أرجـــائهـــا ويغـــرد

وله من قصيدة أخرى:

نـــذرك بـــالغـــوطتين قـــد ضمنـــت
ربـــوتها ربعـــه ومقـــراهـــا
أطلـــع لها الشمـــس مـــن جبينـــك لم
تـــرج ســـواهـــا في النـــوم جفنـــاهـــا
فـــالخيـــل صـــور إلى تســـاهـــم سهميــ
ـــها وملهـــى في بيـــت لهيـــاهـــا
دولـــة مـــن دانـــت البـــلاد لـــه
وعمهـــا ظلـــه فـــأغنـــاهـــا
لا بســـواهـــا تليـــق بهجتهـــا
ولا ســـواه تبغـــي رعـــايـــاهـــا

قال أبـو يعلى: وفي عاشر المحـرم نزلت أوائل عسكـر نور الـدين على أرض عذرا من عمل دمشق وما والاها ، وفي الغـد قصد فريق وافر منهم ناحية السهـم والنيرب وكمنوا عند الجبل لعسكر دمشـق، فلما خرج منها إليهم أسرع النـذير إليهم فحذرهـم وقد ظهر الكمين فانهزمـوا إلى البلد، وفي الغـد نزل نـور الـدين بعسكـره على عيون فـاسريـا بين عذرا ودومـة، وامتـدوا إلى تلك الجهـات ونـزلـوا من الغد في أراضي حجيرا وراويـة في الخلـق الكثير والجم الغفير، وانبسطـت أيـدي المفسـديـن مـن العسكـر الدمشقي والأوباش من أهل العيث والفساد في زروع الناس فحصدوها، وفي الثمار فأفنـوها بلا مـانع ولادافـع ، وتحرك السعر وانقطعت السـابلة،

ووقع التأهب للحصار ووافت رسل نور الدين إلى ولاة البلد يقول: أنا ما أوثر إلاّ صلاح أمر المسلمين وجهاد المشركين، وخلاص من في أيديهم من الأسارى، فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد فذلك المراد، فلَم يعد الجواب إليه بما يرضاه فنزل في أرض مسجد القدم وما والاه من الشرق والغرب وبلغ منتهى الخيم إلى المسجد الجديد قبلي البلد.

قلت: هو الذي يسمى في زمانا بمقبرة المعتمد بين مسجد القدم ومسجد فلوس.قال: وهذا منزل ما نزله أحد من مقدمى العساكر فيما سلف من السنين، وأهمل الزحف إلى البلد اشفاقا من قتل النفوس ووصلت الأخبار باحتشاد الفرنج واجتماعهم لإنجاد أهل دمشق، فضاقت صدور أهل الصلاح وزاد انكارهم لمثل هذه الاحوال المنكرة، والمناوشات في كل يوم متصلة من غير مزاحفة ولا محاربة، فلم يزل ذلك إلى ثالث عشر صفر فرحل العسكر النوري من هذه المنزلة، ونزل في أراضي فذايا وحلقبلتين والخامسين المصاقبة للبلد، وما عرف في قديم الزمان من أقدم على الدنو منها، ثم رحل في العشرين من صفر إلى ناحية داريا لتواصل الإرجاف بقرب عساكر الافرنج من البلد لقوّة عزمه على لقائهم، وصار العسكر النوري في عدد لايحصى، وفي كل يوم يزداد بما يتواصل من الجهات وطوائف التركمان، ونور الدين مع هذه الحال لايأذن لأحد من عسكره في التسرع والظهور، ولايعودون إلاّ خاسرين مغلولين ، وأقام على هذه الصورة، ثم رحل إلى ناحية الأعوج لقرب عسكر الافرنج وعزمهم على قصده، واقتضى رأيه الرحيل إلى جهة الزبداني استجرارا لهم وأفرق من عسكره فريقا يناهز أربعين ألف فارس مع جماعة من المقدّمين ليكونوا في أعمال حوران مع العرب لقصد الأفرنج ولقائهم وترقباً لوصولهم وخروج العسكر الدمشقي إليهم واجتماعهم بهم، ثم يقاطع عليهم، واتفق أن عسكر الفرنج رحل عقيب رحيله إلى الأعوج، ونزل به في ثالث ربيع الأوّل ودخل منهم خلق كثير

إلى البلد لقضاء حوائجهم، وخرج مجير الديـن ومؤيد الدين في خواصهما وجماعة وافـرة من الـرعية واجتمعوا بملكهـم وخواصه ومـا صادفـا عنده شيئـا ممـا هجس في النفـوس مـن كثـرة ولا قـوّة ، وتقرّر بينهـم النـزول بـالعسكـرين على حصـن بصرى لتملكـه واستغـلال أعمـاله ، ثـم رحـل عسكر الافرنـج إلى رأس الماء ، ولم يتهيأ خروج العسكر الـدمشقي إليهم لعجزهـم واختلافهم، وقصـد من كان بحـوران من العسكر النـوري ومن انضـاف إليهم مـن العـرب في خلـق كثير ناحيـة الافـرنـج للايقـاع بهم والنكايـة فيهم، والتجـأ عسكر الأفـرنج إلى لجاة حـوران للاعتصـام بها، ونمى الخبر إلى نور الدين فرحـل ونزل على عين الجر من البقاع عائدا إلى دمشق، وطـالبا قصـد الفرنـج والعسكر الـدمشقي، وكـان الافرنـج حين اجتمعوا مـع العسكر الـدمشقي قد قصـدوا بصرى لمضايقتهـا ومحاربتها، فلم يتهيـأ ذلك لهم وظهـر إليهم سرخـاك واليها في رجـاله، وعـادوا عنها خاسرين، وانكفـأ عسكر الافرنج إلى أعمـالـه، وراسلوا مجير الدين ومـؤيد الديـن يلتمسون بـاقي القطيعـة المبذولة لهم على تـرحيل نـور الديـن عن دمشق، وقالوا: لولا نحن ندفعه مارحل عنكم.

قال أبـو يعلى: وفي هذه الايام ورد الخبر بوصـول الأسطول المصري إلى ثغور السـاحل في غاية مـن القوة وكثرة مـن العدّة، وذكر أن عدّة مـراكبة سبعون مـركبا حربية مشحنـة بالرجال، ولم يخرج مثلـه في السنين الخالية، وقد انفـق عليه فيما حكي وقـرب ثلاثـمائة ألف دينار.وقـرب من يافـا من ثغور الفـرنج فقتلوا وأسروا وأحـرقوا ما ظفروا بـه،واستولوا على عـدّة وافرة من مراكـب الروم والأفرنج ، ثم قصـدوا ثغر عكا ففعلوا فيـه مثل ذلك، وحصل في أيـديهم عدّة وافرة مـن المراكب الحربيـة الفرنجية، وقتلـوا من حجاجهـم وغيرهم خلقاً عظيماً، وقصـدوا ثغر صيدا وبيروت وطـرابلس، وفعلوا في الكـل مثل ذلك، ووعد نـور الدين بمسيره إلى ناحيـة الاسطول المذكور لإعانته على تـدويخ الفرنجية، فاتفق اشتغاله بـأمر دمشق وعوده

إليهـا لمضايقتهـا، وحـدث نفسه بملكهـا لعلمـه بضعفهـا وميل الأجنـاد والرعية إليه، واشارتهم لولايته وعدله.

قال: وذكـر أن نور الديـن أمر بعـرض عسكره فبلغ كمال ثـلاثين ألفا مقاتلة ، ثـم رحل ونزل بالدلهمية مـن عمل البقاع، ثم نزل بـأرض كوكبا غربي داريا ثم نزل بأرض داريـاإلى جسر الخشب، ونودي في البلد بخروج الاجناد والأحداث إليه، فلم يظهر منهم إلاّ اليسير ممن كان يخرج أوّلا، ثم تقدّم ونزل القطيعـة وما والاها ودنا منهـا بحيث قرب من البلـد، ووقعت المنـاوشة بين الفـريقين من غيرزحـف ولا شـدّ في محاربة تحرجـا من قتـل المسلمين، وقـال: لاحاجـة إلى قتل المسلمين بـأيدي بعضهـم بعضا وأنـا أوفرهم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين.

قـال: وورد الخبر إلى نور الـديـن بتسلم نـائبـه الامير حسان المنبجـي مدينة تـل باشر بالأمان في الخامس والعشرين مـن ربيع الأوّل، وورد مع المبشر جماعة مـن أعيان تل باشر لتقـرير الأحوال وتـرددت المراسلات في عقد الصلـح مع أهل دمشـق على شروط واقتراحات ، وتردد فيهـا الفقيه برهان الـدين علي البلخي والأمير أسد الـدين شيركوه وأخوه نجـم الدين أيـوب، وتقـارب الأمـر في ذلـك إلى أن استقـرّ الحال على قبـول الشروط المقترحـة، ووقعت الايمان مـن الجهتين على ذلـك والـرضى بـه في عـاشر ربيع الآخـرة، ثم رحـل نور الـدين من الغـد طالبـاً ناحيـة بصرى للنزول عليها، والتمـس من دمشـق ما تدعـو إليه الحاجـة من آلات الحرب لأن واليها سرخاك كـان قد شاع عصيانه وخـلافه ومال إلى الأفرنـج فاعتضد بهم، فأنكر نور الدين ذلك عليه وأنهض إليه فريقا وافراً من عسكره.

قلت: ولابـن منير في نو ر الـدين يذكـر وقعة الجولان وغيرهـا قصيدة أوّلها :

مـــا بـــرقـــت بيضـــك في غمامهـــا

إلا وغيـــث الـــديـــن لابتســـامهـــا

يقول فيها:

محمود المحمود جداً وجداً
أرخص جلد الارض حكم عامها

ملك أزل الروم عن صلبانها
دفاعه وكب من أصنامها

جال على الجولان أمس جولة
صفرت الأدحيّ من نعامها

والجون قد جرعها أجونه
وفل مشحوذا من اعتزامها

وشدّ في القدّ له مليكها
قود عتود القوط في شبامها

وفي الرها صابت له سحابة
صاروا جفاء خف في التطامها

وهب في هاب له عواصف
تجهمتها الهف من جهامها

وكفر لاثالاث في جبينها
لثم ظبى أتت على لثامها

وقايع يرفض تحت وقعها
نظم الثريا في فضا مصامها

فساعة البيض إذا عدّدها
سوط عذاب صب في أيامها

واعجبا العصب الشرك التي
لم يعصب الرشد على أحلامها

حكمة استواؤها في غيها
في نقض ما أحصد من ابرامها

مظفر الرايات والرأي إذا الـ
ـحرب مشت تعثر في خطامها

عدّت به حدّ العلاء همم
هن النجوم أو نواصي هامها

جلت له الدنيا على زبرجها[٦٢]
عفوا فلم يلو على حطامها
رأته وهو الليث يدمي ظفره
انفذ في المشكل من حكامها
فتوّجته العز في مرتبة
تمنطق الجوزاء في نظامها
غضبان للاسلام لا يغيظه اس
تسلامها للقسر من إسلامها
خط على مثل أب طاعت له ال
آفاق واستشرف لاغتشامها
تصرف الدنيا على إيثاره
عراقها مستردفا بشامها
لو لم يكن دون منى فات المنى
واقعد الفائز من قوّامها
وامتك ماء مكة رواضع
يقصر باع الدهر عن فطامها
وصار كالجمر الجمار وخلا
من أهله الأشرف من مقامها
ودونها لا زلت ترقى في حمى
من مؤلم الارداء أو لمامها
تلبس بيت اللّه وشي يمن
يقرأ آيات ك من أعلامها
فإنها الدين رحى قطبتها
وبازل مكنت من زمامها
امت بنا الآمال منك كعبة
سلم الليالي آية استسلامها
وارشفتنا بك ثغر نعمة
لا نسأل اللّه سوى دوامها

وقال أيضا يمدحه:

بجدك اصحب الجد الحزون
واطلع فجره الفتح المبين

وفي كنفيك سولت الليالي
وفارق طبعه الزمن الخؤون

ومنك تعلم القطع المواضي
وقد زبنت بها الحرب الزبون

وأنت السيف لم تمسه نار
ولا شحذت مضاربه القيون

ترقرق فوق صفحته الاماني
ويقطر من غراريه المنون

وقبلك ما سمعت بذي فقار
يثير الفقر كان ولا يكون

ولا غيث سماوته سرير
ولا ليث وسادته عرين

ولا قمر له الهيجاء هال
ولا تاج له الدنيا جبين

جبلت ندى وعفواً وانتقاما
وماء كل مجبول وطين

وملكك عمر الأقطار قطرا
فأمرعت الأواعث والحزون

تلالأ تحته غرر الليالي
إذ الايام عند سواك جون

وأنت أقمت للجدوى منارا
يبين لشائميه ولا يبين

وعندك مشرب النعمى زلال
إذا عبقت مشاربها الأجون

تحكم في عطائك كل عاط
وقد شيدت من المنع الحصون

لقــــد أشعـــــرت ديــــن اللّـــــه عــــزا
تتيــــه لـــــه المشـــــاعــــر والحجـــــون

وقــــام بنصره والنــــاس فــــوضـــــى
قـــــويّ منـــــــك في الجلى أمين

رجعــــت ملــــوكهـــم وهــــم خيـــوف
أسير في صفـــــــادك أو كنـــــــون

فبرنســــت البرنـــس لقـــاع خســـف
وجـــرّع مـــــرّ جـــوســـك جـــوسلين

إذا مــــا الفعـــل عـــلّ تـــلاه حـــذف
يتـــاح لمنتهـــــاه أو سكـــــون

غنـــوا حتـــى غـــزوتهم فغنـــى الصـــ
ـــدى في أرضهـــم حـــف القطين

وكــــم عبر الصليـــب بهم صليبـــا
فـــردّتـــه قنـــاك وفيـــه لين

ومــــا خطـــرت بـــدار الشرك إلاّ
هـــوى النـــاقـــوس وارتفـــع الأذيـــن

مـــلأت عظـــام ســـاحهـــم عظـــامـــا
فكـــل مـــلا لقـــوك بـــه جـــريـــن

بـــإنـــب والقنـــا تجري نجيعـــا
كـــان عيـــون أكعبهـــا عيـــون

وبين حــــرار صرخـــد ذبـــن حـــرّا
لـــه في كـــل حبحبـــة كمين

وفين مـــن العـــريمـــة في عـــرام
لـــه في جـــونها الأقصـــى وجـــون

وكــــم حــــرم لحارم غـــادرتـــه
ودارتـــه لمنسفهـــا دريـــن

وفى شعـــراء قـــورس صغـــن شعـــرا
تـــدار على غـــراريـــه اللجـــون

وقـــــائع صرن في صنعـــــــاء طيرا
يـــــوقعهـــــا على عـــــدن عـــــدون
نماك أب إذا عــــــدّ انتســـــابـــــا
تـــــراقـــــى مصعـــــدا والنـــــاس دون
شماً لا كـــــان أمـــــلاك البرايـــــا
وقـــــد قيســـــوا بـــــه وهـــــو اليمين
قضـــــى وقضـــــاؤه في الأرض حتـــــم
فطـــــاعـــــة أهلهـــــا لبنيـــــه ديـــــن
لهذا اليـــــوم تنتخـــــب القـــــوافي
ويـــــذخـــــر نفســـــه الـــــدر المصـــــون
ونحـــــن أحـــــق منـــــك بـــــأن نهنـــــى
إذا قـــــرّت بـــــرؤيتـــــك العيـــــون
سلمـــــت لنـــــا فـــــإنـــــا كـــــل صعـــــب
نـــــوازيـــــه بـــــأن تبقـــــى يهون
تـــــرابطنـــــا بعقـــــوتـــــك التهـــــاني
ويغبطنـــــا بـــــدولتـــــك القـــــرون

# فصل

## في باقي حوادث هذه السنة

قال أبو يعلى: وورد الخبر من ناحية ديـار مصر بأن أهل دمياط حدث فيهم فناء ما عهـد مثله في حديث ولا قديم بحيـث أحصي المفقود منهـم في سنة خمس وأربعين فبلـغ سبعة آلاف شخص، وفي سنـة ست وأربعين مثلهـم، فصار الجميع أربعة عشر ألفـاً، وخلـت دور كثيرة من أهلهـا، وبقيت مغلقة لاساكن فيها ولا طالب لها.

وفيها في ثاني جمادى الآخرة توفي القـاضي السديد الخطيب أبو الحسين ابن أبى الحديـد خطيب دمشق، وكان خطيبا بليغا صيتـا عفيفاً، ولم يكن

له مـن يقوم مقامـه في منصبه سوى أبي الحسـن الفضل ولد ولـده، وهو حدث السـن، فنصب مكانـه ، وخطب وصلى بـالناس واستمرّ الأمـر له ومضى فيه.

قال: ووردت الحكـايات بحدوث زلزلـة وافت الليلة الثالثـة عشرة من جمادى الآخــرة ، اهتـزت الأرض لها ثـــلاث رجفــات في أعمال بصرى وحوران ومـا ولاها مـن سائر الجهات، وهـدمت عـدّة وافرة مـن حيطان المنازل ببصرى وغيرها، ثم سكنت بقدرة من حركها سبحانه وتعالى.

قال: وفي ثاني عشر رجب توجه مجير الـدين صاحب دمشق إلى حلب في خواصـه، ووصل إليها ودخل نـور الدين صاحبهـا، فأكرمه وبـالغ في الجميل في حقه وقـرّر معه تقريرات اقترحهـا عليه بعد أن بذل لـه الطاعة وحسن النيابة عنه في دمشق، ورجع إلى دمشق مسروراً في سادس شعبان.

قلت: وفي ذلك يقول القيسراني:

وفـــت لـــك الـــدنيـــا بميعـــادهـــا
بـــاذلـــة افـــلاذ أكبـــادهـــا

وأوفـــدت غـــرّ ســـلاطينهـــا
عليـــك في همة انجـــادهـــا

تبغـــي سنـــاء أقصـــدت قصـــده
طـــائعـــة طـــاعـــة أجنـــادهـــا

خـــاضعـــة تعتـــدّ أعمارهـــا
يـــوم التـــلاقـــي يـــوم ميـــلادهـــا

شـــامـــت دمشـــق بـــك بـــرق العلى
فـــأرسلـــت أصـــدق روّادهـــا

رأتـــك نـــور الـــديـــن نـــار الهدى
قـــد أشرق الأفـــق بـــايقـــادهـــا

فيممـــت منـــك حيـــا مـــزنـــة
بيـــض الايـــادي وردروّادهـــا

فـاسـأل مجير الـديـن عـن خبرة
أوردهـا محمـود إيـرادهـا

تبـوّأت مـن عـزهـا قبـة
سمـر القنـا أطنـاب أوتـادهـا

تنـافـس النـاس على دولـة
فـت بها أعين حسـادهـا

يغـدو المعـادي كـما الموالي لها
فـوالها إن شئـت أوعـادهـا

يـا ملكـا يـزهـى بـاسمائه
منـابـر تسمـو بـأعـوادهـا

وتـأخـذ الاسماع أوصـافـه
عـن جمع الـدنيـا وأعيـادهـا

كـم للمعـالي فيـك مـن رغبـة
تفنـى الأمـاني دون تعـدادهـا

لـك المسـاعـي الغـر يـا جـامعـا
مـن طـرفيهـا بين أضـدادهـا

يغنـي الـورى أفـرس فـرسـانها
وفي التقـى أزهـد زهـادهـا

فـانـت نسكـا غيـث أبـدالها
وأنـت فتكـا ليـث آسـادهـا

في أمّـة أنـت حمى دينهـا
حينـا وحينـا شمـس عبـادهـا

يطـوى بـك العمـر إلى غـايـة
حسبـك تقـوى اللّـه مـن زادهـا

هـذا وكـم مـن سنـة بـدعـة
أعـدمتهـا مـن بعـد إيجادهـا

مـآثـر لـو عـدمـت راويـا
تكفـل النظـم بـاسنـادهـا

قـال أبـو يعلى: وفي أواخـر شعبان أغـار بعـض التركمان على ظـاهـر بـانياس، فخـرج إليهم واليهـا من الأفـرنج في أصحـابه، وظهـر التركمان عليهم فقتلوا وأسروا.

وفي رمضان قصـد بعض الفـرنج نـاحية مـن البقاع وأغـاروا، فأنهض إليهم والي بعلبـك رجالـه فلحقوهـم وقد أرسـل الله عليهـم من الثلـوج المتداركة ما ثبطهم، فاستخلصوا منهم الغنيمة.

قلـت: والي بعلبك هـذا هو نجـم الديـن أيـوب والد صـلاح الديـن يوسف.

قال ابـن أبى طـي: في سنة سـت وأربعين أغار التركمان على بـانياس فخرج أهل بانيـاس من الفرنج استنقذوا ما أخـذوه، فعاد التركمان عليهم فكسروهم، واتصـل ذلك بصـاحب دمشق فـأغضبه فعـل التركمان لمكان الهدنة المنعقدة بينه وبين الفرنج، فـأنفذ عسكراً إلى التركمان استعاد منهم ماأخذوه، واتصل خبر التركمان بالفرنـج فجيشوا وخرجوا في جيش عظيم وشنوا الغـارة على البقاع، والناس غافلـون، فامتلأت أيديهم مـن الغنائم والأسارى، واتصل خبر غـارة الفرنج بنجم الدين أيـوب، وهو في بعلبك وعنـده جماعة مـن عسكر دمشـق وأصحابـه، فقدّم عليهـم ولده شمـس الدولـة ، فخرج وأوقع بـالفرنج، واتفـق أنه كان قـد أصاب الفرنـج ثلج عظيم، فهلـك أكثرهـم، وجاء شمس الـدولة وهم متـورّطون فقتـل فيهم مقتلة عظيمة، وخلص من كان عند الفرنج من الأسارى.

قال: وفي هذه السنـة فارق صلاح الديـن والده وصار إلى خدمـة عمه أسد الـدين بحلـب، فقدّمـه بين يدي نور الـدين فقبلـه وأقطعه إقطـاعا حسنا.

قـال أبو يعلى: وفي ثـاني شوال ، وهـو الثـاني من شبـاط وافت قبيـل

الظهر زلزلة اهتزت لها الأرض ثلاث هزات هائلة، وتحركت الدور والجدران ثم سكنت.

قلت: وفي هذه السنة في غرّة جمادى الأولى كتب أحمد بن منير من حماه إلى نور الدين قصيدة يهينه بوصول الخلع إليه من بغداد من عند الخليفة ، على يد الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، ويصف الفرس الأصفر الاسود القوائم والمعارف والسيف العربي أوّلها:

لعلائك التأييد والتأميل
وللملك التأبيد والتكميل

أبداً تهم وتقتفي فتنال ما
عز الورى إدراكه وتنيل

إما كتاب يستقل به الكتائب أو رسول للنجاح رسيل

لك من أبي سعد زعيم سعادة
فمن تفاءل فيك ليس يفيل (٦٣)

نعم الحسام جلوته وبلوته
يرضيك حين يصل ثم يصول

سهم تعوّد في الكنانة عودة
ويقصر المطلوب وهو طويل

سدّدته فمضى وقرطس صادرا
كالنجم لا وهل ولا تهليل

فثنا القلوب إلى ولائك حوّل
منه بما يجني رضاك كفيل

وأقام ينشر في العراق ودجلة
آيا تأوّلها لمصر النيل

وكساك من رأي الخليفة جبة
لا النقص يوهيها ولا التقليل

كنت الشريف أفضت في تشريفه
ماء عليه من سناك دليل

ألِيُوسُفَ لما طلعت مقرطقا
طمثت حصان واستخف أبيل
أم عن سليمان يفرج ضاحكا
سجف الرواق وضعضع الكيول(٦٤)
ومملك في السرج أم ملك سطت
لبهائه عقل وتاه عقول
وبرزت في لبس الخلافة كالهلا
ل جلاه في حلل الدجى التهليل
خلع خلعن على القلوب مسرة
سدكاتها(٦٥) التعظيم والتبجيل
نثرت نضارا جامداً أعلامها
وتكاد تجري رقة وتسيل
لقضى لها ان لا عديل لفخرها
ربّ براك فما تلاك عديل
أنت المهند منذ سلته العلى
لم يخل من مهج عليه تسيل
مذ هز قائمه الامام تألقت
غرر شدخن لملكه وحجول
واليت دولته فتهت بدولة
متكلل بصعيدها الاكليل
ونصرته فحلاك أبيض دونه
صرف الزمان إذا استكل كليل
قلدته وكلاكما متلهذم
عضب فزان المغمد المسلول
وحباركابك حين قرّ بزحفه الـ
ـقرآن واستخذى له الانجيل
بأقبّ أصفر مشرف الهادي له التـ
ـحجيل لون واللها تحجيل

قسيم الدجى بين الغدائر والشوى
واعتام رونقه الاصيل أصيل
وتقاسم الراؤوه تحتك أنه
حيزوم مصرف عطفه جبريل
تختال في حبك الحليّ مخيلا
إن الشوامخ للبدور خيول
مرخى الذوائب كالعروس يزينه
طرف بأطراف الرماح كحيل
تتصاعق النعرات تحت لبانه
إن شبّ زفر واستجش صهيل
لم يحب مثلك مثله مهد ولم
يشلل على برق سواه شليل (٦٦)

وأنشده في هذه السنة أيضا بحمص قصيدة منها:

الدهر أنت ودارك الدنيا ومن
في العدّ بعده مؤمّل معدود
وأزمّة الاقدار طوع يديك والـ
ـأيام جندك والانام عبيد
فت الورى وعقدت ناصية المدى
بمذمر الشعرى فأين تريد
تال أباك فهل سليمان يرى
في الدست مهد ملكه داود
جلى وسدت مصليا لا يرفع الـ
ـمعدوم ما لم يشفع الموجود
لم يخترم جدّ نماك ولا أب
إن النباهة في الخليف خلود
شمخت منارك في اليفاع وأمّها
من لم يسد فأرته كيف يسود

وهبيـــت لــلاســلام وهــو مصــوّح
فــاهتــزهضـــاب ورق نجـــود
وفتــأت جمرة صــا الميــة بصيلــم
نصــع الاجنــة يــومهــا المشهــود
خطمتهــم فــوق الخطيــم لــوافــح
نفــس الاريــن لــو أرهــنّ بــرود(٦٧)
ورمــوا على الجولان منــك بجــولــة
تــوئيــدهــانسر الضــلال وئيــد
ولحا عظــامهــم بعــرقــه عــارق
مــازلــت تمخــض جــوّه فيجــود
وشللــت بــالــروج السروج وفــوقهــا
زرع لمحصــده الــرمــاح حصيــد
وعلى عــزاز عنــوا وثــل عــروشهــم
ملــك مقيــد مــن عصــاه مقيــد
وبتــل بــاشر بــاشروك فعــافسـوا
أهــب الاســاود حشــوهــنّ أســود
أودواكما أودى بعـــــادغيهـــا
زعقــوا كما استغــوى الفصيــل ثمــود
إن آلموا عقــرافــانــك صــالــح
أو آلموا غــدرافــانــك هــود
وزعتهــم فبكــل مهبــط تلعــة
خــدّ بــه مــن وازع أخــدود
وعصبتهــم بعصــائب مــل ءالملا
شتــى وإن خــلّ البســالــة عــود
أثــارهــا محمــودة وآثــارهــا
مشهــودة وشعــارهــا محمــود
لبســت مــن اسمــك في الكــريهة ملبسـا
يبلي جــديــد الــدهــر وهــو جــديــد

قصيرة الآجال طول باعها  
بوع يسامي هامها وقدود  
مطرورة الأسلاب مذ هزعتها  
تاه الهدى وتبختر التوحيد  
أشرعتها فعلى شريعة أحمد  
مما جنته بوارق وعقود  
ولكم نثرت نظيمها في موقف  
تغريد صالي حره التغريد  
يجلو سناك ظلامه ويحل ما  
عقدت قناه لواؤك المعقود  
في هبوة زحم السماء رواقها  
والارض ترجف تحته وتميد  
ضربت مخيمها فكان كماتها  
أوتاده القصوى وأنت عمود  
في كل يوم من فتوحك صادح  
هزج الغناء وطائر غرّيد  
تهدي لعانة كاسه فرغانة  
وتسيغ زبدة ماشداه زبيد  
فغرار سيفك للاحابش محبس  
ومثار نقعك للصعيد صعيد  
لاتعد من هذا المقلد أمّه  
ملقى إليه لرعيها الاقليد  
الورد قر والمسارح رحبة  
والرفد مدّ والظلال مديد  
والعيش أبلج مشرق القسمات والـ  
أشجار غر والاصائل غيد  
والملك ممدود الرواق منوّر الـ  
آفاق وضاء المنى محسود

في دولـــة مـــذهـــب نشر ربيعهـــا
نشر الـــرفـــات وأثمـــر الجلمـــود
محمـــودة الآثـــار محمـــوديـــة
كـــل المواســـم عنـــدهـــا تعييـــد

وقال يهنيه بليلة الميلاد ويصف النازلين في الجبل من قلعة حلب بقصيدة منها:

هنيـــت روزى ذراك صـــومـــك والـــ
ـــميلاد جـــاء والسعـــد في نســـق
فـــذاك انحلـــت فيـــه كـــل يـــد
وذاك أحملـــت فيـــه كـــل تقـــى
وجـــه كصـــدر الحســـام تصبـــولـــه الـــ
ـــعين وينقـــد القلـــب مـــن فـــرق
ومقلـــة شـــوقهـــا ليقظتهـــا
شـــوق لحســـادهـــا إلى الارق
ومـــرتقـــى تعجـــب السماء لـــه
إذا استطـــالـــت إليـــه كيـــف رقـــى
تـــوّجـــت شهبـــاءهـــا بمشرقـــه
مشرفـــة شهبهـــا على الافـــق
جـــوّ تهادى منـــه كـــواكبـــه
طـــرفـــه طـــرف رجـــوم مسترق
فـــوارس تـــذهـــل الفـــوارس إن
تهافتـــت مـــن ارشـــاقهـــا الـــرشـــق
مـــن راكـــض في الهواء أهـــوى
ومـــن الفتـــح مجرّ مـــن تحتـــه لبـــق
شـــاو مـــن الخصر لـــو تحاولـــه الـــ
ـــخضر لـــزلـــت عـــن مـــوطـــىء زلـــق
يقـــول مـــن دينـــه الفـــروســـة مـــا
لاقـــك الاضرب مـــن الالـــق

بــــــــدائع تغبـــــــــط السماء بها الأر
ض وتـــذكـــي الاشفـــاق في الشفـــق
في دولـــــة جمعـــت ايــــالتهـــا
مـــن بـــدد الحســـن كـــل مفترق
تـــذرّ أطـــــواقهـــا على ملـــك
مكتفـــل رزق كـــل مـــرتـــزق
محمـــــــود اسما وميسما ونــــــدى
واعتصـــب الـــدم كـــل مـــرتفـــق
طبـــق طـــوفـــانـــه فلســـت تـــرى
إلاّ مغيثـــــا مشـــــف على غـــرق
يـــابحـــر لا خلـــق يـــدعـــي شبهـــا
فـــات المدى مـــا حـــويـــت مـــن خلـــق
ملكــــــك هـــــذا الـــــذي تملأه
صبـــاه يجري والـــدهـــر في طلـــق

- ٧٧٣٧ -

# ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة

قال أبو يعلى: وورد الخبر في المحرم بنزول نور الدين على حصن انطرسوس في عسكره وافتتاحه له وقتل من كان فيه من الأفرنج، وطلب الباقون الأمان على النفوس فأجيبوا إلى ذلك، ورتب فيه الحفظة وعاد عنه، وملك عدّة من الحصون بالسبي والسيف والإخراب والإحراق والأمان.

قال: وورد أيضا ظفر رجال عسقلان بالأفرنج المجاورين لهم بغزة، بحيث هلك منهم العدد الكثير، وانهزم الباقون. قلت: وقرأت في ديوان ابن منير يمدح نور الدين ويهنيه بفتح انطرسوس ويحمور، وعوده عنهما فذكر قصيدة منها:

أبدا تباشر وجه غزوك ضاحكا
وتؤوب منه مؤيدا منصورا
تدني لك الأمل البعيد سواهم
محقت اهلتها وكن بدورا
مثل السهام لو ابتغى ذو أربع
في الجوّ مطلبها الكن طيورا
نبذت علائقها بحمص واعلقت
سحراً بمعرق عرقه الأظفورا
وغدون صافيتا لاح شوارهما
قد اتلعت عنقا اليك مشيرا
القلب أنت فإن تعامى عن هدى
عضو أهاب به فعاد بصيرا
عرفوا مكانك والظهيرة بينهم
يغري بياض أديمها الديجورا
أين الذبال من الغزالة أشرقت
وجها وطبقت البسيطة نورا

غضبــــان اقســـم لا يشيــم حســـامــــه
والارض تحمـــــل في الكفــــــور كفـــورا
غســـل العـــواصـــم أمـــس مـــن أدرانهم
واليـــــوم ردّ بـــــه الســـــواحـــل بـــورا
لم يبـــــــــق بين الحولتين وآمـــــــــــد
وتـــــراً المضطغـــــن ولا مـــــوتـــورا
اخلى ديــــــار الشرك مـــــن أوثـــــانها
حتـــــى غـــدا ثـــالـــوثهـــن نكيرا
رفـــع القصـــور على نضـــائد هـــامهـــم
مـــن بعـــدمـــا جعـــل القصـــور قبـــورا
بشـــواحـــب الاليـــاط تقطـــو في الظـــلا
م قطـــــاوتهوى في الصبـــــاح نشـــــورا
غـــادرت انطـــرســـوس كـــالطـــرس انمحـــى
رسما وحمر ردعهـــــــــا يحمـــــــــورا
وهـــي الـــزنـــاد لفتنـــة كـــانـــت على الـــ
ـــــــــــاسلام أحكـــــــم كسره اكسيرا
هتمـــت طـــرابلســـا فـــاصبـــح ثغـــرهـــا الـــ
ـــــبسام مـــــن عـــــز الثغـــــور ثغيرا
اقليـــــدهـــــاكـــــانـــــت وقـــدانطيتـــــه
واســـــأل بـــــه ممـــــن دهتـــــه خبيرا
إن الاولى امنـــــواوقـــــاعـــك بعـــدهـــــا
غـــــرّوا وقـــــد ركبـــــوا الاغـــــرّ غـــــرورا
الـــق العصـــا فيمـــن أطـــاع ومـــن عصـــى
منهـــــم ودمـــــر أرضهـــــم تـــــدميرا
لا يلههـــــم إن قـــــد منتـــــت وشنهـــــا
شعـــــواء تصلي الكـــــافـــــريـــــن سعيرا
بـــاكـــر بـــركـــزقنـــا تنســـف اسهـــا
والخيـــل صـــور كـــي تـــزيـــرك صـــورا

وتـريـك لامعـة التريـك بسـاحـة الـ
ـأقصى مطهـرة لها تطهيرا
أولسـت مـن قـوم إذا هـزوا القنـا
فتلـوا معـاصمهـم لها تسـويـرا
وإذا هـم خطبـوا اليراع عـزيـزة
سـاقـوا الشفـار على المهـار مهـورا
القـى قسيا هـم إليـك أزمـة الـ
ـملك المطـل على السهـا تـأثيرا
ضحكـت لـك الأيـام واكتـأب العـدا
قلقـا فجئـت مبشرا ونـذيـرا
لاملـك الا ملـك محمـود الـذي
تخذ الكتـاب مظـاهـرا أو وزيـرا
تمشي وراء حـدوده أحكـامـه
تـأتمهـن فيحكـم التقـديـرا
يقظـان ينشر عـدلـه في دولـة
جـاءت لمطـوى السماح نشـورا
خلـف الخلائف قـائما عنهـم بما
عيـوا بـه ألـوى الـدّ غيـورا
البر والمعصـوم والمهـدي والـ
ـمأمون والسفـاح والمنصـورا
بشروابـه فعهـودهـم وعهـادهـم
يمتحـن تحت لـوائه منشـورا

وأنشده بحلب في هذه السنة قصيدة أوّلها:

المجـد مـا ادّعـت ثـراك هضـابـه
وتثقفتـك شعـوبـه وشعـابـه
ملـك تكنـف ديـن أحمد كنـه
فـأضـاء نيره وصـاب شهـابـه

فــالعــدل حيــث تصرفــت احكــامــه
والأمــن حيــث تصرمــت أسرابــه
متهلـــل والموت في نبراتــه
يــرجــى ويــرهــب خــوفــه وعقــابــه
عقــد اللــواء وســاريقــدمــه ومــا
حلــت عقــود تميمهــا أتــرابــه
أســد فــرائســه الفــوارس والظبــا
أظفــاره والسمهــريــة غــابــه
طبــع الحديــد فكــان منــه جنــانــه
وسنــانــه وإهــابــه وثيــابــه
ويهش إن كبــت الــوجــوه كــأنها
أعــداؤه تحت الــوغــى احبــابــه
نشرت بمحمــود شريعــة أحمد
وأرى الصحــابــة مــا احتــذاه صحــابــه
مــا غــاب اصلــع هــاشــم فيهــا ولا الــ
ــفاروق بــاء بخطبــه خطــابــه
أبنــاء قيلــة قــائمــون بنصره
إن اجلبــت مــن قــاســط أحــزابــه
صبحــوا بحلقــة البرنــس بحــالــق
حــرش الضبــاب مــن القلــوب ضبــابــه
مــازال يغلــب مــن بغــاه ضــلالــه
حتــى اتيــح مــن الهدى غــلابــه
ملقــى بــوحــش الاصرمين تــزيلــت
آراؤه وتــزايلــت آلابــه
دون الأرنــط سخــت بــه نجــداتــه
ونجــاده وقــرابــه وقــرابــه
سلبتــه درّة تــاجــه يــد ضيغــم
لم تنجــه مــن بــأســه اسلابــه

واتتــه تجلــب جــوسلين جنــائب
هبــت فقــلّ إلى القتــال هبــابــه

اسرتــه لامنعــت سراه وغــره
بــالقــاع إن رام الــورود سرابــه

يمشي فتسمعــه قعــاقــع قيــده
هــزجــاً تقــي ء دمــاً لــه أنــدابــه

لاتــل بــاشره ولا كيســونــه
صــدّت منــى عنــه ولا عنتــابــه

ضمنــت شقــاوتــه سعــادة صــافــح
غطــى على أعنــاتــه اعتــابــه

مــازال يغــدر ثــم يعــذر قــادرا
حتــى أتــاه بجــامــح أصحــابــه

قصر الأمــاني إن يمــلأ عصرك الـــ
ــاسلام مضروبــا عليــه حجــابــه

مجر يجرّ إلى الغنــائم قبــه
وحمى يــزار على الفتــوح قبــابــه

وأنشده بحلب في شوال من هذه السنة قصيدة منها:

لقــد أوطــأت ديــن اللّــه عــزا
أديــم الشعــريين لــه رغــام

دعــاك وقــد تنــاوشــت الــرزايــا
لــه اهــب يــوزعهــا العــذام

فقمــت بنصره والنــاس فــوضــى
قيــام ذم مــا اقترفــت فئــام

جــذبــت بضبعــه مــن قعــريــم
لــه مــن فــوق مقسمــه التطــام

وملــت على معــاقلهــم فخّــرت
ولاء مثــل مــا انتقــض النظــام

بصرخد والخطيم وفي عزاز
وقائع هز مشهدها الانام
ولو لم يعترف ويشم لأمسى
وأصبح لاعراق ولا شآم
صبيت على الصليب صليب بأس
قواه تحت كلكله حطام
ويوم بالعريمة كان حتفا
على الاشراك أمقره العرام
لقوك كأنّ ما سلوه شيح
وما اعتقلوه من خور ثمام
وهاب وقورس ويكفر لاثا
ذممت وأنت للجليّ ذمام
صدمتهم بأرعن مرجحنّ
كأن مطاراً أنسره غمام
وأية ليلة لم تلف فيها
لهم طيفا يروع به منام
بنور الدين أنشر كل عدل
تعفت في الثرى منه الرمام
وعاد الحق بعد كلال حدّ
حمى من أن تراع له سوام
تألق عدله وذكت سطاه
فلا حيف يخاف ولا اهتضام
بقاؤك خير ما يرجوه راج
وأنفع ما يبلّ به أوام

## فصل

وفي هذه السنة ولد بحمص لنور الدين ابن سماه أحمد وهناه ابن منير في بعض قصائده، ثم توفي بدمشق وقبره خلف قبر معاوية رضي الله

عنه إذا دخل الحظيرة في مقابر الباب الصغير، وقصيدة ابن منير قد تقدّم بعضها في أوّل الكتاب ومنها في ذكر المولود:

تـوالـت الأعيـاد لازلـت لها
تبلي ديـابيـج البقـاء وتجد
الفطـر والميـلاد والمولـود لـو
قـابلـه بـدر التمام لسجـد
ثـلاثـة تعـرب عـن ثـلاثـة
لمثلهـا يـذكـر حمدا مـن حمد
فتـح مبين وطـلاب مـدرك
ودولـة مـا تنتهـي إلى أمـد

وله من أخرى يقول:

وجئـت بـأحمد فمـلأت حمدا
مـوارد كـان معـذبها عـذابـا
تهلـل وجـه ملكـك يـوم أهـدت
قـوابلـه لـك الملـك اللبـابـا
شبيهـك لا يغـادر منـك شيئـا
سنـا وحيـا وبـذلا واستـلابـا
قسيـم الحمـد الا انّ حـرفـا
مـن اسمـك زاد للمعنـى منـابـا
ألا للّـه يـوم فـرّ عنـه
وركـب نـص بـالبشرى الـركـابـا

قال أبو يعلى: في أواخر صفر توجه مجير الدين في العسكر ومعه مؤيد الدين الوزير إلى ناحية حصن بصرى ونزل عليه محاصرا لسرخاك واليه لمخالفته وجوره، وأراد مجير الدين المصير إلى حصن صرخد لمشاهدته، فاستأذن مجاهد الدين واليه في ذلك فقال له: هذا المكان بحكمك وأنا

فيه وال من قبلك، وأنفذ إلى ولده سيف الدين محمد النائب فيه بإعداد ما يحتاج إليه ويلقى مجير الدين بما يجب له، فخرج في أصحابه ومعه المفاتيح وأخلى الحصن من الرجال ودخل إليه في خواصه وسرّ بذلك وتعجب من فعل مجاهد الدين وشكره على ذلك، وعاد إلى مخيمه على بصرى وحاربها عدّة أيام إلى أن استقرّ الصلح والدخول فيما أراد، وعاد إلى دمشق.

وفيها في شوّال توفي الأمير سعد الدولة أبو عبد اللّه محمد بن المحسن ابن الملحي، ودفن في مقابر الكهف، وكان فيه أدب وافر وكتابة حسنة ونظم جيد، وتقدّم والده في حلب في التدبير والسياسة وعرض الاجناد.

قال ابن الأثير: وفيها توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان، وعهد إلى ابن أخيه ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد، وخطب له ببلاد الجبل، وكان الغالب على البلاد والعساكر أيام السلطان مسعود خاص بك بن بلنكري، فقام بأمر ملكشاه ولم يمهله غير قليل حتى قبض عليه، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن محمود وهو بخوزستان يستدعيه إليه ليخطب له بالسلطنة، وكان غرض خاص بك أن يقبض عليه أيضا فيخلو وجهه من منازع من السلجوقية، وحينئذ يطلب السلطنة لنفسه، فلما كاتب محمداً أجابه إلى الحضور عنده وسار إليه وهو بهمذان واجتمع به وخدمه خاص بك خدمة عظيمة، فلما كان الغد دخل عليه خاص بك فقتله محمد وألقى رأسه إلى أصحابه فتفرقوا واستقرّ محمد وثبتت قدمه واستولى على بلاد الجبل جميعها، وكان قتل خاص بك سنة ثمان وأربعين، وبقي مطروحا حتى أكلته الكلاب، وكان ابتداء أمره أنه كان من بعض أولاد التركمان، فخدم السلطان، فمال إليه وقدّمه حتى فاق سائر الامراء واستولى على أكثر البلاد، وهو كان السبب في أكثر الحوادث الشاغلة للسلطان مسعود، فإن الأمراء الأكابر كانوا يأنفون من أتباعه لما كان يقابلهم به من الهوان والاحتشام عليهم.

وذكر الـوزير يحيـى بـن هبيرة في كتـاب الافصاح أنـه لما تطـاول على الخليفـة المقتفـي أصحـاب مسعود وأسـاؤوا الأدب ولم يمكـن المجاهـرة بالمحـاربة اتفق الـرأي على الدعاء على مسعـود بن محمد شهـراً، كما دعا رسول اللّـه صلى اللّه وسلم على رعـل وذكوان شهـراً فابتدأ هـو والخليفة سرا كل واحد في موضعـه يدعو سحرا من ليلة تسـع وعشرين من جمادى الأولى سنـة سبع وأربعين وخمسمائة، واستمـرّ الأمـر على ذلـك كل ليلـة، فلما كـان ليلة تسـع وعشرين مـن جمادى الآخرة كـان موت مسعـود على سريره لم يـزد عن الشهر يومـاً ولاينقص يومـا، ووصل القصاد بذلـك من همذان إلى بغداد في ستـة أيام، فـأزال اللّه يـده ويد أتبـاعه عـن العراق، وأورثنا أرضهم وديارهم فتبارك اللّه رب العلمين، مجيب دعوة الداعين.

قـال: وكان الشيـخ محمد بـن يحيـى يقول: لاأدل على وجـود موجـود أعظم من أن يدعى فيجيب.

## ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

ففيها أخذت الفرنج خذلهم اللّه عسقلان، وبقيت في أيديهم إلى أن فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه اللّه سنة ثلاث وثمانين، كما سيأتي إن شاء اللّه تعالى.

قال الرئيس أبو يعلى التميمي: وتواصلت الأخبار من ناحية نور الدين بقوّة عزمه على جمع العساكر والتركمان من سائر الأعمال والبلدان للغزو في احزاب الشرك والطغيان، ولنصرة أهل عسقلان على الأفرنج النازلين عليها وقد ضايقوها بالزحف إليها بالبرج المخذول، وهم في الجمع الكثير، واقتضت الحال توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى نور الدين في جمهور عسكره للتعاضد على الجهاد في ثالث عشر محرّم ، واجتمع معه في ناحية الشمال وقد ملك نور الدين الحصن المعروف بافليس بالسيف، وهو في غاية المنعة والحصانة وقتل من كان فيه من الأفرنج والأرمن ، وحصل العسكر من المال والسبي الشيء الكثير، ونهضوا طالبين ثغر بانياس، ونزلوا عليه في آخر صفر وقد خلا من حماته وتسهلت أسباب ملكته، وقد تواصلت استغاثة أهل عسقلان واستنصارهم بنور لدين فقضى اللّه تعالى بالخلف بينهم والقتل، وهم في تقدير عشرة آلاف فارس وراجل فأجفلوا عنها من غير طارق من الأفرنج طرقهم، ولاعسكر رهقهم، ونزلوا على المنزل المعروف بالأعوج وعزموا على معاودة النزول على بانياس وأخذها، ثم أحجموا عن ذلك من غير سبب ولا موجب وتفرّقوا وعاد مجير الدين إلى دمشق ودخلها سالما في نفسه وجملته حادي عشر ربيع الأوّل، وعاد نور الدين إلى حمص ونزل بها في عسكره.

ووردت الأخبار بوصول أسطول مصر إلى عسقلان، فقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال، وظفروا بعدّة وافرة من مراكب الفرنج في

البحر، وهـم على حالهم في محاصرتها ومضايقتهـا والزحف بـالبرج إليهم، واستمرّ ذلك إلى أن تيسرت لهم أسباب الهجوم عليهـا من بعض جوانب سورهـا، فهدموه وهجموا البلـد وقتل من الفـريقين الخلق الكثير، وألجأت الضرورة والغلبة إلى طلب الأمان فأجيبوا إليه وخرج من أمكنه الخروج في البرّ والبحر إلى نـاحية مصر وغيرهـا، وقيل إن في هـذا الثغر المفتتـح من العدد الحربيـة والاموال والميرة والغلال مـا لايحصر فيذكر، ولما شـاع هذا الخبر في الأقطـار سـاء سماعه، وضـاقـت الصـدور وتضاعفـت الأفكـار بحدوث مثله، فسبحـان من لايردّ نافـذ قضائه، ولايدفع محتـوم أمره عند نفوذه ومضائه.

## فصل

قال: وعـرض بين الرئيس ابـن الصوفي وبين أخويـه عز الدولـة وزين الدولة مشاحنات ومشاجـرات اقتضت المساعاة إلى مجير الدين في جمادى الأولى، فأنفذ مجير الديـن إلى الرئيس يستدعيه للاصـلاح بينهم في القلعة فامتنـع من ذلـك وجلس في داره، وهـمّ بالتحصـن عنه بـأحداث البلـد والغوغاء وآلت الحال إلى تمكن زين الدولـة منه بمعاونة مجير الدين عليه، وتقرّر بينهما إخراج الرئيس من البلـد وجماعة إلى حصن صرخد مع مجاهد الديـن بزان واليـه، بعد أن قـرر له بقـاء داره وبستانـه وما يخصـه ويخص أصحابـه، وتقلد أخوه زيـن الدولة مكـانه وأمر ونهى ونفـذ الاشغال على عـادتـه في العجـز والتقصير وسـوء الأفعـال، والتماس الـرشـا على أقـل الأعمال، ورأى مجير الدين عقيب ذلك التـوصل إلى بعلبك لتطييب نفس واليهـا عطاء الخادم واستصحـابـه معه إلى دمشـق لينـوب عنه في تـدبير الأمور، وعاد وهو معه واستشعر مجاهد الـدين بزان أن نية مجير الدين قد تغيرت فيه، فـاستوحـش من عـوده إلى البلد بغير يمين يحلـف له بها على أمانـه في نفسه، فـوعد بـالإجابـة ، فعاد إلى داره بـدمشق، ثـم هجس في خاطره من مجير الـدين وأصحابه ما أوحشه منهـم فدعاه ذلك إلى الخروج

من البلد سراً طالباً صرخد، فحين عرف خبره أنهض في طلبه وقص أثره فأدرك وقد قرب من صرخد، فقبض عليه وأعيد إلى القلعة بدمشق وأعتقل بها اعتقالاً جميلاً، ثم تجدّد من الرئيس الوزير حيدرة المقدم ذكره أشياء ظهرت عنه مع ما في نفس الملك مجير الدين منه ومن أخيه المسيب من المعرفة بالسعي والفساد ما اقتضت الحال استدعاءه إلى القلعة على حين غفلة من القضاء النازل به لسوء أفعاله وقبح ظلمه وخبثه، ثم عدل به الجاندارية إلى الحمام بالقلعة مستهل ذي القعدة وضربت عنقه صبراً وأخرج رأسه ونصب على حافة الخندق، ثم طيف به والناس يلعنونه ويصفون أنواع ظلمه وتفننه في الفساد ومقاسمة اللصوص وقطاع الطريق على أموال الناس المستباحة بتقريره وتدبيره وحمايته، وكثر السرور بمصرعه، وابتهج به ثم زحفت العامة والغوغاء ومن كان من أعوانه على الفساد من أهل العيث إلى منازله وخزائنه ومخازن غلاته وأثاثه وذخائره فانتهبوا منها ما لا يحصى، وغلبوا أعوان السلطان وجنده عليها بالكثرة فلم يحصل للسلطان من ذلك إلاّ النزر اليسير، ورد أمر الرياسة والنظر في البلد إلى الرئيس رضي الدين أبي غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد بن علي التميمي في اليوم المقدم ذكره، فطاف في البلد مع أقاربه وأهله وسكنت الدهماء وبولغ في إخراب منازل الظالم، ونقل أخشابها.

قال: وكان عطاء الخادم قد استبد بتدبير الأمور ومدّ يده في الظلم، وأطلق لسانه بالهجو وأفرط في الاحتجاب، وقصر في قضاء الاشغال، فتقدم مجير الدين باعتقاله وتقييده والاستيلاء على ما في داره، ومطالبته بتسليم بعلبك وما فيها من مال وغلال، ثم ضربت عنقه ونهبت العوام والغوغاء بيوت أسبابه وأصحابه.

قال: وورد الخبر من ناحية مصر بأن العادل المعروف بابن السلار الذي كان رتبته قد علت ومنزلته في الوزارة قد تمكنت ، كان لزوجته ولد

يعرف بالأمير عباس قد قدّمه واعتمد عليه في الأعمال، ولعباس هذا ولد قدّمه الوزير وأنعم عليه وأذن له في الدخول بغير أذن إليه، فدخل عليه وهو نائم في فراشه فقطع رأسه، وحصل عباس في منصب العادل، ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره.

قلت: هو أبو الحسن علي بن السلار وزير خليفة مصر، وهو الذي بنى مدرسة الشافعية بالاسكندرية للحافظ أبي طاهر السلفي رحمه اللّه ، وكان قتله في سادس المحرّم بمواطأة من الخليفة الملقب بالظافر بن الحافظ.

وفيها في آخر شعبان توفي الفقيه برهان الدين أبو الحسن علي البلخي رئيس الحنفية، ودفن في مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الشهداء، وكان من التفقه على مذهبه ما هو مشهور شائع، مع الورع والدين والعفاف والتصوّف، وحفظ ناموس العلم والتودد إلى الناس على طريقة مرضية وسجية محمودة.

قال: وورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الأديب أبي الحسن أحمد بن منير الشاعر في جمادى الآخرة، ووصل في ثاني عشر شعبان إلى دمشق الأديب الشاعر أبو عبد اللّه محمد بن نصر بن صغير القيسراني من حلب باستدعاء مجير الدين له، ومات بعد عشرة أيام في الثاني والعشرين من شعبان.

قلت: هما شاعرا الشام في وقتهما، وقد شبههما العماد الكاتب في كتاب الخريدة بالفرزدق وجرير، وكذلك كان اتفق موتهما في سنة واحدة ، ومات جرير بعد الفرزدق بقليل، وقد سبق من شعرهما في مدح نور الدين رحمه اللّه قصائد حسنة، وسيأتي غير ذلك في موضعه لغرض سنذكره، ومما قاله ابن منير من قصيدة له:

- ٧٧٥٠ -

أيا سيفا أعز الدين منه الـ
ـغرار العضب والنوم الغرار
ملأت جوانح الاقطار رجفا
كأن الأرض خامرها دوار
علاك حلى على الدنيا افتاج
بمفرقها وفي يدها سوار
أضاءت شمس عدلك في دجاها
فكل زمان ساكنها نهار
فتحرق من عصاك وأنت ماء
وتغرق من رجاك وأنت نار
الا للّه وجهك والمنايا
مكلحة وللبيض افترار
هتكت حجابه والنصر غيب
وللهبوات طيّ وانتشار
بطعن للقلوب به انتظام
وضرب للرؤوس به انتثار
تبادره كأن الموت غنم
وما من عادة البدر البدار
أنخت على الصليب مطا صليبا
به من صك مبركه هدار
بمشرفه المناكب مقربات
لهن بمتن كل وغى حصار
جنين بإنب أنب العناصي (٦٨)
وإضن وللقنا منها ثمار
وفي هاب أبت بها فجاءت
كما أجلى من الكسم الصوار (٦٩)
وكم في فج حارم من حريم
عفته فلا جدير ولا جدار

وانطاكية استنت إليها
فأجفل خيطها وله عرار (٧٠)

وصبح في عزاز بها عزاز
فأمسى وهو وعث أو خبار (٧١)

يشق بها دجى الغمرات عسفا
جواد لا يشق له غبار

وله من أخرى:

وما يوم الفرنجة منك فذ
فتحصر عده خطط الحباب

أجاش الاربعاء لهم خميسا
بعيد الغور ملتطم العباب

وأحكم بالخطيّ لهم خطاما
أمر بريمه مرّ الضراب

مشو متساندين إلى صليب
يبرقع هبوة الصنم الصلاب

تلفهم المنايا في الثنايا
وتفجأهم شعوب من الشعاب

أطاشت سهم كبشهم هناة
فكنت ذباب طائشة الذباب

حللت التاج عنه وحل تاجا
مكان العقد من عقد الكعاب

أناف على العقاب فكان أشهى
وأبهى منه في ظل العقاب

فأشرف وهو عن شرف معوق
واصعد وهي غاية الانصباب

تكاشره الشوامت وهو مغض
ثناه مناه عن رجع الجواب

بعيـــــداً مـــــن قـــــراع واقتراع
يـــؤوب لــــه إلى يـــوم المآب

وكـــم ســـوط بخيلـــك اقبلـــوه الصـــ
ـــدور فكـــان ســـوطـــا مـــن عـــذاب

تـــركتهـــم بـــأرض الشـــام شـــامـــا
لظفـــــر تتقيــــه أو لنـــــاب

هتكـــت حجـــابهم والشمـــس وسنـــى
بشمـــس لا تـــوارى بـــالحجـــاب

بـــأبيـــض مـــن حبيـــك الهنـــد صـــاف
مصـــون المتـــن مبتـــذل الـــذبـــاب

لـــه سمـــة الشيـــوخ صفـــاء شيـــب
وفي خطـــواتـــه تـــرف الشبـــاب

الا يـــانـــاظـــر الـــدنيـــا بعين
أرتـــه عـــلابها [٧٢] خـــدع السراب

تبطنهـــا فطلقهـــا ثـــلاثـــا
على عـــز التملـــق والخلاب

فـــلا يـــأوي إلى رأي شعـــاع
ولا يثنـــى إلى أمـــل خـــراب

تـــرفـــع عـــن مجاورة الأمـــاني
وحلـــق عـــن محاضرة التصـــابي

صـــلاة اللّـــه كـــل درور شمـــس
على مثـــوى أبيـــك مـــن التراب

فقـــد ألقـــى إلى الاســـلام عضبـــا
يطبـــق في النـــوائب غير نـــابي

تجيـــش لـــه رواس كـــالـــرواسي
تمدّ لها جفـــان كـــالجوابي

وله من أخرى:

مظفــــر العـــــزم ممـــدود الـــرواق على
معـــالم الـــديـــن يـــر فيهـــا و يبنيهـــا
ردّ الكنـــائس كنســـا للهـــدى فخبـــت
نـــار الضـــلال وواريها أثـــا فيهـــا
وأورد العلـــم عـــدا مـــن ايـــالتـــه
فـــاستـــن وافتـــن عبـــا في صـــوافيهـــا
وبـــث للشرك اشراكـــا فما درجـــت
طـــريـــدة منـــه الا استـــوهقـــت فيهـــا
يـــا بـــدر مـــذ أشرقـــت في الـــدســـت غـــرتـــه
غيـــث الـــرعيـــة واخضلـــت مـــراعيهـــا
أقـــام أحمد مـــن محمـــودهـــا علما
بـــه استقـــام على البيضـــاء ســـاريها
محيـــي شريعتـــه مـــن بعـــد مـــا انهدمـــت
واستعجمـــت بعـــد إفصـــاح معـــانيهـــا
شـــابـــت مـــواهبـــه فيهـــا مهـــابتـــه
حتـــى استقـــرت على سمـــت ســـواريها

وله من أخرى:

عـــزت سيـــوفـــك فـــالعـــراق عـــراقهـــا
والشـــام غير مـــدافعـــات شـــامهـــا
إن أغمـــدت حـــل العـــزائم حلهـــا
أو جـــردت حـــرم الكـــرى احـــرامهـــا
شجنـــت [٧٣] عـــداك بها فـــلا اشراقهـــا
بمفـــازة منهـــا ولا إعتـــامهـــا
سريـــت فصبحهـــا بها يقظـــاتها
هـــدأت فمستهـــا بها أحـــلامهـــا
كـــا الماء إلا أن في رشفـــاتـــه
نـــاراً حشـــاشـــات النفـــوس ضرامهـــا

خفـــــــت على أيمانكــــــم أوزانها
يــوم الـــوغـــى واستثقلتهـــا هـــامهـــا

حتـــى أحلـــن الشـــام شـــامـــا صرصرت
فيـــه جنـــادبها وصـــدّح هـــامهـــا

ورحضـــن أدران الجزيـــرة بعـــدمـــا
غمـــرت بها وهـــداتها وآكـــامهـــا

شطـــراً أبـــرت ومثلـــه أنظـــرتـــه
وقـــع الخطـــوب تكـــرهـــا أيـــامهـــا

بـــالخابطـــات الغـــاب تـــزأر أســـده
والمجفلي الحي اللقـــاح صيـــامهـــا

أورثها أجمات أنطـــــــاكيـــــــة
عنقـــا وقـــد شبـــب الصـــدا اجمامهـــا

تلقـــى المشـــافـــر في مـــراشـــف كلما
بـــردت بها الأكبـــاد زادهيـــامهـــا

فغـــدت وقـــد عـــز السراح سراحهـــا
وتـــوزعـــت في كنسهـــا آرامهـــا

ومشـــى الضـــلال القهقرى واستـــأصـــل الـــ
ـــــاذان مـــن رجـــع الأذان صـــلامهـــا

وغـــدا يخللهـــا الخليـــل ســـواحبـــا
عـــذبـــا يمـــرّ لها العـــذاب غمامهـــا

غضبـــا لـــديـــن اللّـــه حـــص جنـــاحـــه
بغيـــا وأدمـــى صفحتيـــه لـــدامهـــا

فـــالآن رد النـــور فيـــه نـــوره
وانجـــاب مـــن تلـــك الهنـــات ظـــلامهـــا

محمـــودا المحمـــودا قـــدامـــا إذا
خـــام الكماة وزلـــزلـــت اقـــدامهـــا

الفـــارج الكـــرب العظـــام تضـــاجمت
أشـــداقهـــا وفـــرى القلـــوب ضغـــامهـــا(٧٤)

وله من أخرى:

أمـــا الـــرعـــايـــا فـــإنها رشفــت
لـــديــك نعمـــى عــذبــا ثنــا يــاهــا
سلكـــت نهج العـــدل القـــويـــم بها
فـــا حمدت دينهــــا ودنيـــاهــــا
وكـــم اميتـــت خـــوفـــا فـــامنهــا
متـــالـــف الخوف خـــوفـــك اللّـــه
للّـــه أقطـــارك التــــي قطـــرت
لها منـــاهـــا إلى منـــايـــاهـــا
أنـــب في إنـــب فـــوارسهــــا
تـــردي فتردي أولاك أخـــراهـــا
أشجـــت لهاة البرنـــس هبـــوتها
وكـــم عتـــا عـــاتيـــا فـــأشجـــاهـــا
وجـــوسلين استســـاغ نطفتهـــا
فـــاحتلـــب الـــذل تحت مغـــداهـــا
ردّتـــه صفـــرا مـــن كـــل مـــا ملكـــت
يـــداه أيـــدمـــاضـــل مسراهـــا
جـــويـــس جـــاستـــك أوجـــه لا رأت
بـــؤســا وجـــاد الحيـــا محيـــاهـــا
في سريـــة لـــو تكـــون فـــارسهـــا
يـــومئـــذمـــا انبعثـــت أشقـــاهـــا
لا زال ظـــل النعماء عـــن ملـــك
مـــا الشمـــس كفـــؤ الـــه إذا بـــاهـــا
واللّـــه جـــازيـــه عـــن مقيـــدة
أعـــزهـــا اللّـــه مـــذ تـــولاهـــا
محمـــــــودا المعتلي إلى فلـــــك
الحمـــــد وثيراً لـــــه ولا يـــــاهــــا
أعطـــاكـــه جـــدّك المتـــوج بالجـــ
ـــدّ ونفـــس للّـــه مغـــزاهـــا
نفـــس عـــزوف عـــن الخنـــا طبعـــت
نـــزههـــا اللّـــه يـــوم ســـوّاهـــا

أنـــت الـــذي سلـــم الانــــام لــــه
يمنــــــى طبــــــاق العلى ويسراهــــــا
وأنـــت مــــولى الملــــوك قـــاطبـــة
مــــن كــــل فنــــا خسرو وشــــاهنشــــاهــــا
والشهـــــــر هــــــــذا الاقـــــول أحمده
أوّه بــــديـــل مــــن قــــولتـــي واهــــا

وله من أخرى:

يــــابـــن الـــذي لم يـــال في نجــدة الـــــ
ـــــــإسلام ادلاجــــــــا وتهجيرا
تكنـــف الشـــام وقـــد شـــام بـــر
ق الخوف انجـــــادا وتغـــــويـــــرا
وكــــف كلـــب الـــروم مـــن بعـــد أن
انشبـــــه نـــــابـــــا واظفـــــورا
فــــاهلـــه رقـــك إن انصفــــوا
رقـــا بحــــدّ السيـــف مسطـــورا
بــــدر هــــوى واستخلـــف الشمـــس في
دستــــــك اشراقــــا وتـــــأثيرا

وله من أخرى:

ملـــك كســـى الاســـلام مـــن ذبـــه
بـــردا بتــــدبيــــح الظبـــى معلما
مــــن أصبـــح الشــــام بــــه شـــامـــة
يقطــــر مــــن قتــــل عــــداه دمــــا
لــــو لم يقــــم منصلتــــادونـــــه
لم تلــــق في أقطــــارهــــا مسلما

وله يمـدحه بعـد مصالحة صـاحب حماه واهتمامـه بالعرس وعوده إلى حلب:

- ٧٧٥٧ -

الدهر مارضته بالجود والباس
مقسم بين اغراس واعراس
فتح تعافيه فتح ومطلب
داني المنال وملك ثابت راسي
نصرا ببصرى وصفحا عن حماة لقد
أحسنت للداء حسما أيها الآسي
يابن الذي عنت الدنيا الدولته
من فاطمي اعزته وعباسي

وله فيه أيضا:
غدا الدين باسمك سامي العلم
أمين العماد مكين القدم
لذلك لقبت نورا له
وقد أغطش الظلم فيه الظلم
أضاءت بعدلك آفاقه
وفضت عرى الدين لما ادهم
ولم تمش رهوا النصر الرها
ومثلك أدرك لما عزم
ويوم بسوطا بسطت الحما
م على المضب من ركنها فانهدم
وبصرى وصرخد لو لم تثر
دراكا الكانا رديفي ارم
ومذ فض جيشك في الغوطتين فض الصليب له ما نظم
وفي كفر لاثا وهاب حللت عقد البرنس ببيض خذم
معودة أنها لا تسل الامقممة للقمم

- ٧٧٥٨ -

يــــوم بسرفـــــود جــــزّ عتهـــــم
أجـــــاجــــا أغصهـــــم واصطلـــــم

وفـــوق العـــــريمـــــة غشـــــاهــــم
عـــــرام جيـــــوشــــك سيـــــل العـــرم

وأبــــــت بكلبهـــــــم في الكبــــــو
ل مبـــــاح الحريـــــم مـــــذال الحرم

وبـــــــارتهم أذنـــــــت انها
ابـــــارتهم فليبـــــــؤ بـــــذم

بنــــوهــــا واعلــــوا ولم يعلمــــوا
بما خـــط في اللــــوح منـــك القلــــم

وانـــك خـــارم مــــا أحكمــــو
ه ومـــن ديننـــا راقــــع مـــا انخـــرم

تـــرفـــع مــــن بعـــد خفـــض هـــدى
وتخفـــض مـــن بعـــد رفـــع صنـــم

سمكـــــت المدارس فـــــوق النجـــــو
م فكــــم منجـــم تحتهـــا قـــد نجـــم

وعـــــاش الحنيفــــــي والشافـــــــ
ـــعي بما شـــدّت منهـــا وكـــانـــا رمـــم

وإن لم تكـــن هـــاشمـــي الأصـــو
ل فـــانـــك فـــرع الهزبـــر الهشـــم

ومــــن يــــدّعـــى في العلى مــــا ادّعيـــ
ـــت وأنـــت ابـــن مـــن عـــز لما احتكـــم

واقســـم مـــا غـــاب ميـــت سقـــت
مغـــارســـه عين هـــذي الشيـــم

قلت: وقصائد ابن منير في مدح نور الدين كثيرة ، ونفسه فيها طويل، ولم يبق بعد موت القيسراني وابن منير فحل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغي إلا ابن أسعد الموصلي،وسيأتي شيء من شعره إلى أن قدم العماد الكاتب للشام في سنة اثنتين وستين فتسلم هذا الأمر ،

- ٧٧٥٩ -

وعبر عن أوصـاف نور الـدين ومناقبـه وغزواته بـأحسن العبـارات وأتمها نظماً ونثراً، وسيأتي كل ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

قـال ابن الأثير: وفيهـا توفي صـاحب مـارديـن حسام الـدين تمرتـاش ووليها بعده نجم الدين ألبي بن تمـرتاش بن أرتق.

قلت: وقد مدحه القيسراني والعرقلة وغيرهما من الشعراء.

- ٧٧٦٠ -

# ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة

قال ابن الأثير: ففيها ملك نور الدين دمشق، وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن محمد، وكان الذي حمل نور الدين على الجدّ في ملكها أن الفرنج ملكوا في السنة الخالية عسقلان، وهي مدينة فلسطين حسنا وحصانة، ولما كانوا يحصرونها كان نور الدين يتلهف ولايقدر على إزعاجهم عنها لأن دمشق في طريقه، وليس له على غيرها معبر لاعتراض بلاد الفرنج في الوسط، وقوي الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق.

واستضعفوا مجير الدين وتابعو الغارة على أعماله، وأكثروا الفتك بها والنهب والسبي، وزاد الأمر بالمسلمين بها إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة ، وكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويجبيها من أهل البلد، ثم أشتد البلاء على أهلها حين أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وإماءهم الذين نهبوا من سائر بلاد النصرانية وخيروهم بين المقام عند مواليهم والعود إلى أوطانهم، فمن أحب المقام تركوه، ومن أحب وطنه سار إليه، وزالت طاعة مجير الدين عن أهل البلد إلى أن حصروه في القلعة مع إنسان منهم كان يقال له مؤيد الدين ابن الصوفي، فلما كانت الأمور بها هكذا خاف أهلها وأشفقوا من العدّو فلجأوا إلى الله تعالى ودعوه أن يكشف ما بهم من الخوف، فاستجاب لهم وأذن في خلاصهم مما هم فيه، على يد أحب عباده إليه وأحسنهم طريقة، وأمثلهم سيرة، وهو الملك العادل حقا، نور الدين محمود، فحسن له السعي في ملك البلدة وألقاه في روعه، فلما خطر له ذلك أفكر فيه فعلم أنه إن رام ملكه بالقوّة والحصار تعذر عليه لأن صاحبه متى رأى شيئاً من ذلك راسل الفرنج واستعان بهم واستمالهم.

قلت: وقد كان سبق له بذلك سوابق قد تقدّم ذكر شيء منها، ولذلك قال العرقلة يمدح أتابكه معين الدين أنر من قصيدة:

يظن صلاح الدين فرسان جلق
كفرسانه وما الاسد مثل الثعالب
رجال إذا قام الصليب تصلبت
رماحهم في كل ماش وراكب
غدا يطلع الشام الفرنج بفيلق
مسعودة أبطاله للمصائب
لها الليل نقع والأسنة أنجم
فما غير أبطال وغير جنائب

وصلاح الدين هذا المذكور ليس هو يوسف بن أيوب المشهور، فإن ذلك لم يكن حينئذ ملكا يقود الجيوش، وإنما هذا صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيساني صاحب حماه، أحد أصحاب زنكي وقد تقدّم ذكره مراراً، وكأنه كان في مقدمة الجيش النوري لما قصد دمشق في المرتين الأولين، أو في إحداهما، أو في زمن حصار زنكي لها، والله أعلم.

قال ابن الأثير: وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق، لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق، فكيف إذا أخذها وقوي بها وإنضاف إلى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين فإن الدم كان عنده عظيما لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل، فلما رأى الحال هكذا عمد إلى إعمال الحيلة، فراسل مجير الدين صاحبها واستماله، وواصله بالهدايا وأظهر له المودّة حتى وثق إليه، ثم صار يكاتبه في بعض الأوقات ويقول له: إن فلانا ـ ويذكر بعض الأمراء الذين لمجير الدين ـ قد كاتبني في المخامرة عليك فاحذره، فتارة يأخذ إقطاع أحدهم، وتارة يقبض عليه، فلما خلت دمشق من الأمراء قدم أميرا كان عنده يسمى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم، وكان شهما شجاعا، وفوّض إليه أمر دولته، وكان نور الدين لايتمكن من دمشق معه، فقبض عليه مجير الدين وقتله، فقال له عند قتله: إن الحيلة قد تمت عليك فلا تقتلني فإنه سيظهر لك ما أقول، فلم يصغ إلى قوله وقتله.

قلت: وفي بعض قصائد ابن منير ما يدل على أن عطاء هذا كان له مع نور الدين في دمشق حديث فإنه قال:

ودمشق في دمشق رجال سلم
لحور نسائهم منهم نساء

هي الفردوس أصبح هو عاف
من العافي ومن خال خلاء

جنان تعرف الجنات فيها
ولا رأي هناك ولا رواء

لاسمح صعبها ودنت قصاها
وامكنك إقتياد وامتطاء

ويا نعم العطاء عطاء رب
توسطه فأنشطه عطاء

تفاءل باسمه فالفال وعد
يكون على ظباك به الوفاء

هو السبب الذي شزرت قواه
وهذ به لخدمتك الصفاء

وسيف إن تشمه تشم حساما
وإن يغمد فنار بل ذكاء

جنته لك السعادة قطف رأي
لنقب الخادعيك به هناء

ويجوز أنه لم يكن لعطاء في ذلك حديث، وإنما هذه الأبيات أو ما في معناها كانت سبب قتله لما بلغ مجير الدين ذلك، وعطاء هذا هو الذي ينسب إليه مسجد عطا ء خارج الباب الشرقي بدمشق، وجوزة عطاء ببيت أبيات وهي أرض فيها أخشاب كبار من الجوز تربى أوتاراً لجامع دمشق، وهي وقف عليه، وقد مدحه العرقلة وغيره من الشعراء.

قال ابن الأثير: فلما قتل عطاء قوي طمع نور الدين في دمشق، فراسل أحداث البلد وزناطرته واستمالهم فأجابوه إلى تسليم البلد، فسار

إليهـم وحاصرهـم عشرة أيـام، فكـاتب مجير الـديـن الفـرنج وبـذل لهم الأموال وقلعـة بعلبك إن رحلوا نـور الديـن عنه ، فإلى أن جمعـوا وجاؤوا بلغهم أخذ نور الدين دمشق فعادوا بخفـي حنين، وأما نور الدين فإنه لما حاصرهم وضيـق عليهم ثار الأحداث الذيـن كاتبهم نور الـدين وسلموا إليه البلـد من الباب الشرقي فـدخله بـالامان عـاشر صفر، وحصر مجير الدين في القلعـة وراسله وبذل له الاقطاع الكبير من جملتـه مدينة حمص فأجاب إلى تسليم القلعة وصار إلى حمص.

وقـال ابن أبي طـي: أنفذ نور الـدين أسـد الديـن شيركوه رسـولا إلى صاحب دمشق فخرج في تجمل عظيـم ومعه ألف فارس، فعظم على مجير الدين ذلك وقال: ما هـذه رسالة هذه مكيدة ولم يتجاسر على الخروج إلى لقـائه ولا أحد مـن أمراء دمشـق، فـاستوحـش أسـد الديـن ونزل بمـرج القصب وأغلظ لصاحب دمشق في المقال، وأنفـذ إلى نور الدين يعرّفه بما جرى عليـه، فسار نـور الديـن في عساكـره وزحف إلى البلـد من شرقيـه، وكـانت الحرب في عـاشر صفر ، وتـولى أسـد الديـن القتال وأبلى الجهـد فكسر عسـاكـر دمشـق إلى الأسـوار من قبلي البلـد، ولم يكـن أحـد مـن المقاتلة على السور من ذلك الجانب لأنّ نـور الدين كان من شرقها وجلّ العسكر مقـابله، ورأى من كـان مع نور الـدين من الجانـدراية والحلبيين إلى خلوّ السـور من المقـاتلة فتسرعـوا إلى السور وتعلقـوا به وحصلـوا في الحال على الأسـوار، ويقـال أن إمـراة كـانت على السـور فـدلـت حبـلا فصعـدوا فيـه، وصار على السـور جماعـة ونصبـوا السلالم وصعـد جماعـة أخرى، ونصبـوا علماً وصاحوا بشعـار نور الديـن ، فوقع على أهـل البلد الخذلان وكسر باب البلد ودخلـت الخيالة منه، وملك نور الـدين دمشق، وكان لأسد الديـن اليد الطولى في فتحها، فولاه نور الديـن أمرها وردّ إليه جميع أحوالها، وفي هذه السنة أقطعه نور الدين الرحبة.

قال الـرئيس أبـو يعلى: في العشر الثاني مـن المحرم وصـل الأمير أسد

الديـن شيركوه رسـولاً من نـور الديـن إلى ظاهـر دمشق، وخيـم بناحيـة القصـب مـن المرج في عسكـر ينـاهـز الألـف، فـأنكـر ذلـك، ووقـع الاستبحـاش منـه واهمال الخروج إليـه لتلقيـه والاختـلاط بـه، وتحرّرت المراسلات فيها اقتضته الحال ولم تسفرعن سـداد ولا نيل مراد، وغلا سعر الأقوات لانقطـاع الواصلين بالغلات، ووصـل نور الديـن في عسكره إلى شيركوه ثالث صفر وخيم بعيون الفـاسريا عند دومة، ورحل في الغد ونزل بيت الأبـار من الغـوطة ، وزحف إلى البلـد من شرقيـه، وزحف إليـه من عسكـره وأحـداثـه الخلـق الكثيرووقـع الطراد بينهـم، ثـم عـاد كـل مـن الفريقين إلى مكـانه، ثم زحف يـوما بعد يوم ، وتـأكد الزحف يـوم الأحد عاشر صفر، وظهر إليـهالعسكر الدمشقي فاندفع بين أيـديهم حتى قربوا من سور باب كيسـان والدباغة من قبلي البلد وليـس على السور أحد من العسكريـة والبلديـة لسوء تـدبير صاحـب الأمر ، غير نفـر يسير لايؤبـه لهم، فتسرع بعض الـرجالة إلى السـور وعليه امـرأة يهودية، فأرسلـت إليه حبلا فصعـد فيه، وحصل على السـور ولم يشعر بـه أحد وتبعه مـن تبعه وأطلعـوا علما نصبوه على السـور وصاحـوا:نور الـدين يـامنصور، وامتنـع الاجناد والـرعية مـن المهانعة لما هـم عليه من المحبـة لنور الـدين وعـدله وحسـن ذكره، وبـادر بعض قطـاعي الخشـب بفأسـه إلى الباب الشرقـي فكسر أغلاقـه، وفتحه فدخل منـه العسكر وسعوا في الطرقـات، ولم يقف أحد بين أيديهم، وفتح بـاب توما، أيضا ودخل الناس منـه، ثم دخل نور الديـن وخواصه ، وسرّ كـافة الناس من الأجنـاد والعسكرية لما هـم عليه من الجوع وغـلاء الاسعار والخوف مـن منازلـة الفرنـج الكفار،وكـان مجير الدين لما أحس بـالغلبة والقهر قد انهزم في خواصه إلى القلعـة وأنفذ إليه فـأومن على نفسـه ومـالـه، وخرج إلى نـور الـديـن فطيب نفسـه ووعـده الجميـل،ودخـل نور الـدين القلعـة في اليـوم المقدّم ذكـره وأمـر بالمنـاداة بالامان للرعيـة والمنع من انتهاب شيء من دورهم وتسرع قـوم من الرعاع والأوباش إلى سـوق علي وغيره فعاثـوا ونهبوا، وأنفـذ نور الـدين إلى أهـل

البلد بها طيب نفوسهم وأزال نفرتهم، وأخرج مجير الدين ما كان له في دوره بالقلعة والخزائن من المال والآلات والأثاث على كثرته إلى الدار الأتابكية دار جدّه، وأقام أياما، ثم تقدم إليه بالمسيرإلى حمص في خواصه ومن أراد الكون معه من أسبابه وأتباعه بعد أن كتب له المنشور باقطاعه عدّة ضياع باعمال حمص برسمه ورسم جنده، وتوجه إلى حمص على القضية المقررة، ثم أحضر نور الدين غد ذلك اليوم أماثل الرعية من القضاة والفقها والتجار وخوطبوا بها زاد في ايناسهم وسرور نفوسهم وحسن النظر لهم بما يعود بصلاح أحوالهم فأكثروا الدعاء له والثناء عليه والشكر لله تعالى على ما أصارهم إليه، ثم تلا ذلك إبطال حقوق دار البطيخ وسوق البقل وضمان الأنهار وأنشأ بذلك المنشور وقرى على المنبر بعد صلاة الجمعة، فاستبشر الناس بصلاح الحال وأعلن الناس برفع الدعاء إلى اللّه تعالى بدوام أيامه ونصرةأعلامه.

وقال ابن الاثير:لما استقل نور الدين في البلد عمل مع أهله مكرمة عظيمة، وأظهر فيهم عدلاً عاماً.

قلت: قد تقدم ذكره في أوّل الكتاب، وسيأتي منه أشياء مفّرقة فيما بعد.

قال: وألقى الاسلام جرانه بدمشق، وثبتت أوتاده ، وأيقن الكفار بالبوار، ووهنوا واستكانوا، وصار جميع ما بالشام من البلاد الاسلامية بيد نور الدين، وأما مجير الدين فإنه أقام بحمص، وراسل أهل دمشق في إثارة الفتنة، فانتهى الأمر إلى نور الدين فخاف أن يحدث ما يشق تلافيه، بل ربما تعذر لاسيما مع مجاورة الأفرنج، فأخذ حمص من مجير الدين وعوّضه عنها مدينة بالس، فلم يرضها، وسار عن الشام إلى العراق، فأقام ببغداد وابتنى دارا تجاور المدرسة النظامية وتوفي بها.

قال: ولما ملك نور الدين دمشق خافه الفرنج وعلموا أنه لايقعد عنهم وعن غزو بلادهم والمبادرة إلى قتالهم، فراسله كل كند وقمص

وتقرّبوا إليه، ثم إن من بتل باشر راسلوه وبذلوا له تسليمها إليه، فأرسل إلى الأمير حسان المنبجي وهو من أكابر أمراء نور الدين واقطاعه منبج فأمره أن يتسلمها منهم، فسار إليها وتسلمها وحصنها ورفع إليها ذخائر كثيرة.

## فصل

قال الرئيس أبو يعلى: وقد كان مجاهد الدين بزان أطلق يوم الفتح من الاعتقال وأعيد إلى داره، ووصل الرئيس مؤيد الدين المسيب إلى دمشق مع ولده النائب عنه في صرخد إلى داره معوّلا على لزومها وترك التعرّض لشيء من التصرفات والأعمال ، فبدا منه من الأسباب المعربة عن إضمار الفساد، والعدول إلى خلاف مناهج السداد والرشاد ما كان داعيا إلى فساد النية فيه، وكان في إحدى رجليه فتح قد طال به ونسيه ، ثم لحقه مرض وانطلاق متدارك أفرط عليه وأسقط قوّته مع فهاق متصل وقلاع في فيه زائد، فقضى نحبه في رابع ربيع الأوّل ودفن في داره، واستبشر الناس بهلاكه والرحمة من سوء أفعاله.

قال: ووردت الأخبار بقتل خليفة مصر الملقب بالظافر بن الحافظ، وأقيم ولده عيسى مقامه وهو صغير يناهز ثلاث سنين، ولقبوه بالفائز ، وعباس الوزير، ثم ورد الخبر بأن الامير فارس الدين طلائع بن رزيك ، وهو من أكابر الأمراء المقدّمين الشجعان المذكورين لما انتهى إليه الخبر وهو غائب عن مصر قلق لذلك وامتعض وجمع واحتشد، وقصد العود إلى مصر، فلما عرف عباس بما جمع خاف الغلبة فتأهب للهرب في خواصه وأسبابه وحرمه وما تهيأ من ماله، وسار مغذاً فلما قرب من أعمال عسقلان وغزة خرج إليه جماعة من خيالة الأفرنج فاغتر بكثرة من معه، وقلة من قصده، فلما حملوا عليه فشل أصحابه وأعانوا عليه وانهزم أقبح هزيمة هو وابنه الصغير وأسر ابنه الكبير الذي قتل العادل بن السلار

مع ولده وحرمه وماله وكراعه، وحصلوا في أيدي الفرنج ومن هرب لقي من الجوع والعطش شدّة، ومات العدد الكثير من الناس والدواب ووصل في أثرهم فارس الدين فوضع السيف فيمن ظفر به، من أصحاب عباس، وانتصب في الوزارة، وتدبير الأمور موضعه، ووصل إلى دمشق منهم من ألجأه الهرب على أشنع صفة من العدم والعري في آخر ربيع الآخر .

قلت: وفي ذلك يقول عمارة اليمنى من قصيدة له:

لكم يا بني رزيك لازال ظلكم
مواطن سحب الموت فيها مواطر
سللتم على عباس بيض صوارم
قهرتم بها سلطانه وهو قاهر

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار أن نصر بن عباس لما قتل ابن السلار وتوزر أبوه عباس، كان نصر يعاشر الخليفة الظافر ويخالطه، وعباس كاره لذلك مستوحش من ابنه لعلمه بمذهب القوم وضرب بعض الناس ببعض حتى يفنوهم، وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على أبيه ومواصلته بالعطايا الكثيرة، ففاتحني في ذلك فنهيته فاطلع والده على الأمر، فاستماله أبوه ولطف به وقرّر معه قتل الظافر، وكانا يخرجان متنكرين وهما تربان سنهما واحد فدعاه إلى داره ورتب من أصحابه معه في جانب الدار نفراً، ثم لما استقرّ به المجلس خرجوا عليه فقتلوه، وذلك سلخ محرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة، ورموه بجب الدار، وأصبح عباس جاء القصر، ضحوة نهار للسلام، وجلس في مجلس الوزارة ينتظر جلوس الظافر ، فلما تجاوز وقت جلوسه استدعى صاحب زمام القصر، وقال: ما لمولانا ما جلس للسلام، فتبلد الاستاذ في الجواب، فصاح عليه وقال: ما لك لاتجاوبني؟ قال: يامولاي مولانا ما ندري أين

هو، قال: مثل مولانا يضيع ارجع واكشف الحال، فمضى ورجع فقال: ما وجدنا مولانا، فقال: يبقى الناس بلا خليفة ادخل إلى الموالي أخوته يخرج منهم واحد لنبايعه، فمضى وعاد، وقال: الموالى يقولون لك: ما لنا في الأمر شيء والدنا عزله عنا، وجعله في الظافر والأمر لولده بعده، قال: أخرجوه حتى نبايعه وعباس قد قتل الظافر وعزم على أن يقول لأخوته أنتم قتلتموه ويقتلهم ، فخرج الظافر ولعل عمره خمس سنين يحمله الأستاذ، فأخذه عباس فحمله وبكى وبكى الناس، ثم دخل به إلى مجلس أبيه وهو حامله وفيه أولاد الحافظ.

قال ابن منقذ: ونحن في الرواق جلوس ، وفي القصر أكثر من ألف رجل من المصريين فما راعنا إلاّ قوم قد خرجوا من المجلس مجتمعين إلى القاعة فإذا السيوف تختلف على إنسان، فقلت لغلام لي أرمني: انظر من هذا المقتول، فمضى وعاد وقال: ما هؤلاء مسلمين هذا مولاي أبو الأمانة جبريل بن الحافظ قد قتلوه، ثم إن واحداً شق بطنه يجذب مصارينه، ثم خرج عباس وهو آخذ برأس الأمير يوسف تحت إبطه وفي رأسه ضربة سيف والدم يفور منها، وأبو البقاء ابن أخيهم مع ابنه نصر، ثم أدخلوهما خزانة في القصر فقتلوهما، وفي الخزانة ألف سيف مجرّد.

قال: وكان ذلك اليوم من أشدّ الايام التي جرت عليّ لأني رأيت من الفساد والبغي ما ينكره اللّه سبحانه، وجميع خلقه.

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في ديوانه قال: كان لعباس أربعمائة جمل تحمل أثقاله ومائتا جنيب، فلما أراد الخروج من مصر يوم الجمعة رابع عشر ربيع الأوّل سنة تسع وأربعين وخمسمائة وقد قام عليه أهل مصر وعسكريتها فارسهم وراجلهم، تقدّم بشدّ خيله وبغاله وجماله ليتحمل ويخرج، فلما صار الجميع على باب داره وقد ملأت ذلك الفضاء إلى

قصر السلطان إلى الإيوان، خرج غلام يقال له عنبر كان على أشغاله وغلمانه كلهم تحت يديه فقال للجمالين والخربندية والركابية:روحوا إلى بيوتكم وسيبوا الدواب، ففعلوا ذلك وانحاز هو إلى المصريين يقاتله معهم، وكان ما جرى من تهميل الدواب لطفا من اللّه تعالى به فإنها سدّت الطريق بينه وبين المصريين، ومنعتهم من الوصول إليه، وهم في خلق كثير، ونحن في قلة ما نبلغ خمسين رجلا، وغلمان عباس ومماليكه في ألف ومائتي غلام بالخيول الجياد والسلاح التام، وثمانمائة فارس من الأتراك خرجوا كلهم من باب النصر ووقفوا في الفضاء الذي بينه وبين رأس الطابية فراراً من القتال، فشرع المصريون في نهب الخيل والجمال

والبغال ، فلما فتحوا طريقهم إليه خرج عباس من باب النصر وجاؤوا في أثره حتى أقفلوا الباب وعادوا إلى نهب دوره، وكان عباس قد أحضر من العرب نحوا من ثلاثة آلاف فارس يتقوّى بهم على المصريين، واستحلفهم ووهبهم هبات عظيمة فلما خرج من باب مصر غدروا به وقاتلوه أشدّ قتال ستة أيام يقاتلهم من الفجر إلى الليل، فإذا نزل أمهلوه إلى نصف الليل ثم يركبون ويهدّون خيلهم على جانب الناس، ويصيحون صيحة واحدة فتجفل الخيل وتقطع، ويخرج إليهم منها ما فيه منعة وقوة، فيأخذونه، فكان ذلك سبب هلاك خيله وتمكن الأفرنج منه واشتغاله عن سلوك طريق لايقصده الفرنج إليه.

قال: ودامت الحرب بينه وبينهم من يوم الجمعة ضحى نهار إلى آخر يوم الخميس، ثم جاؤوا إليهوأخذوامنه حسباً على أموالهم وأنفسهم وبيوتهم ظنا منهم أن له عودة إليهم وانصرفوا عنه وهم أكثر من ثلاثة آلاف فارس، ويوم الأحد صبحهم الأفرنج، وقد هلك الناس من الجوع والعطش، وماتت خيلهم فقتلوا ابنه الأوسط وابنه الأكبر، وقتلوا خلقا كثيرا، وأخذوا نساء عباس وخزائنه، وأسروا أولاداً له صغاراً وانصرفوا.

قلت: عباس هذا هو عباس بن أبي الفتوح بن تميم بن المعزبن باديس الحميري، ويلقب بالأفضل ركن الدين ويكنى بأبي الفضل، ورأيت علامته في الكتب أيام وزارته « الحمد لله وبه أثق» وفيه يقول أسامة بن منقذ:

لقد عم جود الأفضل السيد الورى
وأغنى غناء الغيث حيث يصوب(٧٥)

ومن أبيات لابن أبي أسعد فيه لما قتل الظافر:

وأنفق من انعامهم في هلاكهم
وأظهر ما قد كان عنه تنافق

ومدّ يداً قد طوّلوها إليهم
وحلت بأهل القصر منه البوائق

سقى ربه كاس المنايا وما انقضى
له الشهر إلا وهو للكأس ذائق

وكان عباس قد تخيل من أسامة عند خروجه من مصر، لما يعلمه بينه وبين الملك الصالح من المودّة والمصافاة فأحضره واستحلفه أنه لاينفصل عنه، ثم لم يقنعه ذلك حتى أنفذ من أستاذي داره من يدخل على حرمه إلى داره فأخذ أهله وأولاده فتركهم عند أهله وأولاده.

وقال: قد حملت ثقلهم عنك لهم أسوة بوالدة ناصر الدين ، يعني ولده ناصر الدين وبأخواه ، فلما خرجوا ونهبت دورهم ودوابهم عجز عن حمل من يخصه، فأعادهم أسامة من بلبيس، وأنفذ إلى الملك الصالح يقول له: قد أنفذت أهلي وأولادي إليك، وأنت ولي ما تراه فيهم، فأنزلهم في دار وأجرى عليهم الجاري الواسع وأحسن إليهم غاية الأحسان ، وكان يكاتبه في الرجوع إلى مصر وهو يلطف الأمر معه قصداً لخلاص أهله وأولاده، فلما عرف ذلك منه نسب إلى وحشة قلبه من القصور ونفوره من المصريين، فأنفذإليه يقول له: تصل إلى مكة في الموسم

ويلقاك رسولي إليها يسلم إليك مدينـة أسوان، وأنفذ إليك أهلك وأمدك بالأموال وهـي كما علمت الثغر بيننا وبين السودان، وما يسـدّ ذلك الثغر مثلك وأكثـر من الوعـد وذكر رغبته في قـربه ورعايتـه وما بينه وبينـه من قديم الصحبـة، فاستأذن أسامة في ذلـك الملك العادل نور الـدين، وكان في خدمته فقـال: يافلان ما تسـاوي الحياة الشتات والرجـوع إلى الأخطار والبعـد عن الأوطـان، ومنعـه من ذلـك بإحسـانـه ووعده أن يستخلـص أهله، فكتب أسامة إلى الملك الصالح يعتذر ويسأله تسيير أهله وتردّدت بينهما مكـاتبات وأشعـار متصـلات إلى أن سيرهـم وهم نيـف وخمسـون نسمة في الاكرام والاحترام إلى آخر ولايته .

وذكر أن أهـل القصور والأمـراء أنكروا تسييرهـم وقالـوا: يكون أهلـه رهائن عندنا لنأمن ما يكون منـه، ووصله بعض أصحابه من دمشق وهو في العسكـر النـوري بحلـب فـأخبره أن من كـان لـه بمصر مـن الأهـل والأولاد والأصحاب وصلـوا، وأن المركب انكسرت بهم في سـاحل عكـا، ونهب الفرنج كـل ما فيه ولم يصلوا إلى دمشق إلاّ بـأنفسهم، وأن متملك الافرنـج أعطاهـم خمسمائة دينار أصلحـوا منها حـالهم، وأكتروا ظهـراً إلى دمشق قال أسامة:

إلى اللّـه أشكـو فـرقـة دميـت لها ... جفـوني واذكـت بـالهمـوم ضميري
تمادت إلى أن لاذت النفـس بـالمنـى ... وطـارت بها الاشـواق كـل مطير
فلما قضـى اللّـه اللقـاء تعـرضـت ... مسـاءة دهـري في طـريـق سروري (٧٦)

## فصل

قال أبـو يعلى: وفي آخر ربيـع الأوّل وصل الأمير مجد الـدين أبـو بكر

محمد نائب نور الدين في حلب إلى دمشق عقيب عوده من الحج،وأقام أياما وعاد إلى منصبه في حلب وتدبير أعمالها.

قلت: مجد الدين هذا هو ابن الداية، وكان نور الدين كثير الاعتماد عليه وعلى أخوته وسيتكرر ذكرهم في هذا الكتاب، ومجد الدين أكبر أخوته، وقد مدحه الشعراء قال القيسراني من بعض ما قاله فيه:

دعوا ما مضى من قبل هذا المابعد
فأقسم لولا المجد ما عرف المجد

كريم سمت أوصافه لعفاته
قرائن كل اثنين بينهما عقد

محياه والبشرى ويمناه والندى
ونجواه والدنيا وتقواه والزهد

ففي قربه الزلفى وفي وعده الغنى
وفي نيله الحسنى وفي رأيه الرشد

إذا وجه نور الدين قابل مجده
فقل في كمال البدر قابله السعد

وفي موسم هذه السنة توفي أمير الحرمين هاشم بن فليته، وولي الحرمين ابنه قاسم بن هاشم، وهو الذي أرسل عمارة اليمني الفقيه الشاعر إلى الديار المصرية، وسيأتي ذكره.

قال أبو يعلى: وفي ثامن من جمادى الأولى ورد الخبر من ناحية مصر أن عدة وافرة من مراكب الفرنج من صقلية وصلت إلى مدينة تنيس على حين غفلة من أهلها، فهجمت عليها وقتلت وأسرت وسبت ونهبت، وعادت بالغنائم بعد ثلاثة أيام وتركتها صفراً، وبعد ذلك عاد من كان هرب منها في البحر بعد الحادثة، ومن سلم واختفى وضاقت الصدور عند استماع هذا الخبر المكروه.

- ٧٧٧٣ -

قال: وفي شهر رمضـان ورد الخبر من ناحية حلب بوفـاة القاضي فخر الديـن أبي منصور محمـد بن عبـد الصمد بـن الطرسـوسي، وكان ذا همة ماضيـة ويقظة ومـروءة ظاهـرة، وفي داره وولده ومـن يلم بـه من غـريب ووافد، وقـد نفذ أمـره وتصرفه في أعمال حلب في الأيـام النوريـة، وأثر في الوقوف أثراً حسنا، توفر به ارتفاعها، ثم اعتزل عن ذلك أجمل اعتزال.

# ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة

وفيها تسلم نور الدين بعلبك من واليها ضحاك، ذكر ابن الأثير أن ذلك كان في سنة اثنتين وخمسين، وقال: كان الضحاك البقاعي ينوب ببعلبك عن صاحب دمشق، فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك بها، ولم يمكن نور الدين محاصرتها لقربه من الفرنج، فلطف الحال معه إلى ذلك الوقت، فملكها واستولى عليها.

وقال ابن أبي طي: لما فتح نور الدين دمشق اتصل ذلك بنجم الدين أيوب، فكاتب نور الدين في تسليم بعلبك فأنفذ إليه وتسلمها منه وألحقه بأصحابه.

قال: ورأيت بعض المؤرخين قد ذكر أن مجير الدين صاحب دمشق أنزل نجم الدين من القلعة، وجعله في البلد، وولى القلعة رجلاً يقال له ضحاك، فلما ملك نور الدين دمشق خرج إلى بعلبك واستنزل منها ضحاكا وتوسط أسد الدين في أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين، فأقطعه إقطاعا وسيره إلى دمشق، فأقام فيها ورد نظر دمشق إليه، وولى ولده تور انشاه شحنكية دمشق، فساسها أحسن سياسة ولم يزل بها إلى أن توفي، فولى صلاح الدين شحنكية دمشق .

قلت: هذا وهم، تورانشاه هو الملك المعظم شمس الدولة الذي فتح اليمن في أيام أخيه صلاح الدين،فكيف يقول إنه مات قبل أن يلي صلاح الدين شحنكية دمشق، وأما كونه ولي الشحنكيةبدمشق قبل صلاح الدين فهذا قريب، وقد رأيت ما يؤكده ، قرأت في ديوان العرقلة وقال يهنيه بالشحنكية بدمشق، وهو في دار عمه أسد الدين شيركوه بن شاذي:

قلت لحسادك زيدوا في الحسد ... قد سكن الدار وقد حاز البلد
لا تعجبوا وإن حل دار عمه ... أما تحل الشمس في برج الأسد

وقال في صلاح الدين لما ولي الشحنكية:

لصوص الشام تابوا من ذنوب
تكفرها العقوبة والصفاد
لئن كان الفساد لكم صلاحا
فمولاي الصلاح لكم فساد

وله فيه أيضا:

رويدكم يا لصوص الشـ
ـآم إني لكم ناصح في مقالي
وإياكم وسمي النـ
ـبي يوسف رب الحجى والجمال
فذاك مقطع أيدي النسـ
ـاء وهذا مقطع أيدي الرجال

قال ابن ابى طيّ: وولي صلاح الدين شحنكية دمشق والديوان فأقام فيه أياما، ثم تركه وصار إلى حلب لأجل واقعة جرت بينه وبين صاحب الديوان أبي سالم بن همام ، فأنفذ نور الدين وأخذ ابن همام وحلق لحيته، وطيف به في دمشق.

قلت: وابن همام هذا هو الذي ذكره الشنباسي في قصيدته، وأشار إلى حلق لحيته بقوله:

كأبي سالم بن همام لما
قام للنصح عاد يمشي ملثم

ثم قال ابن أبي طيّ: واستخص نور الدين صلاح الدين وألحقه بخواصه، فكان لايفارقه في سفر ولا حضر، وكان يفوق الناس جميعا في لعب الكرة، وكان نور الدين يحب لعب الكرة .

قال أبو يعلى: ونزل نور الدين بعسكره بالأعمال المختصة بالملك قليج

أرسلان بن الملك مسعـود بن سليمان بن قتلمش ملك قونيـة وما والاها ، فملك عـدّة من حصـونها وقلاعها بـالسيف والأمـان، وكان الملـك قليج أرسـلان وأخواه ذو النـون ودولات مشتغلين بمحاربـة أولاد الدانشمنـد، ونصروا عليهم في وقعـة كانت بـأقصرا في شعبان، فلما عاد قليـج أرسلان وعرف مـا كان من نـور الدين في بلاده عظـم عليه هذا الأمـر، واستبشعه مع مـا بينهما من الموادعـة والمهادنة والصهـر، وراسله بـالمكاتبـة والانكار والوعيد والتهديد فأجابه نـور الدين بحسن الاعتذار وجميل المقال، وبقي الأمـر بينهما مستمـراً على هـذه الحال، وعـاد نور الـديـن مـن حلـب إلى دمشق.

قـال: وولي الاسطـول المصري مقـدّم شديـد البـأس. بصير بـاشغـال البحر، فاختار جماعـة من رجال البحر يتكلمون بلسـان الفرنج، وألبسهم ثيـابهم، ونهض بهم في عـدّة مـن المراكب الاسطـوليـة، وأقلـع في البحـر ليكشـف الأماكـن والمكامـن والمسالـك المعروفـة بمراكـب الروم وتعـرّف أحوالها، ثم قصد ميناء صور وقد ذكـر له أن فيه شختورة رومية كبيرة فيها رجال كثير، ومال وافر، فهجم عليها وملكهـا، وقتل من فيها واستولى على ما حوته، وأقام ثلاثة أيام، ثم أحـرقها وعاد منها في البحر فظفر بمراكب حجاج الفرنج، فقتل وأسر وانتهب وعاد إلى مصر بالغنائم والأسرى.

قلت : وفي هذه السنة ورد أمر الخليفـة ببغداد، وهو المقتفي ، إلى أمير الحرمين قاسـم بن هاشم يـأمره أن يركـب على باب الكعبة المكرّمـة باب ساج جـديدا، قد ألبـس جميع خشبه فضـة وطلي بذهب، وأن يـأخذ أمير الحرمين حلية الباب القديم لنفسه ويسير إليه خشب الباب القديم مجرّداً ليجعله تابوباً يدفن فيه عند مـوته. وذكر ذلك الفقيه عمارة الشاعر وقال: سألني أمير الحرمين أن أبيـع له الفضة التي أخذها مـن الباب في اليمن، ومبلغ وزنها خمسة عشر ألـف درهم فتوجهت إلى زبيد، وعـدت من مكة في صفر سنـة إحدى وخمسين، وحججت في الموسـم منها فـدفعت لأمير

الحرمين ماله، وألزمني الترسل عنه إلى مصر، يعنـي مرة ثانية بسبب جناية جناها خدمه على حاج مصر والشام.

- ٧٧٧٨ -

## ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها حاصر نور الدين قلعة حارم، وهي حصن غربي حلب بالقرب من أنطاكية ، وضيق على أهلها وهي من أمنع الحصون وأحصنها في نحور المسلمين، فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد، وساروا نحوه لمنعه، وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يرجعون إلى رأيه ،فأرسل إليهم يعرّفهم قوّتهم وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه، بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء، وقال لهم: إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارم وغيرها، وإن حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه، ففعلوا ما أشار به عليهم، وراسلوا نور الدين في الصلح على أن يعطوه حصة من حارم، فأبى أن يجيبهم إلاّ على مناصفة الولاية فأجابوه إلى ذلك فصالحهم وعاد.

وفي ذلك يقول بعض الشعراء من قصيدة وذكر أبياتا من قصيدة لابن منير ، وقد سبق أن ابن منير توفي سنة ثمان وأربعين، فأما أن يكون ابن منير قال هذا الشعر في غير هذه الغزاة، وإما أن تكون هذه الغزاة في غير هذه السنة، وقد قرأت في ديوان ابن منير، وقال يمدحه ويهنيه بالعود من غزاة حارم:

ما فوق شأوك في العلى مزداد
فعلام يقلق عزمك الاجهاد
همم ضربن على السماء سرادقا
فالشهب أطناب لها وعماد
أنت الذي خطبت له حساده
والفضل ما اعترفت به الحساد
قام الدليل وسلم الخصم اليلند
وانجلى للآثر الاسناد
زهرت لدولتك البلاد فروحها
ارج المهب ودوحها مياد

أحيا ربيع العدل ميت ربوعها
فالبرض نسج والهشيم مراد
فالعيش إلا في جنابك ميتة
والنوم إلا في حماك سهاد
وإذا العدى زرعوا النفاق واحصدوا
كيدا فعزمك ناقض حصاد
بالمقربات كأن فوق متونها
جن الملا وكأنها أطواد
تدأى ومن وحي الكماة صفورها
فالزجر قيد والندى قياد
سحب إذا سحبت بأرض ذيلها
فالحزن سهل والهضاب وهاد
يهدي النواظر في دجنة نقعها
بدر بسرجك نير وقاد
ألبست دين محمد يا نوره
عزاً له فوق السُّها إسّاد
ما زلت تسمكه بمياد القنا
حتى تثقف عوده المياد
لم يبق مذ أرهفت عزمك دونه
عدد يراع به ولا استعداد
إن المنابر لو تطيق تكلما
حمدتك عن خطبائها الاعواد
ولئن حمت منك الأعادي مهلة
فلهم إلى المرعى الوبيّ معاد
ولكم لكم في أرضهم من مشهد
قامت به لظباكم الاشهاد

ملق بأطراف الفرنجة كلكلا
طرفاه ضرب صادق وجلاد

حـــامـــوا فلما عـــاينـــوا حـــوض الـــردى
حـــامـــوا بـــرائش كيـــدهـــم أو كـــادوا
ورجـــا البرنـــس وقـــد تبرنـــس ذلـــة
حـــرمـــا بحـــارم والمصـــاد مصـــاد
ضجـــت ثعـــالبـــه فـــأخـــرس جـــرسهـــا
بيـــض تنـــاســـب في الحديـــد حـــداد
وســـواعـــد ضربـــت بهنّ وبـــالقنـــا
مـــن دون ملـــة أحمد الاســـداد
يـــركـــزن في حلـــب ومـــن افنـــانها
تجنـــي فـــواكـــه أمنهـــا بغـــداد
يـــا مـــن إذا عصفـــت زعـــازع بـــأســـه
خمدت جحيـــم الشرك فهـــي رمـــاد
عجبـــا لقـــوم حـــاولـــوك وحـــاولـــوا
عـــودا فـــواتـــاهـــم إليـــه مـــراد
ورأوا النصر فـــوقـــك خـــافقـــا
فـــأقـــام منهـــم في الضلـــوع فـــؤاد
مـــن منكـــر أن ينســـف السيـــل الـــربـــا
وأبـــوه ذاك العـــارض المدّاد
أو أن يعيـــد الشمـــس كـــاسفـــة السنـــا
نـــارلها ذاك الشهـــاب زنـــاد
لا ينفـــع الآبـــاء مـــا سمكـــوا مـــن الـــ
ـــعلياء حتـــى تـــرفـــع الأولاد
ملـــك يقيـــد خـــوفـــه ورجـــاؤه
ولقلما تتضـــافـــر الاضـــداد

وقال يهنيه بالنصر يوم حارم قصيدة أوّلها:
للملـــك مـــا تشـــاء مـــن الـــدوام

يقول فيها:

حظيـــت مـــن المعـــالي بـــالمعـــاني
ولاذ النـــاس بعـــدك بـــالاســـامـــي
عـــزيـــز المنتمـــى عـــالي المراقـــي
بعيـــد المرتمى غـــالي المســـامـــي
فما أحـــد إلى العليـــاء يـــدلي
بمحتـــدك القسيمـــي القســـامـــي
أبـــوك المعتلي قمـــم الأعـــادي
إذا استعـــرت مـــذامـــرة القمام
زكـــا عـــرق العـــراق وقـــد تكنـــى
بـــه وأطـــال مـــن شمـــم الشـــآم
وجـــدك جـــدّ حتـــى قـــال قـــوم
على الفلـــك ابتنـــى عمـــد الخيـــام
فخـــرت ففـــت أبـــاء عظـــامـــا
إذا فخـــر المنـــافـــر بـــالعظـــام
وقفنـــا والنـــواظـــر مسجـــدات
وروح العـــز ذاريّ الختـــام
أســـاطـــر كـــالـــزبـــور مفصـــلات
كـــأنـــا مـــن صـــلاة في نظـــام
لـــدى ملـــك سجـــايـــاه سجـــال
تعـــاقـــب بين عفـــو وانتقـــام
كـــريـــم أكثـــرت يـــده أيـــادى الـــ
ـــعفاة وقللـــت عـــدد الكـــرام
فـــأهللنـــا الســـالفتـــي هـــلال
وكفـــرنـــا الضـــاحكتـــي حســـام
ذهلنـــا والسماط تخال سمطـــا
وقـــد سجـــد المقـــاول للســـلام
هـــل الـــدســـت استقـــل بليـــث غـــاب
أم الفلـــك ارتـــدى بـــدر التمام

- ٧٧٨٢ -

يطرب به إلى العلياء نفس
غروب عن ملاءمة الملام
وخير سماعه ضرب مدام
إذا طرب الملوك إلى المدام
سقى اللّه العوامل من جبان
شققن النقع عن نقع الاوام
فكم انتجت من أمل عقيم
بها وحسمت من داء عقام
بإنب والرعال كأن ثولا
تطاوح تحت عير من أيام
مقام كنت قطب رحاه أرجى
مقام بين زمزم والمقام
رميتهم بأرعن مرجحنّ
ابارهم وكنت أبرّ رام
وقمت وقد تناعس كل راع
وقام وقد تقاعس كل حام
فأيدي الخيل تذرع بحر لج
من الدم من يد التثخين طام
أحلت الدين فيه وكان هما
عزيز القوم معتدل القوام
وفي شجراء حارم شاجرتهم
سواهم كالسهام بكا السهام
نظائر حممت لهم حماما
تطاير تحته مثل الحمام
فلو قد مثل الاسلام شخصا
لرشف ما وطئت من السلام
فاكذب مدّعين هفوا وغرّوا
بأن الأرض تخلو من همام

أولى لأبصاركم هذا التعاشي
عن النور المبين بل التعامي

عن القمر الذي يجلوه ظل الـ
ـعواصم في ضيا الليل التهامي

هو المهدي لا من ضل فيه
كثير واستخف سوى هشام

وقائع عصرنا لا ما تمنى
به من صوغ أضغاث المنام

بنور الدين أنشر كل حق
أطيل ثواؤه تحت الرجام

وطالت قبة الاسلام حتى اسـ
ـتوت بين الفوارس والنعام

تطابق لاسمه لفظ ومعنى
أحلاه الطباق على الأنام

جرى قدّامه ابن سبكتكين
وقبل الوبل هينمة الرهام

وكان من النجوم بحيث تومي
إليه من عنايات التكامي

وجئت فصار أشمخ ما بناه
لما شيدت الطأمن رغام

أطاعك إذ أطعت اللّه جدّ
ركبت به الزمان بلا زمام

ألا يا ربها اتفق الاسامي
وفاضل بينها درج التسامي

جنى شرفا من استغواه حتف
إليك وكم حياة من حمام

ترشفك الكماة وأنت موت
كأنك من طعان في طعام

# فصل

قال الرئيس أبو يعلى: توجه نور الدين إلى ناحية حلب في بعض عسكره في الرابع والعشرين من صفر عند انتهاء خبر الفرنج إليه بعيثهم في أعمال حلب وإفسادهم وصادفه في طريقه المبشر بظفر عسكره الحلبي بالافرنج المفسدين على حارم وقتل جماعة منهم وأسرهم، ووصل مع المبشر عدّة وافرة من رؤوس الأفرنج المذكورين وطيف بها في دمشق.

قال: وعاد نور الدين إلى دمشق في بعض أيام رمضان سالماً بعد تهذيب حلب وأعمالها وتفقد أحوالها، واستقرّت الموادعة بينه وبين ولد السلطان مسعود صاحب قونية وزال ماكان حدث بينهما، وفي شوال تقرّرت الموادعة والمهادنة بينه وبين ملك الأفرنج مدّة سنة كاملة، أوّلها شعبان وأن المقاطعة المحمولة إليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صورية، وكتبتا المواصفة بذلك بعد أن تأكيدها بالأيمان والمواثيق المشدّدة.

قال: وفي العشر الآخر من ذي الحجة غدر الفرنج ونقضوا ما كان استقر من الموادعة والمهادنة بحكم وصول عدّة وافرة من الفرنج في البحر وقوّة شوكتهم بهم، ونهضوا إلى ناحية الشعراء المجاورة لبانياس، وقد اجتمع فيها من جشارات الخيول العسكرية والرعية وعوامل فلاحي الضياع ومواشي الجلابين والعرب والفلاحين الشيء الكثير الذي لايحصى فيذكر للحاجة إلى الرعي بها، والسكون إلى الهدنة المستقرّة، ووقع للمندوبين وبحفظها تقصير فانتهزوا الفرصة واستاقوا جميع ما وجدوه، وأقفروا أهله منه مع من أسروه من التركمان وغيرهم وعادوا غانمين ظافرين أمنين، واللّه عادل في حكمه يتولى المكافأة لهم والادالة منهم، وقد فعل سبحانه ذلك على ما سيأتي في حوادث السنة الآتية.

وفيها توفي القاضي أبو الفتح محمود بن اسماعيل بن قادوس، كاتب الانشاء بالحضرة المصرية، وأصله من دمياط، ذكره العماد الكاتب في الخريدة وأثنى عليه، ومن شعره في رجل كان يكثر التكبير في آخر الصلاة.

وفاتر النية عنينها ... مع كثرة الرعدة والهمزه
مكبر سبعين في مرة ... كأنه صلى على حمزه

وله في وصف كتاب:

مداده في الطرس لما بدا ... قبله الصب ومن يزهد
كأنما قد حل فيه اللما ... أو ذاب فيه الحجر الأسود

وبلغني أن القاضي الفاضل كان يعظمه كثيراً ويسميه ذا البلاغتين، وهو أحد من اشتغل الفاضل عليه، وكان لايتمكن من اقتباس فوائده غالبا إلاّ في ركوبه من القصر إلى منزله بمصر، ومن منزله إلى القصر فيسايره الفاضل ويجاريه في فنون الكتابة والآداب والشعر.

قال: وفيها في يوم الثلاثاء الثالث من ربيع الأوّل من هذه السنة توفي الفقيه الزاهد أبو البيان نبأبن محمد المعروف بابن الحوراني، وكان حسن الطريقة مذ نشأ صبيا إلى أن قضى متدينا نقيا عفيفا سخيا محباً للعلم والأدب والمطالعة للغة العرب، وكان له عند خروج سريره لقبره في مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الصحابة من الشهداء رضي الله عنهم يوم مشهود من كثرة المتأسفين له والمثنين عليه.

قلت: وفي هذه السنة والتي بعدها كثرت الزلازل بالشام.

قال أبو يعلى: في ليلة الثاني والعشرين من ربيع الأوّل وافت زلزلة هائلة، وجاءت قبلها وبعدها مثلها في النهار، وفي الليل ثم جاء بعد ذلك ثلاث دونهنّ بحيث أحصين ست مرات، وفي ليلة الخامس والعشرين منه جاءت زلزلة ارتاع الناس منها في أوّل النهار وآخره، وتواصلت الأخبار من ناحية حلب وحماه بانهدام مواضع كثيرة وانهدام برج من أبراج افامية، بهذه الزلازل المباركة، وذكر أن الذي أحصي عدده منها تقدير الأربعين، وما عرف مثل ذلك في السنين الماضية والأعصار الخالية، وفي التاسع والعشرين من الشهر بعينه وافت زلزلة آخر النهار وبالليل ثانية في آخره، وفي أوّل شهر رمضان زلزلة مروعة وثانية وثالثة، وفي ثالث رمضان ثلاث زلازل، وأخرى وقت الظهر، وأخرى هائلة أيقظت النيام وروّعت القلوب انتصاف الليل ، وفي ليلة نصف رمضان زلزلة هائلة أعظم مما سبق، وعند الصباح أخرى، وفي الليلة التي تلتها زلزلتان أوّلها وآخرها، وفي اليوم الذي بعد يومها، وفي ليلة الثالث والعشرين زلزلة مزعجة، وفي ثاني شوّال زلزلة أعظم مما تقدّم، وفي سابعه وسادس عشره، ، وفي اليوم الذي جاء بعده أربع زلازل، وليلة الثاني والعشرين منه، ودفع اللّه تعالى عن دمشق وضواحيها ما خاف أهلها من توالي ذلك وتتابعه برأفته بهم ورحمته لهم، فله الحمد والشكر، لكن وردت الأخبار من ناحية حلب بكثرة ذلك فيها وانهدام مساكنها، وأما شيزر فإن الكثير من مساكنها انهدم على سكانه بحيث قتل منهم العدد الكثير، وأما كفر طاب فهرب أهلها منها خوفاً على أرواحهم، وأمّا حماه فكانت كذلك، وأمّا باقي الأعمال الشامية فما عرف ما حدث فيها من هذه القدرة الباهرة ، واللّه أعلم.

# ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

ففي ليلة تاسع عشر صفر وافت زلـزلة عظيمة، وتلاها أخرى وكذا في ليلة العشريـن واليوم بعدهـا، وتواصلت الأخبـار من الشام بعظيـم تأثير هذه الزلازل ، وفي ليلـة الخامس والعشرين من جمادى الأولى وافـت أربع زلازل، وضج الناس بـالتهليل والتسبيح والتقديـس، وفي ليلة رابع جمادى الآخرة وافت زلزلتان وترادفت الأخبـار من ناحية الشمال بأن هذه الزلازل أثـرت في حلـب تـأثيرا أزعـج أهلها وأقلقهـم وكـذا في حمص وهـدمـت مواضـع فيها، وفي حماه وكفـر طاب وأفاميـة ، وهدمت مـا كان بنـي من مهدوم الزلازل، وحكـي أن تيماء أثرت فيها هذه الـزلازل تأثيرا مهولاً، وفي رابـع رجب نهاراً وافـت بـدمشـق زلزلـة عظيمـة لم يـر مثلها فيما تقـدّم، ودامـت رجفاتها حتـى خاف النـاس على أنفسهـم ومنازلهم وهـربوا مـن الـدور والسقائف وانـزعجوا وأثـرت في مـواضع كثيرة، ورمـت من فـص الجامع الشيء الكثير الذي يعجـز عن إعادته، ثم وافت عقيبهـا زلزلة في الحال، ثـم سكنتـا بقدرة مـن حـركهـا، ثـم تبـع ذلك في أول ليلـة اليـوم المذكور زلـزلة، وفي وسطـه زلزلة، وفي آخـره زلزلة،وفي ليلـة الجمعة ثـامن رجب زلزلة مهـولة أزعجت الناس ، وتلاها في النصف منهـا ثانية، وعند انبلاج الصبـح ثالثة، وكـذلك في ليلـة السبت وليلة الأحـد وليلة الاثنين، وتتابعت بعـد ذلك بما يطول الشرح ، ووردت الاخبار مـن ناحية الشمال بما يسـوء سماعـه، ويرعـب النفـوس ذكـره بحيث انهدمـت حماه وقلعتهـا وسائر دورها ومنازلها على أهلها مـن الشيوخ والشبان والأطفال والنسوان، وهم العـدد الكبير والجم الغفير، بحيث لم يسلم منهـم إلاّ القليل اليسير، وأمّا شيزر فـان ربضها سلـم الا ما كان خرب أوّلا، وأمّـا حصنها المشهور فإنـه انهدم على واليها تاج الـدولة بن أبي العساكـربن منقذومـن تبعه إلاّ اليسير ممن كان خارجـا، وأمّا حمص فانّ أهلها كانوا قـد قد اختلفوا منها إلى ظـاهرهـا فسلمـوا، وتلفـت مساكنهـم، وتلفـت قلعتهـا، وأمّا حلـب

فهدمت بعض دورها وخرج أهلها منها إلى ظاهر البلد، وكفر طاب وأفامية وما والاها ودنا منها وبعد عنها من الحصون والمعاقل إلى جبلة وجبيل ، وأتلفت سلمية وما اتصل بها إلى ناحية الرحبة وما جاورها،ولولم يدرك العباد والبلاد رحمة اللّه تعالى ولطفه لكان الخطب أفظع، وقد نظم في ذلك من قال:

روّعتنا زلازل حادثات
بقضاء قضاه رب السماء

هدمت حصن شيزر وحماة
أهلكت أهله بسوء القضاء

وبلادا كثيرة وحصونا
وثغورا موثقات البناء

وإذا ما رنت عيون إليها
أجرت الدمع عندها بالدماء

وإذا ما قضى من اللّه أمر
سابق في عباده بالمضاء

حار قلب اللبيب فيه ومن كا
ن له فطنة وحسن ذكاء

وتراه مسبحا باكي العيـ
ـن مروعا من سخطه وبلاء

جل ربي في ملكه وتعالى
عن مقال الجهال والسفهاء

قال: وأما أهل دمشق فلما وافتهم الزلزلة في ليلة الاثنين التاسع والعشرين من رجب ارتاع الناس من هولها وأجفلوا من منازلهم والأماكن المسقفة إلى الجامع والاماكن الخالية من البنيان خوفاً على أنفسهم، ووافت بعد ذلك أخرى ففتح البلد وخرج الناس إلى ظاهره والبساتين والصحراء وأقاموا عدّة ليال وأيام على الخوف والجزع يسبحون ويهللون ويرغبون إلى خالقهم ورازقهم في اللطف بهم والعفو عنهم.

قال: وفي الرابع والعشرين من رمضان وافت دمشق زلزلة عظيمة روعت الناس وأزعجتهم لما وقع في نفوسهم مما قد جرى على بلاد الشام من تتابع الزلازل فيها، ووافت الأخبار من ناحية حلبْ بأنّ هذه الزلزلة جاءت فيها هائلة فقلقلت من دورها وجدرانها العدد الكثير، وأنها كانت بحماه أعظم مما كانت في غيرها وأنها هدمت ما كان عمر فيها من بيوت يلتجىء إليها وأنها دامت أياما كثيرة في كل يوم عدّة وافرة من الرجفات الهائلة يتبعها صيحات مختلفات توفي على أصوات الرعود القاصفة المزعجة، فسبحان من له الحكم والأمر، وتلا ذلك ردفات متوالية أخف من غيرهنّ، فلما كانت ليلة السبت العاشر من شوال، وافت زلزلة هائلة بعد صلاة العشاء، الآخرة، أزعجت وأقلقت، وتلاها في إثرها، هزة خفيفة، وكذا في ليلة العاشر من ذي القعدة وفي غدها زلازل ، وليلة الثالث والعشرين والخامس والعشرين منه أيضا زلازل نفرالناس من هولها إلى الجوامع والأماكن المنكشفة، وضجوا بالتكبير والتهليل والتسبيح والدعاء والتضرع إلى الله تعالى، وفي يوم الجمعة انسلاخ ذي القعدة وافت زلزلة رجفت لها الأرض، وانزعج لها الناس.

قال ابن الأثير: في سنة اثنتين وخمسين كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة أخربت البلاد وأهلكت العباد، وكان أشدها بمدينة حماه وحصن شيزر فإنهما خربا بالمرّة، وكذا ما جاورهما كحصن بارين والمعرّة، وغيرها من البلاد والقرايا، وهلك تحت الهدم من الخلق ما لايحصه إلاّ اللّه تعالى، وتهدمت الأسوار والدور والقلاع، ولولا أن اللّه منّ على المسلمين بنور الدين جمع وحفظ البلاد، وإلاّ كان دخلها الأفرنج بغير حصار ولا قتال.

وقال: ولقد بلغني من كثرة الهلكى أنّ بعض المعلمين بحماه ذكر أنه فارق المكتب لمهمّ فجاءت الزلزلة فأخربت الدور، وسقط المكتب على

الصبيان جميعهم، قال المعلم: فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب.

قلت: وقرأت في ديوان الأمير الفاضل مؤيد الدولة أسامة بن مرشد ابن منقذ، وقال في الزلازل التي أهلكت كثيرا من أهل الشام وكان ابتداؤها في شهر الله رجب سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وهلك بها من هلك من الخلق وكان نحوا من عشرة آلاف نسمة، قال وكتب هذا المكتوب والزلازل إلى الآن تتعاهد البلاد:

نمنا عن الموت والمعاد وأصبحـ
ـنا نظن اليقين احلاما
فحركتنا هذي الزلازل أي
تيقظوا كم ينام من ناما(٧٧)

وقال أيضا:

أيها الغافلون عن سكرة المو
ت واذلا يسوغ في الحلق ريق
كم إلى كم هذا التشاغل والغفـ
ـلة حار الساري وضل الطريق
إنما هزت الزلازل هذي الـ
ـلارض بالغافلين كي يستفيقوا(٧٨)

وقال في الزلازل أيضا وقد سكن الناس بعد الدور النزهة في أكواخ عملوها بالأخشاب لئلا تهدّها الزلازل:

يا أرحم الراحمين أرحم عبادك من
هذي الزلازل فهي الهلك والعطب
ماجت بهم أرضهم حتى كأنهم
ركاب بحر من الانفاس يضطرب
فنصفهم هلكوا فيها ونصفهم
لمصرع السلف الماضين يرتقب

تعوّضوا من مشيدات المنازل بالـ
ـلاكواخ فهي قبور سقفها خشب

كأنها سفن قد أقبلت وهم
فيها فلا ملجأ منها ولا هرب (٧٩)

وقال: يرثي أهله الذين هلكوا بالزلازل بحصن شيزر قصيدة منها:

ما استدرج الموت قومي في هلاكهم
ولا تخرمهم مثنى ووحدانا

فكنت اصبر عنهم صبر محتسب
وأحمد الخطب فيهم عز أو هانا

واقتدي بالورى قبلي فكم فقدوا
أخا وكم فارقوا أهلا وجيرانا

لكن سقب المنايا وسط جمعهم
رغا فخروا على الأذقان اذعانا

وفاجأتهم من الأيام قارعة
سقتهم بكؤوس الموت ذيفانا

ماتوا جميعا كرجع الطرف وانقرضوا
هل ما ترى تارك الحين إنسانا

اعزز علي بهم من معشر صبروا
على الحفيظة إن ذو لوثة لانا

لم يترك الدهر لي من بعد فقدهم
قلبا أجشمه صبرا وسلوانا

فلو رأوني لقالوا مات أسعدنا
وعاش للهم والأحزان اشقانا

لم يترك الموت منهم من يخبرني
عنهم فيوضح ما قالوه تبيانا

بادوا جميعا وما شادوا فواعجبا
للخطب أهلك عمارا وعمرانا

هـــذي قصـــورهـــم أمســـت قبـــورهـــم
كـــذاك كـــانـــوا بها مـــن قبـــل سكـــانـــا

ويـــح الـــزلازل أفنـــت معشري فـــإذا
ذكـــرتهم خلتنـــي في القـــوم سكـــرانـــا
لا ألتقـــى الـــدهـــر مـــن بعـــد الـــزلازل مـــا
حييـــت إلاّ كسير القلـــب حيرانـــا
أخنـــت على معشري الادنين فـــاصطلمـــت
منهـــم كهـــولا وشبـــانـــا وولـــدانـــا
لم يحمهـــم حصنهـــم منهـــا ولا رهبـــت
بـــأســـا تنـــاذرة الأقـــران أزمـــانـــا
إن اقفـــرت شيـــزر منهـــم فهـــم جعلـــوا
منيـــع أســـوارهـــا بيضـــا وخـــرصـــانـــا
هـــم حموهـــا فلـــو شـــاهـــدتهم وهـــم
بها الشـــاهـــدت آســـادا وخفـــانـــا
تـــراهـــم في الـــورى أســـد ويـــوم نـــدى
غيثـــا مغيثـــا وفي الظلماء رهبـــانـــا
بنـــو أبي وبنـــو عمـــي دمـــي دمهـــم
وإن أروني منـــاواة وشنـــأنـــا
يطيـــب النفـــس عنهـــم انهم رحلـــوا
وخلفـــوني على الاثـــار عجـــلانـــا(٨٠)

وكتب إليه الصالح بن رزيك قصيدة يعزيه عن أهله منها:

بـــأبـــى شخصـــك الـــذي لا يغيـــب
عـــن عيـــانـــى فهـــو البعيـــد القـــريـــب
يـــا أخـــلاي بـــالشـــام إن غبـــ
ـــتم فشـــوقـــي إليكـــم لا يغيـــب
غصبتنـــا الايـــام قـــربكـــم منـــ
ـــا ولا بـــد أن تـــردّ الغصـــوب

كـــــره الشـــــام أهلـــــه فهـــــو محقـــــو
ق بـــــأن لا يقيـــــم فيـــــه لبيـــــب

إن تجلـــت عنـــه الحروب قليـــلا
خلفتهـــا زلازل وخطـــوب
رقصـــت أرضـــه عشيـــة غنـــى الـــ
ـــرعد في الجوّ والكـــريـــم طـــروب
وتثنـــت حيطـــانـــه إذا مـــالتـــ
ـــها شمال بـــزمـــرهـــا وجنـــوب
لا هبـــوب لنـــائم مـــن أمـــانيـــ
ـــه وللعـــاصفـــات فيهـــا هبـــوب
وأرى البرق شـــامتـــا ضـــاحـــك السـ
ـــن وللجـــوّ بـــالغمام قطـــوب
ذكـــروا أنـــه يـــذوب بـــه السحـــ
ـــب فما للصخـــور أيضـــا تـــذوب
أبـــذنـــب أصـــابها قـــدر اللـــ
ـــه فللأرض كـــالأنـــام ذنـــوب
إن ظنـــي والظـــن مثـــل سهـــام الـــ
ـــرمي منهـــا المخطـــى ومنهـــا المصيـــب
إن هـــذا الأن غـــدت ســـاحـــة القـــد
س ومـــا لـــلاســـلام فيهـــا نصيـــب
منـــزل الـــوحـــي قبـــل بعـــث رســـول اللـــ
ـــه فهـــو المحجـــوج والمحجـــوب
نـــزلـــت وسطـــه الخنـــازيـــر والخمـــ
ـــرو بـــارى النـــاقـــوس فيـــه الصليـــب
لـــو رآه المسيـــح لم يـــرض فعـــلا
ذكـــروا أنـــه لـــه منســـوب
لهف نفسي على ديـــار مـــن السكـــ
ـــان أقـــوت فليـــس فيهـــا مجيـــب

أن تخصيصكم نوائب مازا
لت لكم دون من سواكم تنوب

أبعد الناس عن عبادة رب النـ
ـاس قوم إلههم مصلوب

فاحتسب ما أصاب قومك مجد
الدين واصبر فالحادثات ضروب

فكذاك القناة يكسر يوم الـ
ـروع منها صدر وتبقي الكعوب

وقرأت في ديوان العرقلة كان المولى صلاح الدين يوسف بن أيوب مع عبيد غلام المولى، وكان عبيد هذا موصوفا بالثقل في بيت بمدينة حماه يوم الزلزلة فوقعت المدينة بأسرها سوى ذلك البيت الذي هما فيه، فقال العرقلة:

قل لصلاح الدين رب الندى
بلغ عبيدا كل ما أمله

بثقله لما تصاحبتما
سلمك اللّه من الزلزلة

قرأت في بعض كتب أبي الحسين الرازي عن شيوخه أنه وقع بدمشق في ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومائتين زلازل عظيمة، حكى عنها نحو مما مضى ذكره، وأكثر ، نسأل اللّه تعالى تمام العافية.

## فصل

قال الرئيس أبو يعلى: في ثالث عشر ربيع الأوّل توجه نور الدين إلى ناحية بعلبك لتفقد أحوالها، وتقرير أمر المستحفظين لها، وتواصلت الأخبار من ناحية حمص وحماه باغارة الفرنج الملاعين على تلك الأعمال،

وفي خامس عشر ربيع الأوّل ورد المبشر من العسكر المنصور برأس الماء بأن ناصر الدين أمير أميران لما انتهى إليه خبر الفرنج أنهم قد أنهضوا سرية وافرة العدد إلى ناحية بانياس لتقويتها، أسرع النهضة إليهم وعدتهم سبعمائة فارس سوى الرجالة فأدركهم قبل الوصول إلى بانياس، وقد خرج إليهم من كان فيها من حماتها فأوقع بهم، وقد كان كمن لهم في مواضع كمناء من شجعان الأتراك ، واندفع المسلمون بين أيديهم في أوّل المجال ، وظهر عليهم الكمناء فأنزل اللّه نصره على المسلمين، بحيث لم ينج منهم إلا القليل ، وصاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير، وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم وسلاحهم وأموالهم وأسراهم ورؤوس قتلاهم ما لايحد كثرة، ومحقت السيوف عامة رجالتهم من الأفرنج ومسلمي جبل عاملة المضافين إليهم، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى والعدد إلى دمشق، وطيف بهم، وقد اجتمع لمشاهدتهم الخلق، وكان يوما مشهوداً، وأنفذ نور الدين إلى بعلبك جماعة من أسرى المشركين، فأمر بضرب أعناقهم صبراً.

قال: وتبع هذا الفتح ورود البشرى الثانية من أسد الدين باجتماع العدد الكثير إليه من شجعان التركمان، وأنه قد ظفر من المشركين بسرية وافرة ظهرت في معاقلهم من ناحية الشمال فانهزمت ، وتخطف التركمان منهم من ظفروا به،

قال: ووصل أسد الدين إلى بعلبك في العسكر من مقدّمي التركمان وأبطالهم للجهاد، وهم في العدد الكثير والجم الغفير، واجتمعوا بنور الدين وتقرّرت الحال على قصد بلاد المشركين لتدويخها، والابتداء بالنزول على بانياس، وقدم نور الدين دمشق في إخراج آلات الحروب وتجهيزها إلى العسكر بحيث يقيم أياما يسيرة ويتوجه، وأمر بالنداء بدمشق في الغزاة والمجاهدين، فتبعه من الأحداث والمطوّعة والفقهاء والصوفية والمتدينين خلق كثير، وخرج يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأوّل، وفي

سابع ربيع الآخر عقيب نزول نور الدين على بانياس ومضايقته لها بالمنجنيقات والحرب، سقط بدمشق الطائر من العسكر المنصور بظاهر بانياس يتضمن كتابه الاعلام بورود المبشر من معسكر أسد الدين بناحية هونين في التركمان والعرب، بأنّ الافرنج خذلهم اللّه تعالى أنهضوا سرّية من أعيان مقدّميهم وأبطالهم تزيد على مائة فارس سوى أتباعهم لكبس المذكورين ظنا منهم بأنهم في قل، ولم يعلموا أنهم في ألوف، فلما دنوا منهم وثبوا إليهم كالليوث إلى فرائسها، فأطبقوا عليهم بالقتل والأسر والسلب، ولم يبق منهم إلاّ اليسير، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى وعددهم من الخيول المنتخبة والطوارق والقنطاريات إلى دمشق، وطيف بهم فيه يوم الإثنين تالي اليوم المذكور.

قال: وتلا هذه الموهبة المتجدّدة سقوط الطائر من المعسكر المحروس ببانياس في يوم الثلاثاء تلو المذكور، يذكر افتتاح مدينة بانياس بالسيف قهرا على مضي أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور عند تناهي النقب وإطلاق النار فيه وسقوط البرج المنقوب، وهجوم الرجال فيه وبذل السيف في قتل من فيه ونهب ما حواه، وانهزام من سلم إلى القلعة وانحصارهم بها، وأن أخذهم بمشيئة اللّه تعالى لايبطىء، والله يسهله ويعجله.

قال: واتفق بعد ذلك أن الفرنج تجمعوا من معاقلهم عازمين على استنقاذ الهنفري صاحب بانياس ومن معه من أصحابه المحصورين بقلعة بانياس، وقد أشرفوا على الهلاك وبادروا وبالغوا في السؤال لنور الدين الأمان ويسلمون ما في أيديهم من القلعة وماحوته لينجوا سالمين، فلم يجبهم إلى ما سألوه ورغبوافيه، فلما وصل ملك الأفرنج في جمعه من الفارس والراجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العسكرين النازل على بانياس لحصارها، والنازل على الطريق لمنع الواصل إليها، اقتضت السياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا إليها واستخلصوا من كان فيها،

وحين شاهدوا ماعم بانياس من إخراب سورها ومنازل سكانها يئسوا من عمارتها بعد خرابها.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى سقطت الاطيار بالكتب من المعسكر النوري تتضمن الاعلام بأنّ الملك العادل نور الدين أعز الله نصره لما عرف أنّ معسكر الكفرة الأفرنج على الملاحة بين طبرية وبانياس، نهض في عسكره المنصور، من الاتراك و العرب، وجدّ في السير فلما شارفهم وهم غارون وشاهدوا راياته قد اظلتهم بادروا بلبس السلاح والركوب، وافترقوا أربع فرق، وحملوا على المسلمين فعند ذلك ترجل الملك العادل نور الدين فترجلت معه الأبطال وأرهقوهم بالسهام وخرصان الرماح حتى تزلزلت بهم الأقدام، ودهمهم البوار والحمام، فأنزل اللّه نصره على المسلمين وتمكنوا من فرسانهم قتلا وأسرا، واستأصلت السيوف الرجالة ، وهم العدد الكثير، فلم يفلت منهم غير عشرة نفر، وقيل إن ملكهم لعنه اللّه فيهم، وقيل إنه في جملة القتلى، ولم يعرف له خبر، ولم يفقد من عسكر الاسلام سوى رجلين أحدهما من الأبطال المذكورين، وقتل عند حضور أجله إلى رحمة الله، والآخر غريب لايعرف، وكل منهما مضى شهيدا مثابا مأجورا رحمهما الله، وقتل أربعة من شجعان الكفرة، وامتلأت أيدى العساكر من خيولهم وعددهم وكراعهم وأثاث سوادهم، وحصلت كنيستهم في يد الملك نور الدين بآلاتها المشهورة، وكان فتحا مبينا ونصراً عزيزاً، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى إلى دمشق يوم الأحد تالي يوم الفتح، وقد رتبوا على كل جمل فارسين من أبطالهم ومعهما راية من راياتهم منشورة ، وفيها من جلود رؤوسهم بشعرها عدّة، والمقدمون منهم وولاة المعاقل والأعمال كل واحد منهم على فرس، وعليه الزردية والخوذة، وفي يده راية، والرجالة كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر في حبل، وخرج من أهل البلد الخلق الذي لايحصى لهم من عدد:الشيوخ والشبان والنساء والصبيان، لمشاهدة ما منح الله تعالى ذكره كافة المسلمين من هذا النصر المبين وأكثروا شكر الله تعالى والدعاء لنور الدين المحامي

عنهم المرامي دونهم، والثناء على مكارمه والوصف لمحاسنة ونظم في ذلك أبيات في هذا المعنى:

مـــارأينــا فيما تقـــدّم يـــومـــا
كـــامـــل الحســـن غـــايـــة في البهـــاء

مثـــل يـــوم الفـــرنـــج حين علتهـــم
ذلـــــة الاسر والبـــــلا والفنـــــاء

وبـــــرايـــــاتهم على العيـــــس زفـــوا
بين ذلّ وحسرة وعنـــــــــــــــاء

بعـــــد عـــــزلهم وهيبـــــة ذكـــــر
في مصـــــاف الحروب والهيجـــــاء

هكـــــذا هكـــــذا هـــــلاك الأعـــادي
عنـــد شـــنّ الاغـــارة الشعـــواء

شـــؤم أخـــذ الجشـــار كـــان وبـــالا
عمهـــم في صبـــاحهـــم والمســـاء

نقضـــوا هـــدنـــة الصـــلاح بجهـــل
بعـــد تـــأكيـــدهـــا بحســـن الـــوفـــاء

فلقـــوا بغيهـــم بما كـــان منهـــم
مـــن فســـاد بجهلهـــم واعتـــداء

لاحمى اللّـــه شملهـــم مـــن شتـــات
بمـــواض تفـــوق حـــدّا المضـــاء

فجـــزاء الكفـــور قتـــل وأسر
وجـــزاء الشكـــور خير الجزاء

ولـــرب العبـــاد حمد وشكـــر
دائم مـــع تـــواصـــل النعماء

قـال: وشرع نـور الديـن في قصـد أعمالهم لتملكهـا وتدويخهـا، والله المعين والموفق.

وقـال ابن أبي طـي: في سنـة اثنتين وخمسين أغـارت الفرنـج على بلـد حمص وحماة، وأفسدوا وأكثـروا العيث، واتصل ذلـك بنور الديـن فأنهض إليهـم عسكرا كثيفـا فأوقـع بهم وهزمهـم إلى أرض بانيـاس، وخرج نـور الديـن حتى نـزل على بانيـاس وحاصرهـا أشدّ حصـار حتى افتتحهـا في الثامن والعشرين من ربيع الأوّل، وأخذ جميـع ما كان للفرنج فيها، وأنفذ الغنيمـة والأسارى مـع أسد الـدين إلى دمشـق، وأنفذ معـه مقدار ألـف رأس، واتصل ذلك بالفرنج، فأنهضت إلى معـارضة أسد الدين قطعة من خيالتها ، واتصل هذا بأسد الديـن وقد دهمته الفرنج فلبس لأمته، وتقدّم في جماعـة من مماليكه بين يـدي العسكر، وأمـر الـرجال بلقـاء الفرنـج وناجـزهم الحرب فلم يتماسكـوا بين يديـه ورجعوا على أدبارهـم، وتبعـهم مقـدار فـرسخين يقتـل ويـأسر، وغنـم منهـم غنيمـة حسنـة ، وعـاد إلى أصحابه ظافراً، وتـوجه في وجهته مؤيدا.

# فصل

قال الـرئيس أبـو يعلى: وفي الثاني عشر مـن جمادى الآخرة، تـواصلت الأخبار بوصـول ولد السلطان مسعود في خلق كثير للنـزول على أنطاكية، وأوجبت الصورة تقـرير المهادنة بين نـور الدين وملك الأفـرنج، وتكرّرت المراسلات بينهما والاقتراحات والمشـاجرات بحيث فسد الأمـر، ولم يستقرّ على مصلحة، ووصل نور الدين إلى مقرّ عزه في بعض عسكره، وأقر باقيه ومقدّميه مع العرب بازاء أعمال المشركين.

قـال: وفي ثالـث رجب تـوجه نـور الـدين إلى نـاحية حلـب وأعمالها، لتجديد مشاهدتها، وإمعان النظر في حمايتهـا عندما عاث المشركون فيها، وقربت عسـاكر الملك ابن مسعود منهـا ثم قال بعد ذلك: قـد تقدّم من ذكر نور الديـن ونهوضه في عساكره من دمشق إلى بـلاد الشأم عند إنتهاء الخبر إليـه بتجمع أحـزاب الفرنـج خذلهم الله وقصـدهم لها وطمعهـم

بحكم ما حدث من الزلازل والرجفات المتتابعة لها، وما هدمت من الحصون والقلاع والمنازل في أعمالها وثغورها لحمايتها والذب عنها، وايناس من سلم من أهل حمص وشيزر وكفر طاب وحماه وغيرها، بحيث اجتمع إليه، العدد الكثير والجم الغفير من رجال المعاقل والأعمال والتركمان، وخيم بهم بازاء جمع الفرنج بالقرب من أنطاكية، وحصرهم بحيث لم يقدر فارس منهم على الإقدام على الفساد، فلما مضت أيام من شهر رمضان عرض لنور الدين ابتداء مرض حاد، فلما اشتد به وخاف منه على نفسه، استدعى أخاه نصرة الدين أمير أميران، وأسد الدين شيركوه، وأعيان الأمراء والمقدّمين وأوصى إليهم بما اقتضاه رأيه واستصوبه، وقرّر معهم كون أخيه نصرة الدين القائم في منصبه من بعده، والساد لثلمة فقده، لاشتهاره بالشهامة ، وشدّة البأس، ويكون مقيما بحلب، ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصرة الدين، واستحلف الجماعة على هذه القاعدة، فلما تقرّرت اشتدّ به المرض فتوجه في محفة إلى حلب وحصل في قلعتها، وتوجه أسد الدين إلى دمشق لحفظ أعمالها، من فساد الأفرنج، وتواصلت الأراجيف بنور الدين فقلقت النفوس، وازعجت القلوب فتفرّقت جموع المسلمين واضطربت الأعمال وطمع الفرنج فقصدوا مدينة شيزر وهجموها وحصلوا فيها، فقتلوا وأسروا ونهبوا، وتجمع من عدّة جهات خلق كثير من رجال الاسماعيلة وغيرهم وظهروا عليهم ، فقتلوا منهم وأخرجوهم من شيزر، واتفق وصول نصرة الدين إلى حلب، فأغلق والي القلعة مجد الدين في وجهه الأبواب وعصى عليه، فثارت أحداث حلب وقالوا : هذا صاحبنا وملكنا بعد أخيه،فزحفوا في السلاح إلى باب البلد وكسروا أغلاقه، ودخل نصرة الدين في أصحابه، وحصل في البلد وقامت الأحداث على والي القلعة باللوم والانكار والوعيد واقترحوا على نصرة الدين اقتراحات من جملتها إعادة رسمهم في التأذين بحي على خير العمل ، محمد وعلي خير البشر، فأجابهم إلى ما رغبوا فيه، وأحسن القول لهم والوعد ونزل في داره، وأنفذ والي القلعة إليه وإلى الحلبيين يقول: مولانا نور الدين حيّ في نفسه، وما

كان إلى ما فعل حاجة، فقيل: الذنب في ذلك للوالي، وصعد إلى القلعة من شاهد نور الدين حيا يفهم ما يقول وما يقال له، فأنكر ما جرى وقال: أنا أصفح للاحداث عن هذا الخطل ولا أؤاخذهم بالزلل، وما طلبوا إلاّ صلاح حال أخي وولي عهدي من بعدي، وشاعت الأخبار وانتشرت البشائر في الأقطار بعافيته، فأنست القلوب بعد الاستيحاش، وابتهجت النفوس بعد القلق والانزعاج، وتزايدت العافية، وصرفت الهمم إلى مكاتبات المقدّمين بالعود إلى جهاد الملاعين، وكان نصرة الدين قد ولي مدينة حران وما أضيف إليها وتوجه نحوها، ولما تناصرت الأخبار بالبشائر إلى أسد الدين بدمشق بعافية نور الدين واعتزامه على استدعاء العساكر الاسلامية للجهاد سارع بالنهوض من دمشق إلى حلب ووصل إليها في خيله، فاجتمع بنور الدين، فأكرم لقياه وشكر مسعاه وشرعوا في حماية الأعمال من شرّ عصب الكفر والضلال.

قال: ونظمت هذه الأبيات في هذا المعنى:

لقد حسنت صفاتك يا زماني
وفزت بما رجوت من الأماني

فكم أصبحت مرتاعا لخوف
فبدلت المخافة بالأمان

وجاءتنا أراجيف بملك
عظيم الشأن مسعود الزمان

فروّعت القلوب من البرايا
وصار شجاعها مثل الجبان

وثارت فتنة تخشى أذاها
على الاسلام في قاص ودان

ووافى بعد ذاك بشير صدق
بعافية المليك مع التهاني

فولى الخوف منهدم المباني
وعاد الأمن معمور المغاني

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة كانت الزلزلة التي هدمت شيزر، فخرج نور الدين وأخذها من بني منقذ، وسلمها إلى مجد الدين بن الداية، وسار إلى سرمين، لأنه بلغه حركة الفرنج فاعترضه هناك مرض أشفى منه ، فأحضر شيركوه وأوصاه بالعساكر وأن يكون الأمر بعده لأخيه نصرة الدين أمير ميران، ، فسار أسد الدين إلى دمشق، وأقام بمرج الصفرخوفا أن يتحرك الفرنج إلى جهة دمشق أو غيرها، ولم يزل هناك حتى تعافى نور الدين، فغاد إلى خدمته مهنئا بالعافية، وكان أخوه نصرة الدين قد حاصر قلعة حلب في مدّة مرض نور الدين، فلما أفاق نور الدين من مرضه سيره إلى حران، وجعل ولي عهده أخاه قطب الدين صاحب الموصل.

قال: وكان مجد الدين طمع في الملك لنفسه فتحزم لامره وتقرب إلى الناس، وجعل له أصحاب أخبار ، وشحن الطرقات والسبل بالرجال بتفتيش الخارجين من حلب وغيرها، والداخلين إليها.

قلت: ولابن منير تهنئة لنور الدين من مرض غير هذا:

يا شمس لاكسف ولاتكدار
ولاخلت من نورك الانوار

البدر منقوص وأنت كامل
لك السرايا وله السرار

برؤك للاسلام من أدوائه
برو في اعدائه بوار

ما أنت إلاّ السيف صدصدأ
عن متنه مضربه البتار

لو كان محمولا أذى عن منفس
لحملته دونك الابصار

ولو فدت أرض السماء ساقت الـ
ـملوك في فدائك الامصار

أنـــت غيـــاث محلهـــم إن أجـــدبـــوا
وخيرهـــــم إن ذكـــــر الخيـــــار
وفي سريــــر الملـــك منهـــا ملـــك
للّـــــــــــــــه في سرائه اسرار
خير ملـــــوك الأرض جـــــداً وأبـــــا
إن هـــز عطفـــي مـــا جـــد نجـــار
مـــد على الـــديـــن رواق دولـــة
تنـــازعـــت أسمارهـــا السمار
علـــت بنـــايـــاه وحلـــت في يـــده
فهـــي عليـــه الســـور والســـوار
محمـــودا المحمـــود عصر ملكـــه
فللحيـــا مـــن مـــزنـــه اعتصـــار
يـــانـــور ديـــن أظلمـــت آفـــاقـــه
لـــو لم تبلـــج هـــذه الاثـــار
للّـــه أيـــامـــك مـــا تخطـــه
بـــا لمســـك مـــن اسفـــارهـــا الاسفـــار
سلمـــت لـــلاســـلام تـــرعـــى سرحـــه
إذا ونـــى رعـــاتـــه وجـــاروا
شكـــوت فـــالـــدنيـــا على سكـــانها
قـــرارة جـــانبهـــا القـــرار
كـــادت تموت الأرض مـــن اشفـــاقهـــا
لـــولا شفـــاء ردّهـــا تمار
زرّت عليـــك الترك حبيـــب نســـب
يحســـدهـــا بـــزيـــه نـــزار
لاعـــدمـــت منـــك الأمـــاني ريها
معطـــى مـــن الاقبـــال مـــا تختـــار
مـــا سمـــح الـــدهـــر بـــان تبقـــى لنـــا
فكـــل جـــرح مسنـــا جبـــار

- ٧٨٠٤ -

ولـه من قصيدة أخرى

لا نـــؤدي لا نعـــم اللّـــه شكـــرا
بـــك يـــا أعظـــم البريـــة قـــدرا
زور عشر وافى لا قـــــــلاع ذا
جعـــلا المنـــة المنـــاة عشرا
أم مغنـــاك ضـــامنـــا أن أيـــا
مـــك تفنـــي الأحقـــاب عصرا فعصرا
في محل لـــه السماكـــان سمـــك
وجـــدود لها المجـــرة مجرى
أيها العـــادل المظفـــر لا قـــ
ـــصت شبـا الـدهـر مـن شبـاتـك ظفـرا
جعـــل اللّـــه مـــا استهـــل مـــن الأشـــ
ـــهر ينهـــل في مغـــازيـــك نصرا
أبـــدا ينشر التهـــاني على ســـا
حتـــك الـــزهـــر في المواســـم نشرا
أنـــت أسرى الملـــوك نفســـا وقنســـا[٨١]
وإلى أسرهـــم مـــن الطيـــف اسرى
ملـــك عنـــده المشـــارب تستمـــ
ـــري واخـــلاف الجود تمرى فتفـــرى
فلـــك اللّـــه مـــن مثمـــر بـــذر
يصطفـــي صـــالحا ويحصـــد أجـــرا
عـــش لملـــك أصبحـــت في الـــدســـت منـــه
فـــوق كسرى عـــدلا وشعبـــا وكسرا
تفطـــر الطيبـــات للفطـــر فطـــرا
وتعـــم الاعـــداء في النحـــر نحـــرا
يقتنـــي مـــن كســـاك أنفـــس ملبـــو
س ويقنيـــك منـــه أطـــول عمـــرا

أنـــت تملي ونحـــن ننظـــم مـــا تنـــ
ـــثره الغـــر مـــن مســاعيـــك نثـــرا
صرف اللّـــــه عنـــك عين زمـــان
بـــك صـــارت بعـــد الاصـــابـــة عبرى
وتـــوالـــت لـــك الفتـــوح إلى أن
تملا الخافقين نهيــــــا وأمــــــرا
كلما انهجـــت مــــلابـــس نعمـــى
وتمليتهـــن جـــــدّدت أخــــرى

وقال القيسراني من قصيدة:

أشرق البــــدر يــــا جبين الهلال
فجـــلاه لـــوجهـــك المتـــلالي
عـــن ليـــال حجبـــن عنـــا سنـــاهـــا
إنها غيبـــــة الهلال ليـــــالي
لم يكـــن مـــا ألم يـــا نجـــم شكـــوى
فتهنـــى لـــوافـــد الاقبـــال
لا ولا كـــان زائرا مـــن سقـــام
إنما كـــان طـــائفـــا مـــن خيـــال
وعكـــة أقلعـــت وأنـــت صحيـــح
ويصـــح النسيـــم بـــالاعتـــلال
أو مـــا هـــذه السماء سرار الـــ
ـــبدر فيهـــا على طـــريـــق الكمال
نعمـــــة اللّـــــه لا يخص بها الخا
لـــق الا مـــن كـــان منـــه ببـــال
ولبـــاس مـــن المثـــوبـــة والغفـــ
ـــران ألبســـت صـــافي الأذيـــال
فهنيئـــا لـــك البقـــاء وإن كـــا
ن هنـــاء يخص فيـــه المعـــالي

- ٧٨٠٦ -

والتقـــى والنـــدى ومعـــربـــة الخيـــ
ـــل وبيـــض الظبـــى وسمـــر العـــوالي

والخلال التـــــي إذا مـــــا تحلـــــت
صـــدرت منـــك عـــن كـــريـــم الخلال
إن وقتـــك النفـــوس مـــا تتـــوقـــى
فحقيـــــق فـــــدى الموالي الموالي
أو تحصنـــت في شعـــار مـــن التقـــ
ـــوى فما زلـــت منـــه في سربـــال
فشفـــى اللّـــه مـــن أجـــل دوائـ
ـــيه صريـــح الـــدعـــاء والابتهـــال
ملكـــا أبـــدل المخـــافـــة بـــالامـــ
ـــن وأضحـــى يعـــدّ في الابـــدال
وهـــو تـــاج الملـــوك فـــالملـــك العـــا
طـــل حـــال بـــه على كـــل حـــال
وإذا النيران غـــابـــا فنـــور الـــديـــ
ـــن شمـــس فجـــرتـــه الاصـــال
قـــد أرت وجهـــك العلى مـــا يـــريها
وهـــي مـــرآة صـــالـــح الأعمال
وقضـــى اللّـــه أن نجمـــك في الأنجـــ
ـــم ســـام وأن جـــدّك عـــال
كـــل يـــوم هـــذا المحيـــا محيـــى
بـــالتهـــاني على يـــد الاقبـــال

- ٧٨٠٧ -

# فصل

## في ذكر حصن شيزر وولاية بني منقذ

قال ابن الأثير: وهو حصن قريب من حماه بينهما نحو من نصف نهار، وهو من أمنع القلاع وأحصنها على حجر عال ، له طريق منقور في طرف الجبل، وقد قطع الطريق في وسطه وجعل عليه جسر من خشب، فإذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود إليه، وكان لآل منقذ الكنانيين يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس إلى أن انتهى الأمر إلى الأمير أبي المرهف نصر بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ بن نصر بن هاشم بعد أبيه أبي الحسن علي، فبقي به مدّة طويلة إلى أن مات بشيزر سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، وكان شجاعا كريما صواما قواما، فلما حضره الموت استخلف أخاه الأمير أبا سلامة مرشد بن علي وهو والد أسامة، فقال: واللّه لا وليتها ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها، وكان عالما بالقرآن والأدب ، كثير الصلاح، فولاها أخاه أبا العساكر سلطان بن علي، وكان أصغر منه فاصطحبا أجمل صحبة مدّة من الزمان، فولد أبو سلامة مرشد عدّة أولاد ذكور فكبروا وسادوا منهم: عز الدولة أبو الحسن علي، ومؤيد الدولة أسامة بن مرشد وغيرهما، ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كبر فجاءه أولاد ، فحسد أخاه على ذلك، فكان كلما رأى صغر أولاد أخيه وسيادتهم ساءه ذلك وخافهم على أولاده، وسعى المفسدون بينهما فغيروا كلا منهما على أخيه، فكتب الأمير سلطان إلى أخيه شعراً يعاتبه على أشياء بلغته عنه، فأجابه بأبيات جيدة في معناها، وكلهم كان أديبا شاعراً فمنها:

ظلوم أبت في الظلم إلاّ تماديا
وفي الصدّ والهجران إلاّ تناهيا

شكت هجرنا في ذاك والذنب ذنبها
فيا عجبا من ظالم جاء شاكيا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



وطاوعت الواشين في وطالما
عصيت عذولاً في هواها وواشيا
ومال بها تيه الجمال إلى القلا
وهيهات أن أمسي لها الدهر قاليا
ولا ناسيا ما أودعت من عهودها
وإن هي أبدت جفوة وتناسيا
ولما أتاني من قريضك جوهر
جمعت المعالي فيه لي والمعانيا
وكنت هجرت الشعر حينا لأنه
تولى برغمي حين ولى شبابيا
وأين من الستين لفظ مفوف
إذا رمت أدنى القول منه عصانيا
وقلت أخي يرعى بني وأسرتي
ويحفظ عهدي فيهم وذماميا
ويجزيهم ما لم أكلفه فعله
لنفسي فقد أعددته من تراثيا
فمالك لما أن حنى الدهر صعدتي
وثلم مني صارما كان ماضيا
تنكرت حتى صار برك قسوة
وقربك مني جفوة وتنائيا
فأصبحت صفر الكف مما رجوته
كذا اليأس قد عفى سبيل رجائيا
على أنني ما حلت عما عهدته
ولا غيرت هذي السنون ودا ديا
فلا غرو عند الحادثات فإنني
أراك يميني والأنام شماليا
تهن بها عذراء لو قرنت بها
نجوم سماء لم تعد دراريا

تحلت بـــدر مـــن صفـــاتـــك زانها
كما زان منظـــوم الـــلآلي الغـــوانيـــا
وعـــش بـــانيـــا للجـــود مـــا كـــان واهنـــا
مشيـــداً مـــن الاحســـان مـــا كـــان واهيـــا

قـال: وكان الأمـر فيه في حيـاة الأمير مرشـد، بعض الستر فلما مـات سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة قلب أخـوه لأولاده ظهر المجن وباداهم بما يسوءهم ، وتمادت الأيـام بينهم إلى أن قوي عليهم، فأخرجهـم من شيزر، وكان أعظم الاسباب في إخراجهـم ما حدثت به عن مؤيد الـدولة أسامة ابن مرشد، قـال: كنت من الشجاعة والاقدام على مـا علمه الناس، فبينا أنا بشيـزر، وإذا قد أتاني إنسان أخبرني أن بـدحلة بغار بها أسد ضـاريا، فركبـت فرسي وأخـذت سيفي وسرت إليـه لأقتله، ولم أعلـم أحداً مـن الناس لئلا أمنع من ذلك، فلما قربت مـن الأسد نزلت عن فرسي وربطته ومشيـت نحـوه، فلما رآني قصـدني، ووثب فضربتـه بـالسيـف على رأسـه فانفلق، ثـم أجهزت عليه وأخذت رأسه في مخلاه فـرسي وعدت إلى شيزر، ودخلت على والـدتي وألقيت الرأس بين يـديها وحدثتها الحال، فقـالت : يابنـي تجهز للخـروج من شيـزر، فواللّـه لايمكنك عمـك من المقـام ولا أحداً مـن أخوتـك وأنتم على هـذه الحال من الاقـدام والجرأة ، فلما كان الغد أمر عمي باخراجنا من عنده وألـزمنا به إلزاما لامهلة فيه، فتفرّقنا في البلاد، فقصدوا الملك العادل نور الديـن وشكوا إليه ما لقوا من عمهم ، فلـم يمكنه قصـده ولا الأخـذ بثأرهـم وإعـادتهم إلى أوطـانهم لاشتغالـه بجهاد الفـرنج ولخوفه مـن أن تسلم شيـزر إلى الفرنج، وبقـي في نفسه، وتوفي الأمير سلطـان وولي بعده أولاده، فبلـغ نور الـدين عنهـم مراسلـة الفـرنج، فـاشتدّ مـا في نفسه، وهـو ينتظر الفـرصة، فلما خـربت القلعـة بالـزلزلة ولم يسلم منهـا أحد كان بالحصـن، فبادر إليها وملكها وأضـافها إلى بلاده وعمـرها وأسـوارها وأعادهـا كأن لم تخرب، وكـذلك أيضـا فعل

- ٧٨١٠ -

بمدينة حماه وكل ما خرب بالشام بهذه الزلزلة ، فعادت البلاد كأحسن ما كانت.

قلت: وسيأتي ذكر اسامة بن مرشد في أخبار سنة اثنتين وسبعين، وهي السنة التي قدم فيها دمشق من بلاد الشرق، وذلك أنه لما خرج من شيزر استوطن دمشق، ثم فارقها إلى الديار المصرية، وكتب إلى معين الدين أنر أتابك صاحب دمشق يعاتبه في أسباب المفارقة قصيدة أوّلها:

ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا / فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مر يوما بفكري ما يريبهم / ولا سعت بي إلى ما ساءهم قدم
ولا أضعت لهم عهدا ولا أطلعت / على ودائعهم في صدري التهم
فليت شعري بم استوجبت هجرهم / ملوا فصدّهم عن وصلي السأم
حفظت ما ضيعوا أغضيت حين جنوا / وفيت إذ غدروا واصلت إذ صرموا
حرمت ما كنت أرجو من ودادهم / ما الرزق إلا الذي يجري به القسم
وبعد لو قيل لي ماذا تحب وما / تختار من زينة الدنيا لقلت هم
لهم مجال الكرى من مقلتي ومن / قلبي محل المنى جاروا أو اجترموا
تبدّلوا بي ولا ابغي بهم بدلا / حسبي هم انصفوا في الحكم أو ظلموا
بلغ أميري معين الدين مألكة / من نازح الدار لكن ودّه أمم
وقل له أنت خير الترك فضلك ال / حياء والدين والاقدام والكرم

هــــلاّ انفـــت حيـــاء أو محافظـــة
مـــن فعـــل مـــا انكـــرتـــه العـــرب والعجـــم

اسلمتنـــا وسيـــوف الهنـــد مغمـــدة
ولم يـــروّ سنـــان السمهـــري دم

وكنـــت أحســـب مـــن والاك في حـــرم
لا يعتريـــه بـــه شيـــب ولا هـــرم

ومـــا طُهان بـــأولى مـــن أســـامـــة بـــالـــ
ـــوفاء لكـــن جـــرى ا بالكائن القلـــم

هبنـــا جنينـــا ذنـــوبـــاً لا يكفـــرهـــا
عـــذر فما ذا جنـــى الأطفـــال والحرم

القيتهـــم في رضـــى الأفـــرنـــج متبعـــا
رضـــى عـــدى يسخـــط الـــرحمن فعلهـــم

جـــرّبهم مثـــل تجريبـــي لتخبرهـــم
فللـــرجـــال إذا مـــا جـــربـــوا قيـــم (٨٢)

وهي طـويلة، وطُهان المذكـور خادم تركـي كان لأتـابك ملـك الأمراء زنكي بن أق سنقر، هرب من خدمتـه إلى دمشق فطلبه ولج فيه، فاشتمل عليه معين الدين للجنسية وحماه، فلما لـج فيه سيره إلى العرب وقام له بما يحتاج إلى أن ردّه لخدمتـه بدمشق، وبقـي أسامة بمصر إلى أن خـرج منها مع عبـاس كما سبق ذكـره، وأسر الفر نـج أخاه نجـم الدولـة محمد بـن مرشد، وطلب من ابن عمه ناصر الـدين محمد بن سلطان صاحب شيزر الاعانـة في فكاكه، فلـم يفعل ، قال: وادّخـر الله سبحـانه أجر خـلاصه وحسن ذكره للملك العادل نور الدين رحمه اللّـه فوهبه فارساً من مقدمي الـداويـة يقال لـه المشطـوب، قـد بـذل الافـرنج فيـه عشرة آلاف دينـار فاستخلـص به أخاه مـن الأسر، وبلغ أسامـة أن القاضي كمال الديـن بن الشهزوري أنشد نور الدين:

ملـــك بنـــي منقـــذ تـــولى
وكـــان فـــوق السماك سمكـــه

فـــــاعتبروا وانظـــــروا وقـــــولـــــوا
سبحـــــان مـــــن لا يـــــزول ملكـــــه

والمعروف ملك بني برمك فغيره المنشد لما تمثل به في غرضه فأجازهما أسامة بهذه الأبيات:

وكـــــل ملـــــك إلى زوال
لا يعتري ذا اليقين شكـــــه
إن لم يـــــزل بـــــانتقـــــال حـــــال
أزال ذا الملـــــك عنـــــه هلكـــــه
واللّـــــه رب العبـــــاد بـــــاق
وهـــــالـــــك نـــــده وشركـــــه
فقـــــل لمن يظلـــــم البرايـــــا
غـــــرك امهـــــالـــــه وتـــــركـــــه
تنســـــى ذنـــــوبـــــا عليـــــك تحصـــــى
يحصرهـــــا نقـــــده وحكمـــــه
كـــــم نـــــاســـــك نسكـــــه ريـــــاء
أو بقـــــه في المعـــــاد نسكـــــه
فـــــاحـــــذر فما يختفـــــي عليـــــه
مـــــن عنـــــده صـــــدقـــــه وافكـــــه

وما أحسن ما قال أسامة في كبره:

مـــــع الثمانين عـــــاث الضعـــــف في جلـــــدي
وســـــاءني ضعـــــف رجلي واضطـــــراب يـــــدي
إذا كتبـــــت فخطـــــي خـــــط مضطـــــرب
كخـــــط مـــــرتعـــــش الكفين مـــــرتعـــــد
فـــــاعجـــــب لضعـــــف يـــــدي عـــــن حملهـــــا قلما
مـــــن بعـــــد حطـــــم القنـــــا في لبـــــة الأســـــد
وإن مشيـــــت وفي كفـــــي العصـــــا ثقلـــــت
رجلي كـــــأني أخـــــوض الـــــوحـــــل في الجلـــــد

فقــــل لمن يتمنـــــى طــــول مــــدتــــه
هـــذي عـــواقـــب طـــول العمــــر والمدد(٨٣)

# فصل

## في بواقي حوادث سنة اثنتين وخمسين

قال الـرئيس أبـو يعلى: تناصرت الأخبـار بظهور أمير المؤمنين المقتفـي على عسكر السلطان المخـالف لأمره ومن انضم إليه مـن عسكر الموصل وغيره بحيـث قتـل العـدد الكثير، ورحلـوا عـن بغـداد مفـرقين مفلـولين خاسرين بعد المضايقة والتناهي في المحاصرة والمصابرة.

قال: ووردت الأخبار في أوائل رجـب بوفاة السلطان غيـاث الدين أبي الحارث سنجر بن أبي الفتـح بن ألب أرسلان، سلطان خـراسان، عقيب خلاصه مـن الشدة التي وقع فيها، والأسر الذي حصـل فيه، وكان يحب العدل والانصـاف للرعايا وحسـن السيرة ، جميل الفعل، وقد علـت سنة وطال عمـره، وكان قد ورد كتـابه في أواخر صفـر من هذه السنـة إلى نور الديـن بالتشـوق إليه والإحماد لخلالـه، وما ينتهـي إليه مـن جميل أفعـاله، وإعلامـه ما مـنّ الله عليـه به مـن خلاصـه من الشـدة التي وقـع فيها، والأسر الذي بلي به في أيـدي الأعداء الكفرة من ملـوك التركمان، ، بحيلة دبـرها وسيـاسة أحكمهـا وقررهـا، بحيـث عاد إلى منصبـه من السلطنـة المشهورة واجتماع العساكر المتفرقة عنه إليه.

قال: وفيهـا في شهر رمضان ورد الخبر مـن ناحيـة حلب بوفـاة الشيخ مخلص الدين أبى البركات عبد القـاهر بن أبي جرادة الحلبي، وهو الأمين على خزائن مـال نور الديـن، وكان كاتبا بليغـا حسن البلاغـة نظما ونثرا مستحسن الفنون مـن التذهيب البديع وحسـن الخط المحرر على الأصول القديمة المستظرفة، مع صفاء الذهن، وتوقد الفطنة والذكاء.

قال: وفي رابع عشر شوال ورد الخبر من ناحية بصرى بأن واليها فخر الدين سرخاك قتل غيلة بموافقة من أعيان خاصته، وكان فيه إفراط في التحرز واستعمال التيقظ، ولكن القضاء لايغالب ولايدافع.

قال: وفيها في أوائل ذي القعدة ورد الخبر من حمص بوفاة واليها الأمير الملقب بصلاح الدين، وكان في أيام شبيبته قد حظي في خدمة عماد الدين زنكي وتقدم عنده بالمناصحة وسداد التدبير، وحسن السفارة، وصواب الرأي، ولما علت سنة ضعف عن ركوب الخيل وألجأته الضرورة إلى الحمل في المحفة لتقرير الأحوال، والنظر في الأعمال ولم ينقص من حسه وفهمه ما ينكر عليه إلى حين وفاته، وخلفه من بعده أولاده في منصبه وولايته.

قال: وورد إلى دمشق إمام من أئمة فقهاء بلخ في عنفوان شبابه وغضارة عوده، ما رأيت أفصح من لسانه ببلاغتيه العربية والفارسية، والإسراع في جوابه ببراعته، ولا أطيش منه قلما في كتابته أبو الحياة محمد ابن أبي القاسم بن عمر السلمي،ووعظ في جامع دمشق عدة أيام والناس يستحسنون وعظه ويستظرفون فنه وسلاطة لسانه وسرعة جوابه، وحدة خاطره، وصفاء حسه.

قال ابن الأثير: وفيها في ذي الحجة توفي الأمير عز الدين أبى بكر الدبيسي، صاحب جزيرة ابن عمر، وكان من أكابر الأمراء يأخذ نفسه مأخذ الملوك، وكان عاقلا حازما ذا رأي وكيد ومكر، وملك الجزيرة قطب الدين مودود بن زنكي، صاحب الموصل أخو نور الدين.

- ٧٨١٥ -

## ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

قال الرئيس أبو يعلى: في أوائل المحرم تناصرت الأخبار من ناحية الفرنج المقيمين بالشام، خذلهم اللّه تعالى بمضايقتهم لحصن حارم، ومواظبتهم على رميه بحجارة المجانيق إلى أن ضعف، وملك بالسيف، وتزايد طمعهم في شن الغارات في الأعمال الشامية، وإطلاق الأيدي في العيث والفساد في معاقلها وضياعها، بحكم تفرق العساكر الاسلامية، والخلف الواقع بينهم باشتغال نور الدين بعقابيل المرض العارض له، وللّه المشيئة التي لاتدافع، والأقضية التي لاتمانع.

قال: وفي صفر ورد الخبر والمبشر بنزول نور الدين من حلب للتوجه إلى دمشق ، واتفق للكفرة الملاعين تواتر الطمع في شن الغارات على أعمال حوران والاقليم، وإطلاق أيدي الفساد والعيث والإحراق والاخراب في الضياع، والنهب والسبي والأسر، وقصدوا داريا للنزول عليها في انسلاخ صفر، واحراق منازلها وجوامعها والتناهي في إخرابها ، وظهر إليهم العسكرية والأحداث، وهموا بقصدهم والاسراع إلى لقائهم وكفهم، فمنعوا من ذلك بعد أن قربوا منهم، وحين شاهد الكفار، خذلهم اللّه تعالى كثرة العدد الظاهر إليهم رحلوا في آخر النهار المذكور إلى ناحية الاقليم، ووصل نور الدين إلى دمشق، وحصل في قلعته سادس ربيع الأول سالماً في نفسه وجملته، ولقي بأحسن زي وترتيب وتجمل، واستبشر العالم بمقدمه المسعود وابتهجوا وبالغوا في شكر اللّه تعالى على سلامته وعافيته والدعاء له بدوام أيامه، وشرع في تدبير أمر الأجناد والتأهب للجهاد.

قال: وفي أوائل ربيع الأوّل ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق وافر من عسكرها إلى غزة وعسقلان وأغاروا على أعمالها، وخرج إليهم من كان بها من الفرنج الملاعين، فأظهر اللّه تعالى المسلمين عليهم قتلا وأسراً

بحيث لم يفلت منهم إلاّ اليسير، وغنموا ما ظفروا به وعادوا سالمين ظافرين، وقيل إن مقدم الغزاة في البحر ظفر بعدة من مراكب المشركين وهي مشحونة بالفرنج، فقتل وأسر منهم العدد الكثير، وحاز من أموالهم وعددهم وأثاثهم ما لايكاد يحصى، وعاد ظافرا غانما.

قلت : وأرسل إلى مؤيد الدولة أسامة بن منقذ من مصر وزيرها الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك قصيدة، يشرح فيها حال هذه الغزاة، ويحرض فيها نور الدين على قتال المشركين، ويذكره بها منّ اللّه تعالى عليه به من العافية والسلامة من تلك المرضة المقدم ذكرها، وكان كثيرا ما يكاتبه طالباً منه إعلام نور الدين بالغزاة لحثه عليها وأول هذه القصيدة:

ألا هكذا في اللّه تمضي العزائم
وتنضى لدى الحرب السيوف الصوارم

وتستنزل الأعداء من طول عزهم
وليس سوى سمر الرماح سلالم

وتغزى جيوش الكفر في عقر دارها
ويوطى حماها والأنوف رواغم

ويوفي الكرام الناذرون بنذرهم
وإن بذلت فيها النفوس الكرائم

نذرنا مسير الجيش في صفر فما
مضى نصفه حتى انثنى وهو غانم

بعثناه من مصر إلى الشام قاطعا
مفاوز وخد العيس فيهن دائم

فما هاله بعد الديار ولا ثنى
عزيمته جهد الظما والسمائم

يهجر والعصفور في قعر وكره
ويسري إلى الاعداء والليل نائم

يبـــاري خيـــولا مـــا تـــزال كـــأنها
إذا مـــاهـــي انقضـــت نســـور قشـــاعـــم
يسير بها ضرغـــــام في كـــــل مـــــارق
ومـــا يصحـــب الضرغـــام إلاّ الضراغـــم
ورفقتـــه عين الـــزمـــان وحـــاتـــم
ويحيـــى وإن لاقـــى المنيـــة حـــاتـــم
وواجههـــم جمع الفـــرنـــج بجملـــة
تهون على الشجعـــان فيهـــا الهزائم
فلقـــوهـــم زرق الاسنـــة وانطـــووا
عليهـــم فلـــم يـــرجـــع مـــن الكفـــر نـــاجـــم
ومـــا زالـــت الحرب العـــوان أشـــدّهـــا
إذا مـــا تـــلاقـــى العسكـــر المتضـــاجـــم
يشبههـــم مـــن لاح جمعهـــم لـــه
بلجـــة بحـــر مـــوجهـــا متـــلاطـــم
وعـــادوا إلى ســـل السيـــوف فقطعـــت
رؤوس وحـــزت للفـــرنـــج غـــلاصـــم
فلـــم ينـــج منهـــم يـــوم ذاك مخبر
ولا قيـــل هـــذا وحـــده اليـــوم ســـالم
نقتلهـــم بـــالـــرأي طـــورا وتـــارة
تـــدوسهـــم منـــا المذاكـــي الصـــلادم
فقـــولـــوا النـــور الـــديـــن لا فـــل حـــدّه
ولا حكمـــت فيـــه الليـــالي الغـــواشـــم
تجهـــز إلى أرض العـــدوّ ولا تهن
وتظهـــر فتـــورا ان مضـــت منـــك حـــازم
فما مثلهـــا تبـــدي احتفـــا الأبـــه ولا
يعـــض عليهـــا للملـــوك الابـــاهـــم
فعنـــدك مـــن ألطـــاف ربـــك مـــا بـــه
علمنـــا يقينـــا أنـــه بـــك راحـــم

- ٧٨١٨ -

أعـــادك حيـــا بعـــد أن زعـــم الـــورى
بـــأنـك قـــد لاقيـت مـــا اللّـــه حـــاتـــم
بـــوقـت أصـــاب الارض مـــا قـــد أصـــابها
وحلـــت بها تلـــك الـــدواهـــي العظـــائم
وخيـــم جيـــش الكفـــر في أرض شيـــزر
فسيقـــت سبـــايـــا واستحلـــت محارم
وقـــد كـــان تـــاريـــخ الشـــام وهلكـــه
ومـــن يحتـــويـــه أنـــه لـــك عـــادم
فقـــم واشكـــر اللّـــه الكـــريـــم بنهضـــه
إليهـــم فشكـــر اللّـــه للخلـــق لازم
فنحـــن على مـــا قـــد عهـــدت نـــروعهـــم
ونحلـــف جهـــدا أننـــا لانســـالم
وغـــاراتنـــا ليســـت تفتر عنهـــم
وليـــس ينجـــي القـــوم منـــا الهزائم
فـــاسطـــولنـــا أضعـــاف مـــا كـــان ســـائرا
إليهـــم فـــلا حصـــن لهم منـــه عـــاصـــم
ونـــرجـــو بـــأن يجتـــاح بـــاقيهـــم بـــه
وتحوى الأســـارى منهـــم والغنـــائم

وكتب إليه أيضا:

يـــاسيـــدا يسمـــو بهمـــ
ـــته إلى الـــرتـــب العليـــه
فينـــال منهـــا حين يحر
م غيره أوفى مـــزيـــه
أنـــت الصـــديـــق وإن بعـــد
ت وصـــاحـــب الشيـــم الـــرضيـــه
نبيـــك إن جيـــوشنـــا
فعلـــت فعـــال الجاهليـــة

سـارت إلى الأعـداء مـن
أبطـالها مـائتـا سريـه
فتغير هـذي بكـرة
وتعـاود الأخـرى عشيـه
فـالـويـل منهـا للفـرنـ
ـج فقـد لقـوا جهـد البليـة
جـاءت رؤوسهـم تلـو
ح على رؤوس السمهـريـة
وقـلائع قـد قسمـت
بين الجنـود على السـويـه
وخـلائق كثرت مـن الـ
ـلأسرى تقـاد إلى المنيـة
فـانهض فقـد أنبيـت مجـ
ـد الـديـن بـالحال الجليـه
وألم بنـور الـديـن واعـ
ـلمه بهاتيـك القضيـة
فهـو الـذي مـا زال تخـ
ـلص منـه أفعـالا ونيـه
ويبيـد جمع الكفـر بـالـ
ـبيض الـرقـاق المشرفيـه
فعسـاه ينهـض نهضـة
يفنـي بها تلـك البقيـة
إمـا النصرة دينـه
أو ملكـه أو للحميـه

وكتب إليه أيضا يقول:

أيها المنقـذي أنـت على البعـ
ـد صـديـق لنـا ونعـم الصـديـق





ليـــس فيما تـــأتيـــه مـــن بـــر أفعـــا
لـــك للطـــالـــب الحقـــوق عقـــوق

فلهـــذا نـــرى مـــواصلـــة الكتـــ
ـــب تبـــاعـــا إليـــك ممـــا يليـــق

ونـنـــاجيـــك بـــالمهمات إذ أنـــ
ـــت بـــالقـــائهـــا إليـــك خليـــق

وأهـــم المهـــم أمـــر جهـــاد الـــ
ـــكفر فـــاسمع فعنـــدنـــا التحقيـــق

واصلتهـــم منـــا السرايـــا فـــأشجـــا
هـــم بكـــور منـــا لهم وطـــروق

وأبـــاحـــت ديـــارهـــم فـــأبـــاد الـــ
ـــقوم قتـــل مـــلازم وحـــريـــق

وانتظـــرنـــا بـــزحفنـــا بـــرء نـــور الـــديـــ
ـــن علما منـــا بـــأن سيفيـــق

وهـــو الآن في أمـــان مـــن اللّـــ
ـــه ومـــا يعتريـــه أمـــر يعـــوق

مـــا لهذا المهـــم مثلـــك مجد الـــديـــ
ـــن فـــانهض بـــه فـــأنـــت حقيـــق

قـــل لـــه لا عـــداه رأي ولا زا
ل لـــديـــه لكـــل خير طـــريـــق

أنـــت في حســـم داء طـــاغيـــة الكـــ
ـــفار ذاك المرجـــوّ والمرمـــوق

فـــاغتنـــم بـــالجهـــاد أجـــرك كـــي يلـــ
ـــقى رفيقـــاً لـــه ونعـــم الـــرفيـــق

فأجابه أسامة بقصيدة منها:

يـــا أمير الجيـــوش مـــا زال لـــلاســـ
ـــلام والـــديـــن منـــك ركـــن وثيـــق

أسمعـــت دعـــوة الجهـــاد فلبـــا
هـــا مليـــك بـــالمكـــرمـــات خليـــق

ملـــك عـــادل أنـــار بـــه الـــديـــ
ـــن فعـــم الاســـلام منـــه الشروق
مـــالـــه عـــن جهـــاده الكفـــر والعـــد
ل وفعـــل الخيرات شغـــل يعـــوق
هـــو مثـــل الحســـام صـــدر صقيـــل
لين مســـه وحـــد زليـــق
ذو أنـــاة يخالها الغـــر اهما
لا وفيهـــا حتـــف الأعـــادي المحيـــق
فـــاسلما لـــلاســـلام كهفين مـــاطـــ
ـــرز ثـــوب الظـــلام بـــرق خفـــوق (٨٤)

وكتب إليه أيضا:

قـــل لابـــن منقـــذ الـــذي
قـــد حـــاز في الفضـــل الكمالا
فلـــذاك قـــد أضحـــى الأنـــا
م على مكـــارمـــه عيـــالا
كـــم قـــد بعثنـــا نحـــوك الـــ
ـــلأشعار مسرعـــة عجـــالا
وصـــددت عنهـــا حين را
مـــت مـــن محاسنـــك الـــوصـــالا
هـــلا بـــذلـــت لنـــا مقـــا
لا حين لم تبـــذل فعـــالا
مـــع أننـــا نـــوليـــك صبـــ
ـــرا في المودّة واحتمالا
ونبئـــك الأخبـــار إن
أضحـــت قصـــارا أو طـــوالا
ســـارت سرايـــانـــا القصـــ
ـــد الشـــام تعتســـف الـــرمـــالا
تـــزجـــي إلى الأعـــداء جـــر
د الخيـــل اتبـــاعـــاتـــوالا

تمضي خفــــــافـــــــا للمغــــــا
ر بها وتــــــأتينـــــــا ثقـــــــالا
حتــــــى لقـــــــد رام الأعــــــا
دي مـــــن ديــــــارهـــــم ارتحالا
وعلى الــــــــــــــوعيرة معشر
لم يعهـــــدوا فيهـــــا القتـــــالا
لما نـــــــأت عمـــــــن يحـ
ـــــــف بها يمينـــــــا أو شمالا
نهضـــــــت إليهـــــا خيلنـــــا
مـــــن مصر تحتمــــل الـــــرجـــالا
والبيـــــــض لامعـــــــة وبيــــــ
ــــــض الهنـــــدوالاســـــل النهـــــالا
فغـــــدت كـــــأن لم يعهـــــدوا
في أرضهـــــا حيـــــا حـــــلالا
هـــــذا وفي تـــــل العجـــــو
ل مـــــلأن بـــــالقتلى التـــــلالا
إذ مـــــر مـــــري ليـــــس يلـــــ
ــــوي نحـــــور رفقتـــــه اشتغـــــالا
واستـــــاق عسكـــــرنـــــا لـــــه
أهـــــلا يحبهـــــم ومـــــالا
وسريـــــة ابـــــن فـــــرنـــــج الطـــــا
ئي طـــــال بهم وصـــــالا
ســـــارت إلى أرض الخليــــــ
ــــل فلـــــم تـــــدع فيهـــــا خـــــلالا
فلـــــو أن نـــــور الـــــديـــــن يجـ
ــــعل فعلنـــــا فيهـــــم مثـــــالا
ويسير الاجنـــــــــادجهـــــــ
ــــــرا كـــــي ينـــــازلهم نـــــزالا
ووفى لنـــــا ولأهـــــل دولـــــ
ــــته بما قـــــد كـــــان قـــــالا

لـــــرأيـــــت لـــــلافـــــرنـــــج طـــــ
ـــــرأفي معـــــاقلهـــــا اعتقـــــالا
وتجهـــــــزوا للسير نحـــــ
ـــــو الغـــــرب أو قصـــــدوا الشمالا
وإذا أبـــــى الا اطـــــرا
حـــــاً للنصيحـــــة واعتـــــزالا
عـــــدنـــــا بتسليـــــم الأمـــــو
ر لحكـــــم خـــــالقنـــــا تعـــــالى

فأجابه ابن منقذ بقصيدة منها:

يـــــا أشرف الـــــوزراء أخـــــ
ـــــلاقا وأكـــــرمهـــــم فعـــــالا
نبهـــــت عبـــــداطـــــالما
نبهتـــــه قـــــدرا وحـــــالا
وعتبتـــــه فـــــانلتـــــه
فخـــــرا ومجدا الـــــن ينـــــالا
لكـــــن ذاك العتـــــب يشـــــ
ـــــعل في جـــــوانبـــــه اشتعـــــالا
أسفـــــا لجد حـــــال عنـــــ
ـــــه إلى مســـــاءتـــــه ومـــــالا
أمـــــا السرايـــــا حين تـــــر
جـــــع بعـــــد خفتهـــــا ثقـــــالا
فكـــــذاك عـــــادوفـــــود بـــــا
بـــــك مثقلين ثنـــــا ومـــــالا
ومسيرهـــــا في كـــــل أر
ض تبتغـــــي فيهـــــا المجـــــالا
فكـــــذاك فضلـــــك مثـــــل عـــــد
لـــــك في الـــــدنـــــا ســـــارا وجـــــالا
فـــــاسلـــــم لنـــــا حتـــــى نـــــرى
لـــــك في بنـــــي الـــــدنيـــــا مثـــــالا

واشـــــدديـــــديـــــك بـــــودنـــــو
رالـــــديـــــن والـــــق بـــــه الـــــرجـــــالا

فهـــــو المحـــــامـــــي عـــــن بـــــلا
دالشـــــام جمعـــــا أن يـــــذالا

ومبيد املاك الفرنـ
ـــــج وجمعهـــــم حـــــالا فحـــــالا

ملـــــك يتيـــــه الـــــدهـــــر والـــــدنـــــ
ـــــيا بـــــدولتـــــه اختيـــــالا

جمع الخلال الصـــــالحا
ت فلـــــم يـــــدع منهـــــا خـــــلالا

فـــــإذا بـــــدا للنـــــاظـــــريـــــ
ـــــن رأت عيـــــونهم الكمالا

فبقيتها للمسلمـــــ
ـــــين حما وللـــــدنيـــــا جمالا (٨٥)

وكتب إليه الصالح من قصيدة تقدّم ذكرها في الزلازل:

ولعمـــــري إن المنـــــاصـــــح في الـــــديـــــ
ـــــن على اللّـــــه أجـــــره محســـــوب

وجهـــــاد العـــــدّو بـــــالفعـــــل والقـــــو
ل على كـــــل مسلـــــم مكتـــــوب

ولـــــك الـــــرتبـــــة العليـــــة في الأمـــــ
ـــــرين مـــــذ كنـــــت إذ تشـــــب الحروب

أنـــــت فيهـــــا الشجـــــاع مـــــالـــــك في الطعـــــ
ـــــن ولا في الضراب يـــــومـــــا ضريـــــب

وإذا مـــــا قـــــرضـــــت فـــــالشـــــاعـــــر المفـــــ
ـــــلق فيها يقـــــولـــــه والخطيـــــب

وإذا مـــــا أشرت فـــــالحزم لا ينـــــ
ـــــكر إن التـــــدبير منـــــك مصيـــــب

لـــــك رأي بقظـــــان إن ضعـــــف الــــرأ
ي على حـــــاملي الصليـــــب صليـــــب
فـــــانهض الآن مسرعـــــا فبـــــأمثـــــا
لـــــك مـــــازال يـــــدرك المطلـــــوب
ألـــق منـــا رســـالـــة عنـــد نـــور الـــديـــ
ـــن مـــا في القـــائهـــا مـــا يـــريـــب
قـــــل لـــــه دام ملكـــــه وعليـــــه
مـــن لبـــاس الاقبـــال بـــرد قشيـــب
أيها العـــادل الـــذي هـــو للـــديـــ
ـــن شبـــاب وللحـــروب شبيـــب
والـــذي لم يـــزل قـــديما عـــن الاســـ
ـــلام بـــالعـــزم منـــه تجلى الكـــروب
وغـــدا منـــه للفـــرنـــج إذا لا
قـــوه يـــوم مـــن الـــزمـــان عصيـــب
إن يـــرم نـــزف حقـــدهـــم فـــلا شطـــا
ن قنـــاه في كـــل قلـــب قليـــب
غيرنـــا مـــن يقـــول مـــا ليـــس يمضيـــ
ـــه بفعـــل وغيرك المكـــذوب
قـــد كتبنـــا إليـــك مـــا وضـــح الآ
ن بها ذا عـــن الكتـــاب تجيـــب
قصـــدنـــا أن يكـــون منـــا ومنكـــم
أجـــل في مسيرنـــا مضروب
فلـــدينـــا مـــن العســـاكـــر مـــاضـــا
ق بـــأدنـــاهـــم الفضـــاء الـــرحيـــب
وعلينـــا أن يستهـــل على الشـــا
م مكـــان الغيـــوث مـــال صبيـــب
أوتـــراهـــا مثـــل العـــروس ثـــراهـــا
كلـــه مـــن دم العـــدا مخضـــوب

لطنين السيوف في فلق الصبـ
ـح على هام أهلها تطريب
وجمع الحشود من كل حصن
سلب مهمل لهم ونهوب
وبحول الاله ذاك ومن غا
لب ربي فانه مغلوب

وكتب إليه أيضا:

أيها السائر المجدّ إلى الشا
م تباري ركابه والخيول
خذ على بلدة بها دار مجد الد
ين لا ريع ربعها المأهول
وتعرف أخباره واقرة منـ
ـا سلاما فيه العتاب يجول
قل له أنت نعم ذخر الصديق الـ
ـيوم لكنك الصديق الملول
ما ظننا بأن حالك في القر
ب ولا البعد با الملال يحول
لا كتاب ولا جواب ولا قو
ل به لليقين منه حصول
غير أنا نواصل الكتب إذ قصـ
ـر منك البر الكريم الوصول
ذاكرين الفتح الذي فتح اللّـ
ـه علينا فالفضل منه جميل
جاءنا بعد ما ذكرناه في كتـ
ـب أتاكم بهن منا رسول
أن بعض الاسطول نال من الأفـ
ـرنج ما لا يناله التأميل

سـار في قلـة ومـازال بـاللّـ
ـه وصـدق النيـات تنمـى القليـل
ويقـايـا الاسطـول ليـس لـه بعـ
ـد إلى جـانـب الشـآم وصـول
فحـوى مـن عكـا وانطـرسـوس
عـدّة لم يحط بها التحصيـل
جمع ديـويـة بهم كـانـت الافـ
ـرنج تسطـو على الـورى وتصـول
قيـد في وسطهـم مقـدّمهـم يهـ
ـدى إلينـا وجيـده مغلـول
بعـد مثـوى جماعـة هلكـوا بـالـ
ـسيف منهـا الغـريـق والمفلـول
هـذه نعمـة الالـه وتعـديـ
ـد أيـادي الالـه شيء يطـول
أبلغـن قـولنـا إلى الملـك العـا
دل فهـو المرجـوّ والمأمـول
قـل لـه كـم تماطـل الـديـن في الكفـ
ـار فـاحـذر أن يغضـب المطـول
سر إلى القـدس واحتسـب ذاك في اللّـ
ـه فبـالسير منـك يشفـى الغليـل
وإذا مـا أبطـا مسيرك فـاللّـ
ـه إذا حسبنـا ونعـم الـوكيـل

فأجابه أسامة بقصيدة منها:

يـا أمير الجيـوش يـا أعـدل الحـ
ـكام في فعلـه وفيما يقـول
أنـت حليـت بـالمكـارم أهـل الـ
ـعصر حتـى تعـرف المجهـول

وقسمت الفرنج بالغزو شطريـ
ـن فهذا عان وهذا قتيل
بالغ العبد في النيابة والتحـ
ـريض وهو المفوّه المقبول
فرأى من عزيمة الغزو ما كا
دت له الأرض والجبال تميل
وإذا عاقت المقادير فاللّـ
ـه إذا حسبنا ونعم الوكيل (٨٦)

وكتب الصالح إليه جوابا قصيدته الطائية التي أوّلها:

هي البدر لكن الثريا لها قرط
ومن أنجم الجوزاء في نحرها سمط

ثم قال بعد وصف السيوف:

ذخرنا سطاها للفرنج لأنها
بهم دون أهل الأرض أجدر أن تسطو
وقد كاتبوا في الصلح لكن جوابهم
بحضرتنا ما اينبب الخط الا الخط
سطور خيول لاتغب ديارهم
لها بالمواضي والقنا الشكل والنقط
إذا أرسلت فرعا من النقع فاحما
أثيثا فأسنان الرماح لها مشط
رددنا به ابن الفنش عنا وإنما
يثبته في سرجه الشدّ والربط
فقولوا النور الدين ليس لجائف الـ
ـجراحات إلا الكي في الطب والبط (٨٧)
وحسم أصول الداء أولى بعاقل
لبيب إذا استولى على المدنف الخلط
فدع عنك ميلا للفرنج وهدنة
بها أبدا يحظى سواهم ولم يحظوا

تـــأمـــل فكـــم شرط شرطـــت عليهـــم
قـــديما وكـــم غـــدر بـــه نقـــض الشرط
وشمـــر فـــانـــاقـــداعنـــابكـــل مـــا
ســـألـت وجهـــزنـــا الجيـــوش ولـــن يبطـــو ا(٨٨)

قال العماد في كتاب الخريدة: الصالح أبـو الغارات طلائع بن رزيك سلطان مصر في زمـان الفائز، وأوّل زمـان العاضـد، ملك مصر، واستـولى على أمر صـاحب القصر، ونفـق في زمانه النظـم والنثر، وقـرب الفضلاء، واتخذهم جلسـاء، ورحل إليـه ذوو الرجـاء، وأفاض على الـداني والقاصي العطاء، وله قصـائد كثيرة مستحسنة أنفذها إلى الشـام يذكر فيها قيـامه بنصر الاسلام، ومـا يصدق أحـد أن ذلك شعـره لجودته، وإحكـام معاني حكمته، وأقسام معاني بلاغته، فيقال إن المهـذب ابن الزبير كان ينظم له وأن الجليس بـن الحباب كان يعينـه، وله ديـوان كبير وإحسان كثير، ولما جلس في دست الوزارة نظم هذه الأبيات بديهة:

انظـــــر إلى ذي الـــــدار كـــــم
قـــد حـــل ســـاحتهـــا وزيـــر
ولكـــــم تبختر آمنـــــا
وســـــط الصفـــــوف بها أمير
ذهبـــــوا فـــــلا واللّـــــه مـــــا
يبقـــــى الصغير ولا الكبير
ولمثـــــل مـــــا صـــــاروا إليـــــ
ــــه مـــن الفنـــاء غـــداً نصير (٨٩)

# فصل

قال أبو يعلى: ورد الخبر في خامس عشر ربيـع الأوّل من ناحية حلب بحـدوث زلزلـة هائلـة روّعت أهلهـا وأزعجتهـم، وزعـزعت مـواضع مـن

مساكنها، ثم سكنت بقدرة محركها سبحانه وتعالى، وفي ليلة الخامس والعشرين من ربيع الأوّل وافت زلزلة في دمشق روعت واقلقت ثم سكنت.

وفي التاسع من ربيع الآخر برز نور الدين من دمشق إلى جسر الخشب في العسكر المنصور بآلات الحرب لجهاد الكفر، وقد كان أسد الدين قبل ذلك عند وصوله فيمن جمعه من فرسان التركمان، أغار بهم على أعمال صيدا وما قرب منها، فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها، وخرج إليهم من كان بها من خيالة الفرنج ورجالتها، وقد كمنوا لهم، فغنموهم، وقتل أكثرهم، وأسر الباقون، وفيهم ولد المقدّم المتولي حصن حارم، وعادوا سالمين بالأسرى ورؤوس القتلى والغنيمة، ولم يصب منهم غير فارس واحد.

قال: وفي أوائل شهر تموز الموافق لأوّل جمادى الآخرة من السنة وافى البقاع مطر هطال بحيث حدث منه سيل أحمر، كما جرت به العادة في تنبوك الشتاء، ووصل إلى بردى، ووصل إلى دمشق، وكثر التعجب من أثار قدرة اللّه تعالى بحدوث مثل ذلك في هذا الوقت.

قال: وفي الليلة الثالثة والعشرين من رجب وافت زلزلة عند تأذين الغداة، ثم أخرى في الليلة بعدها وقت صلاة الغداة ، وورد الخبر من العسكر المنصور بأن الفرنج تجمعوا وزحفوا إلى العسكر، وأن المولى نور الدين نهض في الحال في العسكر والتقى الجمعان، واتفق أن عسكر الاسلام حصل فيه فشل لبعض المقدمين فاندفعوا وتفرقوا بعد الاجتماع، وبقي نور الدين ثابتا في مكانه في عدّة يسيرة من شجعان غلمانه وأبطال خواصه في وجوه الفرنج، وأطلقوا فيهم السهام، فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير، ثم ولوا منهزمين خوفا من كمين يظهر عليهم من عسكر الاسلام، ونجى اللّه وله الحمد نور الدين من بأسهم بمعونة اللّه تعالى،

وشدّة بأسه وثبات جاشه ومشهور شجاعته، وعاد إلى مخيمه سالماً في جماعته، ولام من كان السبب في اندفاعه بين يدى الفرنج، وتفرق جمع الفرنج إلى أعمالهم، وراسل ملكهم لنور الدين في طلب الصلح والمهادنة، وحرص على ذلك، وتردّدت بين الفريقين مراسلات ولم يستقر بينهما حال، وعاد نور الدين إلى دمشق سالما.

قلت: وذكر أبو الفتح بحر بن أبى الحسن بن بحر الاشتري المعيد كان بالمدرسة النظامية في سيرة مختصرة جمعها لنور الدين وقد تقدّم شيء منها رحمهما اللّه قال: وبلغنا أن نور الدين خرج إلى الجهاد في سنة ست وخمسين وخمسمائة، فقضى اللّه بانهزام عسكر المسلمين وبقي الملك العادل مع شرذمة قليلة وطائفة يسيرة واقفا على تل يقال له تل حبيش، وقد قرب عسكر الكفار بحيث اختلط رجالة المسلمين مع رجالة الكفار، فوقف الملك العادل بحذائهم مولياً وجهه إلى قبلة الدعاء، حاضراً بجميع قلبه مناجياً ربه يقول: يارب العباد، أنا العبد الضعيف ملكتني هذه الولاية، واعطيتني هذه النيابة، وعمرت بلادك ونصحت عبادك وأمرتهم بما أمرتني به، ونهيتهم عما نهيتني عنه، فرفعت المنكرات من بينهم، وأظهرت شعار دينك في بلادهم، وقد إنهزم المسلمون وأنا لاأقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيك محمد صلى اللّه عليه وسلم، ولا أملك إلاّ نفسي هذه وقد سلمتها إليهم ذابا عن دينك وناصراً لنبيك، فاستجاب الله دعاءه وأوقع في قلوبهم الرعب وأرسل عليهم الخذلان، فوقفوا مواضعهم وما جسروا على الاقدام عليه، وظنوا أن الملك العادل عمل عليهم الحيلة، وأن عسكر المسلمين في الكمين، فإن أقدموا عليه تخرج عساكر المسلين من الكمين فلا ينفلت منهم أحد فوقفوا وما قدموا عليه.

قال: ولولا أن ذلك إلهام من الله تعالى لكانوا قد استأسروا المسلمين، وما كان ينفلت واحد من المسلمين، فوقف عسكر الكفار وبرز اثنان

منهم يجولان بين الصفين يطلبان البراز من المسلمين، فـأمر الملك العادل لخطلـخ الزاهـد مولى الشهيـد بـالخروج إليهما فخرج وجـال بينهما ساعـة وعمل حيلـة وخدعـة ورجع إلى قـريب صـف الكفار، وحمل على الآخـر فقتله، ورجع إلى الصف.

قال: وحـدثنا الشيخ داود المقـدسي خادم قبر شعيب على نبينـا وعليه السلام قال: كـان أعطاني ملك القدس بغلة كنت راكبـا عليها، يعني في ذلك اليوم واقفـا مع الملك العادل، فلما وصـل الكفار، وقربوا منـا شمت البغلة رائحة خيل الكفار فصهلت تطلب خيلهم، فسمعوا صهيل بغلتي فقالـوا: هذا داود راكب على البغلـة مع نور الـدين واقف، ولـولا الحيلة والكمين مـن المسلمين لما وقفـوا مـع هـذه الشرذمـة القليلـة والطـائفـة اليسيرة، فتحقق ذلك في قلوبهم فوقفوا وما جسروا على الإقدام عليه.

قـال فترجل كـل مـن كان مـع الملـك العادل وتشفعـوا إليـه وباسـوا الأرض بين يـديـه وقـالـوا: أيها الملـك أنـت بجميـع المسلمين في هـذا الموضـع، وفي هذا الاقليـم فـإن جرى والعيـاذ باللـه وهـن وضعف مـن استيلاء الكفار على المسلمين فمن الذي يقدر على تداركه؟ قال: وحلف هذ الشيخ داود أنهم أخـذوا بعنان فرسه كـرها ورحلوا من ذلـك الموضع، ومـا كان في عـزم الملك العـادل أن يرحـل من ذلـك الموضع، فلما عـرف الكفار ذلـك وأنه ما كـان عليهم حيلة ولا كمين نـدموا على ذلك نـدامة عظيمة ، قـال: وكان قبل هـذه الوقعـة بسنة كسر الملك العـادل الكفار وقتـل منهم مقتلـة عظيمـة، وأسر منهم خلقـا كثيراً، على مـا حكي عـن صلاح الدين صاحب حمص أنه قال: قد جاز التركمان علينا، فحصل في الجريدة ألف أسير مع التركمان، هذا ما جاز على بلد حمص وحده، وكان قد انفلت ملـك القدس، ودخل إلى قلعته فلما جن عليه الليـل خرج من القلعة ومضى.

# فصل

قال أبـو يعلى: وفي رجب تجمـع قوم من السفهـاء العوام وعـزموا على التحريـض لنور الدين على إعـادة ما كان أبطـل وسامح به أهـل دمشق من رسـوم دار البطيخ، وعرصـة البقل والأنهار، وصانهم مـن اعنات شرار الضمان، وحـوالة الاجنـاد، وكرروا لسخـف عقولهم الخطـاب، وضمنـوا القيام بعشرة آلاف دينـار بيض، وكتبـوا بذلك حتـى أجيبوا إلى مـا راموا، وشرعوا في فرضها على أرباب الأملاك مـن المقدمين والأعيان والرعايا، فما اهتـدوا إلى صواب ولا نجـح لهم قصد في خطـاب ولا جواب، وعسفـوا الناس بجهلهم بحيـث تألموا وأكثروا الضجيج والاستغاثة إلى نـور الدين، فصرف همه إلى النظر في هذا الأمـر، فنتجت له السعادة وإيثـار العدل في الرعيـة لاعادة على مـا كان عليـه،فأمر في عـاشر رمضان بـاعادة الـرسوم المعتادة إلى مـا كانت عليـه من إمـاتتها، وتعفية أثـر ضمانها، وأضاف إلى ذلك تبرعاً مـن نفسه إبطال ضمان الهريسة والجبن واللبـن ، ورسم بكتب منشور يقـرأ على كافة الناس بـإبطال هذه الـرسوم جميعها وتعفية ذكـرها، فبالغ العالم عند ذلك في مواصلة الأدعية والثناء عليه والنشرلمحاسنة .

قـال: وفي الحادي والعشريـن مـن رمضـان وصـل الحاجـب محمـود المسترشدي مـن ناحية مصر بجواب مـا تحمله من المراسلات مـن الملك الصالح متولي أمـرها، ومعه رسول من مقدمي أمـرائها ، ومعه المال المنفذ برسـم الخزانة النوريـة، وأنواع الثياب المصرية، والجيـاد العربية، وكـانت فرقـة من الفرنج خـذلهم الله قد ضربـوا لهم في المعابر ، فأظفـر الله بهم فلم يفلـت منهم إلاّ القليل النزر، ثـم تلا ذلك ورود الخبر مـن العسكر المصري بظفرة بجملـة وافرة من الفرنـج تناهز أربعمائة فارس وتـزيد على ذلك في نـاحية العريـش من الكفـار بحيث استولى عليهـم القتل والأسر والسلب.

قـال: وقد كـانـت الاخبار تنـاصرت مـن نـاحية القسطنطينيـة في ذي الحجـة ببروز ملك الـروم منها في العـدد الكثير لقصـد الأعمال والمعاقـل الاسلامية، ووصولـه إلى مروج الديباج وتخييمه فيها، وبـث سراياه للأغارة على أعمال أنطـاكيـة وما والاهـا، وأن قـومـا من التركمان ظفـروا بجماعـة منهم، هذا بعد أن أفتتح من أعمال لاوين ملـك الأرمن عدّة من حصونه ومعـاقله، ولما عـرف نـور الـدين هـذا شرع في مكـاتبـة الولاة بـالأعمال والمعـاقل بـإعلامهـم ما حـدث من الـروم، وبعثهم على استعمال التيقـظ والتأهب للجهاد فيهم، والاستعداد للنكاية بمن يظهر منهم.

قال ابن الأثير: وفي سنـة ثلاث وخمسين سار الملك محمـد بن السلطان محمود فحصر بغـداد، وبها الخليفة المقتفـي لأمر اللّـه ، ومعه وزيـره عون الديـن بن هبيرة، فكـاتب أصحـاب الأطراف فتحـركوا ووصـل الخبر إلى الملـك محمد بـأن أخـاه ملك شـاه قصـد همذان ودخلها في عسكـر كبير ونهب، وأخـذ نسـاء الأمـراء الـذين معـه واولادهـم، فـاختلـط العسكـر وتفرقوا. وعـاد محمد نحو همذان وخرج أهل بغداد فنهبـوا أواخر العسكر المنقطعين، وشعثوا دار السلطان.

قلت: وفي هذه السنة توفي أبو الـوقت عبد الأوّل المحدّث المنفرد بعلو رواية كتاب الجامع الصحيح للبخاري، رحمه اللّه تعالى.

- ٧٨٣٥ -

# ثم دخلت سنة أربع وخمسين

قال أبو يعلى: في أوّل يوم منها وافت زلزلة عظيمة ضحى نهاره، وتلاها ثنتان دونها، وكان قد عرض لنور الدين مرض تزايد به بحيث أضعف قوّته، ووقع الإرجاف به من حساد دولته والمفسدين من عوام رعيته، وارتاعت الرعايا وأعيان الأجناد، وضاقت صدور قطان الثغور والبلاد، خوفا عليه، وإشفاقا من سوء يصل إليه، لاسيما مع أخبار الروم والفرنج، ولما أحس من نفسه بالضعف تقدّم إلى خواص أصحابه وقال لهم: إنني قد عزمت على وصية إليكم بما وقع في نفسي، فكونوا لها سامعين مطيعين، وبشروطها عاملين، إني مشفق على الرعايا وكافة المسلمين ممن يكون بعدي من الولاة الجاهلين والظلمة الجائرين، وإن أخي نصرة الدين أعرف من أخلاقه وسوء أفعاله ما لاأرتضي معه بتوليته أمراً من أمور المسلمين، وقد وقع اختياري على أخي قطب الدين مودود متولي الموصل، لما يرجع إليه من عقل وسداد ودين وصحة اعتقاد، فحلفوا له وانفذ رسله إلى أخيه باعلامه صورة الحال، ليكون لها مستعدا، ثم تفضل اللّه تعالى بابلاله من المرض وتزايد القوّة في النفس والحس، وجلس للدخول إليه والسلام عليه، وكان الأمير مجد الدين النائب في حلب قد رتب في الطرقات من يحفظ السالكين فيها، فظفر المقيم في منبج برجل حمال من أهل دمشق ومعه كتب، فأنفذ بها إلى مجد الدين متولي حلب، فلما وقف عليها أمر بصلب متحملها ، وأنفذها في الحال إلى نور الدين، فوجدها من أمين الدين زين الحاج أبي القاسم متولي ديوانه، ومن عز الدين والي القلعة مملوكه، ومن محمد بن جفري أحد حجابه إلى أخيه نصرة الدين أمير أميران صاحب حران بإعلامه بوقوع اليأس من أخيه، ويحضونه على المبادرة والاسراع إلى دمشق لتسلم إليه، فلما عرف نور الدين ذلك عرض الكتب على أربابها فاعترفوا بها فأمر باعتقالهم، وكان رابعهم سعد الدين عثمان، وكان قد خاف فهرب قبل ذلك بيومين، وورد في الحال كتاب صاحب قلعة جعبر يخبر بقطع نصرة

الدين الفراة مجداً إلى دمشق فانهض أسـد الدين في العسكر المنصور لردّه ومنعه مـن الوصـول، فاتصـل به خبر عوده إلى مقـرّه عند معـرفته بعـافية أخيـه، فعاد أسـد الديـن إلى دمشق، ووصلـت رسل الملـك العادل مـن ناحية الموصل بجـواب ما تحملوه إلى أخيه قطب الدين، وفـارقوه وقد برز في عسكره متـوجها إلى نـاحية دمشـق، فلما فصل عـن الموصل اتصـل به خبر عافيته، فأقـام بحيث هو ، وأنفذ وزيره جمال الديـن أبا جعفر محمد ابن علي لكشف الحال، فوصل إلى دمشق يـوم السبت الثامن من صفر في أحسن زي وأبهى تجمل، وخرج إلى لقائه الخلق الكثير.

قـال: وهذ الـوزير قـد ألهمه اللّـه تعـالى من جميـل الأفعال وحميـد الخلال وكـرم النفـس، وإنفـاق أمـوالـه في أبـواب البر والصـدقـات والصـلات، ومستحسن الآثار في مـدينة الـرسول عليـه السلام، ومكـة ذات الحرم والبيت المعظـم شرفه الله تعـالى، ما قـد شاع ذكره وتضـاعف عليه حمده وشكره، واجتمـع مع نور الدين، وجرى بينهما مـن المفاوضات والتقريرات ما انتهى إلى عوده إلى جهته بعـد الاكرام له، وتوفيته حقه من الاحترام، وأصحبه بـرسم قطـب الديـن أخيه وخـواصه مـن الملاطفة مـا اقتضته الحال الحاضرة، وتوجه معه الأمير أسد الدين.

وقـال ابن أبي طـي: لما وصـل الوزيـر جمال الـديـن إلى حلب تلقـاه موكـب نور الـدين وفيـه وجوه الـدولة وكبراء المدينـة، وأنزل في دار ابـن الصوفي وأكـرم غايـة الإكرام، وأعيـد إلى صاحبه شـاكراً عـن نور الـدين وسير معه الأمير أسـد الدين شيركـوه رسولا إلى قطب الـدين بالشكـر له والثناء عليـه، وأنفذت معـه هدايـا سنية، فسـار وعاد إلى حلـب مكرمـا فوجد نور الـدين عازما على الخروج إلى دمشق لما بلغه مـن إفساد الفرنج في بلد حـوران ، فسار في صحـابته، ووصل نـور الديـن إلى دمشق فـأمر الناس بالتجهز لقتال الفرنج، ثم أنهض أسد الدين في قطعة من العسكر لـلاغارة على بلـد صيـدا ، فسـار وسار معـه أخـوه نجـم الديـن أيـوب

وأولاده، ولم يشعر الفرنج إلاّ وهو قد عـاث في بلد صيدا وقتل وأسر عالماً عظيماً، وغنم غنيمة جليلة ، وعاد فاجتمع بنور الدين على جسر الخشب.

قلت: وهـذا هو ما تقـدم ذكره بعـد المرضة الأولى، وكأن ابـن أبي طي جعل المرضتين واحـدة بحلب، وأبو يعلى ذكـر أن الأولى بحلب والثـانية بدمشق، وهو أصح، واللّه أعلم

## فصل

قال أبو يعلى: وكان قـد وصل من ملك الروم رسول مـن معسكره ومعه هدية أتحف بها الملك العادل من أثـواب ديباج وغير ذلك، وجميل خطاب وفعـال ، وقوبل بمثـل ذلـك، وحكي عـن ملـك الفرنـج خـذله اللّـه أن المصالحة بينه وبين ملك الروم تقرّرت، والمهـادنة انعقدت، واللّه يردِ بأس كل واحد منهما إلى نحره ، ويذيقه عاقبة غدره ومكره.

قـال ووردت أخبار مـن ناحـة ملك الـروم بـاعتزامـه على أنطاكيـة ، وقصد المعـاقل الاسلاميـة، فبادر نور الـدين بالتـوجه إلى البلاد الشـامية لايناس أهلها من استيحاشهم من شر الـروم والأفرنج خذلهم اللّه تعالى، فسار في العسكر صوب حمص وحماه وشيزر.

قال: وفي ثالث ربيع الأوّل وافت زلزلة هـائلة ما جت أربع موجات ، وأيقظت النيام، وأزعجت اليقظى، وخـاف كل ذي مسكن مضطرب على نفسه وعلى مسكنه.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى هبت ريح عاصفـة شديدة أقامت يومها وليلتها، فأتلفت أكثر الثمار صيفيهـا وشتويها، وأفسدت بعض الأشجار ، ثم وافت آخر الليل زلزلة هائلة ماجت موجتين أزعجت وأقلقت.

قال: وتجدّدت المهادنة المؤكدة لنور الدين مع ملك الروم بعد تكرّر المراسلات والاقتراحات في التقريرات، وأجيب ملك الروم إلى ما التمسه من إطلاق مقدّمي الأفرنج المقيمين في حبس نور الدين، فأنفذهم بأسرهم، وقابل ملك الروم هذا الفضل بما يضاهيه،من الاتحاف بأثواب الديباج الفاخرة المختلفة الأجناس، الوافرة العدد، ومن الجوهر النفيس، وخيمة من الديباج لها قيمة وافرة، وما استحسن من الخيول الجبلية، ثم رحل عقيب ذلك في عساكره من منزله عائدا إلى بلاده مشكوراً محموداً، ولم يؤذ أحداً من المسلمين في العشر الأوسط من جمادى الأولى، فاطمانت القلوب بعد انزعاجها وقلقها.

قال: وورد بعد ذلك الخبر بأن نور الدين صنع لأخيه قطب الدين ولعسكره ولمن ورد معه من المقدّمين والولاة وأصحابهم، الواردين لجهاد الروم والأفرنج سماطاً عظيماً هائلا، تناهى فيه، وفرّق من الحصن العربية والخيول والبغال العدد الكثير، ومن الخلع من أنواع الديباج المختلفة وغيره، والتخوت الذهب الشيء الكثير الزائد على الكثرة، وكان يوماً مشهودا في الحسن والتجمل، واتفق أن جماعة من غرباء التركمان وجدوا من الناس غفلة باشتغالهم بالسماط وانتهابه، فغاروا على العرب من بني اسامة وغيرهم واستاقوا مواشيهم ، فلما ورد الخبر بذلك أنهض نور الدين في إثرهم فريقا وافرا من العسكر فأدركوهم، ثم إنهم استخلصوا منهم جميع ما أخذوه وأعيد إلى أربابه .

قال: وتقرّر الرأي النوري على التوجه إلى مدينة حران لمنازلتها واستعادتها من يد أخيه نصرة الدين حسبما رآه في ذلك من الصلاح، فرحل في عسكره أوّل جمادى الآخرة، فلما نزل عليها وأحاط بها وقعت المراسلات إلى أن تقرر الحال على أمان من بها، وسلمت في يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، وقررت أحوالها، وأحسن النظر في

أحوال أهلهـا، وسلمها لـلأمير زين الديـن على سبيل الإقطـاع ، وفوض إليه تدبير أمورها.

- ٧٨٤٠ -

# ثم دخلت سنة خمس وخمسين

قال الرئيس أبو يعلى: في صفر توفي الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين أحد مقدمي أمراء الاكراد، وهو من ذوي الوجاهة في الدولة، موصوف بالشجاعة والبسالة والسماحة مواظب على بث الصلات والصدقات في المساكين والضعفاء والفقراء مع الزمان في كل عصر ينقضي وأوان، جميل المحيا حسن البشر في اللقاء، وحمل من داره بباب الفراديس إلى الجامع للصلاة عليه، ثم إلى المدرسة المشهورة باسمه، فدفن فيها في اليوم، ولم يخل من باك عليه ومؤبن له ومتأسف على فقده لجميل أفعاله وحميد خلاله.

قلت: وله أوقاف على أبواب البرّ منها: المدرستان المنسوبتان إليه إحداهما التي دفن فيها، وهي لزيق باب الفراديس المجدّد، والأخرى قبالة باب دار سيف الغربي في صف مدرسة نور الدين رحمه الله، وله وقف على من يقرأ السبع كل يوم بمقصورة الخضر بجامع دمشق وغير ذلك، وقد مدحه العرقلة وغيره.

قال أبو يعلى: وفي مستهل صفر رفع القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى بن علي القرشي قاضي دمشق إلى الملك العادل نور الدين رقعة يسأله فيها الإعفاء من القضاء والاستبدال به، فأجاب سؤاله وولى قضاء دمشق القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، وهو المشهور بالتقدّم ووفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام، وشروط استعمال الانصاف والعدل والنزاهة، وتجنب الهوى والظلم، واستقام له الأمر على ما يهواه ويؤثره ويرضاه على أن القضاء، من بعض أدواته، واستقرّ أن يكون النائب عنه عند اشتغاله ولده.

قلت: ولكمال الدين رحمه الله تعالى الصدقة الجارية بعده على الفقراء

كل جمعة، وإليه ينسب الشباك الكمالي بجامع دمشق من الغرب، وهو الذي حكمت فيه القضاة مدّة، ويصلون فيه الجمعة في زماننا.

وإلى هاهنا انتهى ما نقلناه من كتاب الرئيس أبي يعلى التميمي، فإنه أخر كتابه، وفي هذه السنة توفي رحمه الله.

قال ابن الأثير: وفيها توفي أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله بن المستظهر بأمر الله، ومولده سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وشهرين، وبويع ولده أبو المظفر يوسف، ولقب بالمستنجد بالله، فأقرّ ابن هبيرة على وزارته،

قال: وفيها حج زين الدين علي، وأحسن إلى الناس في طريق مكة، وأكثر الصدقات، فلما وصل بغداد أكرمه المستنجد بالله، فلما لبس الخلعة كانت طويلة وكان قصيرا جدا، فمدّ يده إلى كمرانه وأخرج ما شدّ به وسطه وقصر الجبة، فنظر المستنجد بالله إليه واستحسن ذلك منه، وقال لمن عنده: مثل هذا يكون الامير والجندي لامثلكم.

قلت: وفيها توفي المستخلف بمصر الملقب بالفائز بن الظافر بن الحافظ، وولي بعده ابن عمه العاضد بن يوسف بن الحافظ، وهو آخر خلفاء مصر، ووصل من الصالح بن رزيك كتاب إلى ابن منقذ أسامة بذلك، فكتب إليه.

هناء عن نعمى قل عن قدرها الشكر
وصبراً لرزء لا يقوم به الصبر

مضى الفائز الطهر الامام وقام بالـ
ـلإمامة فينا بعده العاضد الطهر

اما ما هدى للّه في نقل ذا إلى
كرامته وفي إقامة ذا سر

فعـــش أبـــدا واسلـــم لهم يـــا كفيلهـــم
تـــدافـــع عنهـــم كـــل حـــادثـــة تعـــرو (٩٠)

# ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة

قال ابن أبي طي: في هذه السنة حج أسد الدين من الشام ، وخرج في تجمل عظيم وشارة رائعة واستصحب معه من الأزواد والكسى أشياء عظيمة ، ويقال إنه كان معه ألف نفس يجري عليهم الطعام والشراب، وحج على كوجك المعروف بزين الدين من العراق ، وحج ملهم أخو ضرغام وزير مصر، فكان الموسم بهؤلاء الثلاثة كثير الخير، واستغنى بسببهم أهل الحجاز، وعاد أسد الدين سالماً وخرج نور الدين إلى لقائه وكان يوم وروده يوما عظيما

وقال أيضا: وفيها قتل الصالح بن رزيك بمصر، وكان سبب قتله أن عمة العاضد عملت على قتله وأنفذت الأموال إلى الأمراء، فبلغ ذلك الصالح فاستعاد الأموال واحتاط على عمة العاضد.

قال.وإنما كرهته عمة العاضد لاستيلائه على الأمور والدولة، وحفظه للأموال، وقتل الصالح بسببها جماعة من الأمراء ونكبهم ، وتمكن من الدولة تمكنا حسناً، ثم إن عمة العاضد عادت وأحكمت الحيلة عليه، وبذلت لقوم من السودان مالاً جزيلا حتى أوقعوا به الفعل، جلسوا له في بيت في دهليز القصر مختفين فيه، فلما كان يوم تاسع عشر رمضان ركب إلى القصر، ودخله وسلم على العاضد، وخرج من عنده فخرج عليه الجماعة، ووقعت الصيحة فعثر الصالح بأذياله فطعنه أحدهم بالسيف في ظاهر رقبته فقطع أحد عمودي الرقبة، وحمل إلى باب القصر، وأصيب ولده رزيك في كتفه،ولما حصل الصالح في داره أوصى ولده رزيك ومات بعد ساعة من ذلك اليوم.

قال العماد: وانكسفت شمس الفضائل ، ورخص سعر الشعر، وانخفض علم العلم، وضاق فضاء الفضل، وعم رزء ابن رزيك، وملك

صرف الدهر ذلك المليك، فلم تزل مصر بعده منجوسة الحظ منحوسة الجدّ، منكوسة الراية معكوسة الآية إلى أن ملكها يوسفها الثاني، وجعلها معان المعاني وأنشر رميمها، وعطر نسيمها، وتسلم قصرها والتزم خصرها(٩١).

قال زين الدين الواعظ: عمل فارس المسلمين أخو الصالح دعوة في شعبان من السنة التي قتل فيها، فعمل هذه الأبيات وسلمها إليّ:

انست بكم دهرا فلما ظعنتم اســ ... ـتقرت بقلبي وحشة للتفرق

وأعجب شيء أنني يوم بينكم ... بقيت وقلبي بين جنبي ما بقي

أرى البعد ما بيني وبين أحبتي ... كبعد المدى ما بين غرب ومشرق

ألا جدّدي يا نفس وجداً وحسرة ... فهذا فراق بعده ليس نلتقي

قال: فلم يبق بعدها لهم اجتماع في مسرة، وقتل في شهر رمضان(٩٢).

قلت: ولعمارة اليمني ولغيره مدائح في الصالح ومراث جليلة، وقد أثنى عليه كثيرا في كتاب الوزراء المصرية، ولم يكن مجلس أنسه ينقطع إلاّ بالمذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية، وفي مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته.

قال: وكان مرتاضا قد شم أطراف المعارف، وتميز عن أجلاف الملوك ، وكان شاعراً يحب الأدب وأهله، يكرم جليسه ويبسط أنيسه، ولكنه كان مفرط العصبية في مذهب الإمامية، وكان مرتاضاً حصيفا قد لقي في ولايته فقهاء السنة وسمع كلامهم.

قال: ودخلت عليه قبل أن يموت بثلاث ليال وفي يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما في تلك الساعة:

نحن في غفلة ونوم وللمو
ت عيون يقظانة لا تنام

قد رحلنا إلى الحمام سنينا
ليت شعري متى يكون الحمام

قال: ومن عجيب الاتفاق أني أنشدت ابنه مجد الاسلام في دار سعيد السعداء ليلة السادس عشر من شهر رمضان، أو السابع عشر قصيدة أقول فيها:

أبوك الذي تسطو الليالي بحدّه
وأنت يمين إن سطا وشمال

لرتبته العظمى وإن طال عمره
إليك مصير واجب ومآل

تخالسك اللحظ المصون ودونها
حجاب شريف لا انقضى وحجال

قال: فانتقل الملك بعد ثلاث إليه(٩٣)

قال: ومما رثيته به قولي:

أفي أهل ذا النادي عليم أسائله
فإني لما بي ذاهب اللب ذاهله

سمعت حديثا أحسد الصم عنده
ويذهل واعيه ويخرس قائله

فقد رابني من شاهد الحال أنني
أرى الدست منصوبا وما فيه كافله

وأني أرى فوق الوجوه كآبة
تدل على أن الوجوه ثواكله

دعوني فما هذا بوقت بكائه
سيأتيكم طل البكاء ووابله

ولم لا نبكيه ونندب فقده
وأولادنا أيتامه وأرامله

فيا ليت شعري بعد حسن فعاله
وقد غاب عنا ما بنا الدهر فاعله

ايكرم مثوى ضيفكم وغريبكم
فيسكن أم تطوى ببين مراحله

وله من أخرى يرثيه ويذكر ولاية ابنه:

طمع المرء في الحياة غرور
وطويل الآمال فيها قصير

ومنها:

ولكم قدّر الفتى فأتته
نوب لم يحط بها التقدير

ومنها:

فض ختم الحياة عنك حمام
لا يراعي أذنا ولا يستشير

ما تخطى إلى جلالك اليوم إلا
قدر أمره علينا قدير

يا أمير الجيوش هل لك علم
أن حر الاسى علينا أمير

إنّ قبراً حللته لغني
إن دهرا فارقته لفقير

انطوى ذلك البساط وعهدي
وهو بالعلم والندى مغمور

لا تظن الأيام أنك ميت
لم يمت من ثناؤه منشور

إن مضـى كـافـل فهـذا كفيـل
أو وزيـر يغـب فهـذا وزيـر
دولـة صـالحيـة خلفتهـا
دولـة عـادليـة لاتجور
مـاشكـونـاكسر النـوائب حتـى
قيـل في الحال كسركـم مجبـور
نصر النـاصر العُلى بـالعـوالي
ولنعـم المولى ونعـم النصير

قال أيضا يرثيه ويذكر الظفر بقاتليه، ويصف نقل تابوته إلى مشهده بالقرافة، قصيدة طويلة منها:

قـد كنـت أشرق مـن ثماد مـدامعـي
أسفـا فكيـف وقـد طمـى التيـار
عـم الـورى يـوم الخميـس وخصنـي
خطـب بـأنـف الـدهـر منـه صغـار
مـا أوحـش الـدنيـا غـديـة فـارقـت
قطبـا رحـى الـدنيـا عليـه تـدار
خـربـت ربـوع المكـرمـات لـواحـد
عمـرت بـه الاجـداث وهـي قفـار
نعـش الجدود العـاثـرات مشيـع
عشيـت بـرؤيـة نعشـه الابصـار
نعـش يـودّ بنـات نعـش لـو غـدت
ونظـامهـا أسفـا عليـه نثـار
شخـص الأنـام إليـه تحت جنـازة
خفضـت لـرفعـة قـدرهـا الاقـدار
سـار الامـام أمـامهـا فعلمـت أن
قـد شيعتهـا الخمسـة الأبـرار
ومشـى الملـوك بها حفـاة بعـدمـا
حفـت مـلائكـة بها أطهـار

فكأنها تابوت موسى أودعت
في جانبيه سكينة ووقار
لكنه ما ضم غير بقية الاسـ
ـلام وهو الصالح المختار
اقطنته دار الوزارة ريثما
بنيت لنقلته الكريمة دار
وتغاير الهرمان والحرمان في
تابوته وعلى الكريم يغار
آثرت مصراً منه بالشرف الذي
حسدت قرافتها له الأمصار
وجعلتها أمناً به ومثابة
ترجو مثابة قصدها الزوّار
قد قلت إن نقلوه نقلة ظاعن
نزحت به دار وشط مزار
ما كان إلاّ السيف جدّد غمده
بسواه وهو الصارم البتار
والبدر فارق برجه متبدّلا
برجا به تتشعشع الأنوار
والغيث روّى بلدة ثم انتحى
أخرى فنوء سحابه مدرار
يا مسبل الأستار دون جلاله
ماذا الذي رفعت له الاستار
مالي أرى الزوّار بعد مهابة
فوضى ولا أذن ولا استئمار
غضب الاله على رجال أقدموا
جهلاً عليك وآخرين أشاروا
لا تعجبا لقذار ناقة صالح
فلكل دهر ناقة وقذار

واخجلتا للبيض كيف تطاولت
سفهاً بأيدي السود وهي قصار
واحسرتا كيف انفردت لأعبد
وعبيدك السادات والأحرار
رصدوك في ضيق المجال بحيث لا ال
خطي متسع ولا الخطار
ما كان أقصر باعهم عن مثلها
لو كنت متروكاً وما تختار
ولقد ثبت ثبات مقتدر على
خذلانهم لو ساعد المقدار
وتعثرت أقدامهم بك هيبة
لو لم يكن لك بالذيول عثار
أحللت دار كرامة لا تنقضي
أبدا وحل بقاتليك بوار
ياليت عينك شاهدت أحوالهم
من بعدها ورأت إلى ما صاروا
وقع القصاص بهم وليسوا مقنعا
يرضي وأين من السماء غبار
ضاقت بهم سعة الفجاج وربما
نام العدو ولا ينام الثار
وتوهموا أن الفرار مطية
تنجي وأين من القضاء فرار
طاروا فمدّ أبو الشجاع لصيدهم
شرك الردى فكأنهم ما طاروا
فتهنّ بالأجر الجزيل وميتة
درجت عليها قبلك الأخيار
مات الوصي بها وحمزة عمه
وابن البتول وجعفر الطيار

نلـــــت السعـــــادة والشهـــــادة والعلى

حيـــــا وميتـــــا إن ذا الفخـــــار

ولقـــــد أقـــــر العين بعـــــدك أروع

لـــــولاه لم يـــــك للعلى استقـــــرار

النـــــاصر الهادي الـــــذي حسنـــــاتـــــه

عـــــن سيئـــــات زمـــــاننـــــا أعـــــذار

ولما استقـــــام لحفـــــظ أمـــــة أحمد

عمـــــرت بـــــه الأوطـــــان والأوطـــــار

# ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها جمع نور الدين العساكر، وسار إلى قلعة حارم وجصرها، وجدّ في قتالها، فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من الفرسان الفرنج وشجعانهم ، واجتمع الفرنج من سائر البلاد وساروا نحوه ليرحلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصاف فلم يجيبوه إلى ذلك وراسلوه وتلطفوا الحال معه، فعاد إلى بلاده، وممن كان معه في هذه الغزاة الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ، وكان من الشجاعة في الغاية التي لامزيد عليها، فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد شيرين وكان قد دخله العام الماضي سائرا إلى الحج، فلما دخله عامئذ كتب على حائطه:

لك الحمد يا مولاي كم لك منة ... عليّ وفضل لايحيط به شكري

نزلت بهذا المسجد العام قافلا ... من الغزو موفور النصيب من الأجر

ومنه رحلت العيس في عامي الذي ... مضى نحو بيت اللّه ذي الركن والحجر

فأدّيت مفروضي وأسقطت ثقل ما ... تحملت من وزر الشبيبة عن ظهري

قلت: أذكرني هذا ما كتبه أسامة أيضا بمدينة صور وقد دخل دار ابن عقيل فرآها وقد تهدمت وتغيرت زخرفتها فكتب على لوح من رخام هذه الأبيات:

احذر من الدنيا ولا ... تغتر بالعمر القصير

وانظر إلى آثار من ... صرعته منا بالغرور

- ٧٨٥٢ -

عمـــــروا وشـــــادوا مـــــاتـــــرا ٥ مـــــن المنـــــازل والقصـــــور

وتحولـــــوا مـــــن بعـــــد سكـــــناها إلى سكـــــنى القبـــــور (٩٤)

قلت : قال ابـن أبي عقيل هذا هو أبـو الحسن محمد بن عبـد الله بن عياض بـن أبي عقيل، صـاحب صـور، ويلقب عين الـدولة ، مـات سنة خمس وستين وأربعمائة، واستولى على صور ابنه النفيس. والله أعلم.

# ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها جمع نـور الدين عساكره ودخل بـلاد الفرنج، فنزل بالبقيعـة تحت حصن الأكـراد، وهو للفرنـج عازمـا على دخول بـلادهـم، ومنـازلـة طرابلـس، فبينما النـاس في بعـض الأيـام في خيامهـم في وسـط النهـار، لم يرعهـم إلاّ ظهور صلبـان الفرنـج من وراء الجبـل الذي عليـه الحصن، فكبسـوهم،فأراد المسلمـون دفعهم فلـم يطيقوا فانهزمـوا ووضع الفرنج السيف وأكثروا القتل والأسر، وقصـدوا خيمة الملك العادل، فخرج عن ظهر خيمتـه عجلا بغير قباء، فركب فـرساهناك للنوبة،ولسرعته ركبه وفي رجليه شبحـه فنزل إنسان من الأكراد فقطعهـا فنجا نور الدين، وقتل الكردي، فسأل نور الـدين عن مخلفي ذلك الكردي فـأحسن إليهم جزاء لفعله، وكان أكثـر القتلة في السوقة والغلمان، وسـار نور الدين إلى مـدينة حمص، وبينها وبين مكان الـواقعة أربعة فراسخ، وكان النـاس يظنون أنه لايقف دون حلـب، وكان رحمه اللّـه أشجع مـن ذلك وأقـوى عزمـا، ولما نـزل على بحيرة قدس اجتمـع إليه كـل من نجـا مـن المعركـة، فقال لـه بعض أصحابه : ليـس من الرأي أن نقيم هاهنا، فـإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينـا، ونحن على هذه الحال، فوبخـه وأسكته، وقال: إذا كان معـي ألف فـارس فلا أبالي بهم قلـوا أو كثروا، وواللّـه لاأستظل بجدار حتـى أخذ بثار الإسـلام وثأري، ثـم إنه أرسل إلى حلـب ودمشق وأحضر الأموال والـدواب والأسلحة والخيام وسـائر ما يحتاج إليـه الجند، فأكثر وفرق ذلك جميعه على من سلم، وأمـا من قتل فإنه أقر اقطاعه على أولاده، فإن لم يكـن له ولد فعلى بعض أهلـه، فعاد العسكر كأنـه لم يفقد منه أحد، وأمـا الفـرنج فإنهم كانوا عازمين على قصـد حمص بعد الهزيمة، لأنها أقرب البـلاد إليهم، فلما بلغهم مقـام نور الدين عنـدها قالـوا إنه لم يفعل هذا، إلاّ وعنده مـن القوّة أن يمنعنا، وكان نور الديـن رحمه اللّه قد أكثر الخرج إلى أن قسـم في يوم واحد مائتـي ألف دينار سوى غيرهـا من الدواب والخيـام والسلاح وغير ذلك، وتقـدم إلى ديوانـه أن يحضروا الجند

ويسألو كل واحد منهم عن الذي أخذ منه ، فكل من ذكر شيئا أعطوه عوضه فحضر بعض الجند وادّعى شيئا كثيراً علم بعض النواب كذبه فيما ادّعاه ، لمعرفتهم بحالهم، فأرسلوا إلى نور الدين ينهون إليه القضية ويستأذنونه في تحليف الجندي على ما إدّعاه، فأعاد الجواب لاتكدروا عطاءنا فإني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره، وقال له أصحابه: إن لك في بلادك إدارارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل، فغضب من هذا، وقال: واللّه إني لأرجو بأولئك النصر، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لاتخطىء، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطىء وتصيب، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم ، فسكتوا.

ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة ، فلم يجبهم إليها، فتركوا عند الحصن من يحميه،وعادوا إلى بلادهم، وتفرقوا.

قلت: وفي هذه الحادثة تحت حصن الأكراد يقول أبو الفرج عبيد اللّه ابن سعد الموصلي نزيل حمص من جملة قصيدة فائقة يمدح بها نور الدين رحمه اللّه أوّلها:

ظبى المواضي وأطراف القنا الذبل
ضوامن لك ما حازوه من نفل

وكافل لك كاف ما تحاوله
عمرو وعزم وبأس غير منتقل

وما يعيبك ما حازوه من سلب
بالختل قد تؤسر الآساد بالحيل

وإنما أخلدوا جبنا إلى خدع
إذ لم يكن لهم بالجيش من قبل

واستيقظوا وأراد اللّه غفلتكم
لينفذ القدر المحتوم في الأزل

حتى أتوكم ولا الماذي من أمم
ولا الظبى كثب من مرهق عجل
قنا ألقى وقسيّ غير موترة
والخيل عازبة ترعى مع الهمل
ما يصنع الليث لا ناب ولا ظفر
بما حواليه من عفر ومن وعل
هلا وقد ركب الأسد الصقور وقد
سلوا الظبى تحت غابات من الاسل
وإن هم أضاعوا حزمهم ثقة
بجمعهم ولكم من واثق خجل

وبني الأصافر ما نلتم بمكركم
والمكر في كل إنسان أخو الفشل
ومارجعتم بأسرى خاب سعيكم
غير الأراذل والأتباع والسفل
سلبتم الجرد معراة بلا لجم
والسمر مركوزة والبيض في الخلل
هل آخذ الخيل قد أردى فوارسها
مثال آخذها في الشكل والطول
أم سالب الرمح مركوزا كسالبه
والحرب دائرة من كف معتقل
جيش أصابتهم عين الكمال وما
يخلو من العين إلاّ غير مكتمل
لهم بيوم حنين أسوة وهم
خير الأنام وفيهم خاتم الرسل
سيقتضيكم بضرب عند أهونه
البيض كالبيض والأدراع كالحلل
ملك بعيد من الإدناس ذو كلف
بالصدق في القول والإخلاص في العمل

ومنها:

فالسمر ما أصبحت والشمس ما أفلت
والسيف ما فل والأطواد لم تزل

وكم تجلت بنور الدين من ظلم
وانجاب ما كان للاضلال من ظلل

قل للمولين: كفوا الطرف من جبن
عند اللقاء وغضوا الطرف من خجل

طلبتم السهل تبغون النجاة ولو
لذتم بملككم لذتم إلى الجبل

أسلمتموه ووليتم فأسلمكم
بثبتة لو بغاها الطود لم ينل

فقام فرداً وقد ولت جحافله
فكان من نفسه في جحفل زجل

في مشهد لو ليوث الغيل تشهده
خرّت لأذقانها من شدّة الوهل

وسط العدى وحده ثبت الجنان وقد
طارت قلوب على بعد من الوجل

يعود عنهم رويداً غير مكترث
بهم وقد كرّ فيهم غير محتفل

يزداد قدماً إليهم من تيقنه
أن التأخر لا يحمي من الأجل

ما كان أقربهم من أسر أبعدكم
لو أنهم لو يكونوا منه في شغل

ثباته في صدور الخيل أنقذكم
لا تحسبوا ثبات الضمر الذلل

ما كل حين تصاب الأسد غافلة
ولا يصيب الشديد البطش ذو الشلل

واللّه عونك فيما أنت مزمعه
كما أعانك في أيامك الأول

كم قد ملكت لهم ملكا بلا عوض
وحزت من بلد منها بلا بدل
وكم سقيت العوالي من طلى ملك
وكم قريت العوافي من قرا بطل
لا نكبت سهمك الأقدار عن غرض
ولا ثنت يدك الأيام عن أمل

قلت: حاول ابن أسعد في هذه القصيدة ما حاوله المتنبي في قوله:(غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع) القصيدة، فإن كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ومدحهم، وهم المنهزمون، وقد أحسنا معا عفا اللّه عنهما، وعبيد اللّه بن أسعد هذا فقيه فاضل وشاعر مفلق، كان مدرساً بحمص يعرف بابن الدهان، وله ترجمة في تاريخ دمشق، وقد ذكره العماد الكاتب في خريدته فأحسن ذكره وأكثر الثناء على علمه وشعره، وسيأتي ذكره أيضا في هذا الكتاب في أخبار سنة سبعين وست وسبعين وثمان وسبعين إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة ، أعني سنة ثمان وخمسين وخمسمائة توفي عبد المؤمن ابن علي خليفة المهدي محمد بن تومرت ، صاحب المغرب، وولي بعده ابنه يوسف.

- ٧٨٥٨ -

# ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

ففيها سـار أسد الـدين شيركـوه بن شـاذي إلى مصر المرّة الأولى، وهو مـن أكابـر الأمراء الـذين في الخدمـة النـورية، عـازما على ملـك الديـار المصرية، واستضافتها إلى المملكـة النورية، وكان أسد الديـن وأخوه نجم الديـن أيوب، وهو أكبر ابنـاء شاذي من بلد دويـن ،وهي بلدة مـن آخر بلاد أذربيجـان ممايلي الـروم، وأصلهما من الأكراد الـرّواذية، وهـذا القبيل هو أشرف الأكـراد، وقدمـا العراق وخـدما مجاهـد الديـن بهروزا الخادم وهو شحنة العراق، فرأى في نجم الـدين عقلاً ورأيا وحسن سيرة فجعله دزداراً بتكريـت ، وهي له فسار إليهـا ومعه أخوه أسد الـدين ، فلما انهزم أتابك زنكي الشهيد والد نور الدين بالعراق من قراجة الساقي وهو أتابك داود بن السلطان محمـود، وذلك زمن المسترشد بالله سنـة ست وعشرين وخمسمائة، وصل إلى تكريت فخدمه نجم الـدين أيوب، وأقام له السفن، فعبر دجلة وتبعه اصحـابه، فأحسن نجـم الدين صحبتهم وسيرهـم ،ثم إن أسد الدين قتـل انسانا نصرانيا بتكريت لملاحـاة جرت بينهما فأرسل مجاهـد الديـن اليه والى اخيـه نجم الـديـن فأخـرجهما مـن تكـريـت ، وقيل إن أيوب كـان يحسن الرمايـة فرمى شخصا من ممـاليك بهروز بسهم فقتله، فخشي على نفسـه، فتوجه نحو الشـام وخدم مع زنكـي، وقيل لما قتـل أسد الـديـن شيركـوه النصرانـي وكـان عـزيـزا عند بهروز هـرب إلى الموصل، والتحق أيوب بـه وسنوضح هذه القضية إن شاء اللّـه تعالى عند ذكر وفاة أيوب في أخبار سنة ثمان وستين.

ثم إن أيـوب وشيركوه قصدا أتابك الشهيـد فأحسـن إليهما وعرف لهما خـدمتهما، وأقطعهما إقطـاعا حسنـا، وصـارا مـن جملة جنـده ، فلما فتـح حصـن بعلبـك جعل نجـم الـديـن دزداراً فيه، فلما قتـل الشهيـد حصر عسكر دمشـق نجم الـدين ، فـأرسل إلى سيـف الديـن غازي وقـد قـام بالملـك بعد والده ينهي الحال إليـه فلم يتفرغ لبعلبك، وضـاق الأمر على

من بها، وخاف نجم الدين أن تؤخذ عنوة ويناله أذى، فأرسل في تسليم القلعة، وطلب إقطاعا ذكره، فأجيب إلى ذلك وحلف له صاحب دمشق عليه، وسلم القلعة ووفى له بما حلف عليه من الإقطاع والتقدّم، وصار عنده من أكابر الأمراء، واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل الشهيد، وكان يخدمه في أيام والده ، فقربه نور الدين وأقطعه ورأى منه في حروبه ومشاهده آثاراً يعجز عنها غيره ، لشجاعته وجرأته، فزاده إقطاعاً،وقرباً حتى صار له حمص والرحبةوغيرهما، وجعله مقدّم عسكره، فلما تعلقت الهمة النورية، بملك دمشق أمر أسد الدين فراسل أخاه نجم الدين وهو بها في ذلك،فطلب منه المساعدة على فتحها، فأجاب إلى مايراد منه، وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيرا من الاقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها، فبذل لهما ما طلبا منه، وحلف لهما عليه، ووفى لهما لما ملكها، وصارا عنده في أعلى المنازل لاسيما نجم الدين فإن جميع الأمراء كانوا لايقعدون عند نور الدين الا أن يأمرهم أو أحدهم بذلك إلا نجم الدين، فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك.

فلما كان سنة تسع وخمسين عزم نور الدين على إرسال العساكر إلى مصر، ولم ير لهذا الأمر الكبير أقوم ولا أشجع من أسد الدين، فسيره وكان سبب ذلك أن شاوربن مجير أبا شجاع السعدي، وهو الملقب أمير الجيوش الذي يقول فيه عمارة من قصيدة:

ضجر الحديد من الحديد وشاور
في نصر آل محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتين بمثله
حنثت يمينك يا زمان فكفر

وهو وزير الملقب بالعاضد لدين الله آخر المستخلفين بمصر، كان قد وصل إلى دمشق في سنة ثمان وخمسين سادس ربيع الأول إلى نور الدين،

مستنجدا بـه، على من أخذ منه منصبـه قهراً، وكانت عـادة المصريين أنه إذا غلب شخـص صاحب المنصب، وعجـز صاحب المنصب عـن دفعه وعرفـوا عجزه وقعوا للقـاهر منهم، ورتبوه ومكنـوه، فإن قوّتهم إنما كـانت تكون بعسكـر وزيرهم وهـو الملقب عندهـم بالسلطـان، وما كانـوا يرون المكاشفـة وأغراضهم مستقيمـة، وقواعـدهم مستقرة مـن أوّل زمانهم على هذا المثـال، وكان شارو قـد غلب على الوزارة وانتـزعها من بنـي رزيك، وقتل العادل بن الصـالح بن رزيك الذي وزر بعد أبيـه، واسمه رزيك، ويلقب بالناصر أيضا، وهو الذي استحضر القاضي الفاضل عبد الرحيم ابـن علي من الاسكنـدريـة واستخدمـه بحضرته وبين يـديـه في ديـوان الجيش على ما ذكره عمارة اليمني في كتـاب الوزراء المصرية، وقال: غرس منه للدولـة، بل للملة، شجرة مباركـة متزايدة النماء أصلها ثابـت وفرعها في السماء .

ثم خرج على شـاور نائب الباب، وهو أمير يقال له ضرغـام بن سوار، ويلقب بالمنصور، فجمع له جموعاكثيرة لم يكـن له بها قبل فغلبه وأخرجه، من القاهرة وقتـل ولده طيئا، واستولى على الوزارة، فرحـل شاور إلى الشام قاصداً خـدمة نور الديـن، مستصرخا به ومستنصرا، فأحسـن لقائه وأكرم مثواه، فطلـب منه إرسال العساكـر إلى مصر ليعود إليها، ويكون لـه فيها حصة ذكرهـا له، ويتصرف على أمره ونهيه، وإختياره، ونور الـدين يقدّم في ذلك رجلاً ويـؤخر أخرى، تارة يحمله رعـاية قصد شاور وطلـب الزيادة في الملك والتقوى على الفرنـج، وتارة يمنعه خطر الطريق، وكـون الفرنج فيه إلاّ أن يوغلوا في البر فيتعرضوا لخطر آخر مـع الخوف من الفرنج أيضا، ثم استخار اللـه تعالى وأمـر أسد الـدين بـالتجهز للمسير معـه قضاءاً لحق الوافـد المستصرخ، وحبسا للبلاد، وتطلعـا على أحوالها، وكان هـوى أسد الديـن في ذلك، وكـان عنده مـن الشجاعـة وقوّة النفـس مالا يبـالي معه بمخافة، فتجهز وسار مع شـاور في جمادى الآخرة من سنة تسع وخمسين. هكذا ذكر ابن الأثير والعماد الكاتب.

وقال القاضي ابن شداد: كان ذلك سنة ثمان وخمسين ، والقول في ذلك قولها، فقد بينا أن قدوم شاور إلى الشام كان في سنة ثمان وخمسين ، وإرسال نور الدين العسكر كان في جمادى سنة تسع وخمسين، .

قالوا: وأمر نور الدين أسد الدين بإعادة شاور إلى منصبه، والانتقام ممن ناوعه في الوزارة ، وساروا جميعا، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الاسلام ممايلي الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين ، فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين، ووصل أسد الدين سالماً إلى مصر هو ومن معه ، فهرب المنازع لشاور في الوزارة وقتل وطيف برأسه، وعاد شاور وزيراً، وتمكن من منصبه، وكان عمارة قد مدح ضرغاما بقصيدة منها:

وأحق من وزر الخلافة من نشا
في حضرة الإكرام والإجلال
واختص بالخلفاء وانكشفت له
أسرارها بقرائن الأحوال
وتصرف الوزراء عن آرائه
كتصرف الأسماء بالافعال

قال عمارة: ولما جازوا برأسه على الخليج وكنت أسكن صف الخليج بالقاهرة قلت ارتجالا:

أرى حنك الوزارة صار سيفا
يجذ بحده صيد الرقاب
كأنك رائد البلوى وإلا
بشير بالمنية والمصاب

ولعمارة اليمني من قصيدة مدح بها شاور وذكر وزارتيه قوله:

فنصرت في الأولى بضرب زلزل الـ
أقدام وهي شديدة الإقدام

ونصرت في الأخرى بضرب صادق
أضحى يطير به غراب الهام
أدركت ثارا وارتجعت وزارة
نزعا بسيفك من يدي ضرغام

وكان ضرغام أوّلا من أصحاب شاور واتباعه، وقد أشار إلى ذلك عمارة في قوله من قصيدة له:

كانت وزارتك القديمة مشرعا
صفواً ولكن كدّرت غدرانها
غصبت رجال تاجه وسريره
من بعد ما سجدت له تيجانها

وله من قصيدة أخرى في شاور:

وزير تمنته الوزارة أوّلا
وثانية عفواً بغير طلاب
فخانته في الأولى بطانة ودّه
ورب حبيب في قميص حباب
وجاءته تبغي الصلح ثاني مرة
فلم يرض إلاّ بعد ضرب رقاب

ولم يغلب وزير لهم وعاد غير شاور، وكان مدّة أخذ الوزارة منه إلى أن عادت إليه تسعة أشهر سواء، وهي مدّة الحمل نص عمارة على ذلك، وقال قتل ولده طيءّ يوم الجمعة الثامن والعشرين من رمضان، وجاز رأسه على رمح تحت الطيقان والنساء يولولن بالصراخ، وكان فيهن واحدة تحفظ قولي في الصالح:

أينسى وفي العينين صورة وجهه الـ
ـكريم وعهد الانتقال قريب

فما زالت تكرره حتى رأت رأس ضرغام

قال: وأدرك شاور ثأره في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة، فيكون بينهما تسعة أشهر.

قال: وقلت في ذلك:

ونزعت ملكك من رجال نازعوا
فيه وكنت به أحق وأقعدا

جذبوا رداءك غاصبين فلم تزل
حتى كسوت القوم أردية الردى

وبردت قلبك من حرارة حرقة
أمرت نسيم الليل أن لا يبردا

تاريخ هذا نلته في مثله
يوما بيوم عبرة لمن اهتدى

حملت به الأيام تسعة أشهر
حتى جعلن له جمادى مولدا

وله فيه أيضا:

لله درك موتورا أقض به
دست وسرج وأجفان ومضطجع

ما غبت إلا يسيرا ثم لحت لنا
والثار مستدرك والملك مرتجع

قضية لم ينل منها ابن ذي يزن
إلا كما نلت والآثار تتبع

قال ابن الأثير: وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، وغدر به شاور، وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية، ولأسد الدين أيضا، فأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام، فأنف أسد الدين من هذه الحال، وأعاد الجواب يطلب ما كان استقر، فلم يجبه شاور إليه، فلما رأى ذلك أرسل نوّابه فتسلموا مدينة بلبيس، وحكم على البلاد الشرقية، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم،ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر، وكان الفرنج قد

أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين، فهم خائفون، فلما أرسل شاور إليهم يستنجدهم، ويطلب منهم أن يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه، وسارعوا إلى تلبية دعوته والمبادرة إلى نصرته، وطمعوا في ملك ديار مصر، وكان قد بذل لهم مالاً على المسير إليه، فتجهزوا وساروا، فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير، سار بعساكره في أطراف بلاده مما يلي الأفرنج ليمتنعوا من المسير، فلم يمتنعوا لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر أشدّ من الخطر في مسيرهم، فتركوا في بلادهم من يحفظها، وسار ملك القدس في الباقين إلى مصر، وكان قد وصل إلى الساحل جمع كبير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدس، فاستعان بهم ملك الفرنج، فأعانوه وسار بعضهم معه وأقام بعض في البلاد يحفظها ، فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين، وقصد مدينة بلبيس وأقام بها هو وعسكره، وجعلها ظهراً يتحصن به، فاجتمعت العساكر المصرية والفرنجية، ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة أشهر ، وقد امتنع أسد الدين بها وسوّرها من طين قصير جدّاً، وليس له خندق ولامعقل يحميها، وهو يغاديهم القتال ويراوحهم، فلم يبلغوا منه غرضاً، ولا نالوا منه شيئا فبينما هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم وملك نور الدين الحصن ومسيره إلى بانياس، فحينئذ سقط في أيديهم وأرادوا العود إلى البلاد ليحفظوها ولعلهم يدركون بانياس قبل أخذها، فلم يدركوها إلاّ وقد ملكها على ما سيأتي بيانه إن شاء اللّه تعالى، وراسلوا أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام، ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج في الساحل.

قال ابن الأثير: فحدثني من رأى أسد الدين حين خرج من بلبيس، قال: رأيته وقد أخرج أصحابه بين يديه وبقي في آخرهم وبيده لت من حديد يحمي ساقتهم، والمسلمون والفرنج ينظرون، قال: فأتاه فرنجي من

الفرنج الغربـاء فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هـؤلاء المسلمون والفرنج قد أحـاطوا بك وبـأصحابك فـلا يبقى لـك معهم بقية، فقـال شيركوه: يـاليتهم فعلـوا حتى كنـت تـرى ما لم تـر مثلـه كنت واللّـه أضع فيهـم السيف فلا أقتـل حتى أقتل رجالا، وحينئـذ يقصدهـم الملك العـادل نور الدين وقد ضعفـوا وفني أبطالهم، فيملك بلادهم ويفنـي من بقي منهم، ووالله لو أطاعنـي هؤلاء، يعني أصحابه لخرجت إليكـم أوّل يوم، لكنهم امتنعوا فصلـب الفرنجـي على وجهه وقـال: كنا نعجـب من فـرنج هـذه الديـار ومبالغتهـم في صفتك وخـوفهم منـك، والآن فقد عـذرناهـم، ثم رجع عنه، وسار شيركوه إلى الشام، وعاد سالما.

وقال العماد الكـاتب: وصل شـاور إلى نور الـدين ملتجئا فـألفاه على عدوّه معـديا مشكيا، وسير مـعـه أسد الديـن على قرار عينه، وأمـر بينه، وبغية يـدركها وخطة يملكها، ومحجـة واضحة في الملك يسلكهـا فمضى معه ونصره، وأصفى لـه مشرعه، واسترد له موضعه، وأظهـره بعلوه، وأظفره بعـدوّه، فلما باد خصمـه بـدا وصمه، وغـدر بعهـده، وأخلف في وعـده، وكان قـد راسل الفـرنج وهـاداهم في حـرب الاسلام، فـوصلوا فتحصـن شيركوه ومـن معه بمدينـة بلبيس، فحـاصره شاور بجنود مصر، والفـرنج، ثلاثة أشهر من مستهل رمضان إلى ذي الحجـة، فبذلوا له قطيعة فانصرف عنهم، وعاد إلى الشام، وفي قلبه مـن شرّ شاور الإحن، وكيف تمت بغدره تلك المحن.

قلت: وقـد أشار إلى ذلك عمارة في قولـه في مدح شاور وذكر الأفـرنج فقال:

وأنفـــذت مـــن مصر عـــدوا بمثلـــه
فللّـــه مـــن ظفـــر فللـــت ونـــاب

صـــدمـــت جموع الكفـــر والشـــام صـــدمـــة
أقمـــــت بها للقـــــوم ســـــوق ضراب

قد جردت أجناد مصر عزائما
مضاربها في الصخر غير نوابي
تولوا عن الافرنج فادح ثقلها
ودارت رحاها منهم بهضاب
أقامت دروع الجند تسعين ليلة
ثيابا لهم ما بدلت بثياب
وهم بين مطروح هناك وطارح
وبين مصيب خصمه ومصاب

وقال القاضي ابن شداد: سار أسد الدين إلى مصر واستصحب معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وجعله مقدّم عسكره، وصاحب رأيه، وكان لايفصل أمراً ولايقرّر حالا إلاّ بمشورته ورأيه، لما لاح له منه من آثار الإقبال والسعادة ، والفكرة الصحيحة، واقتران النصر بحركاته وسكناته، فساروا حتى وصلوا مصر، وشاور معهم، وكان لوصولهم إلى مصر وقع عظيم، وخافه أهل مصر، ونصر شاورا على خصمه، وأعاده إلى منصبه ومرتبته، وقرر قواعده، وشاهد البلاد وعرف أحوالها، وعلى أنها بلاد بغير رجال، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال، وكان ابتداء رحيله عنها، متوجهاً إلى الشام في السابع من ذي الحجة، فأقام بالشام مدبراً لأمره، مفكراً في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية، محدّثا بذلك نفسه، مقرراً لقواعد ذلك مع نور الدين إلى سنة اثنتين وستين.

قلت: ولفعل شاور ما فعل مع أسد الدين وصفه الشعراء بالغدر، ووقعوا فيه قبل قتله وبعده على ما سنذكره، وبقي متخوفا من أسد الدين، فقال عرقلة الكلبي من جملة قصيدة له:
وهل همّ يوما شيركوه بجلق
إلى الصيد إلاّ ارتاع في مصر شاور
هو الملك المنصور والاسد الذي
شذا ذكره في الشرق والغرب سائر

وفيها في ذي الحجة احترقت جيرون بعد رجوع أسد الدين إلى دمشق، فقال العرقلة يمدحه ويذكر ذلك:

جار صرف الردى على جيرون
وسقى أهلها كؤوس المنون

أصبحت جنة وامست جحيما
تتلظى بكل قلب حزين

كيف لا تذرف الدموع عليها
وهي في الشام نزهة للعيون

حبذا حصنها الحصين لقد كا
ن جمالا لكل حصن حصين

أي سيف سطا على دار سيف
وزبون أتى بحرب زبون

خلت نيرانها وكل ظلام
نار ليلى تلوح للمجنون

كم غني اليمين أمسى فقيرا
وفقير أمسى غني اليمين

كل حين لها حريق جديد
ليت شعري ماذا لها بعد حين

كل هذا البلاء عاقبة الفسـ
ـق وشرب الخمور والتلحين

ولقد ردّها بعزم وحزم
أسد الدين غاية المسكين

وحمى الجامع المقدس والمشـ
ـهد من جمرها بماء معين

ملك فعله بدجلة والبا
ب فعال الامام في صفين

# فصل
# في فتح حارم

قال العماد الكاتب: وفي تلك السنة ، يعني تسع وخمسين ، اغتنم نور الدين خلوّ الشام من الفرنج ،وقصدهم واجتمعوا على حارم، فضرب معهم المصاف فرزقه اللّه تعالى الانتقام منهم، فأسرهم وقتلهم، ووقع في الاسار برنس أنطاكية وقومص طرابلس، وابن لجوسلين، ودوك الروم، وذلك في رمضان(٩٥).

وقال في الخريدة: كانت نوبة البقعية نوبة عظيمة على المسلمين، وأفلت نور الدين في أقل من عشرة من عسكره، ثم كسر الفرنج بعد ثلاثة أشهر على حارم، وقتل في معركة واحدة منهم عشرين ألفا، وأسر من نجا، وأخذ القومص والابرنس والدوقس وجميع ملوكهم، وكان منحا عظيما وفتحا مبينا.

قال ابن الأثير: والسبب في هذا الفتح أن نور الدين لما عاد منهزما على ما سبق من غزوة ناحية حصن الأكراد، أقبل على الجدّ والاجتهاد والاستعداد للجهاد والأخذ بثأره وغزو العدوّ في عقر داره، وليرتق ذلك الفتق ويمحو سمة الوهن ويعيد رونق الملك، فراسل أخاه قطب الدين بالموصل، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن، ونجم الدين ألبي بماردين، وغيرهم من أصحاب الأطراف، أما قطب الدين أتابك فإنه جمع عساكره وسار مجدا وعلى مقدّمة عسكره زين الدين نائبه، وأما فخر الدين قرا أرسلان فإنه بلغني عنه أنه قال له خواصه: على أي شيء عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك، وكلهم وافقه على ذلك، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة ، فقال له أولئك: ما

عدا مما بدا فارقناك بالأمس على حال، ونرى الآن ضدّها ؟ فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقا إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، واخرجوا البلاد عن يدي، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعون عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر والنهب، ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ويلعنوني ويدعون عليّ، فلا بدّ من إجابة دعوته، ثم تجهز أيضا، وسار إلى نور الدين بنفسه، وأما نجم الدين ألبي فإنه سير عسكراً، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فنزل عليها وحصرها وبلغ الخبر إلى من بقي من الفرنج بالساحل لم يسر إلى مصر، فحشدوا وجاؤوا ومقدّم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين ، وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها والدوك، وهو رئيس الروم ومقدّمها ، وجمعوا معهم من الراجل ما لايقع عليه الإحصاء قد ملأوا الارض وحجبوا بقسطلهم السماء، فحرض نور الدين أصحابه، وفرّق نفائس الأموال على شجعان الرجال، فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم إلى أرتاح ، وهو إلى لقائهم مرتاح، وإنما رحل طمعا أن يتبعوه، ويتمكن منهم إذا لقوه، فساروا حتى نزلوا على عم، وهو في الحقيقة تصحيف ما لقوه من الغم، ثم تيقنوا أنهم لاطاقة لهم بقتاله، ولاقدرة لهم على نزاله، فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كل خير، وتبعهم نور الدين، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال وبدأت الفرنج بالحملة ، وكانت على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين، ، فبدّدوا نظامهم وزلزلوا أقدامهم وولوا الأدبار، وتبعهم الفرنج، وكانت تلك الفرة من الميمنة عن اتفاق ورأي دبروه ومكر بالعدو مكروه، وهو أن يبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ويرغموا منهم الأنوف ، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلا يلجؤون.

إليه، ويعـود المنهزمون في اثـارهم، وتأخذهـم سيوف اللّه مـن بين أيديهم ومن خلفهـم، فكان الأمر على مـا دبروا، فـإن الفرنج لما تبعـوا المنهزمين، عطف زين الـدين في عسكر الموصل على راجلهم، فأفنـاهم قتلا وأسراً، وعادت خيـالتهم ولم يمعنوا في الطلب خـوفاً على راجلهم، مـن العطب، فصادفـوا راجلهم على الصعيـد معفرين وبـدمائهـم مضرجين، فسقط في أيديهم ورأوا أنهم قـد ضلوا، وخضعت رقـابهم وذلوا، فلما رجعـوا عطف المنهـزمـون أعنتهم وعـادوا، فبقـي العـدوّ في الـوسط، وقـد أحـدق بهم المسلمون من كل جانـب ، فحينئذ حمي الوطيس، وباشر الحرب المرؤوس والرئيس ، وقاتلوا الفـرنج قتال من يرجو باقدامـه النجاة، وحاربوا حرب مـن أيس مـن الحياة، وانقضـت العساكـر الإسلاميـة، عليهم انقضـاض الصقور على بغاث الطيور، فمـزقوهم بدداً وجعلوهم قدداً فـألقى الفرنج بأيـديهم إلى الاسار، وعجـزوا عن الهزيمـة والفرار، وأكثـر المسلمون فيهـم القتـل، وزادت عـدة القتلى على عشرة آلاف، وأمـا الاسرى فلـم يحصـوا كثرة، ويكفيك دليـلا على كثرتهم أن ملوكهم أسروا، وهـم الذيـن من قبل ذكروا.

وسار نور الـدين بعد الكسرة إلى حارم، فملكهـا في الحادي والعشرين مـن شهر رمضـان، وأشار أصحـابه عليـه بالمسير إلى أنطـاكية، ليملكهـا لخلوهـا ممن يحميها ويـدفع عنها، فلـم يفعل ، وقال: أمـا المدينة فأمـرها سهل وأمـا القلعة التـي لها فهي منيعـة، لاتؤخـذ إلاّ بعد طـول حصار، وإذا ضيقنـا عليهـم أرسلوا إلى صـاحـب القسطنطينيـة وسلموهـا إليـه، ومجاورة بيمنـد أحب إليّ مـن مجاورة ملـك الـروم،وبث سرايـاه في تلـك الاعمال والولايـات فنهبوا وسبـوا ، وأوغلوا في البلاد حتـى بلغوا الـلاذقية والسويدا وغير ذلك ، وعادوا سالمين.

ثم إن نور الديـن أطلق بيمند صاحب أنطاكية بمال جـزيل أخذه منه وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم.

وقال الحافظ أبو القاسم: كسر نور الدين الروم والأرمن والفرنج على حارم، وكان عدّتهم ثلاثين ألفا.

قال: ووقع بيمند في أسره في نوبة حارم، وباعه نفسه بمال عظيم أنفقه في الجهاد.

قلت: وبلغني أن نور الدين رحمه الله لما التقى الجمعان أو قبيله إنفرد تحت تل حارم، وسجد لربه عز وجل ، ومرّغ وجهه وتضرّع وقال: يارب هؤلاء عبيدك، وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك فانصر أولياءك على أعدائك، ايش فضول محمود في الوسط،يشير إلى أنك يارب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر، وبلغني أنه قال: اللهم انصر دينك، ولاتنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى ينصر، وجرى بسبب ذلك منام حسن نذكره في أخبار سنة خمس وستين عند رحيل الفرنج عن دمياط بعد نزولهم عليها، وهذا فتح عظيم ونصر عزيز أنعم الله به على نور الدين والمسلمين، مع أن جيشه عامئذ كان منه طائفة كبيرة بمصر مع شيركوه، كما سبق، وهذا من عجيب ما وقع واتفق.

# فصل

## في ذكر وزير الموصل جمال الدين الجواد الممدح ووفاته في هذه السنة رحمه الله

وقد ذكره العماد الكاتب في مواضع من مصنفاته، وأثنى عليه ثناء عظيما حسنا،فمما ذكرله في كتابه الموسوم بنصرة الفترة وعصرة الفطرة في أخبار الوزراء السلجوقية، أن قال: ذكر جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور، كان والده من أصفهان يدعى الكامل علي، وهو صاحب الوزير شمس الملك بن نظام الملك، وكان أبوه أبو منصور فهادا في عهد السلطان ملكشاه بن الب أرسلان، وابنه الكامل أديب لبيب وزادت أيامه في السمو وأيامنه في النموّ، حتى تنافس في استخدامه الملوك والوزراء، واستضاءت برأيه في الحوادث الآراء وقد كان زوج بنتا له ببعض أولاد أخوال العزيز، يعني عم العماد الكاتب.

قال: فاشتمل لذلك العزيز رحمه الله على ولده جمال الدين أبي جعفر محمد، وخرجه في الادب، ودرّجه في الرتب، فأوّل مارتبه في ديوان العرض السلطاني المحمودي، وغلب في تحليته ذكر الأبلج، فنعته الأتراك بالأبلج، واستقام في نجابته على المنهج، واتفق أنه لما تولى زنكي بن آق سنقر الشام تزوّج بامرأة الأمير كيدغدي وولدها خاص بك بن كيد غدي من أمراء الدولة وأبناء المملكة، وهو يسير معها فرتبه العزيز لخاصبك وزيرا، فسار في الصحبة وكان مقبل الوجاهة، مقبول الفكاهة، شهي الحشاشة، بهي البشاشة، فتوفرت منى زنكي على منادمته، وقصر صباحه ومساءه على مساهمته، وعوّل عليه آخر عمره في إشراق ديوانه، وزاد المال وزان الحال، بتمكينه ومكانه، فلم يظهر لجمال الدين في زمان زنكي جود، ولاعرف له موجود، فإنه كان يقتنع بأقواته، وتزجية أوقاته، ويرفع جميع ما يحصل له إلى خزانة زنكي استبقاء لجاهه، واستعلاء به

على أشباهه، فمكنه زنكي من أصحاب ديوانه، فمنهم من استضرّ باساءته ومنهم من انتفع بإحسانه، ولما قتل زنكي صار للدولة الاتابكية ملاذا، وللبيت الأقسنقري معاذا، واستوزره الأمير غازي بن زنكي، وآزره علي كوجك على وزارته، وحلف له على مظاهرته ومظافرته، وجرى بين جمال الدين وبين زين الدين علي كوجك، وبين سيف الدين غازي، التعاقد على التعاضد، والتعاهد على التساعد، وتولى جمال الدين وزارة الموصل واستولى فعاش بنداه الجواد، وغشا إلى ناديه الوفود، وعادت به الموصل قبلة الإقبال، وكعبة الآمال، فأنارت مطالع سعوده، وسارت في الآفاق صنائع جوده، وعمر الحرمين الشريفين، وشمل بالبر أهلهما، وجمع بالأمن شملهما، و أجرى بحر السماح، ونادى حي على الفلاح، فصاحت بأفضاله ألفاظ الفصاح، وأتوا إليه من كل فج عميق، وقصد من كل بلد سحيق، فقصده العظماء، ومدحه الشعراء، وممن وفد إليه أبو الفوارس سعد بن محمد الصفي المعروف بحيص بيص، قال: وأنشدني لنفسه فيه قصيدة أوّلها:

يا للصوارم والرماح الذبل
نصراً ومن أنجد تما لم يخذل

لوشئتها ومشيئة بمشيئة
جاد الزمان وبالعلى لم يبخل

فأقنى فخارك يا مجاشع واعلمي
أني لكم من همتي في جحفل

أنا فارس اليومين يوم مقالة
ووغى أصول بصارمي وبمقولي

ظلمت فضائلي المقاول مثل ما
ظلمت جمال الدين مأوى العيل

مدحوه كي يحووا مناقب نفسه
فطمت فسالت بالمدائح من عل

فأتيت ابذل ما استطعت ومن يرد
نقل الخضم إلى المزادة يخجل

شمس من الاحسان عم ضياؤها
بل آية جاءت بحجة مرسل
يعطي الجزيل لسائلي معروفه
ويجود بالنعمى إذا لم يسئل
وتزيده شوس الخطوب طلاقة
فيكون أبسم ما يرى في المعضل
ثقلت به الأعناق من منن الندى
فالهام مطرقة لذاك المثقل
فإذا تلاقى الناس كان حديثهم
عن كل جفن بالخجالة مسدل
أسراء معروف الوزير فكلهم
عاف تراه مطلقا كمكبل
من سمرقند إلى تهامة شاهد
فضل الجمال على الحيا المتهلل
السحب تمطر ما تظل وجوده
يسري ودار مقامه بالموصل
وتقرّ عين محمد بمحمد
محيي دريسي علمه والمنزل
معمار مرقده وحافظ دينه
ومعين أمته بجود مسبل
جعل المدينة مصر ربعا آهلا
نشوان يمرح بالنعيم المحصل
فكأنها بالخصب من قرباته
بلد على شط الفرات السلسل
فلو أنه في عصره نزلت له
في مدحه سور الكتاب المنزل
عبد أخ في ضيفه ووداده
لا يستحيل وسيد في المحفل

خرّق نياط قميصه ورداؤه
بعباب زخار وهضبة يذبل

قال العماد: وكنت أنا في ذلك العهد متفقها في بغداد، واتفق حضوري بالموصل، سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، فحضرت عند جمال الدين بالجامع في جمعتين، وتكلمت عنده مع الفقهاء في مسألتين، ومما مدحته به قصيدة أوّلها:

أظنهم وقد عزموا ارتحالا
ثنوا عنا جمالا لا جمالا

سروا والصبح مبيض الحواشي
فلما حال عهد الوصل حالا

هم اعتادوا الملال فكيف ملوا
وصالهم وما ملوا الملالا

أحادي عيسهم بالله رفقا
فإن السير أورثها الكلالا

وعج نحو الأراك بها فإني
أراه لاجتماع الشمل فالا

سقى صوب الحيا تلعات نجد
وحيا بالحمى تلك التلالا

أخلائي وهل في الناس خل
به أخلو من الأحزان بالا

لئن لم أشف صدري من حسودي
ولم أذق العدى داء عضالا

فلا أدركت من أدبي مرادا
ولا صادفت من حسبي منالا

ولا وخدت إليكم بي جمال
ولا واليت مولانا الجمالا

هو المغني إذا ما المرء أقوى
هو المنجي إذا ما الخطب هالا

وقائلة أفي الدنيا كريم
سواه فقلت: لا وأبي العلالا
أطلت على الورى كرماً وفخراً
كذلك من حوى هذين طالا
وخرت المجد عن كسب وارث
فيا صدر الورى خرت الكمالا
خصصت بكل منقبة وفضل
تعالى من حباك به تعالى

قلت: وقد أكثر الشعراء في مدحه منهم العرقلة له قصيدة منها:
يهوى تجنيه والصدور كما
يهوى المعالي محمد بن علي
جمال دين الإله خير فتى
للرزق أقلامه وللأجل
معطي القرى والقرى لقاصده
من غير منّ والخيل والخول
مثل فتوح الفاروق نائله
شرقاً وغرباً في السهل والجبل
من قال لم يحوذا ويسكن ذا
أصبح مما يقول في خجل
محمد خاتم الكرام كما
سميه كان خاتم الرسل

وفيه يقول أحمد بن منير من قصيدة:
كسى الحرمين لبسة عبد شمس
وهاشم غرّتي نسل الخليل
وللبلد الأمين أجدّ أمناً
تكنف مثله جدث الرسول

عشيتـــــم يــــاولاة الأمـــــر عما
أتيـــح لــــه مـــن الأثـــر الجميـــل
وطــــارلها وأشفقتـــم فشـــدالـــ
ـــيدين على عـــرى المجـــد الأثيـــل
بيـــوت بـــالحجـــاز مقــــدّســــات
رمـــاهــــا الــــدهـــر بـــالخطـــب الجليـــل
وكــــان إذا الهنّ فصـــــاب صــــونـــا
لمن آوتــــه مــــن ولـــــد البتـــــول
مـــآثـــر بـــاقيـــات يـــوم يجنـــى الــ
ـــمقال ويجتنـــــى طيـــب المقيـــل
وكـــم للمـــوصـــل الحدبـــاء ممـــا
تنيـــل يـــداه مــــن ريــــف ونيـــل
بـــــرود الصفــــح ملتهــــب الحواشي
مهيـــب البطـــش فـــراس الــدخـــول

ولأبي المجد قسيم الحموي فيه من قصيدة:

أغـــــر يبصر منــــه النــــاس في رجــــل
والليـــــث في بشر والبــــدر في غصـــــن
سما بهمتـــــه في المكــــرمـــات إلى
عليـــاء يقصر عنهـــا همة الـــزمـــن
يلقـــاك واضـــح ليـــل الفكـــر راجـــح فيـــ
ـــل الكـــف طـــاهـــر ذيـــل السر والعلـــن
مـــاضي العـــزيمـــة ميمـــون النقيبـــة ريـــ
ـــبال الكتيبـــة عين القـــائل اللســـن
إذا تكلـــم واستحليـــت غـــرتـــه
في محفـــل رحـــت حـــالي العين والأذن
كـــأن في الــدســـت منــــه حين تنظـــره
شمـــس النهـــار وصـــوب العـــارض الهتـــن

قـال ابـن الاثير: وفيهـا في شعبـان من هـذه السنـة وهـي سنـة تسـع

وخمسين وخمسمائة توفي الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني، كان قد خدم الشهيد فولاه نصيبين، وظهرت كفايته فأضاف إليه الرحبة، فأبان عن كفاية وعفة، وكان من خواصه، فجعله مشرف مملكته كلها، وحكمه تحكيما لامزيد عليه حتى كان وزير الشهيد والحاكم في بلاده ضياء الدين بن الكفرتوثي يحكي عن جمال الدين قال: كان يدخل إلى أتابك قبلي، ويخرج بعدي،ولم يزل كذلك إلى أن قتل الشهيد، ثم وزر لولدي الشهيد سيف الدين، ثم قطب الدين، وكان بينه وبين زين الدين علي كوجك عهود ومواثيق على المصافاة والاتفاق، وكان أصحاب زين الدين يكرهونه، ويقعون فيه عند زين الدين فنهاهم، وكانت الموصل في أيامه ملجأ لكل ملهوف، ومأمنا لكل خائف، فسعى به الحساد إلى قطب الدين حتى أوغروا صدره عليه، وقالوا له: إنه يأخذ أموالك فيتصدّق بها، فلم يمكنه أن يغير عليه شيئا بسبب اتفاقه مع زين الدين، فوضع عليه زين الدين من غيره عن مصافاته ومواخاته، فقبض عليه قطب الدين وأصحابه كانوا يخافون جمال الدين، فلما قبض تبسطوا في الأمر والنهي، على خلاف غرض زين الدين، فبقي جمال الدين في الحبس نحواً من سنة، ثم مرض ومضى لسبيله عظيم القدر والخطر، كريم الورد والصدر، عديم النظير في سعة نفس، لم يرو في كتب الأوّلين أن أحدا من الوزراء اتسعت نفسه، ومروءته لما اتسعت له نفس جمال الدين، فلقد كان عظيم الفتوّة، كامل المروّة.

قال ابن الأثير : حكى لي جماعة عن الشيخ أبي القاسم الصوفي، وهو رجل من الصالحين، كان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه، قال: لم يزل الجمال مشغولا بأمر آخرته مدّة حبسه، وكان يقول: كنت أخشى أن أنقل من الدست إلى القبر، قال: فلما مرض قال لي بعض الأيام: يا أبا القاسم إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرفني، فقلت في نفسي: قد اختلط الرجل، فلما كان الغداة أكثر السؤال عن ذلك الطائر وإذا طائر أبيض لم ير مثله قد سقط، فقلت له: قد جاء الطائر، فاستبشر، ثم قال،

جـاء الحق، وأقبل على الشهـادة، وذكر اللّـه تعالى، وتـوفي فلما توفي طـار ذلك الطائر، قال: فعلمت أنه رأى شيئـا في معناه، ودفن في الموصل نحو سنة، وكان قد قال للشيخ أبي القاسـم: إن بيني وبين أسد الدين شيركوه عهداً من مات منا قبل صاحبـه حمله الحيّ إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضـل الصلاة والسـلام فدفنـه بها في التربة التـي عملها، فـإن أنا مـت فامـض إليه وذكره، فلما تـوفي سار الشيخ أبو القـاسم إلى أسد الـدين في هذا المعنـى، فأعطـاه مالاً صـالحاً ليحمله بـه إلى مكة والمدينـة، وأمر أن يحج معـه جماعة مـن الصوفيـة، ومـن يقرأ بين يـدي تـابوتـه عند النـزول والرحيل، وقدوم مـدينة تكون في الطريق، وينادون في البـلاد بالصلاة على فلان، ففعلوا ذلك فكان يصلى عليه في كـل مدينة خلق كثير، فلما كان في الحلة اجتمع النـاس للصلاة عليه، فإذا شـاب قد ارتفع إلى موضـع عال ونادى بأعلى صوته:

سرى نعشـــه فـــوق الـــرقـــاب وطـــالما
سرى بـــره فـــوق الـــركـــاب ونـــائلـــه
يمـــرّ على الـــوادي فتثنـــي رمـــالـــه
عليـــه وفي النـــادي فتبكـــي أراملـــه

فلم يـر باكيا أكثـر من ذلك اليـوم ، ثم وصلوا بـه إلى مكة فطافـوا به حـول الكعبة وصلـوا عليـه بالحرم،وحملـوه إلى المدينـةفصلـوا عليه أيضـا ودفنـوه بالـرباط الـذي أنشـأه بها، وبينه وبين قبر النبـي صلى الله عليـه وسلم خمس عشرة ذ راعا.

قلـت: كـذا قـال ابن الاثير، ولقـد رأيـت المكـان، ولعلـه أراد الحائط الشرقي مـن مسجد النبي صلى اللـه عليه وسلم، لانفـس القبر الشريف زاده اللّه شرفا وصلى على ساكنه.

ثـم قال: كـان جمال الديـن رحمه الله أسخـى الناس وأكثـرهم عطـاء وبـذلا للمال، رحيما بالنـاس ومتعطفـا عليهم عـادلاً فيهـم، فمن أعمالـه

الحسنة أنه جدد بناء مسجد الخيف بمنى، وغرم عليه أموالا عظيمة، وبنى الحجر بجانب الكعبة ورأيت اسمه عليه، ثم غير وبني غيره سنة ست وسبعين وخمسمائة، وزخرف الكعبة بالذهب والنقرة، فكل ما فيها من ذلك فهو عمله إلى سنة تسع وستمائة، ولما أراد ذلك أرسل إلى الإمام المقتفي لأمر الله هدية جليلة حتى أذن فيه، وأرسل إلى أمير مكة عيسى ابن هاشم خلعاً سنية وهدية كثيرة حتى مكنه منه، وعمر أيضا المسجد الذي على جبل عرفات، وعمل الدرج الذي يصعد فيها إليه، وكان الناس يلقون شدة في صعودهم، وعمل بعرفات مصانع للماء، وأجرى الماء إليها من نعمان في طريق معمولة تحت الجبل مبنية بالكلس ، فغرم على ذلك مالاً كثيراً، وكان يعطي أهل نعمان كل سنة مالا كثيرا ليتركوا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحجاج بعرفات، فكان الناس يجدون به راحة عظيمة.

قال: ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعا أنه بنى سورا على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب، وكان أهلها في ضنك وضر معهم، رأيت بالمدينة إنسانا يصلي الجمعة، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له ، فسألناه عن سبب ذلك فقال: يجب على كل من بالمدينة أن يدعو له، لأننا كنا في ضر وضيق ونكد عيش مع العرب، لايتركون لأحد منا ما يواريه ويشبع جوعته، فبنى علينا سورا احتمينا به ممن يريدنا بسوء، فاستغنينا فكيف لاندعوله.

قال: وكان الخطيب في المدينة يقول في خطبته: اللهم صن حرم من صان حرم نبيك بالسور محمد بن علي بن أبي منصور، قال: فلو لم يكن له إلاّ هذه المكرمة لكفاه فخراً، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها.

وسمعت عن متولي ديوان صدقاته التي يخرجها على باب داره للفقراء

سوى الإدرارات والتعهدات قال: كان له كل يوم مائة دينار أميرية يتصدّق بها على باب داره.

قال: ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناس مثلها الجسر الذي بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس، إلاّ أنه لم يفرغ لأنه قبض قبل فراغه، وبنى أيضا جسرا على نهر الباريا عند الجزيرة أيضا، وبنى الربط بالموصل وسنجار ونصيبين وغيرها، وقصده الناس من أقطار الأرض، ويكفيه أن صدر الدين الخجندي رئيس أصحاب الشافعي رضي اللّه عنه بأصبهان ، وابن الكافي قاضي قضاة همذان قصداه، فأخرج عليهما مالاً جزيلا وكذلك غيرهما من الصدور والعلماء ومشايخ الصوفية ، وصارت الموصل في أيامه مقصداً وملجأ، وكان أحب الاشياء إليه إخراج المال من الصدقات، وكان يضيق على نفسه وبيته ليتصدق.

حكى لي والدي قال: كنت يوما عنده وقد أحضر بين يديه قندز ليعمل على وبر ليلبسه بخمسة دنانير، فقال: هذا الثمن كثير اشتروا لي قندز بدينارين وتصدّقوا بثلاثة دنانير، قال: فراجعناه غير مرّة، فلم يفعل.

قال: وحكى لي من اثق إليه من العدول بالموصل: أن الأقوات تعذرت في بعض السنين بها، وغلت الأسعار، وكان بالموصل رجل من الصالحين يقال له الشيخ عمر الملاء فأحضره جمال الدين وسلم إليه مالا وقال له: تخرج هذا على مستحقيه، وكلما فرغ أرسل إلي لأنفذ غيره، فلم يمض إلاّ أيام يسيرة حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين، فأنفذ له شيئا آخر ففني، ثم أرسل يطلب ما يخرجه فقال جمال الدين للرسول: واللّه ما عندي شيء ولكن خذ هذه المحافير التي في داري فبيعوها وتصدّقوا بثمنها إلى أن يأتيني شيء آخر فنرسله إلى الشيخ عمر، فبيعت المحافير وتصدقوا بثمنها، وعرّفوه ذلك فلم يكن عنده ما يرسله فأعطاه

ثيابه التي كان يلبسها مع العمامة التي كانت على رأسه، وأرسل الجميع وقال للرسول: قل للشيخ لايمتنع من الطلب فهذه أيام مواساة، فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر بكى وباعها وتصدّق بثمنها.

قال: وحكى لي بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائي شيخ الشيوخ بالموصل قال: أحضرني الشيخ فقال لي: انطلق إلى مسجد الوزير وهو بظاهر الموصل واقعد هناك، فإذا أتاك شيء فأحفظه إلى أن أحضر عندك ففعلت، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحمالين يحملون أحمالا من النصافي والخام، وإذا قد جاء نائب جمال الدين مع الشيخ ومعهما قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدة كثيرة من الجمال فقال لي: تأخذ هذه الأحمال وتسير إلى الرحبة فتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان، فإذا احضر لك فلانا العربي ، فتوصل إليه هذه الرزمة وهذا الكتاب وهكذا إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، توصل إلى وكيلي فلان هذه الأحمال وهذه الكسوات والمال الذي عليه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة، ثم يأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة ويسير إليها فيتصدق به وكيلي بها بموجب الجريدة الأخرى.

قال: فسرنا كذلك إلى وادي القرى فرأينا به نحو مائة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوف الطريق، فلما رأونا ساروا معنا إليها فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصري، والصاع خمسة عشر رطلاً بالبغدادي، فلما رأوا الطعام والمال اشتروا كل سبعة آصع بدينار، فانقلبت المدينة بالدعاء له، ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أمرنا.

قال: وحكى لي والدي قال: رأيت جمال الدين وقد حضر عنده رجل فقيه، قبل أن يصير وزيراً فطلب منه شيئا وتردّد إليه عدة أيام، ثم انقطع فسأل عنه فقيل إنه سافر فشق ذلك عليه، ثم قال: هكذا ينصرف الأحرار عن دور الكلاب ، وردّد ذلك غير مرة، ثم سأل عنه.فقيل إنه سار نحو ماردين ، فأرسل إليه خلعة ونفقة إلى ماردين.

قال: ولو رمت شرح مفردات أعماله لأطلت وأضجرت، وهي ظاهرة لاتحتاج إلى بيان، فلهذا تركنا أكثرها.

وقد ذكره الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ في كتاب الإعتبار فقال: اجتمعت بجمال الدين الموصلي سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وأنا متوجه إلى الحج، وكانت بيني وبينه مودة قديمة، وعشرة ومؤانسة فعرض عليّ الدخول إلى داره في الموصل فامتنعت ونزلت بخيمتي على الشط فكان مدّة مقامي كل يوم يركب يجوز على الجسر نحو نينوى، وأتابك قد ركب إلى الميدان وينفذ إليّ يقول: أركب فأنا واقف أنتظرك، فأركب فأسير أنا وهو فنتحدث، فوجدت يوما منه خلوة من أصحابي فقلت له: في نفسي شيء يتردّد من حيث اجتمعنا اشتهي أن أقوله لك وما يتفق لي خلوة، وقد خلونا الساعة، قال: قل ، قلت :أقول ما قاله الشريف الرضي:

مانا صحتك خفايا الودّ من أحد ... ما لم يصبك بمكروه من العذل

مودّتي لك تأبى أن تسامحني ... بأن أراك على شيء من الزلل (٩٦)

وقد بسطت يدك في إنفاق المال في الصدقات ووجوه البرّ والمعروف، والسلاطين ما يحتملون إخراج المال، ولاتصبر نفوسهم عليه، ولو أن الانسان يخرجه من ميراثه، وهذا الذي أهلك البرامكة فانظر لنفسك كيف المخرج مما قد دخلت فيه، فأطرق ساعة، وقال: جزاك الله خيراً لكن الأمر قد عبر عما تخافه،ففارقته وسرت إلى الحجاز وعدت من مكة على طريق الشام، ونكب جمال الدين ومات في الحبس.

قلت: ولعلم الدين الحسن بن سعيد الشاتاني في هذا الوزير الجواد لما نكب:

مـــا حـــط قـــدرك مـــن أوج العلى القـــدر
كـــلا ولا غيرت أفعـــالـــك الغير

أنـــت الـــذي عـــم أهـــل الأرض نـــائلـــه
ولم ينـــل شـــأوه في ســـؤدد بشر

ســـارت صفـــاتـــك في الآفـــاق واتضحـــت
وصـــدّق السمـــع عنهـــا مـــا رأى البصر

فـــاصبر لصرف زمـــان قـــد منيـــت بـــه
فـــاخـــر الصبر يـــاطـــود النهـــى الظفـــر

فما تـــرى أحـــدا في الخلـــق يسلـــم مـــن
صروف دهـــر لـــه في أهلـــه غير

سعـــوا بقصـــدك سرا واستتـــب لهم
ولـــو سعـــوا نحـــوه جهـــراً لما قـــدروا

لـــولا الأمـــاني التـــي تحيـــى النفـــوس بها
لمت مـــن لـــوعـــة في القلـــب تستعـــر

ومنها في ذكر الشيخ عمر الملاء:

وأصـــدق النـــاس في حفـــظ العهـــود إذا
ميـــزت بـــالفكـــر أحـــوال الـــورى عمـــر

الـــزاهـــد العـــابـــد البرّ التقـــي ومـــن
يـــزوره ويقـــوّي أزره الخضر

وقال العرقلة يرثي جمال الدين الوزير والصالح بن رزيك:

لاخير في الـــدنيـــا ولا أهلهـــا
بعـــد جمال الـــديـــن والصـــالـــح

بحـــران لـــولا دمـــع بـــاكيهما
مـــا كـــان مـــاء البحـــر بـــالمالـــح

قال ابنِ الأثير: قال والدي: كنت أرى من الوزير جمال الدين في الأيام الشهيدية من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها والمحاققة فيها ما

يـدل على تمكنه مـن الكفايـة ، فلما وصل الأمـر إلى الملك قطـب الديـن مودود بن أتابك الشهيد وجمال الدين وزيـره حينئذ،وقد تمكن زين الدين علي بن بكتكين في الـدولة تمكنا عظيما ، وتقدم عنـد قطب الديـن جماعة من أصحابه فكان جمال الدين مـع تمكنه وعلوّ محله يهمل بعض الأمور ، قال: فقلـت له يـوما:أيـن تلك الكفـاية التـي كنا نـراها منـك في الأيام الشهيـدية، مـا أرى الآن منها شيئـا؟ فقـال لي: والآن ما عنـدي كفايـة؟ فقلـت: ما هـذا العمل مـن ذلك بشيء، فقـال: أنت صبـي غرّ ليسـت الكفـاية عبـارة عـن فعـل واحد في كـل زمـان، إنما الكفـايـة أن يسلـك الانسان في كـل زمان ما يناسبـه ، ذلك الوقـت كان لنا صاحـب متمكن قـوي العـزم لايتجـاسر أحـد على الاعتراض عليـه، ولا يتلـوّن بـأقـوال أصحابـه، فحفظناه فكان مـا أفعله هو الكفـاية ، وأما الآن فلنـا سلطان غير متمكن ، وهو محكوم عليه، فهذا الذي أفعله هو الكفاية.

# ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة

قال ابن الأثير : فيها فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج، وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم، وأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبرية، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها، فسار نور الدين مجداً إلى بانياس، لعلمه بقلة من فيها من الحماة، المانعين عنها، ونازلها وضيق عليها وقاتلها، وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران، فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لوكشف لك عن الأجر الذي أعدّ لك لتمنيت أن تذهب الأخرى، وجدّ في حصارها، وسمع الفرنج بذلك، فجمعوا فلم تتكامل عدّتهم حتى فتحه اللّه تعالى، على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم، فملك القلعة وملأها ذخائر وعدّة ورجالا عدّة، وعاد نور الدين إلى دمشق وفي يده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجوهر فسقط من يده في شعراء بانياس وهي كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان، فلما أبعد من المكان الذي ضاع فيه الفص علم به فأعاد بعض أصحابه في طلبه ودلهم على مكانه، وقال: أظنه هناك ضاع، فعادوا إليه فوجدوه، فقال بعض الشعراء الشاميين وأظنه، أحمد بن منير من جملة قصيدة يمدحه بها ويهنيه بهذه الغزاة وعود الفص الياقوت:

إن يمتر الشكاك فيك فإنك الـ ... مهدي مطفي جمرة الدجال

فلعودة الجبل الذي أضللته ... بالأمس بين غياطل وجبال

مسترجعاً لك بالسعادة آية ... ردت مطال الفال غير مطال

لم يعطها إلا سليمان وقد ... نلت الوفاء بموشك الاعجال

زجـــرجـــرى لسريـــر ملكـــك إنـــه
كسريـــره عـــن كـــل جـــدر عـــال
فلـــو البحـــار السبعـــة استهـــوينـــه
وأمـــرتهنّ قـــذفنـــه في الحال

قلت: هذه الابيات لابن منير بلاشـك، ولكن في غير هذه الغزاة، فإن ابن منير قـد سبق أنـه توفي سنة ثمان وأربعين، وفتـح بانيـاس كما تراه في سنة ستين، وقد قرأت في ديوان ابن منير وقال: يمدحه ، يعني نور الدين ويهنيه بـالعود مـن غزاة وضيـاع فص يـاقوت جبـل من يـده، لاشتغالـه بالصيـد، شراه ألف ومائة دينار، وفي نسخـة : ووجد أن خاتم ضـاع منه في الصيـد قيمته ألـف ومـائة دينـار، وأنشده إيـاهـا بقلعـة حمص فذكـر القصيدة أوّلها :(يوماك يوم ندى ويوم نزال)

يقول فيها:
أخـــرســـت شقشقـــة الضـــلال وقـــدتـــه
قـــود الـــذلـــول أطـــاع بعـــد صيـــال
ورميـــــــت دار المشركين بصيلـــــم
القحـــت فيهـــا الحرب بعـــد حيـــال
وسعـــرت بين تـــريبهـــم وتـــرابهم
ذعـــرا يشيـــب نـــواصي الاطفـــال
فـــوق الخطيـــم وقـــد خطمـــت زعيمهـــم
ضربـــا ســـوابقـــه بغير تـــوالي
ضربـــا مـــلأت فـــرنجـــة مـــن جـــرّه
رهبـــاً بـــه سيـــف الصقـــالـــب صـــالي
وبفـــج حـــارم أحـــرمـــت لقـــراعهـــم
هيـــم أحلـــن النـــوم غير حـــلال
عجمـــوا على جسر الحديـــد حـــديـــدهـــا
نبعـــا يعـــاذمـــه أديـــر دصـــال

زلزلت أرضهم بوقع صواعق
أعطيتنا أمنا من الزلزال

في مأزق شمرت ذيلك تحته
والنصر فوقك مسبل الاذيال

في دولة غراء محمودية
سحبت رداء الحمد غير مذال

تنسي الفتوح وتجتني
زهر المقال بباهر الأفعال

لبست بنور الدين نور حدائق
ثمراتهن غرائب الافضال

ملك تحجب في السرير بزأرة
زرّت حواشيها على ريبال

تنجاب عن ذي لبدتين شذاته
في بردتي بدل من الأبدال

رفع الرواق بروق أنطاكية
فرمى الخليج بمرهق البلبال

بدر لأربع عشرة أقتبس السنا
من خمس عشرة سورة الأنفال

فوز المآل أخاضه ماء الطلى
وسواه يقعده احتياز المال

متقسم بين القسيمين العلى
عن عمّ عم أو مخايل خال

لازلت تطلع من ثنايا جحفل
يقفو لواءك كاللوى المنهال

لك أن تطل على الكواكب راقيا
ولحاسديك بكا على الأطلال

ومما يناسب هذه السعادة في وجدان الخاتم بعد وقوعه في مظنة الهلاك والضياع ما بلغني أن موسى الهادي لما ولي الخلافة سأل عن خاتم عظيم

القيمة كان لأبيه المهدي، فبلغه أن أخاه الرشيد أخذه، فطلبه منه فامتنع فألح عليه فيه فحنق الرشيد ومرّ على جسر بغداد فرماه في دجلة ، فلما مات الهادي وولي الرشيد الخلافة أتى إلى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم من رصاص فرماه، ثم أمر الغطاسين أن يلتمسوه ففعلوا فاستخرجوا الخاتم الأوّل، فعدّ ذلك من سعادة الرشيد وبقاء ملكه.

قال ابن الأثير: ولما فتح نور الدين حصن بانياس كان ولد معين الدين أنر الذي سلم بانياس إلى الأفرنج قائما على رأسه فالتفت إليه وقال له : للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان، فقال: كيف ذلك؟ قال: لأن الله تعالى اليوم برّد جلدة والدك من جهنم، وقد تقدم أنه كان صانع بها عن دمشق لما نزل الفرنج عليها.

وفيها توفي وزير بغداد عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني، من بني ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن الحصن، وكان عالما دينا مدبراً، حنبلي المذهب وزر للمقتفي ثم للمستنجد بعده ، وله عدّة مصنفات منها الافصاح في شرح الأحاديث الصحاح، وكان يجمع في مجلسه أفاضل الوقت من أعيان المذاهب الأربعة والنحاة وغيرهم، ويجري بحضرتهم فوائد كثيرة، ثم توفي وهو ساجد في صلاة الصبح من يوم الأحد ثالث عشر جمادى الأوّل سنة ستين وخمسمائة، ورؤيت له منامات حسنة، ومدحه جماعة من الفضلاء، ومولده في ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وأربعمائة بقرية من أعمال دجيل تعرف بالدور، وهو الذي محا رسوم سلاطين العجم من العراق، وأجلاهم عن خطتها بحسن تدبيره، ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف: واجتهد أن تستر العصاة فإن ظهور معاصيهم عيب في الاسلام، وأولى الأمور ستر العيوب.

- ٧٨٩٠ -

# ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة

ففيها توفي فتح الدين بن أسد شيركوه، أخو ناصر الدين وقبره بالمقبرة النجمية إلى جانب قبر ابن عمه شاهنشاه بن أيوب في قبة فيها أربع قبور هما الأوسطان منها، وفي هذين الأخوين ناصر الدين وفتح الدين يقول العرقلة حسان:

للّه شبلا أسد خادر ما فيهما جبن ولا شح

ما أقبلا إلاّ وقال الورى قد جاء نصر اللّه والفتح

وفيها سار نور الدين أيضا إلى حصن المنيطرة، وهو للفرنج، ولم يحشد له ولاجمع عساكره إنما سار إليه على غرة من الفرنج، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا ، فانتهز الفرصة وسار إلى المنيطرة وحصرها، وجدّ في قتالها وأخذها عنوة وقهرا، وقتل من بها وسبى، وغنم غنيمة كثيرة لأمن من به فأخذتهم خيل الله (بغتة وهم لايشعرون[٩٧])، ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لدفعه إلاّ وقد ملكه، ولو علموا أنه جرد جريدة لأسرعوا ، وإنما ظنوا أن نورالدين في جمع كثير، فلما ملكه تفرّقوا وايسوا منه، وهذا قول ابن الأثير.

وذكر القاضي ابن شداد أن ذلك كان في سنة اثنتين وستين ، كما سيأتي والله أعلم.

وفيها توفي الجليس بن الحباب بمصر

قال العماد في الخريدة: القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز بن

الحسين بن الحباب الأغلبى السعدي التميمي، جليس صاحب مصر، وفضله مشهور، وشعره مأثور، وكان أوحد عصره في مصره نظما ونثرا وترسلا وشعرا، ومات بها في سنة إحدى وستين وقد أناف على السبعين ، وأنشدني له الأمير نجم الدين بن مصال من قصيدة يقول فيها:

ومن عجب أن السيوف لديهم
تحيض دماء والسيوف ذكور
واعجب من ذا أنها في أكفهم
تأجج نارا والاكف بحور

قال: وأنشدني له الشريف ادريس الادريسي قصيدة سيرها إلى الصالح رزيك قبل وزارته يحرضه على إدراك ثأر الظافر، وكان عباس وزيرهم قتله وقتل أخوته يوسف وجبريل يقول فيها:

أصادفهم قولا وغيبا ومشهدا
نحوهم على عمد بفعل أعادي
فأين بنو رزيك عنها ونصرهم
وما لهم من منعة وذياد
فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم
ومصرعهم لم تكتحل برقاد
فمزق جموع المارقين فانها
بقايا زروع أذنت بحصاد

وله فيه من أخرى في هذه الحادثة:

ولما ترامى البربري بجهله
إلى فتكة مارامها قط رائم
ركبت إليه متن عزمتك التي
بأمثالها تلقى الخطوب العظائم
أعدت إليهم ملكهم بعد ما لوى
به غاصب حق الامامة ظالم

وأنفذ إليه في المعنى يقول:

أعــــدت إلى جســـــم الـــــوزارة روحهــــا
ومــــا كـــان يـــرجـــى بعثهـــا ونشـــورهـــا

أقـــامـــت زمـــانـــا عنـــد غيرك طـــامثـــا
فهـــذا الأوان قـــــرؤهـــا وطهـــــورهـــا

مــــن العـــدل أن يحظـــى بها مستحقهـــا
ويخلعهـــــــا مـــــردودة مستعيرهـــــا

إذا ملـــك الحسنـــاء مـــن ليـــس كفـــؤهـــا
أشـــار عليـــــه بـــالطـــلاق مشيرهـــا

وله يشكو طبيبا:

وأصــــل بليتـــي مـــن قـــد غـــزاني
مـــن السقـــم الملـــح بعسكـــريـــن

طبيــــب طبـــه كغـــراب بين
يفـــرق بين عـــافيتـــي وبينـــي

أتـــى الحمـــى وقـــد شـــاخـــت وبـــاخـــت
فـــــردّ لها الشبـــــــاب بنسختين

ودبـــــرهـــــا بتـــــدبير لطيـــــف
حكـــــاه عـــــن سنـــــان أو حنين

وكـــانـــت نـــوبـــة في كـــل يـــوم
فصيرهـــــا بحـــــذق نـــــوبتين (٩٨)

قلت: الأبيـات الرائية تمثل بها الجليس وهي لصردر قرأتها في ديـوانه، وهـي من قصيـدة يمدح بها وزيـر الخليفة ببغـداد فخر الـدولة أبـا نصر محمد بن محمد بن جهير ويهنيه بعوده إلى الوزارة وأوّل القصيدة:

لحاجـــة قلـــب مـــا يفيـــق غـــرورهـــا
وحـــاجـــة نفـــس ليـــس يقضـــى يسيرهـــا

وهي طويلة يقول في غزلها:

- ٧٨٩٣ -

وقفنـــا صفــوفـــا في الـــديـــار كـــأنها
صحـــائف ملقـــاة ونحـــن سطـــورهـــا
يقـــول خليلي والظبـــاء ســـوانـــح
أهـــذي التـــي تهوى فقلـــت نظيرهـــا
وقـــــد قلتها لي ليـــــس في الأرض جنـــة
أمـــا هـــذه فـــوق الـــركـــائب حـــورهـــا
أراك الحمـــــى قـــــل لي بـــــأي وسيلـــة
وصلـــت إلى أن صـــادفتـــك ثغـــورهـــا
ومـــالي بها علـــم فهـــل أنـــت عـــالم
أأفـــواههـــا أولى بها أم نحـــورهـــا
على رسلكـــم في الهجـــر إنـــا عصـــابـــة
إذا ظفـــرت في الحب عـــف ضميرهـــا

ويقول في مديحها:

فقـــل لليـــالي كيـــف شئـــت تقلبـــي
ففـــي يـــد عبـــل الســـاعـــديـــن أمـــورهـــا
أمـــاني في نفـــس الـــوزارة بلغـــت
بـــه كنهها حتـــى استحقـــت نـــذورهـــا
لـــوت وجههـــا عـــن كـــل طـــالـــب متعـــة
إلى خـــاطـــب حـــل عليـــه سفـــورهـــا
إذا مثـــل الأقـــوام دون عـــرينـــه
تســـاوى بـــه ذو طيشهـــا ووقـــورهـــا
تكـــاد لما قـــد ألبســـت مـــن سكينـــة
تـــرف على تلـــك الـــرؤوس طيـــورهـــا

- ٧٨٩٤ -

# ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة

ففيها عاد أسد الدين إلى مصر تاسع ربيع الآخر، وقد كان بعد رجوعه من مصر لايزال يحدّث نفسه بقصدها ومعاودتها ، حريصا على الدخول إليها يتحدث به مع كل من يثق إليه، وكان مما يهيجه على العود زيادة حقده على شاور وما عمل معه، فلما كان هذه السنة تجهز وسار إليها وسير نور الدين معه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وفي ذلك يقول العرقلة :

أقول والأتراك قد أزمعت
مصر إلى حرب الأعاريب
رب كما ملكتها يوسف الـ
ـصدّيق من أولاد يعقوب
ملكها في عصرنا يوسف الـ
ـصادق من أولاد أيوب
من لم يزل ضراب هام العدى
حقا وضرّاب العراقيب

ثم أن أسد الدين جدّ في السير على البر، وترك بلاد الافرنج عن يمينه، فوصل إلى الديار المصرية، وقصد أطفيح، وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي، ونزل بالجيزة مقابل مصر، وتصرف في البلاد الغربية، وأقام بها أربعا وخمسين يوما، وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم، فأتوه على الصعب والذلول، فتارة يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجدّ والتشمير، وتارة يحدوهم خوفهم من أن يملكها العسكر النوري على الاسراع في المسير، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم، فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي، وكان أسد الدين والعسكر النوري قد ساروا إلى الصعيد، فبلغوا مكانا يعرف بالبابين، وسارت العساكر المصرية والفرنج من ورائهم فأدركوهم به في الخامس والعشرين من جمادى الأولى، وكان قد أرسل إليهم

جواسيس فعادوا وأخبروه بكثرة عددهم وعـددهم وجدهم في طلبه، فعزم على قتالهم وبقـائهم، وأن تحكم السيوف بينـه وبينهم، إلاّ أنه خـاف من أصحـابـه أن تضعف نفـوسهـم في الثبـات في هذا المقـام الخطير الـذي عطبهـم فيه أقـرب من السـلامة لقلـة عـددهم وبعـدهم عـن بلادهـم، فاستشارهم فكلهم أشار عليـه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، وقالـوا له:إن نحن إنهزمنا وهـو الذي لاشك فيه فـإلى أين نلتجي وبمن نحتمـي، وكل من في هـذه الديار من جنـدي وعامي وفـلاح عدو لنا ويودون لو شربـوا دماءنا، وحق لعسكر عدّتهم ألـف فارس قد بعدوا عن ديارهـم، وقل ناصرهم أن يـرتاع من لقاء عشرات ألـوف، مع أن كل البلاد عدو لهم، فلما قـالوا ذلك قام إنسـان من المماليك النوريـة يقال له شرف الديـن بزغـش، وكان مـن الشجاعـة بالمكـان المشهور، وقـال: من يخاف القتـل والجراح والأسر فلا يخدم الملـوك، بـل يكـون فلاحـا أو مـع النساء في بيتـه، والله لئـن عدتـم إلى الملك العـادل من غير غلبـة وبلاء تعذرون فيه ليأخـذن إقطاعاتكم، وليعودن عليكم بجميـع ما أخذتموه إلى يومنـا هذا ويقول لكـم: أتأخذون أمـوال المسلمين وتفرّون عن عـدوهم، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيهـا الكفار، قال أسد الدين: هذا رأيـي وبه أعمـل ووافقهما صلاح الديـن يوسف بـن أيوب، ثـم كثر الموافقون لهم على القتـال فاجتمعـت الكلمة على اللقـاء، فأقـام بمكانـه حتـى أدركه المصريـون والفرنـج وهـو على تعبية، وقـد جعل الأثقـال في القلـب يتكثـر بها، ولأنه لم يمكنـه أن يتركهـا بمكـان آخر فينهبهـا أهـل البلاد، ثم إنه جعل صلاح الديـن ابن أخيه في القلب وقال له ولمن معه: إن الفرنـج والمصريين يظنون أننـي في القلب فهـم يجعلون جمرتهم بـإزائه وحملتهـم عليـه، فـإذا حملـوا عليكـم فلا تصـدقـوهـم القتـال ولاتهلكـوا نفـوسكم وانـدفعوا بين أيـديهم،فإذا عـادوا عنكم فـارجعوا في أعقـابهم، واختـار مـن شجعـان أصحـابـه جمعـا يثـق إليهـم ويعـرف صبرهـم وشجاعتهـم، ووقف بهم في الميمنـة ، فلما تقابـل الطائفتـان فعل الفـرنج

ماذكره أسـد الدبن، وحملوا على القلب ظنـا منهم أنه فيه فقاتلهـم من به قتـالا يسيرا ثم انهزمـوا بين أيـديهم فتبعوهـم، فحينئـذ حمل أسـد الديـن فيمـن معه على مـن تخلـف عـن الفرنـج الـذيـن حملوا على القلـب مـن المسلمين فهزمـوهم، ووضـع السيف فيهم ، فـأثخن وأكثـر القتل والأسر، وانهزم الباقـون، فلما عاد الفرنـج من أثرالمنهزمين الـذين كانـوا في القلب رأوا مكـان المعركـة من أصحـابهم بلقعاً ليـس بها منهم ديـار، فانهزمـوا أيضا، وكان هـذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفي فـارس تهزم عساكر مصر وفرنـج الساحل، ثـم سار أسد الـدين إلى ثغـر الاسكندرية وجبـى ما في طريقها من القرايا والسواد مـن الأموال، ووصل إلى الاسكندرية فتسلمها من غير قتال سلمهـا إليه أهلها، فاستنـاب بها صلاح الدين ابـن أخيه، وعاد إلى الصعيد وتملكـه وجبى أمواله وأقـام به حتى صام رمضـان، وأما المصريـون والفرنـج، فإنهم عـادوا إلى القاهـرة وجمعوا أصحـابهم وأقامـوا عـوض من قتـل منهم واستكثـروا وحشدوا وسـاروا إلى الاسكندريـة وبها صلاح الـدين في عسكـر يمنعونها منهـم، وقد أعـانهم أهلها خـوفاً مـن الفرنج، فاشتدّ الحصار، وقل الطعـام بالبلد فصبر أهلها على ذلك، ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسـول المصريين والفرنج يطلبون الصلح وبـذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه مـن البلاد، فأجابهم إلى ذلك وشرط أن الفرنـج لايقيمون بمصر ولايتسلمون منها قـرية واحدة، وأن الاسكنـدرية تعـاد إلى المصريين ، فـأجـابوا إلى ذلـك واصطلحـوا ، وعـاد إلى الشـام، فوصـل دمشق ثـامن عشر ذي القعدة وتسلـم المصريون الاسكنـدرية في النصـف من شـوال، وأما الفـرنج فـإنهم استقر بينهـم وبين المصريين أن يكون لهم بـالقاهـرة شحنة، ويكـون أبوابها بيـد فرسـانهم، ليمتنع الملـك العادل مـن إنفاذ عسكر إليهـم ويكون للفرنـج من دخل مصر كـل سنة مائة ألـف دينار، وهـذا كله يجري بين الفـرنج وبين شـاور، وأما العـاضد صاحـب مصر فليس إليـه من الأمر شيء، ولايعلـم بشيء من ذلـك، قد

حكم عليه شاور وحجبه، وعاد الفرنج إلى بلادهم، وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة، ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمي وهو من أكابر أمراء الملك العادل، وهو خال صلاح الدين يوسف، ينهي محبته وولاءه ويسأله أن يأمر باصبلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته، ويجمع كلمة الاسلام، وبذل مالاً يحمله كل سنة ، فأجابه إلى ذلك، وحملوا إلى نور الدين مالا جزيلاً فبقي الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها ، فكان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى في أخبار سنة أربع وستين.

قال القاضي أبو المحاسن: ذكر عود أسد الدين إلى مصر في المرة الثانية وهي المعروفة بوقعة البابين:لم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور ذلك وداخله الخوف على البلاد من الأتراك، وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد، وأنه لابد له من قصدها، فكاتب الفرنج وقرّر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه فيها تمكينا كليا ويعينونه على استئصال أعدائه، بحيث يستقر قدمه فيها، وبلغ ذلك نور الدين وأسد الدين فاشتدّ خوفهما على مصر، أن يملكها الكفار فيستولون على البلاد كلها، فتجهز أسد الدين، وأنفذ نور الدين معه العسكر، وألزم صلاح الدين رحمه الله بالسير معه على كراهة منه لذلك،وذلك في أثناء ربيع الأول وكان وصولهم البلاد المصرية مقاربا لوصول الفرنج إليها، واتفق شاور مع الفرنج على أسد الدين والمصريون بأسرهم، وجرى بينهم حروب كثيرة، ووقعات شديدة، وانفصل الفرنج عن الديار المصرية ، وانفصل أسد الدين، وكان سبب عود الفرنج أن نور الدين قدّس الله روحه جرد العساكر إلى بلاد الأفرنج، وأخذ المنيطرة، وعلم الفرنج ذلك فخافوا على بلادهم، وعادوا وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب مواقعة الفرنج والمصريين وما عانوه من الشدائد، وعاينوه من الأهوال، وما عاد حتى صالح الفرنج

على أن ينصرفوا كلهم عن مصر، وعاد إلى الشام في بقية السنة، وقد انضم إلى قوة الطمع في البلاد شدة الخوف عليها من الفرنج لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذي عرفها، فأقام بالشام على مضض وقلبه مقلقل، والقضاء يجره إلى شيء قد قدّر لغيره وهو لايشعر بذلك.

قال: وفي أثناء سنة اثنتين وستين ملك نور الدين قلعة المنيطرة بعد مسير أسد الدين في رجب، وخرّب قلعة أكاف بالبرية، وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخواه قطب الدين وزين الدين بحماة للغزاة ، وساروا إلى بلاد الفرنج ، فخربوا هونين في شوال منها، وفي ذي القعدة منها كان عود أسد الدين إلى مصر، وفيه مات قرا أرسلان بديار بكر.

## فصل

وفي شعبان من هذه السنة قدم عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد الأصفهاني مصنف كتابي الفتح والبرق فأنزله قاضي القضاة كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم بن الشهرزوري بالمدرسة النورية الشافعية، عند حمام القصير بباب الفرج المنسوبة الى العماد وإنما نسبت إليه لأن نور الدين رحمه اللّه ولاه إياها في رجب سنة سبع وستين ، بعد الشيخ الفقيه ابن عبد، وكان العماد له معرفة بنجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، ابني شاذي من تكريت بسبب أن عمه العزيز أحمد بن حامد اعتقله السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بقلعة تكريت ، ونجم الدين أيوب آنذاك واليها، فانتسجت المودّة بينهم من هناك، فلما سمع نجم الدين بوصوله بكر إلى منزله لتبجيله، وكان صلاح الدين وشيركوه حينئذ بمصر فمدح العماد نجم الدين أيوب بقصيدة أوّلها

يوم النوى ليس من عمري بمحسوب
ولا الفراق إلى عيشي بمنسوب

مـــا اخترت بعـــدك لكـــن الـــزمـــان أتـــى
كـــرهـــا بها ليـــس يـــا محبـــوب محبـــوبي
أرجـــو إيـــابي إليكـــم ظـــافـــرا عجـــلا
فقـــد ظفـــرت بنجـــم الـــديـــن أيـــوب
مـــوفـــق الـــرأي مـــاضي العـــزم مـــرتفـــع
على الأعـــاجـــم مجداً والأعـــاريـــب
أحبـــك اللّـــه إذ لازمـــت نجـــدتـــه
على جبين بتـــاج الملـــك معصـــوب
أخـــوك وابنـــك صـــدقـــا منهما اعتصما
بـــاللّـــه والنصر وعـــد غير مكـــذوب
هما هما مـــان في يـــومـــي وغـــى وقـــرى
تعـــودا ضرب هـــام أو عـــراقيـــب
غـــدا يشبـــان في الكفـــار نـــار وغـــى
بلفحهـــا يصبـــح الشبـــان كـــالشيـــب
بملـــك مصر ونصر المؤمنين غـــدا
تحظـــى النفـــوس بتـــأنيـــس وتطييـــب
ويستقـــرّ بمصر يـــوســـف وبـــه
تقـــرّ بعـــد التنـــائي عين يعقـــوب
ويلتقـــي يـــوســـف فيهـــا بـــأخـــوتـــه
واللّـــه يجمعهـــم مـــن غير تثـــريـــب

وكان أنشده هذه القصيدة في آخر شوال سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وتم ملكهم مصر بعد سنتين.

قال: فنظمت ما في الغيب تقديره.

قال: وكان أسد الدين قد جمع وسار إلى مصر في الرمل في النصف من ربيع الأوّل ووصل في سادس ربيع الآخر إلى أطفيح ، وعبر منها إلى الجانب الغربي، وأناخ بالجيزة محاذاة مصر فأقام عليها نيفا وخمسين يوما

واستعان شاور بالفرنج ، ورتبوا لهم سوقا بالقاهرة، وعبروا بهم من البلاد الشرقية إلى الغرب، وعلم أسد الدين فسار أمامهم فالتقوا بموضع يعرف بالبابين فكسرهم أسد الدين وأصحابه وقتلوا من الفرنج وممن تبعهم من المصريين ألوفا، وحصل منهم في الاسار سبعون فارسا من بارونيتهم، فلما تمت لهم هذه الكسرة رحلوا إلى الاسكندرية ، فوجدوا مساعدة أهلها فدخلوها، ثم قال أسد الدين: أنا لايمكنني أن أحصر نفسي فأخذ العسكر وسار به إلى بلاد الصعيد، فاستولى عليها وجبى خراجها، وأقام صلاح الدين بالاسكندرية، فسار إليه شاور والفرنج فحاصروه أربعة أشهر، وصدق أهل الاسكندرية القتال مع صلاح الدين، وقوي أسد الدين بقوص ، واستنهض لقصد القوم العموم والخصوص، فسمع الفرنج أنه جاء يقصدهم فرحلوا عن الحصار، وكان شاور قد استمال جماعة من التركمان الذين مع أسد الدين بالذهب، فلما راسلوه في المهادنة أجاب، وطلب منهم عوض ما غرمه ، فبذلوا له خمسين ألف دينار ، فخرجوا من الاسكندرية في النصف من شوال، ووصلوا إلى دمشق ثامن عشر ذي القعدة، وعادوا إلى الخدمة النورية، فاجتمع العماد بأسد الدين وأنشده هذه القصيدة:

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشر
ونلت ما عجزت عن نيله القدر

من يهتدي للذي أنت اهتديت له
ومن له مثل ما أثرته أثر

أسرت أم بسراك الأرض قد طويت
فأنت اسكندر في السير أم خضر

أوردت خيل بأقصى النيل صادرة
من الفرات تقاضى وردها الصدر

تناقلت ذكرك الدنيا فليس لها
إلاّ حديثك ما بين الورى سمر

فأنت من زانت الأيام سيرته
وزاد فوق الذي جاءت به السير

لـــو في زمـــان رســـول اللّـــه كنـــت أتـــت
في هـــــذه السيرة المحمـــــودة الســـــور
أصبحـــت بـــالعـــدل والاقـــدام منفـــردا
فقـــــل لنـــــا أعليّ أنـــــت أم عمـــــر
اسكنـــــدر ذكـــــروا أخبـــــار حكمتـــــه
ونحـــن فيـــك رأينـــا كـــل مـــا ذكـــروا
ورستـــم خبرونـــا عـــن شجـــاعتـــه
وصـــار فيـــك عيـــانـــا ذلـــك الخبر
أفخـــر فـــإن ملـــوك الأرض أذهلهـــم
مـــا قـــد فعلـــت فكـــل فيـــك مفتكـــر
سهـــرت إذ رقـــدوا بـــل هجـــت إذ سكنـــوا
وصلـــت إذ جبنـــوا بـــل طلـــت إذ قصروا
يستعظمـــون الـــذي ادركتـــه عجبـــاً
وذاك في جنـــب مـــا نـــرجـــوه محتقـــر
قضـــى القضـــاء بما نـــرجـــوه عـــن كثـــب
حتما ووافقـــك التـــوفيـــق والقـــدر
شكـــت خيـــولـــك إدمـــان السرى وشكـــت
مـــن فلهـــا البيـــض بـــل مـــن حطمهـــا السمـــر
يسرت فتـــح بـــلاد كـــان أيسرهـــا
لغير رأيـــك قفـــلا فتحـــه عسر
قـــرنـــت بـــالحزم منـــك العـــزم فـــاتسقـــت
مـــآرب لـــك عنهـــا أسفـــر السفـــر
ومـــن يكـــون بنـــور الـــديـــن مهتـــديـــا
في أمـــره كيـــف لا يقـــوى لـــه المرر
يـــرى بـــرأيـــك مـــا في الملـــك يبرمـــه
فـــأنـــت منـــه بحيـــث السمـــع والبصر
لقـــد بغـــت فئـــة الأفـــرنـــج فـــانتصفـــت
منهـــا بـــاقـــدامـــك الهنـــديـــة البتر

- ٧٩٠٢ -

غـرسـت في أرض مصر مـن جسـومهـم
أشجـار خـط لها مـن هـامهـم ثمـر
وسـال بحـر نجيـع في مقـام وغـى
بـه الحديـد غمام والـدم المطـر
انهرت منهـم دمـاء بـالصعيـد جـرى
منهـا إلى النيـل في واديهم نهر
رأوا إليـك عبـور النيـل إذ عـدمـوا
نصرا فما عبروا حتـى قـد اعتبروا
تحت الصـوارم هـام المشركين كما
تحت الصـوالـج يـومـا خفـت الاكـر
أفنـت سيـوفـك مـن لاقـت فـإن تـركـت
قـومـا فهـم نفـر مـن قبلهـا نفـروا
لم ينـج إلاّ الـذي عـافتـه مـن خبـث
وحـش الفـلا وهـو للمحـذور منتظـر
والسـاكنـون القصـور القـاهـريـة قـد
نـادى القصـور عليهـم أنهم قهـروا
وشـاور شـاوروه في مكـايـدهـم
فكـاده الكيـد لما خـانـه الحذر
كـانـوا مـن الـرعـب مـوتـى في جلـودهـم
وحين أمنتهـم مـن خـوفهـم نشروا
وإن مـن شيركـوه الشرك منخـزل
والكفـر منخـذل والـديـن منتصر
عـوّل على فئـة عنـد اللقـاء وفـت
وعـدّ عـن تـركمان قبلـه غـدروا
وكيـف يخذل جيـش أنـت مـالكـه
والقـائدان لـه التـأييـد والظفـر
أجـاب فيـك إلـه الخلـق دعـوة مـن
يطيـب بـالليـل مـن أنفـاسـه السحـر

- ٧٩٠٣ -

قال العماد: واتصلت بيني وبين صلاح الدين يوسف ابن أخيه مودّة، تمت لي بها على الزمان عدّة، ولم يزل يستهديني نظمي ونثري، ويشعرني أنه يميل إلى شعري ، فأوّل ما خدمته به هذه الكلمة:

كيف قلتم بمقلته فتور ... وأراها بلا فتور تجور

ومنها:

مستجيز جوري وإني منه ... بابن أيوب يوسف مستجير

فضله في يد الزمان سوار ... مثلها رأيه على الملك سور

كرم سابغ وجود عميم ... وندى سائغ وفضل غزير

أنت من لم يزل يحنّ إليه ... وهو في المهد سرجه والسرير

من دم الغادرين غادرت بالأمـ ... ـس صعيد الصعيد وهو غدير

ولكل مما تطاولت فيهم ... أمل قاصر وعمر قصير

لاذ بالنيل شاور مثل فرعو ... ن فذل اللاجي وعز العبور

شارك المشركين نعيا وقدما ... شاركتها قريظة والنضير

والذي يدعي الامامة بالقا ... هرة ارتاع أنه مقهور

وغدا الملك خائفا من سطاكم ... ذا ارتعاد كأنه مقرور

وبنو المنفري هانوا ففروا ... ومن الاسد كل كلب فرور

إنما كـــان للكـــلاب عـــواء
حيـــث مـــا كـــان لـــلأســـود زئير
وفليـــب عنـــد الفـــرار سليـــب
فهـــو بـــالـــرعـــب مطلـــق مـــأســـور
لم يبقـــوا ســـوى الأصـــاغـــر للسبـــ
ـــي فـــودوا لـــو أن الكبير صغير
وحميـــت الاسكنـــدريـــة عنهـــم
ورحـــى حـــربهم عليهـــم تـــدور
حـــاصروهـــا ومـــا الـــذي بـــان مـــن ذبـــ
ـــك عنهـــا وحفظهـــا محصـــور
كحصـــار الأحـــزاب طيبـــة قـــدمـــا
ونبـــي الهدى بها منصـــور
فـــاشكـــر اللّـــه حيـــث أولاك نصراً
فهـــو نعـــم المولى ونعـــم النصير
ولكـــم أرجـــف الأعـــادي فقلنـــا
مـــا لما تـــذكـــرونـــه تـــأثير
ورقبنـــا كـــالعيـــد عـــودك فـــاليـــو
م بـــه لـــلانـــام عيـــد كبير
عـــاد مـــن مصر يـــوســـف وإلى يعـــ
ـــقوب بـــالتهنيـــات جـــاء البشير
فـــلأيـــوب مـــن إيـــاب صـــلاح الـــ
ـــدين يـــوم بـــه تـــوفى النـــذور
ولكـــم عـــودة إلى مصر بـــالنصـــ
ـــر على ذكـــرهـــا تمر العصـــور
فـــاستردّوا حـــق الإمـــامـــة ممـــن
خـــان فيهـــا فـــإنـــه مستعير
وافترعهـــا بكـــرا لها بمـــدى الـــدهـــ
ـــر رواح في مـــدحكـــم وبكـــور

أنـــا سيرت طـــالـــع العـــزم منـــي
وإلى قصـــــــدك انتهــــــى التسيير
وأرى خـــاطـــري لمدحـــك إلـــف
إنما يـــــألـــــف الخطير الخطير

وهـي والتي قبلهـا طـويلتان جداً، فانتظمت معرفة العماد بصلاح الدين، وكان لـه مساعدا عند نور الدين، وقرأت في ديـوان العرقلة، وقال يمدح أسد الديـن شيركوه، وقد أخذ الشقيف، ورحل طـالبا حصناً يقال له العراق:

رحلـــت مـــن الشقيـــف إلى العـــراق
بعـــزم كـــالمهنـــدة الـــرقـــاق
ونكســـت الأعـــادي منـــه قهـــراً
ومجدك في ذرى الجوزا بـــــاقـــــي
بجـــاشـــك لا بجيشـــك نلـــت هـــذا
وبـــالتـــوفيـــق لا بـــالإتفـــاق
فـــداؤك مـــن مضـــى بـــالحصـــن قبلي
إلى دار الخلـــود مـــن الـــرفـــاق
ومـــا نخشـــى على الإســـلام بـــؤسا
إذا هلـــك الجميـــع وأنـــت بـــاقـــي
أشـــاوركـــم فشـــاوركـــل خـــب
وتنفـــق عنـــد مثلـــك بـــالنفـــاق
أتصبر إن أتتـــك بحـــار خيـــل
وقـــد مـــا مـــا صبرت على الســـواقـــي
متـــى رفعـــت لـــك الســـودان رأســـا
وقـــد خـــلاهـــم مثـــل الـــزقـــاق
وعيشـــك مـــالـــه مـــن مصر بـــد
ومـــن عنـــدي ثـــلاثـــاً بـــالطـــلاق
هـــو الأســـد الـــذي مـــا زال حتـــى
بنـــا مجداً على الســـبـــع الطبـــاق

- ٧٩٠٦ -

# فصل

قال ابن الإثير : وفي هذه السنة أرسل نور الدين إلى أخيه قطب الدين يطلب أن يعبر الفرات إليه بعساكره ، فتجهز وسار هو وزين الدين في العساكر الكثيرة فاجتمعوا بنور الدين على حمص، فدخل بالعساكر الإسلامية بلاد الفرنج، واجتاز على حصن الأكراد فأغاروا ونهبوا وأسروا، وقصدوا عرقة ونزلوا عليها وحصروها وحصروا جبلة وأخربوها، وتوجهت عساكر المسلمين يميناً وشمالاً تغير وتخرب البلاد، وفتح العريمة وصافيتا، وعاد إلى حمص فصام بها شهر رمضان، ثم سار إلى بانياس وقصد قلعة هونين، وهي للفرنج أيضاً من قلاعهم المنيعة، فانهزم الفرنج عنها وأحرقوها فقصدها نورالدين فوصلها من الغد، وخرب سورها جميعة وأراد الدخول إلى بيروت فتجدد في العسكر خلل أوجب التفرق، فعاد وسار قطب الدين إلى الموصل وأقطعه مدينة الرقة فأخذها في طريقه.

قال: وفي هذه السنة عصى الأمير غازي بن حسان المنبجي صاحب منبج على نور الدين، وهو كان أقطعه إياها، فأرسل إليه نور الدين عسكراً حصره بها وأخذها منه وأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان وكان عاقلا خيراً حسن السيرة، فبقي بها إلى أن أخذها منه صلاح الدين سنة إثنتين وسبعين كما سيأتي.

وفيها توفي القاضي الرشيد أحمد بن علي بن الزبير، صاحب كتاب الجنان.

قال العماد في الخريدة: كان ذا علم غزير وفضل كثير، قتله شاور صبراً في سنة إثنتين وستين، ونسب إليه أنه شارك أسد الدين شيركوه في قصده، وأخوه المهذب أبو علي الحسن بن علي بن الزبير أشعر منه، وتوفي

-٧٩٠٧-

قبله بسنة، لم يكن في زمانه أشعر منه، وله شعر كثير منه قصيدة غراء في مدح الصالح بن رزيك، وذكر فيها نور الدين أولها:

أعلمت حين تجاور الحيان
أن القلوب مواقد النيران

يا كاسر الأصنام قم فانهض بنا
حتى تصير مكسر الصلبان

فالشام ملكك قد ورثت بلاده
عن قومك الماضين من غسان

وإذا شككت بأنها أوطانهم
قد ما فسل عن حارث الجولان

أورمت أن تتلو محاسن ذكرهم
فاسند روايتها إلى حسان

ما زلزلت أرض العدى بل ذاك ما
بقلوب أهليها من الخفقان

وأقول إن حصونهم سجدت لما
أوتيت من ملك ومن سلطان

ولقد بعثت إلى الفرنج كتائبا
كالأسد حين تصول في خفان

لبسوا الدروع ولم يخل من قبلهم
أن البحار تحلّ في غدران

عجلت في تل العجول قراهم
وهم لك الضيفان بالذيفان

وثللت في يوم العريش عروشهم
بشبا ضراب صادق وطعان

ألجأتهم للبحر لما أن جرى
منه ومن دمهم معا بحران

ولقد أتى الاسطول حين غزا بها
لم يأت في حين من الاحيان

وأعــدّت رســل ابــن القسيــم إليــه في
شعبــان كــي يتــلاءم الشعبــان

والفــال يشهــد في اسمــه أن ســوف يغــ
ــدو الشــام وهــو عليكما قسمان

وأراك مــن بعــد الشهيــد أبــا آلــه
وجعلتــه مــن أقــرب الاخــوان

وهــو الــذي مــا زال يفعــل في العــدى
مــا لم يكــن ليعــدّ في الامكــان

قتــل البرنــس ومــن عســاه أعــانــه
لما عســا في البغــي والعــدوان

وأرى البريــة حين عــاد بــرأســه
مــرّ الجنــى يبــدو على المرّان

وتعجبــوا مــن زرقــة في طــرفــه
وكــأن فــوق الــرمــح نصــلا ثــاني

عجبــا لجوديــديــه إذ يبنــي العــلا
والسيــل يهدم ثــابــت الأركــان

قلــدت أعنــاق البريــة كلهــا
مننــا تحمــل ثقلهــا الثقــلان

حتــى تســاوى النــاس فيــك وأصبــح الــ
ــقاصي بمنــزلــة القــريــب الــداني

وفي هذه السنة ذكـر القاضي كمال الدين بن الشهـرزوري للسطان نور الدين رحمه الله حال العماد الكاتب، وعرّفـه به وعرض عليه قصيدة له في مدحه مطلعها:

ومنها :

لــو حفظــت يــوم النــوى عهــودهــا
مــا مطلــت بــوصلكــم وعــودهــا

وإنما يحمــد عيــش بلــدة
مــالكهــا بعــدلــه محمــودهــا

مــــؤيـــدأمــــوره بعـــزمـــة
مـــن السمـــوات العلى تــــأييـــدهـــا
آثـــــــاره حميـــــــــدة وإنما
للمــــرء مـــن آثـــاره حميـــدهـــا
ان الـــــورى بحبـــــه وبغضبـــه
يعـــرف مـــن شقيهـــا سعيـــدهـــا
قـــد جـــاء كـــم نـــور مـــن الله فمـــن
بـــه اهتـــدى فـــإنـــه رشيـــدهـــا
جـــلا ظـــلام الظلـــم نـــور الـــديـــن عـــن
أرض الشـــام فلـــه تحميـــدهـــا
إن الـــرعـــايـــا منـــه في رعـــايـــة
ونعمـــة مستـــوجـــب مـــزيـــدهـــا
لنـــومهـــا يسهـــر بـــل لأمنهـــا
يخاف بـــل لخصبهـــا بجـــودهـــا
بـــالـــديـــن والملـــك لـــه قيـــامـــه
والملـــــوك عنهما قعـــودهـــا
ودأبـــه ثلـــم ثغـــور الكفـــر لا
لثـــم ثغـــور نـــافـــع بـــرودهـــا
قـــد أسبـــغ الله لنـــا بعـــدلـــه
ظـــلام أمـــن وارف مـــديـــدهـــا
غـــداملـــوك الـــروم في أولتـــه
وهـــم على رغمهـــم عبيـــدهـــا
لما أبـــت هـــامـــاتهم سجـــودهـــا
لله أضحـــى للظبـــى سجـــودهـــا
إن فـــارقـــت سيـــوفـــه غمـــودهـــا
فـــإنّ هـــامـــاتهم غمـــودهـــا
كـــم مغلقـــات مـــن حصـــون عـــزمـــه
مفتـــاحهـــا وسيفـــه أقليـــدهـــا

قد ودّت الفرنج لو فرّت نجت
منك ولكن روعها مبيدها

قهرتها حتى لودّ حيها
من ذلة لو أنه فقيدها

أماتها رعبك في حصونها
كأنها حصونها لحودها

وإن مصر الملك تعنو بعدما
لسيفك الصعب عنا صعيدها

والملة الغراء خال بالها
عال سناها بك حال جيدها

مفترّة ثغورها ممنوعة
ثغورها محفوظة حدودها

وإن بغى جالوتها ضلالة
فأنت في إهلاكه داودها

يا بن قسيم الدولة الملك الذي
خرّت له من الملوك صيدها

دع العدى بغيظها فإنها
يذيب أكباد العدى حقودها

يا دولة نورية أمن الورى
وخصبها وجودها وجودها

ما مثل الدنيا لمن يجمعها
بالحرص إلاّ قزة ودودها

أين الذي يرفضها عن قدرة
فلا يشوب زهده زهيدها

فابق لنا يا ملكا بقاؤه
في كل عام للرعايا عيدها

في نعمة جديدة سعودها
ودولة سعيدة جدودها

- ٧٩١١ -

وهي طـويلة، فرتبـه نورالديـن في ديوانـه منشئا لاستقبال سنـة ثلاث وستين.

قال: ووجدت على الأيام منه الإعزاز والتمكين .

قلت: وذلك بعد أن استعفى أبو البشر شـاكر بن عبد الله من الخدمة في كتابـة الانشا وقعـد في بيته، كـذا ذكر العماد في الخريـدة، وقال : تـولى ديوان الانشـا بالشام سنين كثيرة وله مقـاصد حسنة في الكتب وهـو جيد السيرة جميل السريرة [٩٩] .

وفيها توفي الحافظ أبو سعد عبـد الكريم محمد السمعاني المروزي رحمه الله تعالى.

## ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة

فذكر العماد أن نور الدين رحل إلى حمص، ثم مضى إلى حماه ثم شتى بقلعة حلب ومعه الأسد والصلاح، ونزل العماد بمدرسة ابن العجمي وكتب إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب وقد عثر فرسه في الميدان وهو يلعب بالكرة مع نور الدين رحمه الله تعالى:

لاتنكرن لسابح عثرت به
قدم وقد حمل الخضمّ الزاخرا
ألقى على السلطان طرفك طرفه
فهوى هنالك للسلام مبادرا
سبق الرياح بجريه وكففته
عنها فليس على خلافك قادرا
ضعفت قواه إذ تذكر أنه
في السرج منك يقل ليثا خادرا
ومتى تطيق الريح طودا شامخا
أو يستطيع البرق جونا ماطرا
فاعذر سقوط البرق عند مسيره
فالبرق يسقط حين يخطف سائرا
وأقل جوادك عثرة ندرت له
إن الجواد لمن يقيل العاثرا
وتوق من عين الحسود وشرّها
لا كان ناظرها يسوء ناظرا
وأسلم لنور الدين سلطان الورى
في الحادثات معاضدا ومؤازرا
فإذا صلاح الدين دام لأهله
لم يحذروا للدهر صرفا ضائرا

وجرت بين العماد وبين الإمام شرف الدين أبي سعد عبد الله بن أبي عصرون مكاتبات، كتب إليه العماد:

أيا شرف الدين إن الشتا
بكافاته كف آفاقه
وكفك من كرم كافها
قد كفلت لي بكافاته
وإنك من عرفه شكرنا
غدا عاجزا عن مكافاته

قال: فكتب إلي شرف الدين في جوابها
إذا ما الشتاء وأمطاره
عن الخير حابسة رادعه
فكافاته ألست أعطيتها
وحوشيت من كافه الرابعة
وكف المهابة والاحتشا
م لكفي عن بره مانعة
وهمة كل كريم النجا
ربميسور أحبابه قانعة
ونفسي في بسط عذري إليـ
ـه جعلت الفداء له طامعه
وشوقي إلى قربه زائد
ومعذرتي إن جفا واسعه

قال: فكتبت إليه في جوابها:
أيا من له همة في العلى
لذروتها أبدا فارعه
ومن كفه ديمة ما تزا
ل بالعرف هامية هامعه
وللفضل في سوق أفضاله
بضائع نافقة نافعة
وهل كابن عصرون في عصرنا
إمام أدلته قاطعة

فخير فوائده جمة
وبحر موارده واسعة
أيا شرف الدين شرفتني
بإهداء زائعة رائعة
أطعت أوامرك الساميات
وما برحت همتي طائعة
أرى كل جارحة لي تود
لو أنها أذن سامعه
وأما الشتاء وكافاته
وكفك عن كافه الرابعة
فنفسي منزعة بالعفاف
عنها وفي غيرها طامعه
وماذا تطيق إذا لم تكن
بميسور سيدنا قانعه

وهي أكثر من هذا

قال: وكان ابن حسان صاحب منبج قد ساءت أفعاله، فبعث إليه نور الدين من حاصره وانتزعها منه، ثم توجه نور الدين إليها لتهذيب أحوالها ومدحه العماد بقصيدة منها يقول:

بشرى الممالك فتح قلعة منبج
فليهن هذا النصر كل متوج
أعطيت هذا الفتح مفتاحا به
في الملك يفتح كل باب مرتج
وافى يبشر بالفتوح وراءه
فانهض إليها بالجيوش وعرج
أبشر فبيت القدس يتلو منبجا
ولمنبج كسواه كالانموذج

مـــا أعجـــزتـــك الشهـــب في أبــــراجهـــا
طلبــــا فكيــــــف خــــوارج في أبـــــرج
ولَقَــــدْر مــــن يعصيــك أحقـــر أن يـــرى
أثــــر العبــــوس بـــــوجهـــك المتبلـــج
لكـــــن تهذب مــــن عصـــــاك سيـــاســـة
في ضمنهـــــا تقــــويــــم كــــل معــــوج
فـــــانهد إلى البيـــــت المقـــــدّس غـــــازيـــا
وعلى طـــــرابلـــــس ونـــــابلـــــس عـــــج
قـــــــدسرت في الإســــلام أحســــن سيرة
مـــأثـــورة وسلكـــــت أوضـــح منهـــج
وجميـــع مــا استقـــريـــت مــن سنـــن الهدى
جـــــدّدت منـــــه كـــــل رســــم مبهــــج

قال العماد: وسار نـور الدين من منبج إلى قلعـة نجم وعبر الفرات إلى الرها، وكان بها ينال صاحب منبج، وهـو سديد الرأي رشيد المنهج فنقله إليها مقطعـا وواليـاً، وأقـام نور الـدين بقلعـة الرهـا مدّة فمـدحه العماد بقصيدة وتحجب له صلاح الدين في عرضها وهي :

أدركـــت مــــن أمــــر الـــــزمـــان المشتهـــى
وبلغــــت مــــن نيــــل الأمــــاني المنتهـــى
وبقيـــت في كنــــف الســـــلامــــة آمنــــا
متكـــــرمــــا بـــــالطبـــــع لا متكـــــرهــــا
لا زلـــت نــــور الـــديـــن في فلـــك الهدى
ذا غــــــــرّة للعـــــــالمين بها البهـــــــا
يــــا محيـــي العـــدل الـــذي في ظلـــه
مــــن عـــدلـــه رعــت الأســـود مـــع المهـــا
محمـــــود المحمـــــود مـــــن أيـــــامـــه
لبهـــائهـــا ضحـــك الـــزمـــان وقهقهــــا
مــــولى الــــورى مــــولى النــــدى معلي الهدى
مـــردي العـــدى مســـدي الجدى معطـي المهـا

آراؤه بصـــــــوابها مقـــــــرونـــــة
وبمقتضـــاهـــــا دائر فلـــك النهـــا
متلبـــس بحصـــافـــه وحصـــانـــه
متقـــدّس عـــن شـــوب مكـــر أو دهـــا
يـــا مـــن أطـــاع الله في خلـــواتـــه
متـــأوبـــا مـــن خـــوفـــه متـــأوهـــا
أبـــدا تقـــدّم في المعـــاش لـــوجهـــه
عمـــلا يبيـــض في المعـــاد الأوجهـــا
كـــل الأمـــور وهـــا وأمـــرك مبرم
مستحكـــم لا نقـــض فيـــه ولا وهـــا
مـــاصين عنـــك الصين لـــو حـــاولتهـــا
والمشرقـــان فكيـــف منبـــج والـــرهـــا
مـــا للملـــوك لـــدى ظهـــورك رونـــق
وإذا بـــدت شمـــس الضحى خفـــي السهـــا
إن الملـــوك لهوا وإنـــك مـــن غـــدا
وبهالـــــه والملـــك منـــــه مـــالها
شرهـــت نفـــوسهـــم إلى دنيـــاهـــم
وأبـــى لنفســـك زهـــدهـــا أن تشرهـــا
مـــا نمـــت عـــن خير ولم يـــك نـــائما
مـــن لا يـــزال على الجميـــل منبهـــا
أخملـــت ذكـــر الجاهلين ولم تـــزل
ملكـــا يـــذكـــر العـــالمين منـــوّهـــا
ورأيـــت إرعـــاء الـــرعـــايـــا واجبـــا
تغنـــــي فقيرا أو تجير مـــــدلها
لـــرضـــاهـــم متحفظـــا ولحالهم
متفقـــدا ولـــدينهـــم متفقهـــا
وبما بـــه أمـــر الالـــه أمـــرتهم
مـــن طـــاعـــة ونهيتهـــم عما نهى

عـــن رحمة لصغيرهـــم لم تشتغـــل
عـــن رأفـــة لكبيرهـــم لـــن تشـــدهـــا
بـــاليـــأس عنـــدك أمـــل لم يمتحـــن
بـــالـــردّ دونـــك ســـائل لـــن يجبهـــا
أتعبـــت نفســـك كـــي تنـــال رفـــاهـــة
مـــن ليـــس يتعـــب لا يعيـــش مـــرفهـــا
فقـــت الملـــوك سماحـــة وحماســـة
حتـــى عـــد منـــافيهـــم لـــك مشبهـــا
ولـــك الفخـــار على الجميـــع فـــدونهم
أصبحـــت عـــن كـــل العيـــوب منـــزهـــا
وأراك تحلـــم حين تصبـــح ســـاخطـــا
ويكـــاد غيرك ســـاخطـــا أن يسفهـــا

قلت : رحـم الله العماد فقد نظم أوصـاف نور الـدين الجليلة بـأحسن لفظ وأرقـه، وهذا البيـت الأخير مؤكد لما نقلنـاه في أول الكتاب مـن قول الحافظ أبي القـاسم رحمه الله في وصـف نور الـدين رحمه الله أنـه لم يسمع منه كلمه فحـش في رضاه ولا في ضجره، وقل مـن الملوك من له حـظ من هذه الأوصاف الفاضلة، والنعوت الكاملة.

قـال العماد: ثم عـاد نور الـديـن إلى حلب في شهـر رجب، وضربـت خيمتـه في رأس الميدان الأخضر، قـال: وكان مـولعا بضرب الكـرة، وربما دخل الظلام فلعب بها بالشموع في الليلة المسفـره، ويركب صلاح الدين مبكـراً كل بكـره، وهو عـارف بآدابها في الخدمـة وشروطها المعتبره، قـال: وأقطعه في تلك السنـة ضيعتين، إحداهما من ضياع حلـب، والأخرى من ضياع كفر طاب، قال : وكتب إليه في طلب كنبوش:

أصبحـــت بغلتـــي تشكـــي مـــن العـــر
ى واسراجهـــا بـــــلا كنبـــــوش
قلـــت كفـــي فخير يـــوميـــك عنـــدي
أن تفـــوزي بـــالتبـــن أو بـــالحشيـــش

وأفـــرحـــي ليلـــة الشعير كما يفـــر
ح قـــوم بليلـــة المأشـــوش
لـــو تبصرت حـــالتـــي لتصبر
ت فـــإيـــاك عنـــدهـــا أن تطيشي
أومـــامـــات في الشتـــاء مـــن البر
دومـــن فـــرط جـــوعـــه اكـــديشي
فيقـــي واسكنـــي بجـــود صـــلاح الـــد
يـــن غـــرس الملـــوك ملـــك الجيـــوش
فهـــو يجلـــوك للعيـــون بكنبـــو
ش جـــديـــد مستحســـن منقـــوش
كـــم عـــدوّ مـــن بـــأســـه في عثـــار
وولي بجـــــوده منعـــــوش
والموالي على الأسرة والأعـــــ
داء تحت الهوان فـــوق النعـــوش

قـال: وأقطع أسـد الديـن حمص وأعمالها، فسـار إليها فسـد ثغورهـا، وضبـط أمورهـا ، وحمى جمهـورها، وكـان نـور الـدين قـد جـدد سورهـا، وحصن دورهـا وبلي الفرنـج منه بالمغـاور ، والمراوغ ذي البأس الـدامغ، وسـأله نـور الـديـن في السلو عـن حـب مصر وقـال: قد تعبـت مـرتين واجتهـدت، ولم يحصل لـك مـا طلبـت، وقد أذعنـوا بـالطـاعه وشفعـوا السؤال بـالشفاعة وسمحـوا بكل مـا يدخل تحت الاستطـاعة (١٠) قلت وأنشد العماد أسد الدين في رجب من هذه السنة:

دمـــت في الملـــك آمـــراً ذا نفـــاذ
أســـد الـــديـــن شيركـــوه بـــن شـــاذي
يـــا كـــريـــم عـــن كـــل شر بطيـــا
وإلى الخير دائم الأغـــــذاذ
ومـــلاذ الإســـلام أنـــت فـــلا زلـــت
لأهـــل الإســـلام خير مـــلاذ

في نفوس الكفار رعبك قد حل بصدع الأكباد والأفلاذ
لم تدع بالظبى رؤوساً وأصناماً من المشركين غير جذاذ
أنت من نازل الدعيين في مصر لنصر الإمام في بغداذ
وبلاد الإسلام أنقذتها أنت من الشرك أيما انقاذ

# فصل
## في وفاة زين الدين

قال ابن الأثير وغيره: في سنة ثلاث وستين سار زين الدين علي بن بكتكين نائب أتابك قطب الدين عن الموصل إلى إربل وسلم جميع ما كان ببلاده من البلاد والقلاع إلى قطب الدين ما عدا إربل، فإنها كانت له من أتابك زنكي رحمه الله تعالى، فمن ذلك سنجار وحران وقلعة عقر الحميدية وقلاع الهكارية جميعها، وكان نائبه بتكريت الأمير تبر، فأرسل إليه ليسلمها فقال: إن المولى أتابك لايقيم بتكريت ولا بدّ له من نائب فيها، وأنا أكون ذلك النائب فليس له مثلي فما أمكن محاققته لأجل مجاورة بغداد، وأما شهرزور فكان بها الأمير بوزان فقال مثله أيضا، فأقرت بيده، فكان في طاعة قطب الدين، وسبب فراق زين الدين أنه أصابه عمى وصمم وأقام بإربل إلى أن توفي بها في ذي الحجة من هذه السنة، وكان قد استولى عليه الهرم، وضعفت قوته، وكان خيراً عادلاً حسن السيرة، جواداً محافظاً على حسن العهد، وأداء الأمانة قليل الغدر بل عديمه وكان إذا وعد بشيء لابدّ له من أن يفعله وإن كان فعله خطيراً ، وكان حاله من أعجب الأحوال بينما يبدو منه ما يدل على سلامة صدره وغفلته حتى يبدو منه ما يدل على إفراط الذكاء وغلبة

الدهاء، بلغني أنه أتـاه بعض أصحابه بذنب فرس ذكر أنـه نفق له فأمر له بفـرس فأخـذ ذلك الذنـب أيضاً غيره من الأجناد فأحضره وذكـر أنه نفق لـه دابةفأمـر له بفرس، وتـداول ذلك الـذنب إثنا عشر رجـلا كلهم يأخذ فـرساً، فلما أحضره آخرهم قال لهم: أما تستحيـون مني كما أستحي أنا منكم، قد أحضر هـذا عندي إثنا عشر رجلاً وأنا أتغافـل لئلا يخجل أحدكـم أتظنون أنني لاأعرفـه، بلى والله وإنما أردت أن يصلكم عطـائي بغير من ولا تكدير فلم تتركوني.

ليـــس الغبـــي بسيـــد في قـــومـــه
لكـــن سيـــد قـــومـــه المتغـــابي

قـال: وكان يعطـي كثيراً ويخلع عظيماً، وكـان لـه البلاد الكثيرة، فلـم يخلف شيئاً بـل أنفده جميعه في العطايا والإنعام على النـاس، وكان يلبس الغليظ، ويشـدّ على وسطه كل ما يحتـاج إليه من سكين ودرفش ومطـرقة ومسلة وخيوط ودسترك وغير ذلـك، وكان أشجع الناس ميمـون النقيبة لم تهزم لـه راية، وكـان يقوم المقـام الخطير فيسلـم منه بحسـن نيته، وكـان تركيـا أسمر اللـون خفيف العـارضين قصيراً جداً، وبنـى مدارس وربطـاً بالموصـل وغيرها، وبلغني أنه مـدحه الحيص بيص فلما أراد الإنشـاد قال له : أنـا لاأدري ماتقول لكـن أعلم أنك تريـد شيئاً، فأمـر له بخمسمائة دينار وأعطـاه فرسـاً وخلعاً وثيـاباً يكـون مجموع ذلـك ألف دينـار، قال: ومكـارمه كثيرة، ولما تـوفي بإربـل كان الحاكـم بها خـادمه مجاهـد الديـن قايماز وهو المتولي لأمـورها، وولي بعد زين الدين ولده مظفـر الدين كو كبري مدّة، ثـم فارقهـا بخلف كـــان بينه وبين مجاهـد الديـن قايماز، وجرت أمور يطـول ذكرها، ولما فارق زيـن الدين الموصل استنـاب أتابك قطب الدين بقلعـة الموصل بعده مملوكه فخر الديـن عبد المسيح، فسلك غير طريـق زين الدين، فكـرهه الناس وذمـوه، فلم تطل أيامـه وسيجيء ذكر عزله في أخبار سنة ست وستين إن شاء الله تعالى.

- ٧٩٢١ -

## ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

ففي أوّلها ملك نور الدين رحمه الله تعالى قلعة جعبر، وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي من آل عقيل من بني المسيب وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام السلطان ملكشاه، وقد تقدّم ذكر ذلك، وهي من أمنع الحصون وأحسنها مطلة على الفرات لايطمع فيها بحصار، وقد أعجز جماعة من الملوك أخذها منه، وقتل عليها عماد الدين زنكي والد نور الدين، ثم اتفق أن خرج صاحبها منها يوما يتصيد، فصاده بنو كلاب فأخذوه أسيراً وأوثقوه وحملوه إلى نور الدين فتقربوا به إليه وذلك في رجب من سنة ثلاث وستين، فحبسه بحلب وأحسن إليه ورغبه في الاقطاع والمال ليسلم إليه القلعة، فلم يفعل فعدل به نور الدين إلى الشدّة والعنف وتهدّده فلم يفعل أيضاً، فسير إليها عسكراً مقدمه الأمير فخر الدين مسعود بن أبي علي الزعفراني فحصرها مدّة، فلم يظفر منها بشيء، فأمدّهم بعسكر آخر، وجعل على الجميع الأمير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية، وهو أكبر أمراء نور الدين ورضيعه ووالي معاقله، فأقام عليها وطاف حواليها فلم ير له في فتحها مجالاً، ورأى أخذها بالحصر متعذراً محالاً، فسلك مع صاحبها طريق اللين وأشار عليه بأخذ العوض من نور الدين ولم يزل يتوسط معه حتى أذعن على أن يعطى سروج وأعمالها والملاحة التي في عمل حلب والباب وبزاعة، وعشرين ألف دينار معجلة، فأخذ جميع ماشرط مكرها في صورة مختار.

قال ابن الأثير: وهذا إقطاع عظيم جدّاً ، لكنه لاحظ فيه، وتسلم مجد الدين قلعة جعبر، وصعد إليها منتصف المحرم، ووصل كتابه إلى نورالدين بحلب، فسار إليها وصعد القلعة في العشرين من المحرم، ثم سلمها نور الدين إلى مجد الدين بن الداية، فولاها أخاه شمس الدين

علي، وكان هذا آخر أمر بني مالك، ولكل أمر آخر ولكل ولاية نهاية يؤتى الله الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء (١٠١)

قال ابن الأثير، بلغني أنه قيل لشهاب الدين أيما أحب إليك وأحسن مقاماً أسروج والشام أم القلعة؟ قال: هذا أكثر مالاً، والعز بالقلعة فارقناه.

قال العماد: وأنشدت نور الدين بقلعة جعبر قصيدة أولها:

أسلم لبكر الفتوح مفترعا
ودم لملك البلاد منتزعا

فإن أولى الورى بها ملك
غدا بعبء الخطوب مضطلعا

إن ضاق أمر فغير همته
لكشف ضيق الأمور لن يسعا

يا محيي العدل بعد ميتته
ورافع الحق بعد ما اتضعا

ونور دين الهدى الذي قمع الـ
شرك وعفى الضلال والبدعا

أنت سليمان في العفاف وفي الـ
ـملك وتحكي بزهدك اليسعا

حزت النقا والحياء والكرم المحـ
ـض وحسن اليقين والورعا

أسقطت أقساطاً وجدت من المكـ
ـس بعدل والقاسط إرتدعا

ولم تدع في ابتغاء مصلحة الد
ين لنا باقياً ولن تدعا

وكل ما في الملوك مفترق
من المعالي لملكك اجتمعا

همتك الربط والمدارس تبنيـ
ـها ثوابا وتهدم البيعا

ما زلت ذا فطنة مؤيدة
على غيوب الأسرار مطلعا

بباسك البيض والطلى اصطحبت
بعدلك الذئب والطلا رتعا

كم صائد لم يقع له قنص
في شرك وهو فيه قد وقعا

ومالك حين رمت قلعته
غدا مطيعا للأمر متبعا

عنا خشوعا للرب مملكة
لغير رب السماء ما خشعا

كان مقيما منها على الفلك الـ
أعلى شهابا بنوره سطعا

لكنما الشهب ما تنير إذا
لاح عمود الصباح فانصدعا

يدفعها طائعا إليك وكم
عنها إباء بجهده دفعا

هي التي في علوها زحل
كر على وردها وما كرعا

وهي التي قاربت عطارد في الـ
ـأفق فلاحا والفرقدين معا

كان منها السها إذا استرق السمـ
ـع أتاها في خفية ودعا

هضبة عز لولاك ما ارتقيت
وطود ملك لولاك ما فرعا

ما قبلت في ارتقاء ذروتها
من ملك لا رقى ولا جذعا

عزت على المالك الشهيد واعـ
ـطتك قيادا ما زال ممتنعا

للأب لو حل خطبها الغدا
محرما لابنه وما شرعا
لازلت محمود في أمورك محمو
داً بثوب الاقبال مدرعا

وفي سابع عشر صفر من هذه السنة توفي بهاء الدين عمر أخو مجد الدين بن الداية، وفيه وفي أخويه يقول العماد الكاتب من قصيدة:

أنتم لمحمود كآل محمد
متصادقي الأفعال والأسماء
يتلو أبا بكر على حسناته
عمر المدح في سنا وسناء
ويليه عثمان المرجى للعلا
وعلي المأمول في اللأواء
وتقيل الحسن المجد مجدهم
فهم ذوو الإحسان والنعماء
فرعت لمجد الدين أخوته الذرى
دون الورى في المجد والعلياء
من سابق كرما وشمس سياده
شرفا وبدر دجنة وبهاء
سرج الهدى سحب الندى شهب النهى
أسد الحروب ضراغم الهيجاء

يريد سابق الدين عثمان، وشمس الدين علي، وبدر الدين حسن، وبهاء الدين عمر، ومجد الدين هو الأكبر، فهم خمسة رحمهم الله تعالى.

# فصل

وفي هذه السنة فتحت الديار المصرية سار إليها أسد الدين مرة ثالثة، فهزم العدو، وقتل شاوراً وولي الوزارة مكانه، ثم مات فوليها صلاح الدين، وسبب ذلك أن الفرنج كانوا في النوبتين الأوليين اللتين استعان بهم شاور فيهما على أسد الدين شيركوه قد خبروا الديار المصرية واطلعوا على عوراتها، فطمعوا فيها، ونقضوا ما كان استقر بينهم وبين المصريين وأسد الدين من القواعد، فجمعوا وحشدوا وقالوا: ما بمصر من يصدنا، وإذا أردناها فمن يردنا، ثم قالوا: نور الدين في البلاد الشمالية والجهة الفراتية، وعسكر الشام متفرق كل منهم في بلده حافظاً لما في يده، ونحن ننهض إلى مصر ولا نطيل بها الحصر، فإنه ليس لها معقل، ولا لأهلها منا موئل، وإلى أن تجتمع عساكر الشام نكون قد حصلنا على المرام وقوينا بتملك الديار المصرية على سائر بلاد الإسلام، فتوجهوا إليها سائرين ونحوها ثائرين، وأظهروا أنهم على قصد حمص وشايعهم على قصد مصر جماعة من أهلها كابن الخياط وابن قرجلة وغيرهما من أعداء شاور، وكان الفرنج قد جعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة، واسكنوا فرسانهم أبواب البلدين والمفاتيح معهم على ما سبق ذكره، وتحكموا تحكماً كبيراً، فطمعوا في البلاد وأرسلوا إلى ملكهم مرى، ولم يكن ملك الفرنج مذ خرجوا إلى الشام مثله شجاعة و مكراً ودهاء يستدعونه لتملك البلاد، وأعلموه خلوها من ممانع عنها، وسهلوا أمرها عليه فلم يجبهم إلى المسير، واجتمع فرسان الفرنج وذوو الرأي والتقدّم وأشاروا عليه بالمسير إليها،والإستيلاء عليها، فقال لهم : الرأي عندي أن لانقصدها فإنها طعمة لنا، وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لتملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة أهل بلاده وفلاحيه لايسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج

وإجلاؤهم من أرض الشام، فلم يصغوا إلى قوله وقالوا: إن مصر لامانع لها ولا حافظ وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم إلينا نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها، وكانوا قد عرفوا البلاد، وانكشف لهم أمرها فأجابهم إلى ذلك على كره شديد، وتجهزوا وأظهروا أنهم على قصد الشام، وخاصة مدينة حمص، وتوجهوا من عسقلان في النصف من المحرم، ووصلوا أول يوم من صفر إلى بلبيس ونازلوها وحصروها فملكوها قهراً ونهبوها ، وسبوا أهلها، وأقاموا بها خمسة أيام، ثم أناخوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بلبيس، فحملهم الخوف منهم على الامتناع فحفظوا البلد، وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه، ولو أن الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بلبيس ملكوا مصر والقاهرة سرعة، ولكن الله تعالى حسن لهم ذلك ليقضي الله أمراً كان مفعولا، وكان شاور أمر بإحراق مدينة مصر تاسع صفر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد خوفاً عليها من الفرنج . فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوماً إلى خامس ربيع الآخر ، ثم ضاق الحصار وخيف البوار، وعرف شاور أنه يضعف عن الحماية فشرع في تمحل الحيل وأرسل إلى ملك الأفرنج يذكر له مودته ومحبته القديمة وأن هواه معه، وتخوفه من نور الدين والعاضد، وإنما المسلمون لايوافقونه على التسليم إليه، ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يسلم البلاد إلى نور الدين، فأجابه إلى الصلح على أخذ ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض، ويؤخر البعض، واستقرت القاعدة على ذلك، ورأى الفرنج أن البلاد امتنعت عليهم، وربما سلمت إلى نور الدين فأجابوا كارهين، وقالوا نأخذ المال نقوى به ونكثر من الرجال ثم نعود إلى البلاد بقوة لانبالي معها بنور الدين ولاغيره ( ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) (١٠٢) فعجل لهم شاور مائة ألف دينار، وسألهم الرحيل عن البلد ليجمع لهم المال فرحلوا قريباً، وكان خليفة مصر العاضد

عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج وأرسل في الكتب شعور النساء، وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج، فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر، ولما صالح شاور الفرنج على ذلك المال، عاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه بما لقي المسلمون من الفرنج، وبذل له ثلث البلاد من مصر، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيما عنده في عسكر، واقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين، هذا قول ابن الأثير.

وقال العماد: عجل شاور للملك الفرنج بمائة ألف دينار حيلة وخداعاً وإرغاما له واطماعاً، وواصل بكتبه إلى نور الدين مستصرخا مستنفراً، وبما ناب الإسلام من الكفر مخبراً، ويقول إن لم تبادر ذهبت البلاد، وسير الكتب مسودة بمدادها كاسية لباس حدادها، وفي طيها ذوائب مجزوزة، وعصائب محزوزة، أظن أنها شعور أهل القصر، للإشعار بما عراهم من بلية الحصر، وأرسلها تباعاً، وأردف بها نجابين سراعاً، وأقام منتظراً، ودام متحيراً، وعامل الفرنج بالمطال ينقدهم في كل حين مالاً، ويطلب منهم إمهالًا ، ومازال يعطيهم ويستميلهم، حتى أتى الغوث بعساكر نور الدين رحمه الله.

## فصل
## فيما فعله نور الدين

كان نور الدين لما أتاه الرسل أولا من العاضد قد أرسل إلى أسد الدين ليستدعيه من حمص، وهي اقطاعه، فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها، وكان سبب وصوله أن كتب المصريين أيضاً وصلته في هذا الأمر، فبقي مسلوب القرار، مغلوب الاصطبار لأنه كان قد

طمع في بلاد مصر، فخاف خروجها من يده، وأن يستولي عليها الكفر، فساق في ليلة واحدة من حمص إلى حلب واجتمع بنور الدين ساعة وصوله، فتعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسره، وأمره بالتجهز إلى مصر، والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكمه في العساكر والخزائن، فاختار من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس، فكان في مدة حشده للتركمان سار نور الدين لتسلم قلعة جعبر، ثم سار هو ونور الدين إلى دمشق، ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذي له، وأضاف إلى أسد الدين جماعة من الأمراء والمماليك منهم: مملوكه عز الدين جرديك، وغرس الدين قليج، وشرف الدين برغش ، وناصح الدين خمارتكين، وعين الدولة ابن الياروقي، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وغيرهم، ورحلوا على قصد مصر مستنزلين من الله تعالى النصر، وذلك منتصف ربيع الأول، وخيم نور الدين فيمن أقام معه برأس الماء، وأقام ينتظر ورود المبشرات، فوصل المبشر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدين إلى بلادهم لما سمعوا بوصول عسكر نور الدين، وسب الملك كل من أشار عليه بقصد مصر، وأمر نور الدين بضرب البشائر في سائر بلاده، وبث رسله إلى الآفاق بذلك.

وقال القاضي أبو المحاسن: لقد قال لي السلطان يعني صلاح الدين: كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة، وما خرجت مع عمي باختياري، قال: وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى : ( وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم)(١٠٣)

وقال ابن الأثير : أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه.

حكي لي عنه أنه قال: لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه مستصرخين ومستحضرين أحضرني وأعلمني الحال، وقال تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه تأمره بالحضور وتحثه أنت على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير، قال: ففعلت، فلما فارقنا حلب على ميل منها لقيناه قادما في هذا المعنى، فقال له نور الدين: تجهز للمسير. فامتنع خوفاً من غدرهم أولاً، وعدم ما ينفقه في العساكر ثانياً، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج، ولايبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره. قال: فالتفت إليّ عمي أسد الدين، وقال : تجهز يا يوسف. قال : فكأنما ضرب قلبي بسكين، فقلت : والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها فلقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق مالا أنساه أبداً. فقال عمي لنور الدين لابد من مسيره معي فترسم له، فأمرني نور الدين وأنا استقيله، ثم انقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ، ولم يبق غير المسير فقال لي نور الدين: لابدّ من مسيرك مع عمك، فشكوت إليه المضايقة، وقلة الدواب، وما احتاج إليه فأعطاني ما تجهزت به، وكأنما أساق إلى الموت، وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، فسرت معه، فلما استقر أمره وتوفي أعطاني الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه.

قلت: وحرضة أيضاً حسان العرقلة بأبيات من شعره من جملة قصيدة مدحه بها قال:

وهل أخشى من الأنواء بخلاً
إذا ما يوسف بالمال جادا

فتى للدين لم يبرح صلاحاً
وللأعداء لم يبرح فسادا

لئـــن أعطـــاه نـــور الـــديـــن حصنـــا
فــــــإن الله يعطيــــــه البـــــلادا
إلى كـــــم ذا التـــــواني في دمشـــــق
وقـــــد جـــــاء تكـــــم مصر تهادى
عـــروس بعلهـــا أســـد هـــزبـــر
يصيـــد المعتـــديـــن ولـــن يصـــادا
ألا يـــــا معشر الأجنـــــاد سيروا
وراء لـــــوائه تلقـــــوا رشـــــادا
فما كـــل أمـــرىء صلى مـــع النـــا
س مـــأمـــومـــا كمـــن صلى فـــرادا

فلما سار صلاح الـدين إلى مصر، عبر العرقلة على داره فوجـدها مغلقة فقال:

عبرت على دار الصـــلاح وقـــد خلـــت
مـــن القمـــر الـــوضـــاح والمنهـــل العـــذب
فـــوالله لـــولا سرعـــة مثـــل عـــزمـــه
لغـــرقهـــا طـــرفي وأحـــرقهـــا قلبـــي

ودار صلاح الـدين هـي التي وقفها ربـاطاً للصوفيـة بحارة قطـامش، جوارقيسـارية القصـاع، وإليها يجري الماء مـن حمام نور الـدين رحمه الله، فقضـى الله مـا قضـى مـن رحيـل الفرنـج، وتملـك صـلاح الـديـن على ماسيـأتي، وللأمير الفاضل أسـامة بن منقـذ في صلاح الدين مـن قصيدة أوّلها:

( سلم على مصر لاربع بذي سلم)

يقول فيها:

النـــاصر الملـــك الموفي بـــذمتـــه
ومـــن نـــدى كفـــه يغنـــي عـــن الـــديـــم

ومن إذا جرد البيض الصوارم في الـ
ـهيجاء أغمدها في البيض والقمم
ومن حوى الملك من بعد الطاعة في أنـ
ـتزاعه بشبا الهندية الخذم
ورد طاغية الأفرنج يحسب ما
رجاه من ملك مصر كان في الحلم
ولى وراحته صفر وقد ملئت
بعد الطماعة من يأس ومن ندم
يصعدون على ما فاتهم نفسا
لولا فح البحر أضحى الموج كالحمم
وفي السلامة لو لا جهلهم ظفر
لمن أراد نزال الأسد في الأجم
وهم أسود الشرى لكن أذلهم
ملك لديه الأسود الغلب كالغنم

وله من قصيدة أخرى:
أقمت عمود الدين حين أماله
لطاغي الفرنج الغتم طاغي بني سعد
وجاهدت حزب الكفر حتى رددتهم
خزايا عليهم خيبة الذل والردّ
أفدت بها قدمت ملكا مخلدا
وذكرا مدى الأيام يقرن بالحمد
وذكرك في الآفاق يسري كأنه الـ
ـصباح له نشر الألوّة والند

ولأبى الحسن بن الذروي فيه من قصيدة يذكر فيها ملك الفرنج مرّي:
ولكم أشمت الروم أشأم بارق
أضحت مياه نفوسها من قطره
وافاك بحر دروعها عن مدّه
ومضى وقد حكمت ظباك بجزره

ولقيت مرّيا وطعم حياته
حلو فبذّل القتال بمرّه
فاعقد إليه الرأي في عذب القنا
واحلل بها عجلا معاقد كره
واطرده من وكر الشام فإنه
قد طار منك بخافق من ذعره

## فصل
## في القبض على شاور وقتله

وصل أسد الدين القاهرة سابع ربيع الآخر، واجتمع بالعاضد خليفة مصر فخلع عليه وأكرمه، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة، ولم يمكن شاور المنع من ذلك لأنه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد، ورأى هوى العاضد معهم من داخله، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه، فكتمه وهو يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل له من المال والإقطاع للعساكر، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين، ويسير معه ويعده ويمنيه ( وما يعدهم الشيطان إلاغروراً)[١٠٤] ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ويقبض عليهم، فنهاه ابنه الكامل، وقال له : والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرّفن أسد الدين، فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل هذا لنقتلنّ جميعاً، فقال : صدقت ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلاّ أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً، ويملكون البلاد فترك ما كان عزم عليه، فلما رأى العسكر النوري المطل من شاور اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد

الدين بذلك فنهاهم فقالوا: إنا ليس لنا في البلاد شيء مهما هذا على حاله، فأنكر ذلك، واتفق أن أسد الدين سار بعض الأيام إلى زيارة قبر الشافعي رضي الله عنه، وقصد شاور عسكره على عادته للإجتماع به، فلقيه صلاح الدين وعز الدين جرديك ومعهما جمع من العسكر فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه فسار وهما معه قليلاً، ثم ساوروه وألقوه عن فرسه، فهرب أصحابه، وأخذ أسيراً، ولم يمكنهم قتله بغير أذن أسد الدين فسجنوه في خيمة وتوكلوا بحفظه ، فعلم أسد الدين الحال، فعاد مسرعاً ولم يمكنه إلاّ إتمام ما عملوه، وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر في الوقت إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور، ويحثه على قتله، وتابع الرسل بذلك، فقتل شاور في يومه، وهو سابع عشر ربيع الآخر، وحمل رأسه إلى القصر، ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور، فقصدها الناس ينهبونها، فتفرّقوا عنه ، هذا قول ابن الأثير.

وقال ابن شدّاد : أقام أسد الدين بها يتردّد إليه شاور في الأحيان، وكان وعدهم بمال في مقابلة ماخسروه من النفقة، فلم يوصل إليهم شيئاً وعلقت مخاليب الأسد في البلاد، وعلم أن الفرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد، وأن تردّدهم إليها في كل وقت لايفيد، وأن شاوراً يلعب بهم تارة وبالأفرنج أخرى، وملاكها قد كانوا على البدعة المشهورة عنهم، وعلموا أنه لاسبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور، فأجمعوا أمرهم على قبضه إذا خرج إليهم، وكانوا هم يتردّدون إلى خدمته دون أسد الدين، وهو يخرج في الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به، وكان يركب على قاعدة وزارتهم بالطبل والبوق والعلم، فلم يتجاسر على قبضه منهم إلاّ السلطان نفسه، يعني صلاح الدين، وذلك أنه لما سار إليهم، تلقاه راكباً، وسار إلى جانبه وأخذ بتلابيبه وأمر العسكر أن أخذوا على أصحابه، ففرّوا ونهبهم العسكر، وقبض شاور وأنزل إلى خيمة مفردة، وفي

الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول: لابد من رأسه جريا على عادتهم في وزارتهم في تقرير قاعدة من قوي منهم على صاحبه، فحزت رقبته وأنفذوا رأسه إليهم.

قال العماد: ودخل أسد الدين في الرابع من شهر ربيع الآخر الإيوان، وخلع عليه، ولقي الإحسان، وتردّد شاور إلى أسد الدين وتودّد، وتجدّد بينهما من الوداد ماتأكد، وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة والأطعمة الواسعة والحلاوات والميرة، فقال صلاح الدين:هذا أمر يطول ، ومسألة فرضها يعول، ومعنا هذا العسكر الثقيل وإقامته بالإقامة يقصر عنها الأمد الطويل، ولا أمر لنا مع استيلاء شاور، لاسيما إذا راوغ وغادر، فأنفذ أسد الدين الفقيه عيسى إلى شاور يشير عليه بالاحتراس، وقال له: أخشى عليك من عندي من الناس، فلم يكترث بمقاله، وركب على سبيل انبساطه واسترساله، فاعترضه صلاح الدين في الأمراء النوريه، وهو راكب على عادته في هيئته الوزيرية، فبغته وشحته وقبضه وأثبته، ووكل به في خيمة ضربها له ، وحاول إمهاله فجاء من القصر من يطلب رأسه ويعجل من العمر يأسه، وجاء الرسول بعد الرسول وأبوا أ ن يرجعوا إلا بنجح السول، فحم حمامه، وحمل إلى القصر هامه.

قلت: وبلغني أن الذي حز رقبة شاور هو عز الدين جرديك، وكان صلاح الدين لما لقيه في أصحابه سار بجنبه وأراد إفراده عن العسكر، فالتمس منه المسابقة بفرسيهما، فأجابه ووافقهما في ذلك جرديك، وكان ذلك عن أمر قد تقرّر فحرّكوا خيلهم، فلما بعدوا عن العسكر ووقفوا قبض صلاح الدين وجرديك على شاور داخل الخيمة، وقد كثر هجاء شاور بغدره ومكره حتى قال عرقلة:

لقد فاز بالملك العقيم خليفة
له شيركوه العاضدي وزير

كان ابن شاذي والصلاح وسيفه
علي لديه شبر وشبير
هو الأسد الضاري الذي جل خطبه
وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى حتى لقد قال قائل
على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره
ولا زال فيها منكر ونكير

وقال أيضاً:
إن أمير المؤمنين الذي
مصر حماه وعليّ أبوه
نص على شاور فرعونها
ونص موساها على شيركوه

وقد وصف الفقيه الشاعر أبو حمزة عمارة اليمني في كتاب الوزراء المصرية الذي صنفه حال شاور في وزارته الأولى، ثم قال: وزارة شاور الثانية:فيها تكشفت صفحاته، وأحرقت لفحاته، وأغرقت نفحاته، وغضه الدهر وعضه وأوجعه الثكل وأمضه، وبان غمره وثماده وجمره ورماده، ولم يجف من الانكاء لبده، ولا صفا من الاقذاء ورده، وما هو إلا أن تسلمها بالراحة، وسلمت له الهموم عوضاً عن الراحة، وفي أوّل ليلة دخل القاهرة ارتحل أسد الدين طالباً بلبيس، فأقام بها، ثم عاد إلى القاهرة ، فكسر الناس يوم التاج، وأسر أخوه صبح ، وأصيب على باب القنطرة بحجر كاد يموت منه، وتعقب ذلك بنقل القتال على القاهرة حتى دخلت من الثغرة، ثم تبع هذا مجيء الفرنج وعمل البرج وحصار بلبيس، ثم تلا ذلك قيام يحيى بن الخياط طالباً للوزارة، ثم تلا ذلك نفاق لواته ومن ضامها من قيس، وخروج أخيه نجم وابنه سليمان وجماعة من غلمانهم لحربهم، ثم خروج ابنه الكامل في بقية العسكر، وفي

أثناء هذه المدّة قبضه على الأثير ابن جلب راغب وقتله ، وأسر معالي بن فريج ثم قتله، واتصل إليه الخبر من قدوم أسد الدين إلى أطفيح بأم النوائب الكبر، ووافق مجيء الغزّ قدوم الفرنج ناصرين للدولة، وتوجهوا من مصر في البرّ الشرقي تابعين للغز، ثم لاحت الفرصة للفرنج فعادوا إلى مصر واقترحوا من المال ما تنقطع دونه الآمال وخيموا على ساحل المقسم، وأظهروا رجوعهم إلى الشام ، فتجهز الكامل للمسير صحبة الأفرنج.

حدّثني القاضي الأجل الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني قال: أنا أذكر وقد خلونا في خيمة، وليس معنا أحد إنما هو شاور وابنه الكامل وأخوه نجم، فعزم الكامل على النهوض مع الفرنج، وعزم نجم على التغرب إلى سليم وما وراء ها ، وقال شاور: لكن لاأبرح أقاتل بمن صفا معي حتى أموت، فنحن في ذلك حتى وصل إلينا الداعي ابن عبد القوي وصنيعة الملك جوهر وعز، وقد التزموا المال، وتفرّع على هذا الأصل مقام الغزّ بالجيزة ونوبة البابين، وحصار الاسكندرية، وانصراف الغز راجعين والفرنج بعدهم، فما هو إلاّ أن توهم شاور أن الدهر قد نام وغفا، وصفح عن عادته معه وعفا، وإذا الأيام لاتخطب إلاّ زواله وفوته ، ولا تريد إلاّ إنتقاله وموته، فكان من قدوم الفرنج إلى بلبيس ، وقتل من فيها، وأسرهم بأسرهم ما أوجب حريق مصر، ومكاتبة الأجل نور الدين ابن القسيم، وإنجاده كلمة الإسلام بأسد الدين، ومن معه من المسلمين، الذين قلت فيهم ، وقد ربط الافرنج بالطريق عليهم:

أخذتم على الافرنج كل ثنية ... وقلتم لأيدي الخيل مرّي على مرّي

لئن نصبوا في البرّ جسراً فإنكم ... عبرتم ببحر من حديد على الجسر

قلت: وهذان البيتان من قصيدة ستأتي، ومرّي هو اسم ملك الأفرنج.

قال عمارة: فقضى قدوم الغز برحيل الفرنج عن الديار المصرية، ولم يلبث شاور أن مات قتيلا بعد قدوم الغز بثمانية عشر يوماً، وهذه السنوات التي وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل، وفيها ما هو عليه أكثر مما هو له، قال: ولم يرب أحد رجال الدولة مثل ما رباهم الصالح بن رزيك، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام، وكانت وزارته تسعة أشهر مدّة حمل الجنين، ولا أتلف أموالهم مثل شاور، وشاور هو الذي أطمع الغزّ والأفرنج في الدولة حتى انتقلت عن أهلها، ولما عاد من حصار الاسكندرية أكثر من سفك الدماء بغير حق، كان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة، ثم تسحب القتلى إلى خارج الدار.

وقال الحافظ أبو القاسم: لما خيف من شر شاور ومكره، لما عرف من غدره وختره، واتضح الأمر في ذلك واستبان، تمارض الأسد ليقتنص الثعلبان، فجاءه قاصداً لعيادته جاريا في خدمته على عادته، فوثب جرديك وبزغش موليا نور الدين فقتلا شاوراً، وأراحا العباد والبلاد من شرّه وما شاورا، وكان ذلك برأي صلاح الدين فإنه أوّل من تولى القبض عليه، ومدّيده الكريمة بالمكروه إليه، وصفا الأمر لأسد الدين، وملك وخلع عليه الخلع وحنك، واستولى أصحابه على البلاد، وجرت أموره على السداد، وظهر منه جميل السيرة، وظهرت كلمة السنة.

- ٧٩٣٨ -

# فصل
# في وزارة أسد الدين

وذلك عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه إلى القصر، أنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر، وترتب وزيراً ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش، وقصد دار الوزارة فنزلها، وهي التي كان بها شاور فمن قبله من الوزراء، فلم ير فيها ما يقعد عليه، واستقرّ في الأمر، ولم يبق له فيه منازع ولا مناو، وولى الأعمال من يثق إليه، واستبدّ بالولاية فأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه، وصلاح الدين مباشر للأمور مقرّر لها وزمام الأمر والنهي مفوّض إليه لمكان كفايته ودرايته، وحسن تأتيه وسياسته.

قال العماد: وكتب لأسد الدين منشور من القصر بسيط الشرح طويل الطي والنشر، كتب العاضد في طرّته بخطه ، ولاشك أنه باملاء كتابه: هذا عهد لا عهد لوزير بمثله، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحمله، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوّة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوّة، واتخذه للفوز سبيلا:( و لا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كميلا) (١٠٥).

## نسخة المنشور

من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد

الأجل الملك المنصور، سلطان الجيوش، ولي الأئمة، مجير الأمة، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين أبي الحارث شيركوه العاضد، عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته وأعلى كلمته، سلام عليك، فإنه يحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو ، ويسأله أن يصلي على محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليما .

ثم ذكر باقي المنشور، وهو مشتمل على كلام طويل، وحشو غير قليل على عادة الكتاب المتأخرين، الذين تراهم بالألفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبرين، والبلاغة عكس ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «بعثت بجوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً».

ولما استقل أسد الدين بالوزارة، طلب من القصر كاتب إنشاء فأرسل إليه بالقاضي الفاضل عبد الرحيم ابن البيساني، وكان أبوه من أهل بيسان الشام، ثم ولي قضاء عسقلان، وخرج الفاضل إلى الديار المصرية فولي كاتباً بالاسكندرية على باب السدرة، ثم إنه اتصل بالكامل بن شاور فاستكتبه، وزاحم به كتاب القصر فثقل عليهم أمره، فلما طلب أسد الدين كاتباً أرسل إليه، وظنّ رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لايتم، وأن أسد الدين سيقتل كما قتل من كان قبله، فأرسلوا بالفاضل إليه، وقالوا: لعله يقتل معه فنخلص من مزاحمته لنا ، فكان من أمره ما كان واستمرّ في الدولة ولم يزدد في كل يوم الا تقدّما بصدقه ودينه، وحسن رأيه رحمه الله .

وأنفذ العماد قصيدة طويلة تهنئة لأسد الدين أوّلها.

بالجد أدركت ما ادركت لا اللعب
كم راحة جنيت من دوحة التعب

يــا شيركــوه بــن شــاذي الملــك دعــوة مــن
نـــادى فعـــرّف خير ابـــن بخير أب
جــرى الملــوك ومــا حــازوا بــركضهــم
مــن المدى في العلى مــا حــزت بــالخبـب
تمل مــن ملــك مصر رتبـــة قصرت
عنهــا الملــوك فطــالــت ســائر الــرتـب
فتحـــت مصر وأرجـــو أن تصير بها
ميسرا فتــح بيــت القــدس عــن كثــب
قــد أمكنــت أســد الــديـن الفــريسـة مــن
فتــح البــلاد فبــادر نحــوهـــا وثــب
أنــت الــذي هــو فــرد مــن بســالتــه
والــديــن مــن عــزمـه في جحفــل لجب
في حلـق ذي الشرك من عـدوى سطاك شجـا
والقلــب في شجـــن والنفــس في شجــب
زارت بنـــي الأصفــر البيــض التــي لقيــت
حمر المنــايــا بها مــرفــوعــة الحجــب
وإنها نقـــد مــــن خلفهـــا أســـد
أرى ســلامتهـــا مــن أعجــب العجــب
لقـــد رفعنـــا إلى الـــرحمن أيـــدينـــا
في شكــرنــا مــا بــه الاســلام منــك حبــي
شكـــا إليـــك بنـــو الاســـلام يتمهـــم
فقمـــت فيهـــم مقــام الــوالــد الحدب
في كـــل دار مــــن الأفــرنــج نـــادبـــة
بها دهــاهــم فقــد بــاتــوا على نــدب
مــــن شر شــــاور انقــذت العبــاد فكــم
وكـــم قضيـــت لحزب الله مـــن أرب
هــو الــذي أطمــع الأفــرنــج في بلــد الــ
ـــإسلام حتــى سعــوا للقصــد والطلــب

وإن ذلــــك عنــــد الله محتســـب
في الحشر مــن أفضـل الطـاعـات والقـرب
أذلــه الملــك المنصـــور منتصرا
لما دعـا الشرك هـــذا قــد تعـــزز بي
ومـــا غضبــت لــديــن الله منتميـا
إلا لنيــل رضـــى الـــرحمن بـــالغضـــب
وأنـــت مـــن وقعـــت في الكفـــر هيبتـــه
وفي ذويـــه وقـــوع النـــار في الحطـــب
وحين سرت إلى الكفـــار فـــانهزمـــوا
نصرت نصر رســـول الله بـــالـــرعـــب
يـــا محيـــي الأمـــة الهادي بـــدعـــوتـــه
للـــرشـــد كـــل غـــوي منهـــم وغبـــي
لما سعيـــت لـــوجـــه الله مـــرتقبـــا
ثـــوابـــه نلـــت عفـــواً كـــل مـــرتقـــب
أعـــدّت نقمـــة مصر نعمـــة فغـــدت
تقـــول كـــم نكـــت لله في النكـــب
أركبـــت رأس سنـــان رأس ظـــالمهـــا
عـــدلا وكنـــت لـــوزر غير مـــرتكـــب
ردّ الخلافـــة عبـــاسيـــة ودع الـــــ
ـــدعي فيهـــا يصـــادف شر منقلـــب
لا تقطعـــن ذنـــب الأفعـــى وتـــرسلهـــا
فـــالحزم عنـــدي قطـــع الـــرأس كـــالـذنـــب

وقال العماد في الخريدة: أنشدني الحافظ أبو القاسم لنفسه وقد أعفى الملك العادل نور الدين قدّس الله روحه أهل دمشق من المطالبة بالخشب، فورد الخبر باستيلاء عسكره على مصر، فكتب إليه يهنيه

لما سمحـــت لأهـــل الشـــام بـــالخشـــب
عـــوضـــت مصر بما فيهـــا مـــن النشـــب

وإن بـــذلـــت لفتـــح القـــدس محتسبـــا
لـــلأجـــر جـــوزيـــت أجـــراً غير محتســـب
والأجـــر في ذلـــك عنـــد الله مـــرتقـــب
فيما يثيـــب عليـــه خير مـــرتقـــب
والـــذكـــر بـــالخير بين النـــاس تكسبـــه
خير مـــن الفضـــة البيضـــاء والـــذهـــب

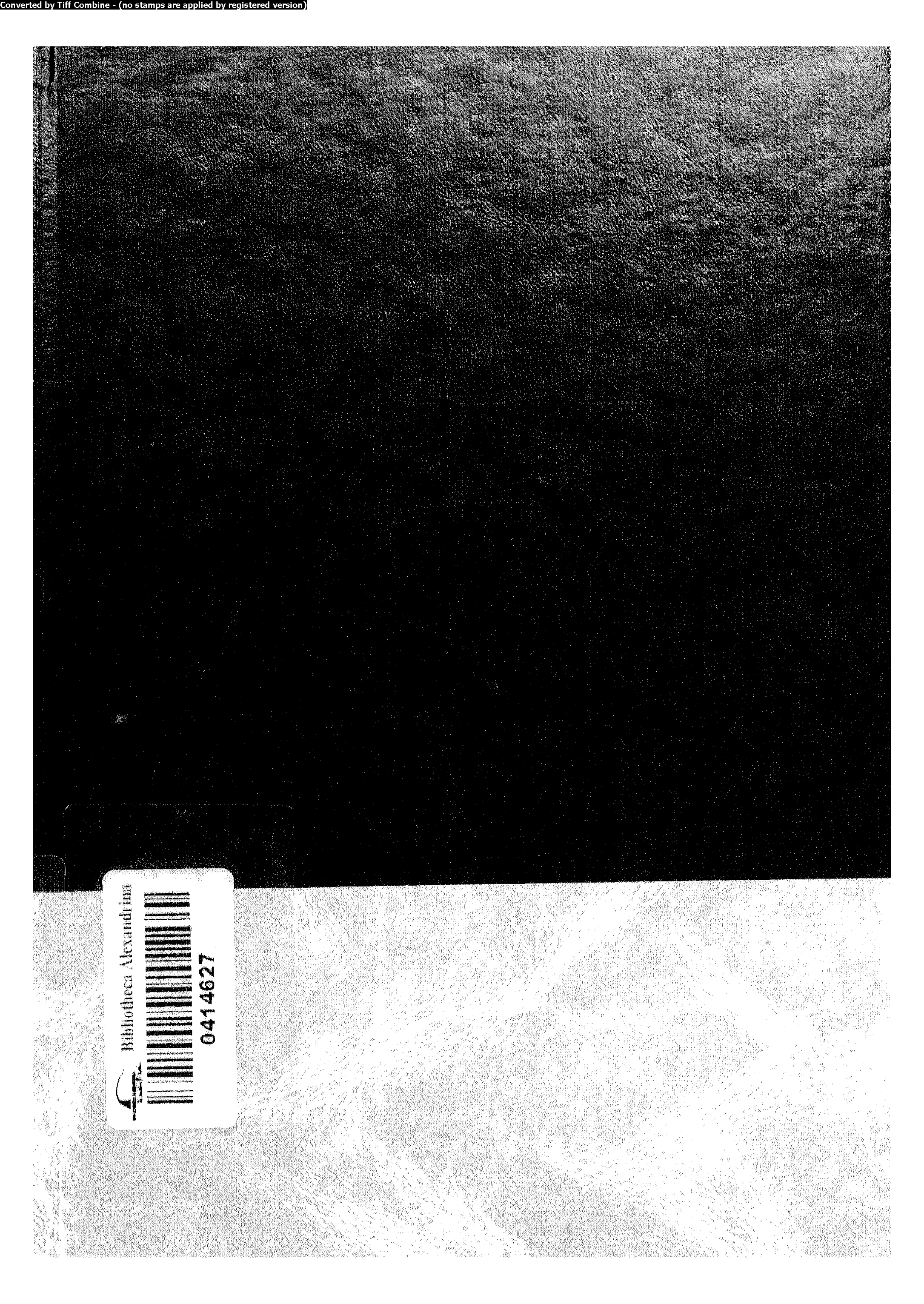
ولســـت تعـــذر في تـــرك الجهـــاد وقـــد
أصبحـــت تملـــك مـــن مصر إلى حلـــب
وصـــاحـــب الموصـــل الفيحـــاء ممتثـــلا
لما تـــريـــد فبـــادر فجـــأة النـــوب
فـــأحـــزم النـــاس مـــن قـــوى عـــزيمتـــه
حتـــى ينـــال بها العـــالي مـــن الـــرتـــب
فـــالجدّ والجدّ مقـــرونـــان في قـــرن
والحزم في العـــزم والإدراك بـــالطلـــب
فطهـــر المسجـــد الأقصـــى وحـــوزتـــه
مـــن النجـــاســـات والأشراك والصلـــب
عســـاك تظفـــر في الـــدنيـــا بحســـن ثنـــا
وفي القيـــامـــة تلقـــى خير منقلـــب(١٠٦)

المحتوى








Bibliotheca Alexandrina
0414627